المركز القومي للترجمة

ه.ج. ويلز

القصص القصيرة الكاملة

(3)

ترجمة: رؤوف وصفي

المشروع القومي للترجمة

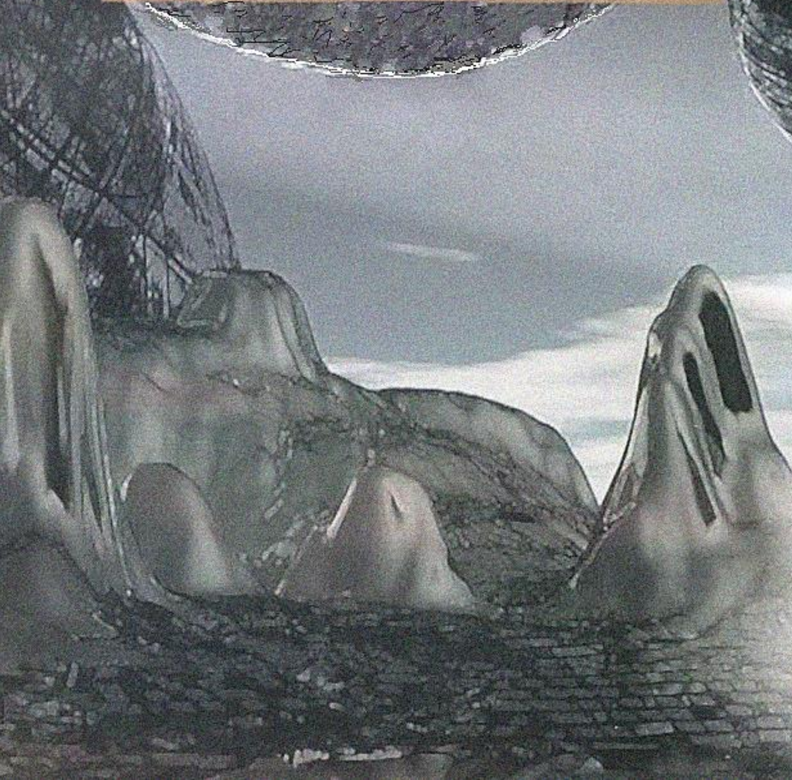

1818

سلسلة الإبداع القصصي

هـ . ج . ويلز

القصص القصيرة الكاملة

(٣)

ترجمة : رؤوف وصفى

2011

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1818
- القصص القصيرة الكاملة(٣)
- هـ . ج. ويلز
- رؤوف وصفي
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة:

The Complete Short Stories of H.G. Wells

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

ويلز، هربرت جورج، ١٨٦٦ ـ ١٩٤٩ .
القصص القصيرة الكاملة/ تأليف: هـ. ج. ويلز؛
ترجمة: رؤوف وصفى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ٢٠١١.
مج ٣ ؛ ٢٠سم. ـ (سلسلة ترجمة)
تدمك ٩ ٩٧٢ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
٢ ـ القصص القصيرة.
أ ـ وصفى، رؤوف. (مترجم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٧٨٩/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -972 - 9
ديوى٨٢٣

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

قصة العصر الحجرى 7
الرجل الذى يمكنه صنع المعجزات 101
فيلمر 131
المتجر المسحور 159
وادى العناكب 177
الحقيقة عن بيكرافت 197
السيد سكيلمر سدبل فى أرض الجنيّات 215
الشبح قليل الخبرة 239
منظار جيمى وإله الأساطير 259
المعجِّل الجديد 281
إجازة السيد لدبتر 305
الجثة المسروقة 331
كنز السيد (بريشر) 357
قلب الآنسة ونشيلسيا 371
حلم بمعركة أرمجدون 397

قصة العصر الحجرى

أولاً: (أوجلومى) و(يويا)

جرت أحداث هذه القصة فى زمن يسبق ذاكرة الإنسان، وقبل بداية التاريخ. ذلك الزمن الذى كان يمكن فيه الإنسان السير Dryshot من فرنسا (كما تسمى الآن) إلى إنجلترا، دون أن تبتل قدماه. حيث يتدفق نهر "التايمز" العريض والبطىء، عبر مستنقعاته، إلى أن يلتقى برفيقه الأكبر، نهر "الراين"، الذى ينساب خلال أراض واسعة مستوية، كانت تحت مستوى سطح الماء فى تلك الأيام الموغلة فى القدم، والتى نعرفها فى الوقت الحاضر، باسم "بحر الشمال". فى هذا الزمن البعيد، لم يكن هناك ذلك الوادى الذى يمتد على طول سفوح هضبات أو جبال "الداوتر". وكان جنوب مقاطعة (سُرّى)، عبارة عن سلسلة تلال مكسوة بأشجار "التنوب"، فوق المنحدرات الوسطى، تغطيها الثلوج فى أكثر أوقات العام. وأهم قمم هذه الجبال لا تزال قائمة، مثل (ليث هيل) و(بتش هيل) و(هيند هيل). وفى المنحدرات السفلى لهذه السلسلة من التلال، أسفل المساحات العشبية الخضراء، حيث ترعى الخيول البرّية،

كانت توجد غابات (الطَقْسُوس) و(الكستناء) و(الدردار)، والأدغال والأماكن المظلمة التى يختبئ بها الدب البنى والضبع، والقردة الرمادية التى تتسلق بصعوبة أفرع الأشجار. وفى مكان أكثر انخفاضًا وسط الغابات والمستنقعات، وقعت تلك الأحداث الدرامية التى نقوم بروايتها.

منذ خمسين ألف عام، إذا صدقت تقديرات علماء الجيولوجيا. وفى تلك الأيام من الماضى السحيق، كان فصل الربيع بديعًا دائمًا، كما هو الحال الآن. كانت السماء - وقت الأصيل - زرقاء وملبدة ببعض تجمعات السحب البيضاء التى تسبح عبرها، وتهَب الرياح الجنوبية الغربية فى لطف ونعومة وتطوّف طيور (السنونو) - القادمة حديثًا - هنا وهناك. وكانت الأجزاء المستقيمة من النهر مرصعة بأشجار (الحوذان) البيضاء، وبنباتات "قميص السيدة" مزدانة. وتنيرها نباتات (الخِطْمى) أينما أنزلت نباتات (السُعادى) أوراقها سيفية الشكل. وفى أعالى النهر شمالاً، على مرمى البصر، تتحرك حيوانات أفراس النهر بطريقة خرقاء وفى بطء شديد، وتشق طريقها فى المياه بجلبة ولكن بابتهاج. تتملكها فكرة واحدة وهى نثر وحل النهر على أجسامها.

وبجوار أفراس النهر، كانت ثمة حيوانات صغيرة ذات لون وردى، تخوض فى المياه، لم يكن هناك خوف أو مزاحمة أو عداوة بينها وبين أفراس النهر. وعندما كانت تلك الحيوانات الضخمة تشق طريقها محدثة ضجة عالية. بين نباتات البوص أو عندما تمزق سطح المياه - الذى يبدو كمرآة هائلة - إلى بقع فضية متطايرة، كانت تلك الحيوانات الصغيرة الوردية تصيح وتومئ برؤوسها فى

مرح. كانت هذه علامة مؤكدة على حلول فصل الربيع.. كانت تصدر أصواتٌ صاخبة مثل: "بولو" و"بابا"، من أطفال من قبائل البشر.. والدخان يتصاعد من مخيمهم المقام فوق الهضبة، التى تقع عند منحنى النهر، كانت عيون الصغار وحشية، وشعرهم متبلد وأنوفهم صغيرة ومفلطحة ووجوههم شيطانية الملامح، مغطاة ـ كما يفعل بعض الأطفال فى أيامنا هذه ـ بخصلات رقيقة من الشعر. كانت خواصرهم ضيقة ولكن أذرعهم كانت طويلة. ولم تكن لآذانهم "شحمات"، بل أطراف صغيرة مدببة، وهو شىء ما زلنا نراه حتى الوقت الحاضر فى بعض الحالات النادرة. وكان هؤلاء الأطفال عراة ومفعمين بالحيوية والنشاط، مثل القرود تمامًا. وكانوا يثرثرون بمواضيع تافهة وبكلمات قليلة وبسيطة وكان كبارهم يختبئون من أفراس النهر المتمرغة فى الماء خلف قمة الهضبة المدوّرة. المكان الذى كان يحتله بنو البشر، كان عبارة عن منطقة مليئة بأوراق نبات "السرخس" البنية اليابسة، وحيث تتعرض الأوراق النباتية فى هذا العام للضوء والحرارة.

النيران كانت تخمد وأصبح يصدر عنها دخان قليل دون لهب، بعد أن تفحَّم حطبها وصار رمادًا. ومن وقت لآخر، كانت السيدات المسنّات يجمعن أوراق النباتات البنية. ويدفعن بها داخل النيران. كان معظم الرجال نيامًا، وهم ينامون جالسين القرفصاء، واضعين جباههم فوق ركبهم. لقد نجح الرجال هذا الصباح، فى اقتناص صيد سمين عبارة عن غزال مصاب بجروح كثيرة، من جراء مطاردة كلاب الصيد له. وكانت بعض السيدات ما زلن يقضمن بأسنانهن العظام التى تبعثرت فى المكان. أما الأخريات فقد كن يجمعن أكوامًا

من أوراق النباتات والحطب وأفرع الأشجار، لإشعال النيران مرة أخرى أثناء الليل، عندما يحل الظلام. وكانوا يعتبرون هذه النيران (أخًا ناريًا)، قد يقوى ويزداد طولاً، ويصبح قادرًا على حمايتهم من وحوش الليل. وكانت سيدتان تكدسان حفنة من أحجار الصوّان. أحضرتاها من عند منحنى النهر، حيث كان الأطفال يلعبون. لم يكن أى من هؤلاء البدائيين الهمجيين - ذوى الجلد الوردى - يرتدى ملابسًا، بيد أن بعضهم كان يرتدى حزامًا من جلد الأفاعى غير المدبوغ حول خصره، ويتدلى منه أكياس صغيرة، ليست مصنوعة ولكنها انتزعت من أكف الحيوانات الضخمة من الثدييات.

وكانوا يحملون فى أيديهم أحجار الصوان، التى كانت بالنسبة للرجال أسلحتهم وأدواتهم الرئيسية. وكانت إحدى السيدات - وهى زوجة (يويا) الرجل الماكر - ترتدى عقدًا رائعًا من بقايا الأحافير المثقبة، ذلك العقد الذى ارتدته كثيرات قبلها.

وبجانب بعض الرجال الذين يغطون فى النوم، ترقد قرون ضخمة لأحد الأيائل، بعد كشطها لتكون حادة الأطراف، وعصىّ طويلة مقواة من طرفيها بقطع حادة من الصوان. ولم يكن هناك الكثير سوى هذه الأشياء، والدخان الكثيف الناتج عن نار بطيئة الاشتعال، لحماية هؤلاء البشر البدائيين من الحيوانات المفترسة التى تجوب أرجاء البلاد. ولكن (يويا) الماكر لم يكن نائمًا، بل ظل جالسًا، وبإحدى يديه قطعة كبيرة من العظم، وفى يده الأخرى حجر صوان يشحذ به العظْمة بنشاط وهمة. الأمر الذى لا يمكن لأى حيوان أن يفعله. كان (يويا) هو أكبر أفراد القبيلة، كث الحاجبين بارز الفكين، نحيل الذراعين مشعر الوجنتين، وله لحية،

وصدره وذراعاه أسودان، ينمو فيهما الشعر بكثافة. وبفضل قوته وبراعته وذكائه، أصبح سيد القبيلة دون منازع، ومن ثم كان نصيبه دائمًا الأكثر والأفضل.

وكانت (إيودينا) تختبئ بين الأشجار، لأنها كانت خائفة من (يويا). وكانت لاتزال فتاة عذراء، عيناها لامعتان وابتسامتها تبهج الناظر إليها. كان قد أعطاها قطعة من كبد رجل، وكان يحسن معاملتها إلى حد بعيد، أفضل معاملة يمكن أن تتلقاها فتاة من سيد القبيلة. وما إن أخذت (إيودينا) قطعة الكبد، حتى نظرت إليها المرأة الأخرى - التى كانت ترتدى العقد - شذرا، وأصدر (أوجلومى) صوتًا عاليًا من حلقه. وفى هذه اللحظة، نظرت له (إيودينا) التى كانت خائفة جداً. لذا انسلت بعيدًا أثناء عملية الغذاء، بينما انهمك (يويا) فى استخراج نخاع إحدى العظام وأكله. بعد ذلك أخذ (يويا) يتجول فى المكان باحثًا عنها. عندئذ كانت (إيودينا) رابضة بين أشجار "جار الماء" وهى تتساءل عما يفعله (يويا) بحجر الصوان والعظام. وفى هذا الوقت اختفى (أوجلومى) عن الأنظار.

حينئذ قفز سنجاب بين أشجار "جار الماء"، وكانت (إيودينا) ترقد فى هدوء، ولم يرها الرجل القصير إلا عندما أصبح على بعد ستة أقدام منها. وبسرعة اتجه ناحيتها وكسر ساق أحد النباتات، وبدأ يوبخها ويصرخ فى وجهها. وسألها غاضبًا: "ماذا تفعلين هنا بعيدًا عن الآخرين؟" أجابت (إيودينا): "أرقد فى سكون". ولكنه استمر يصرخ فى وجهها من جديد، فأخذت تقتلع أكواز النباتات السوداء، وتقذفه بها، فبدأ يراوغها ويتحداها. واستمرت هى فى قذفه بالأكواز السوداء، بحماس متزايد وبتركيز أدق، بعد أن نهضت من

مكانها. ثم رأت (يويا) قادمًا نحوها، من فوق الهضبة الصغيرة المدوّرة. عندئذ رآها (يويا) ولمح ذراعها الشاحب بين الأدغال، إذ كان يتمتع ببصر حاد للغاية.

فى هذه اللحظة، نسيت (إيودينا) السنجاب ـ الذى كان يمكن أن تأكله ـ وأطلقت ساقيها للريح، وأخذت تركض بأقصى سرعتها بين أشجار "جار الماء" ونباتات "البوص"، لم تكن تعرف إلى أين تذهب، كل ما كان يشغلها هو الهروب من (يويا).

غوّطت فى المياه حتى ركبتها فى منطقة مستنقعات، ورأت أمامها منحدرًا تنمو عليه أشجار "السرخس" التى يقل سُمْكُها وتزداد خضرتها كلما ابتعدت عن الضوء، ودخلت فى ظلال أشجار "الكستناء" حديثة النمو. وسرعان ما وجدت (إيودينا) نفسها بين الأشجار. أخذت تواصل الركض حتى بلغت الغابة، حيث يتسع الوادى وتعتلى عناقيد الكروم سيقانها ـ وحيث يأتى الضوء كثيفًا ـ كانت تبدو كأشجار حديثة النمو، كذلك شاهدت حبال "اللبلاب" السميكة القوية. واصلت طريقها وضاعفت من سرعتها مرة أخرى ثم تمددت أخيرًا وسط بعض أشجار "السرخس"، فى مكان مجوّف بالقرب من أحد الأدغال. وأخذت تنصت وصوت نبضات قلبها يدق فى أذنيها.

وسمعت صوت أقدام تقترب نحوه، تصاحبها أصوات حفيف أوراق الشجر الميتة. ثم ابتعدت تلك الأصوات حتى تلاشت تمامًا، وساد الهدوء من جديد، باستثناء مضايقات وطنين الذباب ـ حيث كان الليل يقترب ـ وهسيس الأشجار الذى لا ينقطع. وضحكت فى

نفسها، لأنها تمكنت من الاختباء عن أعين (يويا)، ولم تكن خائفة هذه المرة.

لقد كانت تلعب مع الفتيات الأخريات وبعض الصبية فى الغابة، ولكنها لم تتوغل أبدًا إلى هذا الحد. وشعرت بمتعة كبيرة، أن تكون مختبئة وبمفردها. وظلت راقدة هناك لمدة طويلة، سعيدة بهروبها، ثم استوت جالسة وأخذت تنصت. كانت ثمة أصوات سريعة ـ يزداد ارتفاعها ـ تقترب منها. أصوات قبع خنازير وقرقعة أغصان الأشجار، كان هذا قطيعًا من الخنازير البرّية النحيفة والضعيفة. استدارت (إيودينا) حول نفسها، إذ إن انطلاق خنزير برى قريبًا جدًا منها، أمر غير محمود العاقبة، بسبب الضربات الجانبية المؤذية لنابيه. فانطلقت بسرعة من المكان على الفور، وأخذت تعدو بتعريج بين الأشجار.

لم تكن الخنازير البرية تأكل وهى تندفع، وإنما تنطلق بسرعة فى طريقها، فى إثر الفريسة. أمسكت (إيودينا) بفرع كبير لشجرة ثم وثبت عليه وبدأت تتسلق إلى أعلى، فى رشاقة ومرونة القرود.

وعندما نظرت إلى أسفل، وجدت الظهور المكسوة بشعيرات حادة للخنازير، تمر بالفعل من تحتها. وأدركت (إيودينا) أن الأصوات القباعية القصيرة والحادة، تدل على أنها خائفة من شىء ما. ترى ما هذا الشىء؟ هل هو الإنسان؟ إن سرعة الخنازير البرّية تدل على أن ما يخيفها أكبر من مجرد إنسان. وفجأة ازدادت ـ لا إراديًا ـ قوة قبضتها على فرع الشجرة. واندفع من بين الأدغال ظبىٌ مذعورٌ ركض بين أشجار "السرخس"، ووراء قطيع الخنازير

البرية. ثم ظهر حيوان آخر رمادى اللون وذا جسد طويل. لم تكن (إيودينا) تعرف ما هو هذا الحيوان بالتحديد، إذ رأته فى لمحة من البصر وسط أوراق الأشجار، ثم ساد الصمت.

ظلت (إيودينا) متخشبة ومترقبة، وكانت متصلبة حتى لتحسبها جزءًا من الشجرة التى كانت تلتصق بها محدقة إلى أسفل. وبعيدًا وسط الأشجار شاهدت رجلاً يعدو. كان يظهر لها فجأة ثم يختفى ثم يظهر من جديد بوضوح وهو غاطس حتى ركبتيه بين "السرخس"، وسرعان ما يغيب عن ناظريها، وهكذا عرفت أنه الشاب (أوجلومى) بشعره الأشقر المميز، وكان وجهه يعلوه الاحمرار إلى حد ما. أثار هذا الهروب المحموم، وتلك العلامة الحمراء قلقها. ثم جاء شخص آخر يركض ويلتقط أنفاسه بصعوبة. فى البداية لم تتعرف عليه، ولكن اتضح لها بعد ذلك أنه (يويا)، يجرى بخطى واسعة وعيناه تلمعان ووجهه أبيض. لم يكن يطارد (أوجلومى) ولكنه كان خائفًا. مر من تحتها . وعندئذ ظهر لها حيوان آخر ضخم ذا فراء رمادى اللون، يجرى بخطوات سريعة فى ملاحقة (يويا).

تصلّب جسم (إيودينا) وتوقفت عن التنفس، وزادت من قوة قبضتها على فرع الشجرة الذى ترقد عليه، وجحظت عيناها. إنها لم تر هذا الحيوان الضخم من قبل، ولم تره بوضوح هذه المرة. ولكنها أدركت ـ على الفور ـ أن هذا الحيوان هو "الرعب" الذى يعيش فى الغابات. كان أسطورة يخيف الأطفال بعضهم بعضًا باسمه، بل ويخيفون أنفسهم به، ويركضون خائفين إلى مكان آمن يحتمون فيه. ولم يقتل إنسان أبدًا من قبل حيوانًا كهذا. حتى

حيوانات الماموث القوية، كانت تخاف من غضبه. إنه "الدب الرمادى"، سيد العالم فى ذلك الوقت.

عندما كان يجرى هذا الدب الرمادى، تهتز الأرض وتدمدم تحت أقدامه. لقد كان سيد الغابة والكهوف. ولسان حاله يقول "الرجال، الرجال، الرجال، القتال والدم. الرجال فى قبضتى وداخل عرينى. إننى أحب أن أقاتلهم وأشرب دماءهم". وبعد مروره بفترة، ظلت (إيودينا) فى مكانها كفتاة قدت من حجر، تحدق إلى أسفل من بين أفرع الشجر. تهاوت كل قوتها على الحركة، وأمسكت ـ بشكل غريزى ـ بيديها وركبتيها وقدميها.

ومضى وقت طويل حتى بدأت تستعيد السيطرة على نفسها وتحاول التفكير. الشىء الوحيد الذى اتضح أمامها وهداها إليه تفكيرها، أن "الرعب" يقف حائلاً بينها وبين قبيلتها، وأنه أصبح من المستحيل أن تهبط من الشجرة.

وعندما بدأ الخوف يتبدد من قلبها، بدأت تتسلق الأفرع والأغصان وتجلس فى وضع أكثر راحة، حيث يتفرع فرع كبير إلى قسمين. الأشجار العالية، تقف بينها وبين رؤية "الأخ النارى"، الذى يكون أسود فى النهار.

وبدأت الطيور تحوم، وأخذت الكائنات ـ التى اختبأت من الخوف ـ تخرج من مخابئها، وتسعى فى الأرض.

وبعد فترة من الوقت، توهجت أفرع الأشجار الطويلة، بفعل أشعة الشمس الغاربة. نظرت (إيودينا) إلى أسفل، حيث أصبحت الأشياء أكثر وضوحًا ولكن تكتنفها بعض الظلمة. فكرت فى العودة

إلى المكان الآمن الذى تعيش فيه، ونزلت مسافة ما من الشجرة. إلا أن الخوف المروّع من "ملك الغابة"، كان لا يزال يسيطر عليها. وبينما كانت فى حالة تردد، ظهر أمامها أرنب برى يصرخ بكآبة، فلم تجرؤ على الهبوط أكثر من ذلك.

وتكاثرت الأشباح المتحركة، وبدأ النشاط يدب فى أعماق الغابة. صعدت (إيودينا) فوق الشجرة من جديد، لتكون قريبة من الضوء. وفى الغابة تحتها، خرجت أشباح الكائنات من مكامنها، وأخذت تنتشر فى كل مكان. وفى الأعلى ازدادت زرقة السماء. وساد السكون المروّع من جديد. ثم بدأت أوراق الأشجار تتهامس لبعضها البعض.

أخذت (إيودينا) ترتعد، وخطر ببالها "الأخ النارى"، وبدأت الظلال تتكاثف بين الأشجار، وبدت الفروع والأوراق فى صورة تنذر بسوء، ثم تحولت إلى أشباح سوداء، قد تنقض عليها لو تحركت قيد أنملة. وطارت بومة بيضاء بالقرب منها، مخترقة دياجير الظلام. وملأت الظلمة الكون، حتى تحولت ألوان الأوراق إلى اللون الأسود، ولم يعد بالإمكان رؤية الأرض..

قضت (إيودينا) ليلتها فى هذا المكان.. كانت ليلة طويلة ـ تمتد بطول الزمن ـ لم تنم فيها، بل أخذت تنصت لسماع الأشياء التى تتحرك أسفلها فى الظلام. وبقيت ساكنة خشية أن يلمحها حيوان يتحرك خلسة.

لم يكن الإنسان ـ فى ذلك الوقت الموغل فى القدم ـ يعيش بمفرده أبدًا فى هذا الظلام، إلا فى حالات نادرة مثل هذه الواقعة،

وعصرًا بعد عصر، تعلم الإنسان من الحوادث المرعبة التى مرت به، وهذا الدرس لم نتعلمه نحن عندما كنا أطفالاً.

وعلى الرغم من أن (إيودينا) كانت فى عمر السيدات، إلا أن قلبها بقى مثل قلوب الأطفال الصغار، وبقيت ساكنة كأرنب برى، قبل أن يخيفه شىء ما.

تكاثفت النجوم وأخذت تراقب (إيودينا). وعلى ضوء النجوم الساطعة، تخيلت (إيودينا) شخصًا يشبه (أوجلومى) وبجواره (يويا) محمر الوجه ومتبلد الإحساس، وما إن انقضى الليل، حتى فر (أوجلومى) من أمامه، صاعدًا إلى السماء!

حاولت (إيودينا) أن ترى "الأخ النارى"، الذى يحرس المكان الآمن - الذى كانت تعيش فيه القبيلة - من الحيوانات الضارية، ولكنه لم يكن موجودًا.

وعلى مسافة بعيدة منها سمعت الأصوات المدوية لحيوانات الماموث، وهى فى طريقها إلى المكان الذى تشرب منه. وفجأة اندفع جسد ضخم، وأحدث صوتًا يشبه صوت العجل. ولكنها لم تتحقق من نوع هذا الحيوان.

بيد أنها اعتقدت - عندما سمعت صوته - أنه "يا" وحيد القرن الذى ينطح بقرنه الذى على أنفه، ويتحرك دائمًا بمفرده ويثور ويغضب دون سبب واضح. أخيرًا بدأت النجوم الصغيرة فى التلاشى، وبعدها النجوم الأكبر منها.

فالنجوم مثلها مثل كل الحيوانات، تختفى قبل قدوم "الرعب".

الشمس على وشك الشروق، إنها سيدة السماء كما أن الدب الرمادى هو سيد الغابة.

وتساءلت (إيودينا) عما قد يحدث لو ظل أحد النجوم فى السماء، التى شحبت توطئة لبزوغ الفجر.

وعندما يطل النهار، تذهب مشاعر الخوف من المجهول، ويمكنها عندئذ أن تهبط من فوق الشجرة إلى الأرض. كانت تتمتع بالثبات، ولكنها لم تكن قد تدربت على الأكل أو تناول الوجبات على الأقل مرة واحدة، خلال ثلاث ساعات، بل على العكس، اعتادت الصوم لثلاثة أيام، لهذا لم تشعر بالتعب من الجوع.

زحفت (إيودينا) بين الأشجار بحرص شديد، واتخذت طريقها فى الغابة خلسة، ولم يحدث أن قفز سنجاب أو فزع غزال، بيد أن الرعب من الدب الرمادى، أصابها بذعر حتى النخاع.

حينئذ تركزت رغبتها فى العثور على أهلها من جديد، وتبدّل خوفها من (يويا) الماكر بفزع أكبر من معاناتها من الوحدة. ولم تستطع تحديد اتجاه مقر معيشتها الآمن، فقد كانت تركض بلا هدف طوال الليل، فلم تعد تدرى ما إذا كان مقر معيشتها فى اتجاه الشمس أم غير ذلك، ودائمًا وأبدًا، تتوقف (إيودينا) وترهف أذنيها. وأخيرًا تسلل إلى أذنيها صوت صلصلة عن بعد. وأدركت أن هذا هو صوت الرجل الذى يحد حجر الصوان، ليصبح أكثر صلابة وأشد حدة.

بدأت الأشجار تصبح أقل كثافة، وظهرت مجموعة من نباتات "القرّاص". دارت جانبيًا ووصلت إلى شجرة تعرفها جيدًا، وسمعت

أصوات طنين النحل الذى يحوّم حولها. وسرعان ما بدا لها عند الأفق منظر الهضبة الصغيرة المدوّرة، التى بدت بعيدة جدًا عنها. وكان النهر يجرى أسفلها، والأطفال وفرس النهر يمارسون نشاطهم مثل البارحة، وعمود دخان يتأرجح فى نسيم الصباح. وبجوار النهر تظهر أشجار "جار الماء" الكثيفة، التى كانت تختبئ بينها. وما إن شاهدت هذا المنظر، حتى بدأ الخوف من (يويا) يعاودها. أخذت تزحف حتى وصلت إلى دغل أجمة السرخس، التى يتقافز بينها أرنب برى، ثم رقدت فى سكون لتراقب ـ عن بعد ـ مقر معيشتها الآمن.

كان معظم الرجال قد خرجوا للصيد، وبدأت (إيودينا) تشعر ببعض الأمان.

رأت عددًا من السيدات عند نهر صغير، يبحثن عن الرخويات البحرية والقواقع والرُّبيان "جراد البحر"، عندئذ شعرت (إيودينا) بأنها تتضور جوعًا. نهضت وأخذت تعدو وسط نباتات "السرخس" نحو السيدات لتلحق بهن. وفجأة سمعت حفيفًا بين الأغصان خلفها، فالتفتت مذعورة لترى (أوجلومى) يخرج من بين نباتات "السرخس". كانت هناك بعض القاذورات عالقة فوق وجهه، إلى جانب بقع دم بنية اللون، وكان الشرر يتطاير من عينيه، ويمسك بيده "الحجر الأبيض" الخاص بـ (يويا)، حجر النار الأبيض، الذى لا يجرؤ أحد أن يلمسه غير (يويا).

وفى لمح البصر كان واقفًا بجانبها ثم قبض على ذراعيها بقوة، ودفعها إلى الغابة. نادى بأعلى صوته قائلاً "(يويا)!" وأخذ يلوّح بذراعيه.

وسمعت (إيودينا) صراخًا وعويلاً، فنظرت خلفها بسرعة، وشاهدت كل السيدات واقفات، واثنتان منهن تخرجان من النهر الصغير، ثم اقترب شخص وهو يصرخ، ولوّحت المرأة - التى تراقب النيران فوق الهضبة - بذراعيها، ونهض (واو) الرجل الذى كان يسن حجر الصوان من جلسته، وأخذ الأطفال الصغار أيضًا يركضون ويصرخون.

صاح (أوجلومى): "تعالى معى!". وجذبها من ذارعها. كانت لاتزال غير مدركة الأمر. قال (أوجلومى): "لقد استدعى (يويا) كلمة الموت"، فنظرت (إيودينا) إلى الخلف، وعندئذ أدركت ما المقصود بهذه الكلمات.

اتجه كل من (واو) والنساء والأطفال نحوهما، وهم يتقافزون ويبكون ويصرخون، وفوق الهضبة أسرع شابان، ومن وسط نباتات "السرخس" - إلى اليمين - جاء رجل يركض فى اتجاه الغابة. ترك (أوجلومى) ذراعها، وبدأ الاثنان يجريان جنبًا إلى جنب ويتقافزان وسط "السرخس". كانت (إيودينا) تعرف أن الفرق فى اللياقة والسرعة، بينها وبين (أوجلومى)، فى صالحها تمامًا. لذا أطلقت ضحكة على هذا السباق غير المتكافئ.

وصلا إلى أشجار "الكستناء" من جديد، حينئذ لم يعتر أحدهما الخوف لأن كلاً منهما لم يكن وحيدًا. خففا من سرعتهما. وفجأة صرخت (إيودينا) وانحرفت عن مسارها المستقيم وهى تشير وتنظر إلى سيقان الأشجار، ومن بينها شاهد (أوجلومى) أقدام الرجال تركض فى اتجاههما. وكانت (إيودينا) قد أطلقت ساقيها للريح

بالفعل. وعندما حاول أن يلتف ويتبعها، سمعا صوت (يويا) يزأر بصوت أجش معبرًا عن غضبه منهما.

ملأ الرعب قلبيهما، ذلك الرعب المروّع الذى جعلهما سريعى الحركة وصامتين. وقف الجميع فى صفين فى اتجاهين متقابلين. ففى ناحية اليمين، بالقرب منهما كان الرجال الأشداء يقفون فى سكون ومعهم (يويا) ذو اللحية، وقرن أيل فى يده يتخذه كسلاح، وهو الذى كان يقودهم. وفى الجهة اليسرى، يقف (واو) ومعه نساء وأطفال صغار، اشتركوا فى المطاردة وتقاربت المجموعتان من بعضهما البعض، للإمساك بهما.

كانا يعرفان أنه لا رحمة بهما، فليس هناك صيد ألذ طعمًا - عند هؤلاء القوم القدامى - من لحم البشر. فبمجرد أن اشتعلت وتأججت الرغبة الوحشية للمطاردة، ذهب الضعف الإنسانى فى داخلهم أدراج الرياح. وكان (يويا) قد حكم على (أوجلومى) بالموت، ومن ثم أصبح فريسة هذا اليوم، و"الوليمة" المنتظرة.

أخذا يركضان فى خط مستقيم - لقد كانت فرصتهما الأخيرة - واقتلعا كل النباتات التى كانت تعوقهما. مرا بنباتات "القرّاص" والعشب المتكاثف حيث انطلق منه حيوان الضبع، ومن الأراضى الفضاء بالغابة إلى أرض مليئة بالحشائش وأشجار باسقة ومنحدر شديد. وبعدها منطقة مليئة بالطين الأسود ثم أرض فضاء واسعة مرة أخرى. وكانت المطاردة ما زالت حامية الوطيس. وظلت (إيودينا) تحتفظ لنفسها بالمركز الأول فى السباق! تركض برشاقة وتنفسها منتظم. وكان (أوجلومى) يتبعها ماسكًا بيده "حجر النار".

نظرت (إيودينا) خلفها، فوجدت (أوجلومى) يبعد عنها بعشرات الأمتار، و(يويا) يقترب منه، رافعًا قرن الأيل فى الهواء، توطئة لأن يسدده إليه.

أما (واو) والآخرون، فقد كانوا خارجين لتوهم من ظلال أشجار الغابة، إلى الساحة المفتوحة.

وعندما أدركت (إيودينا) أن (أجلومى) فى خطر. صرخت بأعلى صوتها وهى تنظر خلفها فى فزع، بمجرد أن رأت قرن الأيل. يطير نحوه. توقع (أوجلومى) ذلك، وعرف على الفور سبب صرختها، فانحنى إلى أسفل لتفادى الضربة، وبالفعل لم ينل القرن ـ الذى كان مندفعًا كالقذيفة ـ إلا جزءًا صغيرًا من فروة رأسه، مما أحدث جرحًا بسيطًا. التفت (أجلومى) خلفه، وقذف بالحجر النارى بكلتا يديه نحو (يويا)، الذى صرخ ولكنه لم يستطع تفادى الضربة، فأصيب اصابة بالغة تحت الضلوع وسقط على الأرض. أخذ (أوجلومى) قرن الأيل وعليه آثار دمائه. واستمر فى الركض وقطرات حمراء من الدم تتساقط من شعره. حاول (يويا) النهوض. إلا أنه فشل مرتين قبل أن ينجح فى المحاولة الثالثة بصعوبة بالغة. ولم يستطع بعد ذلك أن يواصل الجرى بسرعة، وتغيّر لون وجهه.

لحق به (واو) ثم الآخرون. كان يلتقط أنفاسه بصعوبة، لكنه استمر فى الركض والمطاردة.

وأخيرًا، وصل الهاربان إلى ضفة النهر، حيث كان التيار يجرى فى عمق وفى مساحة ضيقة. وكان بينهما وبين أقرب المطاردين ـ وهو (واو) ـ نحو خمسين ياردة، هذا الرجل الذى يصنّع الحجارة

القاتلة. كان يحمل ـ فى كلتا يديه ـ حجر صوان كبير، يشبه المحارة فى الشكل ولكن فى ضعف حجمها تقريبًا، وله حافتان حادتان مائلتان. قفزا إلى مياه النهر، وسبحا خلاله بسرعة فى اتجاه الضفة الأخرى، حيث أشجار الصفصاف المتكاثفة. خرجت (إيودينا) من الماء وصعدت إلى أفرع الأشجار الفضية. بينما ظل (أوجلومى) فى النهر، إذ كان قرن الأيل الذى يحمله، يعيق تقدمه. وصل (واو) إلى المكان، وبدأ يلقى بالحجر القاتل ببراعة، طال ركبة (إيودينا)، التى سارعت بالصعود إلى قمة الشجرة إلا أنها سقطت.

سمعا أصوات صياح، بعض المطاردين لبعض وخرج (أوجلومى) من النهر وصعد إليها، ثم أخذ يتحرك باستمرار ليفسد ما كان يهدف إليه (واو)، وحتى لا يكون هدفًا سهلاً. ألقى (واو) الحجر الثانى، فمسّ برفق أذن (أوجلومى). هبطا من الشجرة وأخذا يركضان، ولكن (إيودينا) كانت تعرج بسبب إصابة ركبتها وسقطت عدة مرات، فالتفت إليها (أوجلومى) وأخذ يصرخ فيها بوحشية وبوجه يرتسم عليه الغضب الشديد، بينما كان يلف قرن الأيل فوق رأسه. واستمرت (إيودينا) فى الركض، على الرغم من أنها كانت تعرج بين الخطوة والأخرى، حتى أصبح الألم شديدًا جدًا عليها.

وفى الوقت الذى كان يتشبث فيه (واو) بأفرع إحدى أشجار الصفصاف، انقض عليه (أوجلومى) فجأة وضربه بحد قرن الأيل، فسقط مصابًا فى النهر، وتخضّبت المياه بدمائه.

لم يكن بين الرجال الآخرين الذين كانوا يطاردون (أوجلومى) و(إيودينا)، رجل يتميز بالقوة الماحقة، حتى (يويا) كان يتميز بالمكر

والدهاء أكثر من القوة. توقف (يويا) وأخذ ينظر إلى (أوجلومى)، الذى وقف فوق أفرع شجرة صفصاف، والدماء تنزف من وجهه والفزع فى عينيه، كان يقف حائلاً بين (يويا) وبين الفتاة العرجاء، ممسكًا بيده قرن الأيل الضخم، الذى أخذ يلوّح به. بدا (أوجلومى) وكأنه شاب غطس فى الماء، وخرج منه رجلاً مكتمل الرجولة.

كان (أوجلومى) يعرف ما الذى وراءه. ساحة واسعة من الحشائش، ثم دغل بداخله يمكن أن تختبئ (إيودينا). كل هذا كان واضحًا فى ذهنه، على الرغم من أن قدراته العقلية كانت ضعيفة إلى حد ما، بالشكل الذى يفقده القدرة على التنبؤ بما قد يحدث بعد ذلك. كان (يويا) غارقًا حتى ركبتيه فى النهر، دون سلاح. فمه الضخم مفتوح ويظهر من خلاله أنيابه الحادة، وكان يلهث بعنف. وثمة كدمة فى جانب جسمه، وإصابة تحت شعره. وإلى جانبه وقف رجل، يحمل فى يده عصا مسنونة وحادة الأطراف. وجاء باقى "الصيادين" واحدًا تلو الآخر، وصعدوا إلى قمة الضفة مسلحين بأحجار من الصوان وعصى. ركض اثنان منهم على طول الضفة ثم اقتربا من الماء، حيث كان (واو) يصارع للوصول إلى السطح، وكان يبدو عليه الضعف والتعب الشديدين. وقبل أن يصلا إليه، سقط من جديد تحت الماء. اثنان آخران من الصيادين أخذا يهددان (أوجلومى) من ضفة النهر.

رد عليهم (أوجلومى) ببعض الصرخات والإهانات والشتائم وإشارات التهديد. وقف (يويا) مترددًا، يزأر من شدة غضبه ويضرب الماء بعنف بقبضة يده، ورجاله يتبعونه فى النهر.

حدّق (أوجلومى) إلى الخلف، ووجد أن (إيودينا) قد اختفت تمامًا، وسط الأدغال. لقد كان يقف فى انتظار (يويا)، لكن يويا فضل أن يبقى فى النهر، حتى يلحق به الآخرون ويكونوا بجانبه. كان التخطيط العسكرى للإنسان فى هذا العصر الموغل فى القدم، يعتمد على الجماعة فى خوض الحروب، حيث يقومون بمحاصرة الفريسة ثم الانقضاض عليها. شعر (أوجلومى) بأنهم على وشك الهجوم عليه. لهذا فقد قذف بقرن الأيل تجاه (يويا) وأطلق ساقيه للريح.

وعندما نظر (أوجلومى) خلفه من بين ظلال الأدغال، وجد ثلاثة فقط من مطارديه يتبعونه عبر النهر، ثم عادوا من حيث أتوا مرة ثانية. أما (يويا) - الذى كان فمه ينزف دمًا - على الجانب الأبعد من النهر، فكان يضع يده على جانبه. وظهر له الآخرون وهم يسحبون شيئًا ما إلى الشاطئ. وتوقفت المطاردة فترة من الوقت.

وقف (أوجلومى) ليراقب الموقف، وزمجر عندما شاهد (يويا) على البعد. ثم استدار وتوغل فى الأدغال، وسرعان ما لحقت به (إيودينا)، وبدأت رحلتهما يدًا فى يد. شعر (أوجلومى) بالأسى الشديد للآلام التى تعانى منها (إيودينا)، بسبب إصابة ركبتها، وبدأ فى اختيار أسهل الطرق ليسلكاه. استمرا فى السير طوال اليوم - ميلاً بعد آخر - بين الغابات والأدغال، حتى وصلا فى النهاية إلى الأرض الجيرية، والأراضى العشبية المفتوحة وأشجار الزان النادرة وأشجار "التامول" التى تنمو بالقرب من النهر، ثم شاهدا جبال "ويلدن" قريبة منهما، وقطعانًا من الخيول البرية ترعى معًا.

واصلا السير محتاطين للظروف والنتائج المحتملة، ومحتفظين بنفسيهما دائمًا بالقرب من الأدغال. لقد كانت هذه المنطقة غريبة بالنسبة لهما. وبدأت الأراضى فى الارتفاع، حتى ظهرت غابات "الكستناء" متسعة ومترامية الأطراف.

لم يكن يوجد أى إنسان فى ذلك المكان، إذ كان نادرًا ـ فى تلك العصور ـ ما يصل إنسان إلى هذه المنطقة، وبحلول المساء، عادا إلى مجرى النهر من جديد. وكان النهر يجرى فى مضيق بين الشواطئ ذات الصخور الجيرية. وكان هناك العديد من الطيور التى تحلق فوق أشجار "التامول" وتسلقا رصيفًا صخريًا حتى يجدا مكانًا مناسبًا ليقضيا فيه ليلتهما.

كانت هناك ندرة فى الطعام. ففى هذا الوقت من العام، لا ينمو التوت البرىّ، ولم يتسع لهما الوقت، حتى يجهزا فخًا لأحد الحيوانات. قضيا ليلتهما وهما يتضوران جوعًا، صامتين وقلقين ومتعبين، ولم يكن أمامهما إلا أكل الأغصان وأوراق الأشجار. لكن على سطح الرصيف الصخرى وجدا ـ فيما بعد ـ محارات وبعض بيض الطيور. ثم استطاع (أوجلومى) أن يصطاد سنجابًا. وهكذا تمكنا ـ أخيرًا ـ من إطعام نفسيهما والتغلب على الجوع.

ظل (أوجلومى) يراقب طوال الليل، واضعًا ذقنه فوق ركبتيه، وفجأة سمع صوت ثعالب صغيرة تعوى بشدة، وضجة حيوانات الماموث عند مضيق النهر، وصرخات الضباع، على البعد. كان الطقس قارس البرودة، ولكنهما لم يجرؤا على إشعال النيران. وحينما كان يغلب عليه النعاس، كانت روحه تلتقى بروح (يويا)،

فيتقاتلان. وكان دائمًا (أوجلومى) ـ فى الحلم ـ مصابًا بالشلل، فلا يستطيع أن يسدد الضربات أو أن يفر، ثم كان يستيقظ فجأة من نومه.

وتراءت الأحلام أيضًا للفتاة (إيودينا)، على شكل كوابيس مروعة، عن (يويا). لذا فقد كانا يفزعان من نومهما فجأة، يتملكهما شعور بالخوف من (يويا). ومع حلول الصباح، ومع أول ضوء للشمس، رأيا قطعان وحيد القرن التى يكسوها الصوف، تتجه نحو الوادى.

وفى الصباح داعب كلاهما الآخر، وشعرت (إيودينا) بالسعادة، وهى تستقبل أشعة الشمس، إلا أنها كانت ماتزال تتألم من ركبتها المصابة، ومن ثم ظلت فوق الرصيف الصخرى طوال اليوم. وعثر (أوجلومى) على أحجار صوان ضخمة، على سطح الرصيف الصخرى، أكبر من أى أحجار صوان شاهدها من قبل. جمع البعض منها وأخذ يسنّها ويشذبها، لاستخدامها كسلاح ضد (يويا)، عندما يأتى من جديد.

وفى وقت واحد، أطلق (أوجلومى) و(إيودينا) ضحكات مرحة من القلب. وصنع (أوجلومى) أداة للقتال، عبارة عن عصا طويلة فى نهايتها حجر صوان، وأخذ يتحرك هنا وهناك، وبيده هذه العصا يتوكأ عليها ويضرب بها الهواء، حتى شعر بالإرهاق، فألقى بها جانبًا. وفى الظهيرة، اعتلى (أوجلومى) جانب الرف الصخرى الأبيض، وأخذ يراقب جحور الأرنب البرية، لم يكن ثمة إنسان فى هذه المنطقة، ومن ثم فقد كانت الأرانب تتحرك

على حريتها. قذف (أوجلومى) بحجر صوان مدبب فسقط أرنب قتيلاً.

فى تلك الليلة، أشعل الرفيقان النيران باستخدام حجر الصوان وسعف النخيل، وظلا يتحدثان ويتسامران. وفى أحلامهما عادت روح (يويا) تأتى إليهما من جديد، وبينما كان (أوجلومى) يحاول القتال عبثًا ـ فى الحلم ـ وجد حجر الصوان فى يده، وضرب (يويا) به، فقتله. ثم جاءت أحلام أخرى عن (يويا) أيضًا وكلها تتعلق بالقتل، إذ كان لابد من قتله من جديد! بعد ذلك لم تحتفظ العصا بحجر الصوان الذى كان فى نهايتها. استيقظ (أوجلومى) مرهقًا ومكتئبًا، وظل عابس الوجه طوال ما بعد الظهيرة، على الرغم من عطف (إيودينا) عليه. وبدلاً من الصيد، جلس (أوجلومى) يسن حجر صوان ليجعله حادًا، وأخذ يختلس النظرات إلى (إيودينا) بشكل غريب. ربط العصا وحجر الصوان معًا بواسطة جلد الأرنب، ثم بدأ يتحرك ويضرب الهواء بالعصا مرة أخرى، وكل ما كان يشغل تفكيره هو كيفية القضاء على (يويا).

بعد عدة أيام، ربما خمسة أو ستة أيام، إذ لم يكن هناك عدّ فى ذلك العصر. ظل الرفيقان فوق الرف الصخرى عند مضيق النهر، وقد زال عنهما الشعور بالخوف من المطاردين، وكانت نيرانهما تشتعل ليلاً فى كل الأيام. وكان الاثنان سعداء بهذه الصحبة، فقد توفر لهما طعامهما اليومى بالإضافة إلى الماء العذب وليس ثمة أعداء. وتحسنت حالة ركبة (إيودينا) خلال يومين. فقد كانت جلود البشر فى تلك الحقبة من التاريخ تلتئم جراحها بسرعة. وفى الواقع، كان الاثنان يشعران بالسعادة البالغة.

وفى أحد الأيام، ظل الاثنان يقذفان الحجارة من أعلى الرف الصخرى إلى مياه النهر، فى سعادة ومرح. وفى اليوم التالى، بدا أنهما نسيا هذا المرح وتلك السعادة. تراءى لهما (يويا) فى أحلامهما من جديد، ليفسد عليهما جنتهما. وعلى مدى ثلاث ليال، يأتى (يويا) ليحارب (أوجلومى) فى منامه. وفى الصباح يستيقظ مكتئبًا، ويظل يسير هنا وهناك، يهدد (يويا) ، ويتوعده، ويطوّح بالفأس فى يده.

وذات ليلة استطاع (أوجلومى) قتل ثعلب ماء، واحتفل مع (إيودينا) بهذه المناسبة. ثم طلب (أوجلومى) من (إيودينا) أن تبقى فى انتظاره، إذ إنه سوف يغيب عدة أيام، وأخذ سلاحه وذهب.

ظلت (إيودينا) تجلس بمفردها أمام النيران لمدة يومين كاملين، وفى الليل كانت تنشط حركة الحيوانات الضارية فى الوادى. لكن لم يقترب منها أى حيوان مفترس. وكانت أحيانًا، تسمع زئيرًا - على البعد - لأسد يطارد الخيول البرية، التى كانت تتجه نحو الشمال، حيث الحشائش والمراعى الخضراء. كانت (إيودينا) فى حالة انتظار دائم، ذلك الانتظار الذى يشعرها بالألم.

وفى اليوم الثالث، عاد (أوجلومى) من عند النهر وعلى شعره بعض من ريش غراب أسود، وفى يده العقد الذى كانت ترتديه المرأة المفضلة عند (يويا). ولم تكن هناك أية إصابة فى جسد (أوجلومى) إلا جرح صغير تحت فكّه.

صاح (أوجلومى) بابتهاج "(يويا)". وأحست (إيودينا) بأن الأمور تسير على ما يرام.

وضع (أوجلومى) العقد حول رقبة (إيودينا)، وأخذا يأكلان ويشربان معًا. وبعد ذلك، بدأ يروى (أوجلومى) ما حدث بالضبط منذ البداية، عندما وقعت عينا (يويا) عليه لأول مرة، والقتال الذى دار بينهما فى الغابة، ومطاردة الدب لهما. لقد كانت المعركة الأخيرة شرسة للغاية، طعنات وصرخات.

وأخذت (إيودينا) تحدق فيه بإعجاب، ووجهها يشع نورًا وعيناها تلمعان، والعقد الذى صنعه (يويا) يلتف حول رقبتها. كان يومًا رائعًا بحق. وكانت النجوم - التى تطل علينا الآن - تطل عليهما أيضًا. وبالتأكيد فإن سلفينا هذين، فى عداد الموتى، إذ جرت أحداث هذه القصة قبل خمسين ألف عام.

ثانيًا: دب الكهف

فى الأيام التى فر فيها كل من (إيودينا) و(أوجلومى) من قوم (أويا) باتجاه الجبال التى تكسوها أشجار "التنوب" بالأراضى المجدبة عبر غابات القسطل الحلو والأراضى الطباشيرية التى تكسوها الأعشاب، أخفيا نفسيهما أخيرًا فى المضيق الصخرى الذى ينساب خلاله النهر بين المنحدرات الصخرية الطباشيرية حيث يندر وجود البشر وتتباعد كثيرًا أماكن إقامتهم. وكان أقرب البشر إليهم أفراد القبيلة التى تبعد عنهم بمسافة سفر لمدة يوم كامل بالنهر ثم صعود الجبال إليهم.

كان الإنسان هو الوافد الجديد حقًا إلى هذا الجزء من العالم فى الزمن القديم.. الذى بدأ ينتشر ببطء على طول الأنهار وتتوالد

منه أجيال بعد أجيال ويُغيِّر موطن إقامته بشكل مستمر متجهًا من الجنوب إلى الغرب. والحقيقة أن الحيوانات التى كانت تستوطن هذه الأراضى، مثل فرس النهر ووحيد القرن "الخرتيت" بوديان النهر.. والجياد التى تعيش فى السهول العُشبية.. والظباء والخنازير والقرود السمراء التى تعيش على أغصان الأشجار.. والماشية والدواب التى تعيش على الهضاب والمرتفعات.. كانت كلها لا تخافه ـ ناهيك طبعًا بحيوانات الماموث (الأفيال القديمة) فى الجبال وتلك الأفيال التى قدمت إلى تلك الأراضى فى موسم الصيف من اتجاه الجنوب. إذ لماذا تخافه وهو ليس لديه سوى أحجار صوان مشطوفة خشنة لا يعرف كيف يمسكها جيدًا، ويقذفها بضعف، وأيضًا الحراب الضعيفة التى يصنعها من سن أغصان الأشجار مثلها مثل كل الأسلحة التى يستخدمها ضد حوافر وبراثن وأسنان ومخالب الحيوانات الفتاكة؟

الدُّب (أندو) الضخم الذى يعيش فى الكهف أعلى المضيق الجبلى الذى ينساب النهر من خلاله لم ير قط من قبل رجلاً طوال حياته العاقلة المحترمة.. حتى كان فى منتصف الطريق فى إحدى الليالى عندما رأى وهج النار التى أوقدتها (إيودينا) فوق رف الصخور المنبسطة على الشاطئ ورأى (إيودينا) الحمراء المشرقة وأيضًا (أوجلومى).. وكذا خيال عملاق يقلده عاليًا على المنحدر الصخرى العالى أبيض اللون جيئة وذهابًا وهو يهز شعر عنقه الكثيف ويلوح ببلطة حجرية ـ أول بلطة حجرية صنعها الإنسان ـ بينما كان يُغنى فرحًا بقتله (يويا).

كان (أندو) عاليًا فوق المضيق الجبلى، ولم يلبث أن رآهما وهما يبتعدان وبلغت به الدهشة مبلغًا كبيرًا لدرجة أنه وقف ساكنًا فوق المضيق يتشمم الرائحة الجديدة لنباتات "السرخس" المحترقة.. وتساءل عما إذا كان الفجر قد بزغ فى المكان الخطأ!

كان (أندو) دب الكهف ملك الصخور والكهوف.. بينما كان أخوه الدب الرمادى أو الأسمر ملك الغابات الكثيفة بأسفل، والأسد الأرقط ـ إذ كان الأسد فى ذلك الوقت أرقط ـ ملك غابات الأشجار الشائكة وأحراش الأعشاب والغابات والسهول المفتوحة.. لكنه كان أكبر آكلات اللحوم كلها، لم يكن يخاف ولم يكن يجرؤ أحد على مهاجمته أو محاولة افتراسه.. فقط الخرتيت من بين كل الحيوانات كان أقوى منه.. وحتى فيل الماموث كان يتجنب اختراق منطقة نفوذه.

لذلك حيره هذا الغزو المفاجئ.. ولاحظ أن هذين الوحشين الجديدين كانا يشبهان القرود، بينما لهما شعر قليل على نحو يشبه الخنازير. وقال دب الكهف لنفسه: "قرود وخنازير صغيرة؟!.. عجبًا!.. لكن لعل الأمر ليس سيئًا جدًا.. وما هذا الشئ الأحمر الذى يقفز وذاك الأسود الذى يقفز معه أيضًا؟.. لم أر فى حياتى قط شيئين كهذين!".

أقبل ببطء على حافة الجُرف "المنحدر الصخرى" فى اتجاههما وتوقف ثلاث مرات لكى يتشمم الرائحة ويحدق فيهما جيدًا.. ووجد أن الدخان المتصاعد من النار يزداد قوة. وكان هناك اثنان من

الضباع يتابعان الموقف السفلى ذاته باهتمام. تحرك ببطء وسهولة حتى اقترب منهما كثيرًا جدًا قبل أن يدركا وجوده أو يدرك هو وجودهما. وبسرعة لاذا بالفرار لخوفهما منه. ومن على مسافة حوالى مائتى متر انعطفا فى طريقهما واستدارا وأخذا يشتمانه ويلعنانه لإخافته لهما.. وصرخا قائلين: "يا - ها!.. من الذى لا يستطيع حفر جحره بنفسه؟.. من الذى يأكل الجذور كالخنازير؟ .. يا - ها!"، ذلك أن الضباع فى تلك الأيام كانت لا تقل عدوانية عما هى عليه الآن.

زمجر (أندو) وقال لنفسه: "من الذى يهمه الرد على الضباع؟".. وأخذ يحدق فى ظلمة منتصف الليل إلى المخلوقين الغريبين، ثم اتجه إلى حافة الجُرف لينظر إليهما مليًا.. وكان (أوجلومى) ما زال يقص حكايته على (إيودينا)، بينما أخذت النار تضعف تدريجيًا بينما لاتزال رائحة الحريق ساخنة وقوية.

وقف (أندو) على حافة الجرف الطباشيرى لبعض الوقت، وهو ينقل وزنه الثقيل من على قدم إلى أخرى.. ويؤرجح رأسه يمينًا ويسارًا وفمه مفتوح وأذناه منتصبتان تختلجان ومنخارا خطمه الأسود الكبير يتشممان باستمرار. كان متعجبًا للغاية باعتباره دب الكهف، بل وأكثر عجبًا من أى دب آخر يعيش حاليًا.. وقد أثار فيه وميض النيران وحركات المخلوقين الغريبن غير المفهومة - ناهيك بتطفلهما على منطقة نفوذه التى لا يختلف عيها أحد - الإحساسَ بظهور أشياء جديدة وغريبة فى حياته. كان فى تلك الليلة يُطارد غزالاً صغيرًا - فقد كان دب الكهف صيادًا متنوع الفرائس - إلا أن ذلك الحدث العجيب صرف تفكيره مؤقتًا عن هذا المشروع.

سمع عواء الضباع خلفه: "يا ـ ها.. يا ـ ها ـ ها!".. لكنه لم يعرها انتباهه، ثم رأى ثلاثة أو أربعة منها تتحرك جيئة وذهابًا فوق التلال الرمادية وعندها قال لنفسه: "إنها سوف تظل تحوم حولى طوال الليل حتى أقتل واحدًا منها.. يالقذارة هذا العالم!".. وقرر أن يضايقهما بمواصلة مراقبة النار المشتعلة فى المضيق الصخرى حتى يُقبل الفجر وعندئذ تذهب الضباع اللعينة إلى مأواها.. ولكنها سرعان ما اختفت عن ناظريه وهو يسمع أصواتها وهى تبتعد متجهة إلى غابة أشجار الزان كمجموعة من المتسولين الذين يتطفلون على مأدبة لالتهام أى طعام بها.. غير أنها عادت متسللة مرة أخرى بالقرب منه.. وتثاءب (أندو) وسار على الجرف وهى تتبعه.. ثم توقف فجأة وعاد أدراجه.

كانت ليلة رائعة ترصع سماءها كوكبات من النجوم اللامعة، وهى نفس النجوم ولكن ليس فى نفس الكوكبات النجمية التى نعرفها الآن، لأنه منذ ذلك الوقت توفر لكل تلك النجوم الوقت اللازم لتحركها إلى أماكن جديدة تمامًا لها. وكان هناك بعيدًا جدًا وراء الأراضى مكشوفة، فى المكان الذى تتحرك وتعوى فيه الضباع النحيلة قوية الكتفين، غابة من أشجار الزان، حيث ترتفع المنحدرات الجبلية إلى بعيد ويسود الظلام والغموض وتظهر قممها البيضاء المغطاة بالثلوج باردة وواضحة لتلمسها أول أشعة صادرة من القمر بعد بزوغه.

كان السكون تامًا فى ما عدا الأوقات التى يرتفع فيها عواء الضباع مشكلاً نشازًا متلاشيًا وسط السكون والهدوء المخيم، أو

عندما تصدر فوق الجبال والتلال صرخات مدوية خافتة للأفيال الوافدة حديثًا ينشرها النسيم الهادئ. والآن خفت الوهج الأحمر بالأسفل وثبت على مستواه وأصدر لونًا أكثر حُمرة. ووقتئذ انتهى (أوجلومى) من سرد حكايته واستعد للنوم.. وجلست (إيودينا) وأنصتت إلى الأصوات الغريبة للوحوش المجهولة، ثم أخذت تراقب السماء الشرقية المعتمة وهى تضىء على استحياء تدريجيًا عقب بزوغ القمر. وتحت ـ بالأسفل ـ أخذ النهر يحدث نفسه فى همسات رقيقة، بينما تتحرك هنا وهناك أجسام خفية غير مرئية للأعين.

وبعد فترة مضى الدب لشأنه، لكنه سرعان ما عاد أدراجه بعد ساعة واحدة.. ولكن بعد أن خطرت على باله فكرة مفاجئة استدار وانطلق صاعدًا إلى أعلى المضيق الصخرى. وانقضى الليل ونام (أوجلومى) الليل كله، وارتفع القمر الآفل وأضاء الجرف الأبيض العلوى بضوء خافت يتسم بالغموض.. وبقى المضيق الصخرى فى ظلمة جزئية أشد وبدا كله مظلمًا.

بدأ الصباح يتسلل تدريجيًا فى إثر ضوء القمر.. وتجولت عينا (إيودينا) على حافة الجرف العالى مرة تلو أخرى. وفى كل مرة كان هذا الخط واضحًا وخاليا تجاه السماء، ومع ذلك أدركت بدرجة قليلة أن هناك جسمًا ما يكمن فى الخفاء. وازداد احمرار النيران عمقًا وتناثرت القشور والرواسب عليها، وازداد بالتدريج وضوح عمود الدخان الرأسى.. وبدأت تظهر الأشياء التى كانت خفية بأعلى وأسفل المضيق الصخرى وسط الاضاءة الشاحبة.. ولعلها نعست قليلاً لبعض الوقت.

وفجأة انتفضت واقفة من جلستها القرفصائية وانتصبت وانتبهت وأخذت تحدق باهتمام أعلى وأسفل الجرف.. لم يصدر منها أدنى صوت، ولم يلبث (أوجلومى) ـ الذى ينام نومًا خفيفًا كالحيوانات ـ أن استيقظ لفوره.. وأمسك ببلطته واقترب منها فى هدوء تام.

كان الضوء لا يزال خافتًا، والعالم كله مغلفًا بالسواد واللون الرمادى الداكن.. بينما يتحرك فى السماء ببطء نجم وحيد لا غير.. وكان الجرف الصخرى الذى يقفان عليه عبارة عن شريط صغير طوله ستة أمتار وعرضه متران وتنتشر عليه أعشاب قليلة وينحدر إلى الخارج وتنمو بالقرب من حافته حفنة من الأعشاب والحشائش. وبأسفل سطعت الصخور البيضاء الناعمة إلى بعيد على منحنى وعر تتكاثر عليه أشجار البندق السميكة المحدقة بالنهر. وعلى امتداد النهر ازداد هذا الانحدار، وبعد مسافة طويلة إلى بعيد بدأت الأعشاب الرفيعة تنمو بكثرة فيه حتى قمة الجرف. وبأعلى برزت كتلة من الصخور عرضها من ١٢ ـ ١٧ مترًا وسط كتلة ضخمة من الطباشير، ولكن فى نهاية الرف الصخرى كان هناك أخدود، عبارة عن شق عميق جدًا من صخور باهتة اللون، يقسم وجه الجرف.. ووفر ذلك مساحة تنمو عليها شجيرات قصيرة أخذ كل من (إيودينا) و(أوجلومى) يصعدان ويهبطان عليها.

وقفا ساكنين كغزالين جافلين ولديهما إحساس بتوقع شىء ما.. ولمدة دقيقة واحدة لم يسمعا شيئًا، ثم بدآ يسمعان صوت خشخشة

ضعيفة بسبب سقوط التراب فى الأخدود، وكذا صوت تكسر أفرع الأشجار.

قبض (أوجلومى) على البلطة وبدأ يتجه إلى حافة الرف الصخرى، لأن بروز صخور الطباشير بأعلى حجب عنه رؤية الجزء العلوى من الأخدود.. ولكن سرعان ما زادت دقات قلبه عندما رأى فجأة دب الكهف، فى منتصف المسافة التى تفصل بينه وبين حافة الرف الصخرى، وهو يتراجع بحذر شديد بقدميه الخلفيتين المسطحتين. كانت مؤخرته باتجاه (أوجلومى) وكان قابضًا بمخالبه فى الصخور والأشجار بحيث بدا مستلقيًا بجسمه على الجرف الصخرى.. ومع ذلك فقد نظر من فوق كتفيه، وكان فمه الضخم مفتوحًا بسبب الجهد المبذول فى حفظ جسمه الضخم فى هذا الوضع ولسانه ممتدًا إلى خارج فمه.. وبدا بدءًا من أنفه اللامع إلى ذيله القصير كأسد ونصف أسد، بطول رجلين تقريبًا.

وقف بثبات منتصبًا وتحرك ببطء واقترب منه مترًا، وقال (أوجلومى): "دُب" ونظر حوله ووجهه شاحب.. لكن (إيودينا)، التى كان الذعر مرتسمًا فى عينيها، أشارت إلى الجرف الصخرى بأسفل.

فغر (أوجلومى) فاه من الدهشة.. فقد وقف بالأسفل دب ضخم آخر أسمر اللون قدمه الأمامية متشبثة بالصخور.. كان ذاك هو الدبة، أنثى الدب الأول.. ولم تكن فى نفس ضخامته لكنها كانت بالقطع كبيرة جدًا.

أطلق (أوجلومى) فجأة صيحة عالية وسارع بجمع حفنة من أوراق نباتات "السرخس" المبعثرة على أرضية الرف الصخرى وألقاها وسط

الرماد الأسود للنار المتقدة. وصاح قائلاً: "خذ أيها الأخ النارى!.. خذ أيها الأخ النارى!".. وفى الحال أسرعت (إيودينا) وفعلت مثله قائلة : "خذ أيها الأخ النارى!.. النجدة، النجدة أيها الأخ النارى!".

كان أخاهما النارى ما زال قلبه متقدًا أحمر اللون، لكنه تحول إلى اللون الرمادى بعد أن ألقيا الأوراق عليه.. وصاح الاثنان: "أيها الأخ النارى!".. لكنه همس همسة خافتة ثم بعد ذلك تحول إلى رماد.. رقص (أوجلومى) من فرط الغضب وضرب الرماد بقضبته.. لكن (إيودينا) بدأت تحك حجر الصوان فى حجر النار، وأعينهما تتجه مرة تلو أخرى تجاه الأخدود الذى كان (أندو) يتسلقه.. أيها الأخ النارى!.

وفجأة بدأ ظهور المؤخرة الضخمة الوبرية للدب للعيان تحت الصخور الطباشيرية البارزة التى أخفته عن الرؤية قبل ذلك.. لكن رأسه ما زال غير مرئى، ثم سمعا دب الكهف يكلم نفسه: "ذلك الخنزير والقرود.. أظن أنه سيكون شهى الطعم".

قدحت (إيودينا) شراراة ونفخت فيها فاتقدت لفترة ثم خمدت تمامًا.. وعندئذ ألقت حجر الصوان والحجر النارى وحدقت فى المشهد الذى أمامها وهى مشدوهة.. ثم أطلقت ساقيها للريح وتسلقت بتعجل مترًا أو نحو ذلك إلى أعلى الجرف الصخرى فوق الرف الصخرى.. وأنا لا أعرف كيف تشبثت بالصخور للحظة واحدة، ذلك أن تلك الصخور الطباشيرية كانت رأسية ولا يمكن حتى لقرد التشبث بها.. وبعد ثانيتين فقط انزلقت وسقطت على الرف الصخرى مرة أخرى والدماء تنزف من يديها.

فى ذلك الوقت كان (أوجلومى) يندفع كالمجنون فوق الجرف الصخرى واتجه إلى الحافة ومنها إلى الأخدود. لم يكن يعرف ما الذى ينبغى أن يفعله، ولم يتوفر له الوقت آنذاك.. وبدت الدبة أصغر بكثير من أليفها الدب.. فإذا اندفع تجاههما مع بعضهما، فربما يعيش أحدهما.. وقال دب الكهف: "أوج؟!" واستدار (أوجلومى) مرة أخرى ورأى عينيه الصغيرتين تحدقان من تحت الصخور الطباشيرية البارزة.

جثمت (إيودينا) فى رعب فى نهاية الرف الصخرى وبدأت تصرخ مثل أرنب محاصر لا منجى له. وعندئذ أصابت (أوجلومى) فجأة نوبة من الجنون.. صرخ صرخة هائلة وقبض على بلطته واندفع باتجاه (أندو). وزمجر الوحش علامة على دهشته، وفى لحظة كان (أوجلومى) متعلقًا بشجيرة تحت الدب مباشرة وفى لحظة أخرى كان متعلقًا بظهره ونصفه مدفون فى وبره الكثيف، وإحدى قبضتيه قابضة بقوة على الشعر النابت تحت فكه الأسفل. وكان الدب مذهولاً للغاية من هذا الهجوم الخارق والمفاجئ بحيث إنه لم يفعل شيئًا سوى التشبث السلبى وهو فى مكانه.. وعندئذ تحركت البلطة - وهى بالمناسبة أول بلطة فى التاريخ - وضربته فى جمجمته.

حرك الدب رأسه بسرعة إلى الجانب الآخر وبدأ يزمجر ويدمدم بشكل فظيع.. كانت البلطة ضربته على بعد ٢ سم فقط من عينه اليسرى وسال الدم بغزارة حتى عمت تلك العين عن الرؤية تمامًا.. وعندئذ جأر الوحش بدهشة وغضب شديدين وعضت

أسنانه بقوة ولكن على بُعد ١٥ سم من وجه (أوجلومى).. ثم تلقى ضربة أخرى من البلطة أقرب من سابقتها وكانت ضربة قوية على جانب فكه.

الضربة الثالثة أعمت الجانب الأيمن من وجه الدب وزأر هذه المرة زئيرًا هائلاً من فرط ألمه.. ورأت (إيودينا) الأقدام الضخمة المسطحة وهى تنزلق وتنزلق وبسرعة قفز الدب قفزة خرقاء إلى أحد الأجناب كما لو كان يريد الوقوع على الجرف الصخرى.. ولاذ الدب الجريح بالفرار واختفى عن أنظارهما محطمًا بعض أفرع أشجار البندق.. وأطلق وهو يبتعد زمجرة متتابعة وأنينًا من شدة الألم الذى يعانى منه.

صاحت (إيودينا) وجرت إلى الحافة وحدقت إلى أسفل.. وللحظة واحدة كان الرجل والدب عبارة عن كومة واحدة.. ولكن (أوجلومى) بأعلى، ثم لم يلبث أن قفز قفزة كبيرة متخلصًا من الوحش.. وبدأ على الفور يتسلق الأخدود مرة أخرى.. وفى ذلك الوقت كان الدبان يتدحرجان ويصطدمان ببعضهما البعض وسط أشجار البندق. لكنه نسى بلطته بأسفل وكان بفخذه خدوش طويلة حمراء تنزف دمًا وتؤلمه بشدة.. وصاح: "فوق!" وفى الحال قادمت (إيودينا) الطريق إلى أعلى قمة الجرف الصخرى.

بعد نصف دقيقة كانا فوق قمة الجرف وقلباهما يدقان بصوت مسموع، بينما ابتعد (أندو) وأليفته إلى مكان بعيد تحتهما مما جعلهما فى أمان حاليًا. جلس (أندو) على مؤخرته وكلتا يديه تعملان فى محاولة سريعة غاضبة لإزالة العمى من عينيه.. بينما

وقفت الدبة على قوائمها الأربع بعيدة عنه بمسافة قليلة ومظهرها غاضب ومنزعج وتزمجر بغضب.. استلقى (أوجلومى) كلية على الأعشاب وجثم هكذا وهو يلهث وينزف وواضعًا وجهه على يديه.

نظرت (إيودينا) إلى الدبين للحظة واحدة ثم اقتربت وجلست بجواره وهى تنظر إليه فى حنان.. والآن مدت يدها برقة ولمسته وأصدرت صوتًا من حنجرتها كان هو اسمه.. استدار ورقد على ظهره ثم رفع جسمه على يده.. كان وجهه شاحبًا، مثل ذاك الذى ينتاب رجلاً مذعورًا للغاية.. ونظر إليها بثبات للحظة ثم فجأة انتابه الضحك وقال بابتهاج: "واه.. واه!".

ردت هى قائلة: "واه.. واه!" فى تعبير بسيط يدل على حدوث مناقشة أو حوار بينهما!.. ثم جاء (أوجلومى) وركع بجوارها وجثم على يديه وقدميه وحدق من فوق حافة الجرف وتفحص الأخدود.. ضربات قلبه انتظمت الآن وتوقف نزف الدم من ساقه، بالرغم من أن الخدوش التى أحدثتها الدبة بها كانت لاتزال مفتوحة وواسعة.. ثم جلس منتصبًا محدقًا فى آثار أقدام الدب الكبير الواصلة إلى الأخدود.. وكان عرضها مثل عرض رأسه وطولها ضعف ذلك.. قفز واقفًا على قدميه وجرى على سطح الجرف حتى رأى الرف الصخرى.. وهناك جلس لبعض الوقت يفكر بينما أخذت (إيودينا) تراقبه.. الآن تأكدت أن الدبين اختفيا تمامًا.

أخيرًا قام (أوجلومى) على هيئة رجل عقد عزمه على أن يفعل شيئًا معينًا. رجع باتجاه الأخدود، و(إيودينا) تسير بجواره تمامًا وتسلقا الحيد (الجرف الصخرى) معًا. أخذا حجر النار وحجر

الصوان.. ثم سار (أوجلومى) إلى سفح الجرف الصخرى بحذر شديد وعثر على بلطته. استدارا راجعين إلى الجرف بهدوء قدر إمكانهما ثم لم يلبثا أن هرولا مسرعين. لم يعد الجرف الصخرى مأوى لهما بعد أن تأكدا من وجود رفقة خطيرة لهما عليه. وأمسك (أوجلومى) بالبلطة و(إيودينا) بحجر النار.. وكان هذا بمثابة ارتحال بسيط فى العصر الحجرى الأول.

تحركا فى اتجاه أعلى النهر، رغم أن ذلك قد يؤدى بهما إلى عرين أو كهف دب الكهف، حيث لم يكن أمامها طريق آخر ليسلكاه.. ففى اتجاه مجرى النهر توجد قبيلتهما.. تُرى ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم يقتل (أوجلومى) (يويا) و(واو)؟ .. وعمومًا كان عليهما أن يسيرا بمحاذاة النهر حتى يمكنهما أن يشربا وقت اللزوم.

وعلى ذلك سارا خلال أشجار "الزان".. وأخذ الأخدود يزداد عمقًا حتى مفيض النهر.. حيث ينحدر النهر محدثًا زبدًا كثيرًا على ارتفاع ١٧٠ مترًا أسفل منهما. والحقيقة أنه من بين كل الأشياء التى تتغير فى عالمنا هذا المتسم بالتغير نجد أن مسارات الأنهار فى الوديان العميقة هى أقلها تغيرًا. كان هذا نهر "وى" الذى نعرفه حاليًا بنفس هذا الاسم. وسارا فى نفس الأماكن التى يوجد فيها الآن (جيلفورد) و(جودالمنج) ـ وهما أول بشريين يظهران على الأرض ـ ومرة واحدة أخذ قرد رمادى يبربر ثم ما لبث أن اختفى.. وعلى طول حافة الجُرف الصخرى الواسع المستوى تمتد آثار أقدام دب الكهف الضخم.

عندئذ ظهرت آثار أقدام من على الجرف الصخرى، واعتقد (آوجلومى) من ذلك أن الدب قدم من مكان ما إلى اليسار.. وبعد أن سارا بمحاذاة حافة الجرف وصلا الآن إلى نهاية المشوار.. ووجدا نفسيهما ينظران إلى أسفل إلى فضاء واسع نصف دائرى نشأ من انهيار الجرف الصخرى.. فقد تحطمت صخور الجرف وسقطت عبر الأخدود وسدت المياه فى اتجاه تدفقها من أعالى النهر إلى الوراء فى بركة تفيض فى تدفق سريع، وهذا الانهيار حدث من وقت طويل جدًا. ونمت الأعشاب على الصخور المنهارة، إلا أن وجه الجرف الصخرى المرتفع حول نصف الدائرة ما زال يبدو أبيض نضر اللون والشكل كما كان تقريبًا فى اليوم الذى حدث فيه الانهيار. وبدا بوضوح فى سفح الجرف وجود فتحات لكهوف كثيرة. ولما وقفا هناك ونظرا إلى هذا الفضاء الواسع شعرا بعدم الرغبة فى الابتعاد عنه.. لأنهما ظنا أن مخبأ الدب الضخم يقع فى مكان ما إلى اليسار فى الاتجاه الذى عليهما أن يتحركا فيه.. شاهدا فجأة أولاً دبًا واحد ثم اثنين يصعدان المنحدر العشبى إلى اليمين ويتجهان عبر الأرض المنحدرة باتجاه الكهوف. كان (أندو) يسير أولاً.. لكن قدمه الأمامية تتحرك بصعوبة قليلاً ومظهره العام ينم عن القنوط والضيق.. وخلفه تسير الدبة وهى تجر قدميها جرًا.

عادت (إيودينا) و(أوجلومى) أدراجهما من الجرف الصخرى إلى حيث يوجد مكان يمكنهما أن يريا منه الدبين من على الحافة. ثم توقف (أوجلومى).. وجذبت (إيودينا) ذراعه، لكنه التفت إليها وعليه سيماء بغيضة وسقطت يدها.. ووقف (أوجلومى) يراقب الدبين وهو

ممسك ببلطته في يده حتى اختفيا داخل الكهف. زمجر برقة ولوح ببلطته باتجاه ملجأ الدبة. وفوجئت (إيودينا) أنه بدلاً من الزحف معها فقد تمدد مستلقيًا على بطنه وزحف إلى الأمام في هذا الوضع بحيث يستطيع أن يرى بالكاد الكهف. ورغم أنهما كانا دبين، إلا أنه بدا كمن يراقب أرنبين لا أكثر!

تمدد ساكنًا ككلب وحيد لوحته الشمس في ظل الأشجار العالية، وأخذ يفكر.. وكانت (إيودينا) تعرف ـ منذ أن كانت طفلة صغيرة ـ أنه عندما يكون (أوجلومى) هكذا ساكنًا وواضعًا ذقنه على قبضته، فإن أشياء جديدة تبدأ في الحدوث.

انقضت ساعة قبل أن ينتهي من التفكير.. وكان القمر بازغًا عندما اتخذ البشريان البدائيان طريقهما إلى حافة الجرف الصخري الذي يطل على كهف الدببة. وطوال فترة العصر الطويلة بذلا مجهودًا خارقًا في دحرجة صخرة طباشيرية ضخمة ـ لا يساعدهما شيء سوى قوة عضلاتهما ـ من الأخدود الذي كانت عالقة فيه كسن "ملخلخة" باتجاه حافة الجرف.. وكان قطرها حوالي مترين وبلغ طولها خِصر (إيودينا)، وكانت حادة الزوايا ومسننة كحجر الصوان. وعندما غربت الشمس كانت مستقرة على بُعد ثمانية سنتيمترات من الحافة وفوق كهف الدب الكبير مباشرة.

وفي نفس الوقت دارت في الكهف محادثة ضعيفة طوال فترة العصر. الدبة نامت وهي متكدرة في ركنها ـ فقد كانت مغرمة بالخنزير والقرد ـ بينما قبع (أندو) مشغولاً بلعق جانب مخلبه

وترطيب وجهه لتلطيف جروحه والتهاباته. بعد ذلك سار وجلس فى هدوء بفتحة الكهف.. وأخذ يُحدق بعينين شبه مغمضتين فى شمس آخر النهار بعين كليلة واستسلم للتفكير.

وتكلم أخيرًا قائلاً: "إننى لم أروَّع هكذا طيلة حياتى.. إنهما أغرب وحشين قابلناهما.. كيف يجرؤان على مهاجمتى؟!".

قالت الدبة وهى جاثمة وسط الظلام من خلفه: "إننى لا أحبهما أيضًا".

إنه نوع ضعيف من الوحوش لم أره من قبل.. لا أستطيع أن أعرف ما الذى سيحل بهذا العالم.. إن لهما ساقين مكشوفين وهزيلين.. وإننى أتعجب كيف لهما أن يبقيا دافئين فى أيام الشتاء الباردة؟

قالت الدبة: "الأرجح أنهما لا يدفآن قط".

أغلب ظنى أنهما قردان حدث لهما خلل ما، أليس كذلك؟

قالت: "نعم، إنه تغيير أو خلل من نوع ما لا نعرفه".. ثم ساد الصمت بينهما لفترة من الوقت.. وقال (أندو): "التفوق الذى حققه علىّ اليوم كان مؤقتًا.. مثل هذه الأشياء تحدث دائمًا كما تعرفين".

قالت الدبة: "نعم، ولكننى لا أفهم لماذا تركته يفلت من بين يديك.. ياللعجب!".

هذا الأمر نفسه تمت مناقشته من قبل والآن انتهى تمامًا.. وباعتبار (أندو) دبًا ذا خبرة فقد بقى ساكنًا لبعض الوقت.. ثم

استأنف الحديث بعد تغيير موضوع المناقشة: "إن له مخلبًا غريبًا نوعًا ما.. مخلبًا طويلاً يبدو لك أولاً فى كف ما ثم بعد فترة فى الكف الأخرى!.. كما أنه مخلب واحد فقط.. يبدو أنه شىء مثل مخلب قديم للغاية.. والشىء المدهش أيضًا أن له بريقًا ينتشر فى السماء فى ضوء النهار، إلا أنه يقفز من مكان إلى آخر.. إنه شىء يستحق الرؤية فعلاً.. كما أنه شىء له ساق أيضًا مثل العشب عندما تهزه الرياح".

قالت الدبة: "لكن هل يعض؟.. أقصد أنه إذا كان يعض فمعنى ذلك أنه ليس نباتًا".

قال (أندو): "لا.. لا أعرف بالضبط.. لكنه غريب بلا شك".

"إننى أعجب هل لحمهما لذيذ الطعم؟".

قال (أندو): "يبدو لى ذلك" ـ وبدأ لعابه يسيل ـ إذ إن دب الكهف، مثله مثل الدب القطبى، كان آكلاً عتيدًا للحوم.. ولا يتناول قط الجذور أو العسل. واستغرق الدبان فى التفكير لبعض الوقت، ثم واصل (أندو) الاهتمام بعينه المصابة. وازداد ضوء الشمس على أعالى المنحدر الأخضر أمام مدخل الكهف دفئًا وسخونة حتى أصبح لونه أصفر ضاربًا إلى الحُمرة.

قال دب الكهف: "إن هذا النهار غريب جدًا.. والجو ساخن جدًا على ما أعتقد.. ولا يصلح للصيد قط.. إن الجو يحيرنى دائمًا.. وأنا لا أشم جيدًا جدًا فى النهار". لم تجبه الدبة، لكنهما سمعا صوتًا ينسحق أو ينطحن فى الظلام.. وتحركت قليلاً فى رقودها،

بينما تثاءب (أندو) وقال: "حسنًا!" ثم سار إلى مدخل الكهف وأخَّر رأسه قليلاً ليدرس موقف الأرض المنحدرة أمامهما.. ووجد أنه مضطر لتدوير رأسه كلية ليتمكن من رؤية الأشياء على يمينه.. لا شك أن تلك العين سوف تتحسن غدًا وتصبح على ما يرام.

تثاءب مرة أخرى.. ثم سمع قرعًا خفيفًا بأعلى.. وفجأة سقطت صخرة طباشيرية كبيرة من على وجه الجرف الصخرى على مسافة متر واحد من أنفه، وأخذ يحملق ببلاهة فى ست قطع متناثرة منها.. وأحس بذعر شديد من هذا الحدث.

عندما استعاد رباطة جأشه، ذهب قريبًا من مكان السقوط وأخذ يتشمم باهتمام الأجزاء المتفتتة من القذيفة الساقطة.. وكان لها رائحة مميزة تذكره بشكل غريب بالحيوانين القذرين على الجرف الصخرى.. وانتصب جالسًا وتحسس بمخلبه الكتلة الكبيرة فيها، ودار حولها عدة مرات فى محاولة منه للعثور على أى مخلوق فى مكان ما من الجوار.

وعندما أقبل الليل ذهب يتجول على مضيق النهر ليرى ما إذا كان بمقدوره إبادة الساكنين هناك.. لكن الجرف الصخرى كان خاليًا ولا توجد أى آثار للشىء الأحمر، ولكن لأنه كان جائعًا إلى حد كبير فإنه لم يتلكأ هناك كثيرًا فى تلك الليلة.. وشرع فى مطاردة غزال صغير أحمر اللون.. ونسى مؤقتًا موضوع الحيوانين القذرين.

وجد غزالاً ولكن الظبية (أم الغزال) كانت قريبة، دافعت دفاعًا مستميتًا عن صغيرها.. واضطر (أندو) لصرف النظر عن الغزال..

ولكن لأن دماء الظبية سالت، فقد أصرت على مواصلة القتال.. وأخيرًا ضربها بمخلبه على أنفها بقوة ومن ثم قضى عليها.. وهكذا توفر له لحم كثير ولكنه غير شهى جدًا.. وتبعته الدبة وشاركته فى الغداء.

والغريب فعلاً أنه فى عصر اليوم التالى سقطت صخرة بيضاء ثانية وتحطمت بالضبط مثل سابقتها. أما فى اليوم الثالث فقد كان تصويب الصخرة الساقطة الثالثة أفضل بكثير.. واصطدمت بجمجمة (أندو) الغبية بصوت تردد صداه فى أعالى الجرف الصخرى.. وتطاير الفتات الأبيض فى كل الاتجاهات بدون استثناء.. وبسرعة هرولت الدبة وراءه وتشممته بفضول شديد ووجدته جاثما وممددًا فى وضع غريب جدًا ورأسه مبتل وتشوه شكله.. كانت دبة شابة وليس لها تجارب كثيرة فى الحياة، ولذلك بعد أن تشممته لبعض الوقت ولعقته قليلاً مرة تلو أخرى، قررت أن تتركه حتى تتحسن حالته ومزاجه وذهبت للصيد طلبًا للغذاء بمفردها.

بحثت عن الغزال ابن الظبية الحمراء التى أكلاها منذ ليلتين ووجدته.. لكنها كانت تصطاد بمفردها بدون (أندو)، ولذلك رجعت خائبة وخاوية الوفاض إلى كهفها قبل بزوغ الفجر. كانت السماء رمادية وملبدة بالغيوم، والسماء أعلى المضيق الصخرى سوداء وغير مألوفة.. وجال بخاطرها إحساس غامض بحدوث أشياء غريبة موحشة.. ورفعت صوتها منادية على (أندو) باسمه.. بيد أن جوانب المضيق الصخرى رددت بوجوم صدى نداءاتها.

عندما اقتربت من الكهف رأت وسط الضوء الخافت وسمعت اثنان من أولاد (آوى) يجريان وبعد ذلك مباشرة عوى ضبع وانطلق عشرة من الأجسام الخرقاء تهرول إلى أعلى المنحدر، ثم توقفت وأخذت تزمجر بسخرية.. وحملت الريح صياحًا لضباع: "ملك الصخور والكهوف.. يا ها.. يا ها!".. وفجأة ازدادت حدة الإحساس بالرعب لدى الدبة.. وما لبثت أن انطلقت تجرى عبر الأرض المنحدرة الواسعة.. وتكرر عواء الضباع: "يا ها.. يا ها!".

دب الكهف لم يكن ممددًا فى نفس الوضع، لأن الضباع كانت مشغولة تمامًا معه، وفى مكان ما كانت ضلوع صدره بيضاء.. ومن حوله كان الفتات المحطم للصخور الطباشيرية الثلاث متناثرًا فى كل مكان على الأعشاب والمروج.. وكان الهواء مشبعًا برائحة الموت.

توقفت الدبة تمامًا.. فحتى الآن لم يكن بمقدورها تصديق حقيقة أن (أندو) قُتل.. ثم سمعت بأعلى صوتًا ما.. صوتًا غريبًا يشبه إلى حد ما عواء الضبع ولكنه أطول وأعمق قليلاً.. نظرت إلى أعلى ولأن عينيها تكادان لا تشعران بضوء الفجر فقد كان أنفاها يرتجفان.. وهناك على حافة الجرف الصخرى العالى جدًا فوقها بدا أمام خلفية الفجر الوردى الساطع مخلوقان صغيران أشعثان مستديران ومعتمان.. رأسا (إيودينا) و(أوجلومى)، وهما يصيحان فى سخرية منها.. رغم أنها لم ترهما جيدًا فقد كان بمقدروها سماعهما، وبسرعة بدأت تفهم وفى نفس الوقت تخاف.. ودب فى قلبها شعور جديد بأن خطرًا داهمًا على وشك أن يلحقها.

بدأت تتفحص الفتات المحطم للصخور الطباشيرية المتناثرة حول (أندو).. ولفترة قصيرة وقفت ساكنة، تنظر فيما حولها وتصدر صوتًا خافتًا مستمرًا يقترب من الأنين أو العويل.. ثم عادت أدراجها إلى (أندو)، وهى غير مصدقة لما حدث، فى محاولة أخيرة منها لإيقاظه.

ثالثًا: أول فارس فى التاريخ

فى الأيام التى سبقت (أوجلومى) لم يحدث سوى القليل جدًا من المشاكل بين الجياد والبشر.. إذ كانا بعضهما يعيش بعيدًا عن البعض.. البشر فى مستنقعات وأدغال الأنهار، والجياد على المرتفعات العشبية فيما بين أشجار الكستناء وأشجار الصنوبر. وبين كل حين وحين يظهر فرس يبدو أنه ضل طريقه وسط المستنقعات المسدودة لتناول وجبة طازجة، وأحيانًا تعثر القبيلة على إحداها.. حيث تقوم بقتل "الأسد" وطرد أبناء (آوى) بعيدًا عنهم من أجل الاستمتاع بوليمة شهية أثناء وجود الشمس فى كبد السماء.

كانت جياد الزمن القديم خرقاء الحركة فى مؤخرتها، سمراء أو رمادية اللون بذيل خشن ورأس كبير.. وكانت تأتى هذا المكان كل ربيع متحركة فى اتجاه الشمال الغربى إلى الريف بعد قدوم العصافير وقبل قدوم أفراس النهر.. حيث تنمو رقعات الأعشاب والحشائش على المنخفضات الواسعة وتصل إلى أطوال كبيرة.. وكانت تأتى حتى ذلك الوقت فى أعداد قليلة، يضم كل قطيع منها فحلاً ذكرًا وفرسين أو أكثر ومهرًا واحدًا أو نحو ذلك، وله منطقة

نفوذ خاصة به.. ثم لا تلبث أن تنصرف مغادرة المكان عندما تصفر أشجار الكستناء وتهبط الذئاب من فوق جبال "ويلدن".

كان من عادتها أن ترعى فى الأراضى المكشوفة، ولا تحتمى بغطاء إلا عندما تشتد حرارة النهار.. وهى تتجنب رقعات النباتات الشوكية وأشجار "الزان"، وتفضل بدلاً منها مجموعات الأشجار المتناثرة التى تخلو من أى كمائن بحيث يصعب الإيقاع بأى منها.. لم تكن مؤهلة قط للقتال، وإنما كانت حوافرها وأسنانها للعراك مع بعضها فقط.. ولكن فى المناطق الريفية المكشوفة وبمجرد بدء ظهورها لا يمكن لأى مخلوق الاقتراب منها.. رغم أن الأفيال قد تكون فعلت ذلك إذا شعرت أنها مضطرة إليه.. وفى تلك الأيام بدا الإنسان مسالمًا وغير مؤذٍ بالمرة.. لكن لم تكن مخلوقات تلك الأيام لها من الذكاء والتوقع ما يخبرها بالعبودية الرهيبة التى أوشكت أن تلحق بها على يد ذلك الإنسان.. من جراء تعرضها للسوط والمهماز واللجام والأحمال الثقيلة والشوارع الزلقة والطعام القليل والحظائر الضيقة التى ستحل قريبًا محل الأراضى العشبية الفسيحة والحرية التامة المتاحة على سطح الأرض.

لم يكن (أوجلومى) ولا (إيودينا) رأيا الجياد عن قرب فى مستنقعات "ويى"، لكنهما الآن يريانها كل يوم أثناء قيامهما برحلات قنص من ملجئهما على الرف الصخرى فوق المضيق الصخرى حيث يتعاونان معًا فى البحث عن الفريسة ومطاردتها.. وكانا قد عادا إلى الجرف الصخرى بعد قتل الدب (أندو)، لأنهما لم يكونا يخشيان من الدبة الأنثى.. والحقيقة أن الدبة هى التى بدأت تخشاهما، وكلما شمت رائحتهما سارعت بالابتعاد عنهما.

كان الاثنان يتحركان معًا، لأنهما منذ أن تركا القبيلة لم تكن (إيودينا) امرأة (أوجلومى) بقدر ما كانت رفيقته، بل انها تعلمت أن تصطاد بقدر ما يمكن لأى امرأة.. كانت بالفعل امرأة استثنائية.. وكان بمقدور الرجل أن يرقد لساعات فى مراقبة أحد الوحوش أو التخطيط لعملية صيد مثل أى رجل بينما ترقد بجواره وعيناها ترقبانه ولكن بدون أن تضايقه أو تزعجه.. يا لها من امرأة رائعة حقًا!

وعلى قمة الجرف الصخرى كانت هناك مناطق عشبية مكشوفة وغابات من أشجار الزان.. ومن خلال غابات أشجار الزان يمكن الوصول إلى حافة مساحات شاسعة من الأراضى العشبية المتموجة حيث يمكن رؤية الجياد من بعيد.. وهنا عند حافة الأشجار ونباتات "السرخس" تكثر الأرانب البرية.. ووسط سعف النخيل وأوراق "السرخس" يجثم (أوجلومى) و(إيودينا) والأحجار التى يقذفون بها جاهزة بجوارهم، إلى أن تظهر تلك المخلوقات الصغيرة لكى تقضم أوراق الأشجار وتلهو فى ضوء الشمس الغاربة.. وبينما تجلس (إيودينا) ساكنة كالتمثال تراقب الجحور الكثيرة، فإن عينىْ (أوجلومى) تجولان عبر المروج والأشجار باحثة عن تلك المخلوقات الرائعة أثناء رعيها.

كان إلى حد ما يقدر جمالها ورشاقتها ومرونتها.. وعندما تأفل الشمس وقت الغروب وتتبدد حرارة النهار، تنشط تلك المخلوقات ويبدأ بعضها فى مطاردة بعض والصهيل والجرى هنا وهناك وهز خصلات شعر أعناقها وهى تلف فى منحنيات واسعة وأحيانًا قريبة

جدًا لدرجة أن وطئها للمروج والأعشاب كان يهدر كأصوات الرعد.. وكان منظرها جميلاً لدرجة أن (أوجلومى) ود للغاية أن يشاركها لهوها.. ومن وقت إلى آخر قد يتمرغ أحدها على الأعشاب ويضرب أو يرفع حوافره الأربعة إلى السماء، ورغم أن ذلك كان شيئًا رائعًا فعلاً، إلا أنه كان أقل إغراء له.

جالت فى خاطر (أوجلومى) تصورات غامضة وهو ينظر، وبفضلها عاش أرنبان لمدة أطول.. وعندما نام كانت تلك التصورات أكثر وضوحًا وجرأة، إذ كان ذلك هو ما يحدث فى تلك الأيام.. وحلم بأنه اقترب من الجياد وقاتلها وضرب حوافرها بأحجار الصوان، إلا أنها تحولت وقتئذ إلى بشر، أو على الاقل إلى بشر لهم رؤوس الجياد، ثم استيقظ مبللاً بعرق غزير من شدة الخوف.

وفى صباح اليوم التالى بينما كانت الجياد ترعى، ابتعدت إحدى الأفراس ورأت (أوجلومى) قادمًا بعيدًا عن الريح.. وفجأة توقفت كلها عن الأكل وأخذت تراقبه.. لم يكن (أوجلومى) قادمًا باتجاهها، وإنما كان يسير بميل عبر المنطقة المكشوفة وينظر إلى أى شئ فى العالم سوى الجياد.. وكانت ثلاث أوراق "سرخس" قد اشتبكت بجدائل شعره مما أكسبه شكلاً غريبًا جدًا.. وكان يسير ببطء، وقال قائد الجياد: "ما الذى يحدث هنا بحق الجحيم؟".. وكان هذا القائد قويًا ولكنه يفتقر إلى الخبرة.

ثم أدرف: "إن نصفه الأمامى يشبه حيوانًا أكثر من أى شىء آخر فى هذا العالم.. نعم، إذ له أربع أرجل بدون مؤخرة بالمرة!".

قال أكبر الأفراس: "إنه لا شيء سوى أحد تلك القرود الوردية البلهاء.. لعلهم نوع من قرود النهر.. وحسب ما أعلم فإنهم منتشرون فى السهول والوديان".

واصل (أوجلومى) سيره المائل.. وفجأة خطر للفرس الكبيرة أن هذا المخلوق ليس له أى هدف قط، وقالت بسرعة وعصبية: "ياللأحمق!"، وواصلت رعيها.. وهنا حذا قائد القطيع والفرس الثانية حذوها.. وقال المهر المخطط: "انظروا!.. إنه يقترب منا".

أحد المهور الصغيرة تحرك فجأة، وهنا قعد (أوجلومى) القرفصاء وجثم يراقب الجياد باهتمام.. وبعد قليل أدرك تمامًا أنها لا تريد القتال وأيضًا لا تريد الفرار.. ولذلك بدأ يفكر فى خطوته التالية. لم يشعر بدافع سريع للقتل، لكن بلطته كانت فى يده وكان موقفه يتسم باللهو والمرح.. وفى نفس الوقت أخذ يبحث كيفية قتل أحد تلك المخلوقات الجميلة الضخمة!

كانت (إيودينا) تلاحظه بإعجاب وخوف وهى محتمية تحت أشجار "السرخس"، والآن رأته يتحرك زاحفًا على يديه وقدميه.. بيد أن الجياد كانت تفضله ذا قدمين بدلاً من ذوات الأربع، وهنا رفع الحصان القائد رأسه وأصدر أمره بالتحرك. وظن (أوجلومى) أن الجياد راحلة نهائيًا.. ولكن بعد أن عَدَتْ لدقائق لم تلبث أن استدارت عند منحنى واسع وقفت لتستريح وهى ناظرة إليه.. ثم عندما أخفاه مرتفع أرضى، تشكلت الجياد فى طابور يتقدمه الحصان القائد.. واقترب منه الطابور فى شكل حلزونى.

فى الوقت الذى كان يجهل فيه قدرات وإمكانات الجواد كانت الجياد أيضًا تجهل إمكاناته وقدراته.. وبدا فى تلك المرحلة أنه يشعر بالخوف.. وكان على دراية بأن هذا النوع من التسلل ربما يدفع الظباء الحمراء أو البقر لمهاجمته لو استمر هذا الوضع.. ولذلك رأته (إيودينا) وهو يقفز واقفًا ويبدأ فى السير باتجاهها وهو ممسك فى يديه بريشات "السرخس".

وقف وابتسم ابتسامة عريضة ليريها أن الموضوع كله كان مجرد مرح ولهو، وأن ما فعله كان بالضبط ما خطط له منذ البداية!.. وهكذا انتهت تلك الواقعة، غير أنه أخذ يفكر بعمق طوال ذلك اليوم.

فى اليوم التالى أخذ ذلك المخلوق القذر الأحمق ذو الشعر الكثيف على عنقه كالأسد يتلصص حول الجياد مرة أخرى بدلاً من الذهاب للرعى أو الصيد، وهو الشىء الذى يناسبه أكثر. ومكثت الفرس الكبيرة ساكنة تنظر إليه فى احتقار، ثم قالت: "أعتقد أنه يريد أن يتعلم شيئًا ما منا.. إذن دعوه وشأنه". وفى اليوم التالى فعل نفس الشىء، ووقتها قرر الحصان القائد أنه لا ينوى إلحاق أى أذى بهم وأن شأنه لا يعنيهم.. بيد أن الحقيقة كانت أن (أوجلومى) ـ أول إنسان يشعر بجاذبية وسحر الحصان الذى نشعر به حتى يومنا هذا ـ يهتم بهم اهتمامًا كبيرًا جدًا.. وكان مفتونًا بهم بدون تحفظ.

وأخشى أنه كان هناك لديه قدر ضئيل من حب المعرفة وسبر غور المجهول، ولذا أراد أن يكون قريبًا من هذه الحيوانات ساحرة الشكل.. ثم بدأت تلح عليه فكرة قتلها.. هذا بالطبع إذا سمحت له

بالاقتراب منها أصلاً!.. ووجد أنها وضعت حدًا فاصلاً بينها وبينه على مسافة ثلاثة عشر مترًا تقريبًا، فإذا اقترب منها أكثر من ذلك فإنها تبتعد على الفور بشموخ.. وأظن أن الطريقة التى أعمى بها الدب (أندو) هى التى جعلته يفكر فى القفز فوق ظهر أحدها.. ولكن بالرغم من ظهور (إيودينا) فى المنطقة المكشوفة بعد فترة ثم قيامهما معًا ببعض التلصص غير المزعج، فقد توقفت الأمور عند هذا الحد.

وفى يوم لا ينسى خطرت على بال (أوجلومى) فكرة لا بأس بها.. فالحصان ينظر إلى أسفل وأمامه فقط، لكنه لا ينظر إلى أعلى أبدًا.. لا يوجد حيوان ينظر إلى أعلى، لأن لديها الكثير من التعقل والفطرة السليمة!.. ذلك أن المخلوق الرائع الوحيد ـ الإنسان ـ هو الذى يضيع وقته وطاقته بالنظر إلى السماء.. ولم يقم (أوجلومى) بأى استنتاجات فلسفية ولكنه تصور أن هذه هى حقيقة الأمور.. ولذلك قضى يومًا فى شجرة زان بالمنطقة المكشوفة بينما قامت (إيودينا) بالتلصص على الجياد.. والمعتاد أن الجياد تدخل تحت الأشجار طلبًا للظل عندما تشتد الحرارة فى فترة ما بعد الظهيرة، لكن فى هذا اليوم كانت السماء ملبدة بالغيوم ولذلك لم تستظل كعادتها بالرغم من إغراء (إيودينا) لها بذلك.

وبعد يومين بالضبط تحقق لـ (أوجلومى) ما أراد. كان النهار حارًا جدًا والذباب الكثير يفرض نفسه فى مكان.. وتوقفت الجياد عن الرعى قبل منتصف اليوم ولجأت إلى الظل أسفل منه ووقفت فى ثنائيات وراء بعضها وهى تخفق بذيولها.

اقترب الحصان القائد بفضل حافريه القويين من الشجرة.. وفجأة سمع صوت حفيف وصرير وارتطام مكتوم.. وعلى الفور ضربت قطعة صوان مسنونة وجنة الجواد.. تعثر الجواد القائد ووقع على إحدى ركبتيه ولكنه سرعان ما وقف مرة أخرى.

وانطلق يجرى مسابقًا الريح.. وامتلأ الهواء بأصوات حركات أرجله السريعة ووقع أصوات قفزاته على قائمتيه الخلفيتين وزنجرة أنفيه التحذيريتين.. وارتفع (أوجلومى) فوق ظهر الحصان لمسافة ٣٠ سم فى الهواء ثم هبط إلى أسفل ثم ارتفع مرة أخرى لأعلى وهكذا.. واصطدمت بطنه بقوة ثم قبضت ركبتاه على شىء ما بينهما، ووجد نفسه قابضًا بركبتيه وقدميه ويديه ومنطلقًا بسرعة كبيرة جدًا ويتأرجح بعنف فى الهواء.. وطارت بلطته إلى مكان لا يعلمه إلا الله، وشعر بغريزة حب البقاء تقول له: "أمسك بقوة" وفعل ذلك بالفعل.

كان شاعرًا بالكثير من الشعر الخشن فى وجهه، وبعضه دخل فى فمه وبين أسنانه، وأخذت الحشائش تتطاير أمام عينيه.. ورأى كتف الحصان القائد عريضًا وناعمًا، وعضلاته تتحرك بسلاسة وقوة تحت جلده.. وأدرك فجأة أن ذراعيه تحوطان عنق الحصان، وأن النخعات العنيفة التى يتعرض لها ذات طابع إيقاعى منتظم.

بعد قليل وجد نفسه وسط سيقان أشجار تمرق بسرعة من على جانبيه، ثم انتشرت من حوله أوراق أشجار "السرخس" ثم جاء المزيد من الحشائش والأعشاب.. ثم مرق من حوله شلال من الحصى الكبير وتدفقات من الحصى الصغير المتطاير جانبيًا منه

من جراء ضربات الحوافر السريعة.. وبدأ (أوجلومى) يشعر بغثيان شديد ودوار فى رأسه، لكنه لم يكن من ذلك الطراز الذى يستسلم ببساطة لمجرد أنه يشعر بعدم الارتياح!

لم يجرؤ على إرخاء أو ترك قبضته، لكنه حاول جعل نفسه أكثر راحة.. خفف قبضته من على عنق الحصان وبدلاً من ذلك أمسك بشعر عنقه.. ثم زحزح ركبتيه إلى الأمام ودفعهما إلى الوراء واتخذ وضع الجلوس على البطن العريض للحصان.. كان ذلك عملاً اتسم بالقلق والعصبية، لكنه نجح فى ذلك.. وأخيرًا جلس منفرج الساقين بارتياح على ظهر الحصان متقطع الأنفاس وغير مطمئن لما يمكن أن يحدث له.. غير أن الارتطام المخيف لجسمه قلَّ كثيرًا على أى حال.

وببطء بدأ شتات عقل (أوجلومى) يتجمع ويعمل بانتظام مرة أخرى.. بدت سرعة انطلاقه مروعة، غير أن نوعًا من الابتهاج بدأ يطرد أول خوف هستيرى ألم به.. ومرق الهواء بجواره سريعًا وعذبًا وجميلاً، وتغير إيقاع وقع حوافر الجواد وعاد إلى طبيعته مرة أخرى.. كانا الآن فوق الأعشاب والحشائش مرة أخرى، فى أرض فضاء واسعة تحف بها أشجار الزان إلى مئات الأمتار على كلا الجانبين، ثم شريط من الأرض العشبية الخضراء النضرة التى تكثر بها الزهور الوردية اللون ويتلوى فيها جدول من الماء فضى اللون فى المنتصف هنا وهناك.. ومن بعيد لمح واديًا أزرق اللون.. وزادت بهجته، وكان ذلك أول تذوق للإنسان لسرعة الحركة.

ثم مرا برقعة فضاء فسيحة تمرح فيها الظباء السمراء فى كل مكان.. ثم اثنان من أبناء (آوى) أخطآ وظنا (أوجلومى) أسدًا وأخذا

يطاردانه.. وعندما أدركا أنه ليس أسدًا استمرا فى مطاردته بدافع الفضول.

أخذ الجواد يواصل انطلاقه وتملكته فكرة واحدة، هى الهروب، وفى الخلف ابنا (آوى) وآذانهما منتصبة ويبربران بأصوات عواء غامضة.. قال أولهما: "من منهما سيقتل الآخر؟" .. قال الثانى: "الوحش الراكب سوف يقتل الحصان" .. ثم أطلقا عواء المتابعة لهما، وأجابهما الحصان مثلما يستجيب الحصان اليوم لمهماز راكبه.

استمرا يعدوان كشلال منطلق فى يوم هادئ.. وجفلت منهما الطيور كما أجبرا بعض المخلوقات المجهولة على الاحتماء بسرعة فى مخابئها.. وأثارا أسرابًا من ذباب القاذورات الغاضب وحطما الكثير من الزهور الصغيرة الجميلة وأعاداها إلى أعشابها الأم فى التربة.. ثم تكاثرت الأشجار مرة أخرى وأخذا يرشان ويطرطشان الماء عبر سيل من الماء المتدفق.. وعندئذ انطلق أرنب برى من الأعشاب تحت حوافر الحصان القائد.. وهنا تركهما ابنا (آوى) بعد أن فقدا الاهتمام بهما.. ولذلك نجدهما الآن يخترقان المناطق المكشوفة.. وهى عبارة عن رقعة واسعة من منحدرات التلال العشبية، وهى نفس المنحدرات العشبية التى تقع الآن شمال إقليم (إبزوم ستاند).

مضى الآن وقت طويل منذ أول رجة عنيفة للحصان القائد وأصبح الآن يجرى جريًا منتظمًا، وبالرغم من أن (أوجلومى) كان مصابًا برضوض وكدمات لا يعرف ماذا سيحدث لها فقد كان فى حالة من البهجة الغامرة.. والآن حدث تطور هام، فقد تباطأت

سرعة السير مرة أخرى ولف الحصان القائد فى منحنى قصير ثم توقف تمامًا.

انتبه (أوجلومى)، وتمنى لو كان حجر الصوان معه، ذلك الحجر الذى يقذفه وكان يحمله فى سير جلدى حول وسطه غير أنه فقده فى مكان لا يعلمه إلا الله.. وأدار الحصان القائد رأسه حتى رأى (أوجلومى) عينه وأسنانه.. فدفع ساقه فى وضع تشبث قوى بالحصان وضرب وجنة الحصان بقبضته، وبسرعة انخفضت الرأس بعيدًا عن ناظريه وتقوس الظهر الذى يقبع فوقه فى شكل قبة.. وهكذا أصبح (أوجلومى) شيئًا ملتفًا حول نفسه ودفعته غريزته مرة أخرى إلى التشبث بركبتيه وقدميه، غير أن رأسه بدأ يتزحزح باتجاه الحشائش.. وتحجرت أصابعه وهى تلتف حول خصلات شعر عنق الحصان التى أنقذت حياته.. وقل انحدار الأرض الجاثم عليها ثم.. صاح (أوجلومى) فى دهشة: "هوبا".. ثم بدأ الانحدار يزداد فى الناحية الأخرى.. لكن (أوجلومى) كان متأخرًا بآلاف الأجيال عن الإنسان الأول البدائى، إذ لا يمكن لقرد أن يتشبث بقوة هائلة هكذا.. كما أن الأسد كان يدرب الحصان طوال أجيال لا حصر لها على تكتيكات التدحرج والشب على قائمتيه الخلفيتين.. لكنه كان يركل بحافريه كقائد ويقفز مقوسًا ظهره لإيقاع من يركبه.. وخلال خمس دقائق عاش (أوجلومى) عمرًا عجيبًا.. وكان متأكدًا أنه لو نزل من على ظهر الحصان لقتله الحصان على الفور.

ثم قرر الحصان القائد أن يلجأ إلى تكتيكاته القديمة وانطلق فجأة يعدو مسرعًا.. وجرى فوق المنحدر قاطعًا الأجزاء المنحدرة

جدًا منه بسرعة أكبر بدون أن ينحرف يمينًا أو يسارًا قط.. وأثناء عدوهما انخفض الوادى الفسيح واختفى من الأنظار خلف أدغال أشجار البلوط والزعرور البرى.. وفجأة تجنبا حفرة واسعة بها بركة من الماء تحفها الأعشاب والشجيرات فضية اللون.. وبدأت الأرض تصبح أكثر نعومة والحشائش أكثر طولاً.. وعلى الجانبين الأيمن والأيسر أقبلت رقعات متناثرة من شجيرات برية تعج بزهور تأخر تفتحها.. الآن بدأت الشجيرات تزداد كثافة واندفعت فجأة تضرب بفروع كالسياط الفارس المخترق لها.. وفى الحال تناثرت قطرات الدم على الحصان والرجل.. ثم انفتح الطريق أمامهما مرة أخرى.

ثم بدأت مغامرة أخرى.. إذ سمعا صرخة أو زمجرة تنم على غضب هادر وسط الشجيرات.. بدت كصرخة لمخلوق ما تعرض لأذى كبير.. وبدأ حيوان ضخم رمادى اللون يطاردهما.. كان ذاك هو (ياه) الخرتيت ذو القرن الضخم وكان غاضبًا جدًا ويهجم ناحيتهما بأقصى سرعة له مثلما يفعل عادة عندما يزعجه شىء.. لقد أزعجه شىء ما وهو يأكل طعامه، ويبدو أن شخصًا ما ـ ليس مهمًا من يكون ـ سوف يُمزَق إربًا ويوطأ بالأقدام.

كان متجهًا ناحيتهما من اليسار وعينه الحمراء الصغيرة تتقد شررًا وقرنه الضخم موجهًا إلى أسفل فى وضع الهجوم وذيله منتصب خلفه كالشراع.. ولدقيقة فكر (أوجلومى) فى السقوط من على ظهر الحصان والاختفاء فى مكان آمن، والاكتفاء بمشاهدة ما يحدث!.. وبدأ إيقاع أصوات وقع الحوافر يتسارع، وفى لمح البصر بدا أن الخرتيت وأرجله الثقيلة القصيرة يمرقان عند الركن الخلفى

لعين (أوجلومى).. وفى غضون دقيقتين كانا قد توغلا بين شجيرات الزعرور البرى ثم خرجا منها إلى العراء بسرعة فائقة.. ولبرهة كان بمقدوره سماع الخطوات الخرقاء التى تقتفى أثرهما تتراجع إلى الخلف، وسرعان ما بدا له أن (ياه) عادت إليه رباطة جأشه.. كما لو أن (ياه) لم يظهر لهما قط!.. وواصلا طريقهما بنفس تلك السرعة بلا نقصان.

كان (أوجلومى) الآن فى منتهى الابتهاج.. غير أن البهجة فى تلك الأيام كانت نوعًا من الإهانة.. وصاح قائلاً: "يا ها..! يا ذا الأنف الكبير!".. وحاول أن يلوى عنقه إلى الخلف ليرى مطاردهما كنقطة بعيدة، وأنهى كلامه قائلاً: "لماذا لا تحمل حجر الهجوم فى قبضتك؟".. وشهق شهقة شديدة الهياج.

بيد أن تلك الشهقة كانت مشؤومة، إذ أنها كانت قريبة جدًا من أذن الحصان وأيضًا غير متوقعة بالمرة لدرجة أنها روعت الفحل للغاية.. ومن ثم فإنه ارتعد بشدة.. وما لبث (أوجلومى) أن وجد نفسه فى وضع غير مريح مرة أخرى! فقد وجد أنه عالق فوق ظهر الحصان بذراع واحدة وركبة واحدة!.. أما بقية الرحلة فقد كانت محترمة ولكن غير سارة!.. وكان المشهد عبارة عن سماء زرقاء أساسًا، واقترن ذلك بإحساسات بدنية غير سارة بالمرة.. وأخيرًا أصابته شجيرة شوكية بضربة بفرع لها كالسوط وأطاحت به من فوق ظهر الحصان.

اصطدمت وجنته وكتفه بالأرض، ثم بعد حركة تطويح سريعة جدًا ومعقدة لجسمه اصطدم آخر عموده الفقرى بها مرة أخرى..

ورأى بقعًا وومضات من الضوء والألوان المختلفة.وبدت الأرض مرنة وارتدادية بالنسبة إليه مثلما فعل ظهر الحصان معه.. ثم وجد نفسه جالسًا على الأعشاب على مسافة ستة أمتار من الشجيرات.. وأمامه تترامى منطقة فضاء تنمو فيها حشائش وأعشاب كثيفة تزداد نضرة واخضرارًا.. وعلى مسافة قليلة يوجد عدد من البشر.. وكان الحصان ينطلق بخطوات سريعة لمسافة طويلة إلى اليمين.

كان معظم البشر جاثمين على الجانب المقابل من النهر وبعضهم ما زال فى الماء، لكنهم كلهم يجرون بأقصى سرعة ممكنة لبشر.. وظهور وحش يتمزق إلى أجزاء كثيرة لم يكن أمرًا جديدًا يهتمون به.. ولمدة دقيقة كاملة جثم (أوجلومى) وهو يحدق فيهم لمجرد المشاهدة فقط.. كان كل من منحنى النهر والهضبة التى بين نباتات الغاب والسرخس الملكى وأعمدة الدخان الرفيعة المتصاعدة فى السماء أمورًا مألوفة لـ (أوجلومى).. كانت تلك هى منطقة معيشة أبناء (يويا).. (يويا) الذى هرب منه هو و(إيودينا).. والذى كمن له فى غابات أشجار الكستناء وقتله بأول بلطة استخدمها إنسان.

وقف على قدميه وهو ما زال مصعوقًا من جراء سقوطه، وعندما فعل ذلك استدار الهائمون المتناثرون ونظروا إليه.. وأشار أحدهم إلى الحصان المتباعد وهو يبربر ويثرثر. سار ببطء تجاههم وهو يحدق فيهم، ونسى وقتئذ الحصان ونسى كدماته هو نفسه وركز كل اهتمامه فيما ينتظره من جراء تلك المقابلة... كان عددهم أقل مما كان موجودًا من قبل ـ وافترض أن الآخرين لا بد أنهم اختفوا فى مكان ما ـ فقد كانت كومة نباتات "السرخس" لنيران

الليل ليست عالية جدا.. وكان المفروض أن يجلس بجوار أكوام أحجار الصوان (واو)، لكنه تذكر الآن قتله من قبل.. وفجأة عاد إلى مخيلته مشهد مألوف لديه، هو المضيق الصخرى والدببة و(إيودينا).. غير أنها بدت كلها أشياء من الماضى البعيد.. أشياء يحلم بها فقط.

توقف عند ضفة النهر وهو مازال ينظر إلى القبيلة.. كانت قدراته الحسابية متواضعة للغاية، لكنه كان متأكدًا أن عددهم قليلٌ جدًا.. ربما يكون الرجال ذهبوا بعيدًا إلى مكان ما، لكن كان الموجود بالفعل عددًا قليلٌ من النساء والأطفال.. وصاح صيحة العودة إلى الوطن، فقد كان قتاله مع (يويا) و(واو) وليس مع الآخرين.. وصاح قائلاً: "يا أبناء (يويا)!" وأجابوه باسمه، ولكنهم كانوا خائفين قليلاً لأنه عاد بشكل غريب.

تكلموا جميعًا لبعض الوقت، ثم رفعت امرأة عجوز صوتها بصيحة حادة قائلة: "إن زعيمنا أسد". لم يفهم (أوجلومى) شيئًا مما تقوله، وعندئذ أجابوه كلهم بالقول: "(يويا) يأتى مرة أخرى.. يأتى مثل أسد.. زعيمنا أسد.. وهو يأتى ليلاً ويقتل أى شخص يشاء.. ولا يقتلنا سواه يا (أوجلومى).. لا يوجد شخص غيره يقتلنا".

ما زال (أوجلومى) لا يفهم شيئًا.. وقالوا له: "زعيمنا أسد.. ولا يتكلم قط مع أحد".. ووقف (أوجلومى) ينظر إليهم.. كان قد رأى أحلامًا من قبل.. لكنه أدرك أنه بالرغم من أنه قتل (يويا)، فإن (يويا) لا يزال موجودًا.. والآن هم يقولون له إنه ـ (يويا) ـ أسد.

استدارت المرأة العجوز الواهنة –معلمة مشعلى النيران –فجأة وتكلمت برقة مع من يجاورها.. كانت امرأة عجوزًا جدًا وهى أول زوجات (يويا)، وهو تركها تعيش بعد تجاوز العمر الذى يليق أن تعيشه المرأة.. كانت منذ البداية ماكرة وبارعة سواء لإسعاد (يويا) أو للحصول على الطعام.. والآن أصبحت عظيمة الرأى والخبرة.. تكلمت برقة وراقب (أوجلومى) شكلها الواهن الضعيف فى الجانب الآخر من النهر بقدر كبير من النفور والكراهية.. ثم نادته بصوت عال: "أقبل إلينا يا (أوجلومى)".

ورفعت فتاة صوتها قائلة: "أقبل إلينا يا (أوجلومى)" وبعدها صاح الجميع قائلين مثل ما قالت. وكان من الغريب كيف أن أسلوبهم تغير بعد مناداة المرأة العجوز عليه.. غير أنه وقف ساكنًا هادئًا يراقبهم جميعًا.. كان من الجميل أن ينادوه، كما كانت الفتاة التى نادته رائعة الجمال.. لكنها جعلته يفكر فى (إيودينا).. واستمروا ينادونه: "أقبل إلينا يا (أوجلومى)"، وارتفع صوت المرأة العجوز الضامرة فوق أصواتهم كلها.. وعند سماعه صوتها عاد إليه تردده.

وقف (أوجلومى) المفكر، على ضفة النهر.. وأخذت أفكاره تتبلور ببطء.. الآن يصمت واحد وراء الآخر ليرى ماذا يفعله.. كان هناك شىء يدفعه للعودة وشىء يدفعه للبقاء.. وفجأة تغلب خوفه أو حذره وأصبحت له اليد العليا.. وبدون أن يرد عليهم استدار وسار إلى الخلف باتجاه أشجار الزعرور الشوكية البعيدة، وهو الطريق الذى أتى منه..

وفى الحال بدأت القبيلة كلها تصرخ منادية عليه بحماس شديد.. تردد واستدار ثم سرعان ما مضى فى طريقه، لكنه سرعان ما استدار مرة أخرى ونظر إليهم بعينين قلقتين شاكيتين وهم ينادونه.. وفى المرة الأخيرة أخذ خطوتين إلى الوراء قبل أن يوقفه خوفه.. وأخيرًا رأوه يقف مرة أخرى ثم يهز رأسه ويختفى بين أشجار الزعرور الشائكة.. عندئذ رفعت كل النساء أصواتهن فى نفس الوقت ونادينه فى آخر محاولة بدون جدوى.

كان الغاب والبوص بامتداد النهر يتموج بتأثير النسيم فى منطقة مناسبة للنوع الجديد من الغذاء، حيث اتخذ الأسد العجوز المعتاد على أكل لحم البشر عرينه هناك. وأدارت المرأة العجوز وجهها فى هذا الاتجاه وأشارت إلى أدغال الزعرور الشائكة وصرخت قائلة: "(يويا).. ها هو عدوك يذهب هناك!.. نعم هذا عدوك اللدود هناك!.. فلماذا إذن تأكل أحدنا فى هذه الليلة؟.. لقد حاولنا إدخاله فى الشرك!.. لكنه أفلت منا واتجه ناحيتك يا (يويا)!".

غير أن الأسد الذى كان يلتهم أفراد القبيلة كان نائمًا فى ذلك الوقت.. وصرخة المرأة تبددت فى الهواء دون أن يسمعها.. وفى هذا النهار تغدى بإحدى الفتيات السمان وكان مسرورًا وهادئًا.. ولم يكن يعرف فى الحقيقة أنه (يويا) أو أن (أوجلومى) عدوه!

وما حدث أن (أوجلومى) ركب الحصان وسمع أولاً عن (يويا) الأسد الذى حل محل (يويا) الزعيم وكان يأكل أفراد القبيلة.. وبينما أسرع بالعودة إلى المضيق الصخرى لم يكن يفكر فى

الحصان وإنما فى فكرة أن (يويا) مازال حيًا.. وأنه إما أن يقتل أو يُقتل.. وأخذ مشهد النساء والأطفال اللاتى يصرخن بأن (يويا) كان أسدًا يتناقص رويدًا رويدًا.

الآن يخشى (أوجلومى) من بزوغ شفق الفجر.. لذلك نجده يبدأ فى الجرى.

رابعًا: (يويا) الأسد

كان الأسد العجوز محظوظًا، فقد كانت القبيلة توقر زعيمها.. بيد أن ذلك كان كل ما يمكنها تحقيقه من قناعة وإشباع منه.. وجاء ذلك الأسد العجوز فى نفس الليلة التى قتل فيها (أوجلومى) (يويا) البارع، ومن هنا فقد سموه على اسمه (يويا).. وكانت المرأة العجوز الراعية للنار أول من أسماه (يويا).

تناقصت النيران إلى مجرد وهج إنقاذ بسيط من جراء الأمطار.. وساد الظلام الحالك فى تلك الليلة.. وبينما هم يتحدثون معًا، ويحدقون فى بعضهم بعضًا وسط الظلام الحالك، أخذوا يتساءلون بخوف عما يمكن أن يفعله (يويا) بهم فى أحلامهم الآن بعد موته.. ولم يلبثوا أن سمعوا أصداء وترجيعات زئير الأسد فى كل مكان بالجوار.. ثم ساد المنطقة صمت تام.

حبسوا أنفاسهم تمامًا حتى لم تعد هناك أصوات سوى طرقات الأمطار وهسهسة قطرات المطر فى رماد النار.. ثم بعد فترة طويلة نسبيًا سمعوا صوت اصطدام وصيحة تنم عن الذعر وزمجرة.. هبوا واقفين على أقدامهم وهم يصيحون ويصرخون ويجرون هنا

وهناك.. إلا أن الجمرات لم تكن تحترق، وبعد دقيقة واحدة تم سحب الضحية إلى بعيد وسط أشجار السرخس.. كان ذاك هو (إيرك) أخو (واو).. وهكذا أقبل الأسد مرة أخرى.

كانت أشجار السرخس ما زالت رطبة فى الليلة التالية بفعل سقوط الأمطار، وجاء الأسد وأخذ (كليك) ذا الشعر الأحمر.. وكان ذلك كافيًا جدًا لليلتين متتاليتين.. ثم فى الظلام بين أوقات بزوغ القمر جاء فى ثلاث ليال.. ليلة بعد أخرى.. وذلك بالرغم من إيقادهم لنيران شديدة.. كان أسدًا عجوزًا ذا أسنان قصيرة سميكة، ساكنًا جدًا وهادئًا جدًا.. وكان يعرف النيران مسبقًا، إذ لم تكن هذه أول نيران يوقدها بشر طوال عمره الطويل.

فى الليلة الثالثة أقبل الأسد من المسافة الواقعة بين النار الخارجية والنار الداخلية، ثم وثب فوق كومة أحجار الصوان وانقض على (إيرم) ابن (إيرك) الذى كان يبدو أنه الزعيم. كانت تلك ليلة رهيبة، لأنهم أوقدوا نارًا هائلة فى أغصان وأوراق السرخس وجروا وهم يصرخون.. وعندئذ أفلت (إيرم) من قبضة الأسد.. ورأوا الرجل فى وهج النيران يجاهد بكل قوته للصعود فوق التل ثم جرى لمسافة قليلة باتجاههم، بيد أن الأسد وثب وثبتين هائلتين وانقض عليه مرة أخرى.. وكانت هذه المرة آخر عهده بالحياة.

هكذا أحاطت بهم المخاوف وتبددت من حياتهم كل مسرات وأفراح الربيع.. الآن انتهت حياة خمسة من أفراد القبيلة، وأضافت أربع ليال أخرى ثلاثة آخرين إلى هذا الرقم. وأصبحت عمليات بحثهم عن الغذاء جافة ويعوزها النشاط والحماس، إذ لم يكن

أحدهم يعرف من سوف يحل عليه الدور التالى.. وطوال النهار كانت النساء تكدح، حتى الأسيرات منهن، فى جمع القش والأغصان والحطب اللازم لإيقاد النيران ليلاً.. وكان الصيادون يصطادون الفرائس، إذ كان الجوع يطارد القوم فى الربيع مثلما يطاردهم فى الشتاء.. وربما كانت القبيلة ستتحرك إلى مكان آخر لو كان لها زعيم.. لكنهم لم يكن لهم زعيم ولا أحد منهم يعرف إلى أين يذهب لكى ينجو من مطاردة الأسد اللعين.. وهكذا ازداد الأسد العجوز بدانة وشكر السماء على وجود هذا الجنس الضعيف من البشر.

طفلان وشاب ماتوا كلهم أثناء بزوغ قمر جديد، ثم بدأت المرأة العجوز الضامرة تتذكر حلمًا لها رأت فيه (إيودينا) و(أوجلومى) والطريقة التى تم بها قتل (يويا).. كانت من قبل تعيش حياتها وهى خائفة من (يويا)، أما الآن فهى تعيش خائفة من الأسد.. وكان من المستحيل بالنسبة إليها أن يقتل (أوجلومى) - (أوجلومى) الذى رأته يولد بعينى رأسها - (يويا) إلى الأبد.. إذن (يويا) ما زال يطارد عدوه إلى الآن!

وفجأة بدأت العودة الغريبة لـ (أوجلومى).. إذ رُئى حيوان رائع غريب ينهب الأرض عدوًا فى الجانب الآخر من النهر.. ثم لم يلبث أن أصبح حيوانين مختلفين، عبارة عن حصان وإنسان.. وكانت رؤية (أوجلومى) فى الجانب البعيد من النهر بالنسبة إليها أعجوبة أو نذير شر، وهذا شىء مفهوم لها ولأن (يويا) لابد أن يعاقبهم الآن بعد أن فشلوا فى القبض على (أوجلومى) و(إيودينا).

أقبل الناس يتدافعون بغير انتظام تحسبًا للمخاطر المحتملة فى تلك الليلة على حين ما زالت الشمس الآفلة ترسل أشعتها الذهبية عبر السماء.. وبمجرد استقبال القوم لهم أخبروهم بقصة (أوجلومى).. وعبرت النهر معهم وأرتهم آثار أقدام الحيوان وهو يكمن فى الضفة الأخرى من النهر.. وتعرَّف (سيس) قصاص الأثر على أقدام (أوجلومى).. وصرخت العجوز وهى واقفة على يسار منحنى النهر وهى تومئ إلى جسم من النحاس المتقد من سخونة الشمس الآفلة.. وكانت صرخاتها عبارة عن أصوات غريبة ذات نبرات صوتية متباينة ولكن ما تضمنته من معان كان كما يلى: "الأسد يريد (إيودينا).. إنه يأتى ليلة وراء أخرى بحثًا عن (إيودينا) و(أوجلومى).. وعندما لا يعثر على (إيودينا) و(أوجلومى) فإنه يغضب ويقتل.. والآن اقبضوا على (إيودينا) و(أوجلومى).. (إيودينا) التى يطاردها، و(أوجلومى) الذى أصدر أمرًا بموته!.. اقبضوا على (إيودينا) و(أوجلومى)"!

رجعت إلى أرض البوص والغاب البعيدة التى كانت أحيانًا ترجع إليها مع (يويا) أثناء حياته.. وصاحت: "ليس هكذا يا سيدى وزعيمى!".. وكما لو كانت تجيبها، انحنت البوصات الطويلة لها إثر هبوب نفحة من الريح عليها.

بعيدًا عن الشفق سمعوا من مكان جثومهم أصوات ضربات متتالية.. كانت تلك أصوات شحذ الرجال لرماحهم الرمادية استعدادًا لصيد اليوم التالى.. وفى تلك الليلة وقبل بزوغ القمر جاء الأسد وأخذ ابنة (سيس) قصاص الأثر.

وفى الصباح وقبل سطوع الشمس، أخذ (سيس) قصاص الأثر والشاب اليافع (واو هاو) الذى يشحذ الآن أحجار الصوان والأعور (بو) وآكل القواقع والرجلان حمراوا الشعر وجلد القط والثعبان وكل من تبقى من الرجال على قيد الحياة من أبناء (يويا) رماحهم الرمادية وأحجار الضرب وأحجار الرمى فى أكياس من مخالب الحيوانات وبدأوا يشقون طريقهم خلف آثار (أوجلومى) خلال غابات أشجار الزعرور البرى التى يشغلها (ياه) الخرتيت وإخوته ثم خلال المنخفضات باتجاه غابات أشجار الزان.

فى تلك الليلة اتقدت النيران عالية وقوية، بينما أخذ القمر المكتمل فى الأفول.. وفيها ترك الأسد النسوة والأطفال الجاثمين فى هدوء وسلام. وفى اليوم التالى وبينما كانت الشمس عالية فى كبد السماء، عاد كل الصيادين ما عدا الأعور الذى تمدد مقتولاً مهشم الجمجمة تحت سفح الجرف الصخرى. وعندما رجع (أوجلومى) من مطاردة الجياد فى تلك الليلة وجد النسور مشغولة بالفعل فى التهام طعامها الشهى. وأحضر الصيادون معهم (إيودينا) على قيد الحياة بالرغم من أن كل جزء فى جسمها كان مصابًا بجروح أو كدمات.. إذ كان ذلك هو الأمر الغريب الذى أصدرته المرأة العجوز الضامرة.. أن يتم إحضارها حية.. وكما قالت: "لسنا نحن من يريد قتلها.. (يويا) الأسد هو من يريد قتلها".

كانت يداها مقيدتين بالسيور كما لو كانت رجلاً.. وكانت محطمة ومطأطأة الرأس وشعرها الملبد بالدماء يغطى عينيها تقريبًا.. وأخذوا يدورون حولها وطفق آكل القواقع - الذى أسمته

هى كذلك ـ يقهقه ويضربها برمحه الرمادى.. وبعد أن ضربها برمحه، نظر من فوق كتفيه كرجل يقوم بعمل خارق.. الآخرون أيضًا نظروا من فوق أكتافهم مرارًا وتكرارًا.. كانوا كلهم فى عجلة من أمرهم عدا (إيودينا).. وعندما لمحتهم المرأة العجوز قادمين أطلقت صرخة النصر.

أجبروا (إيودينا) على عبور النهر وهى مقيدة اليدين رغم أن التيار كان قويًا.. وعندما انزلقت قدمها صاحت العجوز الضامرة أولاً من الفرح ثم بعدئذ من الخوف من أن تغرق.. وعندما جروا (إيودينا) إلى الشاطئ، لم تستطع أن تتحمل ذلك الوضع قط بالرغم من أنها تعرضت لضرب عنيف مبرح، لذلك تركوها تجلس أمامها وقدماها يلامسان الماء وعيناها تحملقان أمامها ووجهها جامد الملامح لا ينم عن شىء مهما كان ما يفعلونه بها أو يقولونه لها.. وأقبلت كل القبيلة إلى مكان الجثوم.. حتى (هاها) الصغيرة مجعدة الشعر التى استطاعت أن تمشى بالكاد ووقفت تحدق فى (إيودينا) والمرأة العجوز كما نحدق نحن اليوم فى أى حيوان غريب جريح وصائده.

قطعت العجوز قلادة عنق (إيودينا) التى أهداها لها (يويا) ووضعتها حول عنقها هى، وكانت من قبل أول من ارتدت تلك القلادة.. ثم مزقت شعر (إيودينا) وأخذت حربة من (سيس) وضربتها بها بكل قوتها.. وبعد أن صبت جام غضبها على الفتاة البائسة اقتربت منها وحدقت فى وجهها.. كانت عينا (إيودينا) مقفلتين وملامح وجهها جامدة وجثمت ساكنة بلا حراك للحظة

لدرجة أن العجوز خشيت أن تكون قد ماتت.. وعندئذ ارتعش منخراها.. وفى الحال لطمتها العجوز على وجهها وضحكت وأعطت الحرية إلى (سيس) مرة أخرى.. ثم ابتعدت قليلاً عنها وبدأت تتكلم لتسبها وتسخر منها وتهينها.

كان لدى العجوز الشمطاء حصيلة كبيرة من الكلمات والألفاظ أكثر من أى شخص آخر فى القبيلة.. ومن المريع أن يسمع المرء كلامها.. فأحيانًا تجدها تصرخ وتئن بشكل مشوش وغير مترابط.. وأحيانًا تكون صرخات حنجرتها مجرد شبح لأفكارها المخيفة.. غير أنها أبلغت (إيودينا) بكثير من الأشياء التى أوشكت أن تحدث لها، وخصوصًا كل ما يتعلق بالأسد والرعب والعذاب اللذين سوف يسببهما لها.. وصرخت قائلة: "أما (أوجلومى)!.. ها ها!.. لقد قُتل هذا اللعين!".

وفجأة انفتحت عينا (إيودينا) واعتدلت جالسة مرة أخرى ونظرت بتحدٍ فى عينى المرأة الشمطاء، وقالت ببطء كشخص يحاول أن يتذكر شيئًا ما: "لا.. أنا لم أر (أوجلومى) وهو يُقتل.. نعم، لم أره مقتولاً قط".

قالت العجوز الشمطاء: "قولوا لها.. قولوا لهذه البلهاء كيف أنه قتل (أوجلومى).. نعم، أخبروها كيف قُتل (أوجلومى)".. ثم نظرت حولها، وفعل كل النساء والأطفال مثلها حيث نظر كل رجل إلى الآخر.. لكن لم يجبها أحد، ووقف الجميع خجولين.. فكررت العجوز قولها: "قولوا لها".. ونظر بعض الرجال إلى بعض.. وفجأة أضاء وجه (إيودينا) وقالت: "قولوا لها هى.. قولوا لها أيها الرجال

الأشداء أن (أوجلومى) لم يُقتل".. وعندها لطمتها العجوز بقوة على فمها.

قال (سيس) قصاص الأثر: "إننا لم نعثر حتى الآن على (أوجلومى).. والواقع أن من يطارد اثنين لا يقتل أحدهما!".

وثب قلب (إيودينا) من مكانه لكنها حافظت على ملامح وجهها الجامدة.. وكان ذلك الأسلوب جيدًا لأن العجوز نظرت إليها بحدة وعبَّرت نظراتها النارية إليها عن رغبتها المؤكدة فى قتلها.

ثم أطلقت العجوز الشمطاء لسانها على الرجال بسبب خوفهم من مطاردة (أوجلومى).. إنها لم تعد تخشى أحدًا منهم منذ أن قُتل (يويا).. ووبختهم كما يوبخ المرء أطفالاً صغارًا.. نظر الجميع إليها بعبوس وأخذ كل منهم يتهم الآخر.. وفجأة رفع (سيس) قصاص الأثر صوته مما جعلها تلزم الصمت.

وهكذا عندما كانت الشمس تأفل فوق الأفق أخذوا (إيودينا) وذهبوا ـ رغم أنهم كانوا يشعرون بذعر شديد ـ على طول المسار الذى صنعه الأسد بين البوص والأعشاب.. وذهب الرجال جميعهم.. وفى بقعة معينة كانت هناك مجموعة من أشجار جار الماء.. وفى هذا الموضع ربطوا (إيودينا) فى إحدى الأشجار حيث يسهل على الأسد العثور عليها عندما يخرج من عرينه وقت الغسق.. وبعد أن أتموا عملهم أسرعوا بالعودة حتى اقتربوا من مكان إقامتهم، ثم لم يلبثوا أن توقفوا. توقف (سيس) أولاً ثم نظر خلفه إلى أشجار جار الماء.. كان بمقدورهم رؤية رأسها من مكان

إقامتهم ككتلة سوداء صغيرة تحت جذع شجرة كبيرة.. وهكذا انتهى أمرها بالنسبة إليهم.

وقف كل النساء والأطفال ينظرون من فوق قمة الربوة أو الهضبة الصغيرة.. ووقفت العجوز وصرخت للأسد لكى يذهب إلى فريسته التى يبحث عنها، ونصحته بأن يعذبها عذابًا شديدًا.

الآن كانت (إيودينا) منهارة تمامًا ومصدومة من كثرة الضرب والإجهاد والحزن، ولم يبقها فى حالة من الوعى سوى خوفها من الأمر الذى تتوقع حدوثه لها.. وكانت الشمس ساطعة بلون الدم القانى بين جذوع أشجار الكستناء البعيدة.. والأشجار الغربية تتقد سخونة.. وخمدت نسمة المساء وتحولت إلى سكون دافئ.. وامتلأ الهواء بأسراب الذباب.. والأسماك فى النهر القريب تتقافز من وقت إلى آخر.. ومن حين إلى حين تسمع طنين الخنافس البيضاء فى الهواء.. ومن جانب عينها رأت (إيودينا) جزءًا من هضبة نوم القوم وفوقها أجسام صغيرة واقفة تحدق إليها.. وسمعت خفقات أحجار الصوان، وهى أصوات خافتة ولكن واضحة.. ومن حولها فى كل مكان سادت الظلمة وانتشرت أعشاب كثيفة تُخفى عرين الأسد.

الآن توقفت أصوات أحجار الصوان، ونظرت إلى الشمس ووجدت أنها اختفت ومن فوقها يسطع القمر ويزداد نوره مع الوقت.. ونظرت إلى غابة الأعشاب المحيطة بالعرين باحثة عن أى شكل أو جسم كبير بينها.. وفجأة بدأت تتلوى وتحاول التملص والتحرر من قيودها.. وبكت وأخذت تنادى على (أوجلومى).

لكن (أوجلومى) كان بعيدًا جدًا عنها.. وعندما رأوا رأسها يتحرك يمنة ويسرة أثناء محاولتها التخلص من قيودها، صاحوا جميعًا جميعًا من فوق الهضبة، وعلى الفور توقفت وسكنت لبعض الوقت.. ثم أقبلت الخفافيش، وزحفت النجمة التى تشبه (أوجلومى) من مكمنها فى الغرب.. ونادت عليها ولكن بصوت خافت خوفًا من الأسد.. وطوال فترة الغسق كانت أعشاب العرين ساكنة.

هكذا غلف الظلام (إيودينا) وازداد بياض القمر وبدأت أشباح الأشخاص الذين جروا إلى الهضبة واختفوا عليها فى الظهور مرة أخرى كأجسام سوداء قصيرة.. وتكاثرت الأشكال السوداء فى غابة الأعشاب والبوص وأشجار جار الماء التى يكمن فيها الأسد وظهرت هناك حركة بسيطة.. لكن لم يخرج شىء من هناك طوال فترة اشتداد الظلمة.

نظرت إلى مكان نوم القوم ورأت النيران متقدة وتخرج منها أعمدة من الدخان الأحمر.. والرجال والنساء يروحون ويغدون هنا وهناك.. وفى الناحية الأخرى فيما بعد النهر ارتفع فى السماء ضباب أبيض.. ومن بعيد تتناهى أصوات أنين ونشيج الثعالب الصغيرة وزمجرة الضباع الهائمة على وجهها.

مرت بها فترات انتظار مؤلمة حقًا.. وبعد مدة طويلة طرطش حيوان ما بدا أنه يعبر النهر فى المخاضة الموجودة وراء عرين الأسد، لكنها لم تستطع رؤية أى حيوان هنا.. وهناك عند برك الشرب البعيدة أمكنها سماع صوت طرطشة أخرى ثم ضجيج من أصوات أفيال.. ولكن مازال الليل يسدل أستاره عليها.

الأرض الآن كانت عبارة عن مجموعة لا لون لها من الانعكاسات البيضاء والظلال الكثيفة تحت السماء الزرقاء.. ورأت القمر الفضى جالسًا فى جلال ومحاطًا بحليات من أخشاب أشجار الكستناء.. وفى التلال الشرقية الظليلة يزداد عدد النجوم الساطعة. كانت نيران هضبة القوم متوهجة وتقف حولها وبينها أشكال سوداء تنتظر حدوث شئ ما.. كانوا ينتظرون صرخة مروّعة منها، وينتظرونها قريبًا جدًا!.. وفجأة بدا أن تلك الليلة تعج بالكثير من التحركات.. حبست أنفاسها بينما كانت هناك أشياء مجهولة تمر من حولها.. واحد، اثنان، ثلاثة.. أشباح متسللة خفية.. أبناء (آوى).

مرت بها فترة انتظار طويلة أخرى.. وبعد أن تخيل عقلها صدور الكثير جدًا من الأصوات الغامضة تأكدت من حدوث حركة حقيقية فى الدغل، حركة عنيفة وقوية.. ثم سمعت صوت انقضاض وطقطقة.. شىء ما اصطدم بقوة بالأعشاب.. مرة واثنان وثلاثة.. ثم ساد سكون تام باستثناء صوت حفيف منتظم.. وسمعت زمجرة خفيفة خائفة، ثم سكونًا تامًا مرة أخرى.. وامتدت فترة السكون. ترى هل ستنتهى فى لحظة ما؟

حبست أنفاسها وعضت على شفتيها لكى لا يمكنها الصراخ.. ثم جرى شىء ما لا تراه خلال النباتات الخفيضة.. وهنا أطلقت صرخة لا إراديًا، لكنها لم تسمع صيحة الرد عليها من الهضبة.

وفجأة استيقظ الدغل مرة أخرى على حركة عنيفة هائجة.. ورأت جذوع الأعشاب وهى تتموج وأشجار جار الماء وهى تتمايل فى ضوء القمر الآفل.. وحاولت التملص من قيودها لآخر مرة.. لكن لم

يهجم عليها شىء ما قط.. وبدا لها أن نحو اثنى عشر وحشًا تهيم هنا وهناك فى هذا الحيز الصغير لمدة دقيقتين، ثم ساد السكون مرة أخرى.. وفى ذلك الوقت هبط القمر من وراء أشجار الكستناء البعيدة واشتد ظلام الليلة عن ذى قبل.

وعندئذ سمعت صوتًا غريبًا عبارة عن لهاث ونشيج يزداد سرعة وخفوتًا.. ثم سادت فترة من الصمت ثم سمعت أصواتًا خافتة وزمجرة حيوان ما. ثم سكونًا مرة أخرى.. من بعيد فى اتجاه الشرق كان فيل يهدر.. ثم انطلق من الغابة صوت زمجرة وعواء لم يلبث أن تلاشى تمامًا.. ولمدة طويلة أشرق القمر مرة أخرى بين جذوع الأشجار فوق الرف الصخرى مرسلاً حزمتين ضخمتين من الضوء وحزمة من الظلام عبر دغل الأعشاب.. ثم انطلق صوت حفيف منتظم وطرطشة فى الماء وتمايلت الأعشاب كثيرًا إلى الجانبين.. وأخيرًا انفتحت بينهما فتحة كبيرة من أسفل إلى أعلى.. لقد حانت النهاية بلا شك.

نظرت باهتمام لترى الشىء الذى أقبل عليها من بين الأعشاب.. وللحظة ظنت أن له بالتأكيد رأس كبيرة وفكين ضخمين كما هو المتوقع.. إلا أن هذا كله تضاءل ثم تغير تمامًا!.. كان شيئًا أسود خفيضًا ظل صامتًا لكنه لم يكن أبدًا الأسد.. وجثم ساكنًا مثل كل شىء من حوله.. ورأسه تتحرك يمنة ويسرة بحثًا عن الأشباح المتحركة.

أصدر صوت حفيف ثم تحرك بتثاقل وهو يقفز تقريبًا.. وأثناء قفزاته كان يئن ويتأوه.. وفجأة شعرت بسعادة لا توصف فى كل

الدماء التى تجرى فى عروقها، وهتفت: "(أوجلومى)!" .. وهنا توقف ذلك الشىء ورد عليها بصوت خافت متألم: "(إيودينا)" .. ثم أخذ يحدق فى أشجار جار الماء.

تحرك مرة ثانية وخرج من الظلال حتى ما بعد البوص والأعشاب وجثم فى ضوء القمر.. كان كل جسمه مغطى بلطخات داكنة.. ورأت أنه يجر ساقيه ويمسك ببلطته ـ أول بلطة استخدمها الإنسان ـ فى يده.. وفى اللحظة التالية جاهد لكى يعتمد على يديه وقدميه وأقبل ناحيتها وهو يترنح.. وقال بلهجة هى خليط من البهجة والمعاناة: "ياه!.. لقد قتلت أسدًا.. قتلته بيدى هاتين.. مثلما قتلت الدب الكبير".. وتحرك لكى يؤكد كلامه إلا أنه فجأة أطلق صرخة خافتة وأصبح غير قادر على الحركة.. وهنا همست (إيودينا) إليه قائلة: "حل وثاقى حالاً".

لم يجبها بأى كلام ولكنه جر نفسه إليها بواسطة شد جسمه بالإمساك بجذوع أشجار جار الماء، ثم أخذ يقطع سيور وثاقها بحافة بلطته الحادة.. وسمعته يلهث عند كل ضرب بالبلطة.. قطع كل السيور التى تربط صدرها وذراعيها، ثم سقطت يداه.. اصطدم صدره بكتفها ثم تهاوى بجانبها وتمدد ساكنًا بلا حراك.

تمكنت من فك بقية رباطها بسهولة.. وبسرعة حررت نفسها تمامًا.. وخطت خطوة واحدة بعيدًا عن الشجرة وكان رأسها يلف.. آخر حركة واعية لها كانت باتجاهه، ثم وجدت نفسها تلف حول نفسها وتتهاوى على الأرض.. وسقطت يدها على فخذه.. كان فخذه

طريًا ومبتلاً وتحرك فخذه لا إراديًا وصرخ من مجرد لمستها له وتلوى جسمه قليلاً ثم رقد فى سكون مرة أخرى.

الآن أقبل حيوان أسود يشبه الكلب بهدوء من خلال الأعشاب.. ثم توقف تمامًا وتشمم ما حوله وتردد للحظة ثم أخيرًا استدار ولم يلبث أن اختفى وسط الظلال.. وبقيا هنالك طويلاً بلا حراك ونور القمر الآفل يضىء جسميهما.. وبدأ ظل الأعشاب التى تفصل بينهما وبين الهضبة يسترهما ببطء شديد تمامًا مثلما يغرب القمر ببطء شديد.. الآن اختفت سيقانهما ثم أصبح (أوجلومى) ذا صدر فضى.. وواصل الظل زحفه حتى غطى عنقه ووجهه.. وهكذا أخيرًا ابتلعهما كلية ظلام الليل.. أصبح الظل الآن يعج بنشاط وتحركات فطرية.. وكانت هناك أقدام تعدو وزمجرة خافتة ثم صوت ضربة أو ارتطام.

لم تنم النسوة والأطفال جيدًا فى تلك الليلة بمكان النوم حتى سمعوا صرخة (إيودينا).. لكن الرجال كانوا مجهدين وجلسوا وهم ينعسون.. وعندما صرخت (إيودينا) تأكدوا من سلامتهم هم وتسابقوا للنوم فى أقرب الأماكن من النيران المتقدة.. وضحكت العجوز الشمطاء عند سماعها صرخة (إيودينا) ثم ضحكت مرة ثانية عندما بكت (سى) الصديقة الصغيرة لـ (إيودينا).

بمجرد قدوم الفجر استيقظوا جميعًا ونظروا باتجاه أشجار جار الماء.. ورأوا أن (إيودينا) أخذت من مكانها.. ولم يتمكنوا من إخفاء شعورهم بالسعادة لاعتقادهم أن (يويا) هدأ وارتاح الآن.. ولكن فى عقول الرجال كانت فكرة وجود (أوجلومى) حيًا مروعة لهم.. كانوا

يعرفون معنى الثأر، لأن الثأر كان عادة قديمة فى العالم.. لكنهم لم يتوقعوا قط أن يتمكن من إنقاذ (إيودينا).

فجأة انطلق ضبع من الدغل وأقبل يعدو عبر الأعشاب والبوص.. وكان خطمه ومخالبه ملطخة بسائل داكن.. وبمجرد رؤيته صاح كل الرجال وأمسكوا بأحجار الضرب وجروا باتجاهه لأنهم يعرفون أن الضبع هو أكثر الحيوانات جُبنًا فى النهار.. وكان الجميع يكرهون الضباع لأنها تقتل الأطفال وربما تأتى وتعض المرء عندما يكون نائمًا على حافة هضبة النوم.. وتمكن (جلد القط) من تسديد ضربة قوية مباشرة إلى الحيوان فى جنبه أسقطته على الأرض، ومن ثم جرت القبيلة بأكملها إليه وهى فرحة بتوفر الغذاء لها.

إثر إطلاق ضجة هائلة أقبلت خفقات أجنحة فى اتجاه عرين الأسد.. حيث ارتفعت ثلاث نسور بيضاء الرأس ببطء وحلقت فى دوائر ثم جثمت ساكنة على أفرع أشجار جار الماء وهى تطل على العرين. وقالت العجوز وهى تشير إليها: "إن زعيمنا خارج عرينه الآن.. وهذه النسور تحصل على نصيبها من (إيودينا) اللعينة". وظلت النسور ساكنة هناك للحظة ثم تحركت واحدًا وراء الآخر للهبوط داخل الدغل.

هناك فى ذلك الوقت فوق الغابات الشرقية، وبحيث يلمس كل عالم الأحياء والألوان المختلفة، سطع ضوء الشمس المشرقة فى قوة ونشاط.. وبمجرد رؤية الأطفال لها أخذوايهللون كلهم ويصفقون بأيديهم ويتسابقون إلى الماء.. لم يتأخر عنهم سوى (سى) الصغيرة

التى كانت تنظر فى حيرة وقلق إلى أشجار جار الماء حيث رأت عندها رأس (إيودينا) طوال الليل.

غير أن (يويا) الأسد العجوز لم يكن خارج عرينه، وإنما كان فى عرينه ممددًا وساكنًا وقابعًا نوعًا ما على أحد جانبيه.. لم يكن داخل عرينه بالضبط ولكن بعيدًا قليلاً عنه فى مكان أعشابه مهروسة وموطوءة، وهناك جرح غائر تحت إحدى عينيه نجم عن ضربة بسيطة بأول بلطة استخدمها الإنسان.. ولكن كل الأرض تحت صدره كانت بنية ضاربة إلى الحُمرة وبها خطوات واضحة.. وفى صدره حفرة صغيرة أحدثها طعن الرمح الذى يخص (أوجلومى).. وبامتداد جانبه وفى كل عنقه حصلت النسور على نصيبها من الغنيمة.. ذلك أن (أوجلومى) عاجله بغرز حربته فى صدره.. طعنه بالحربة بكل قوته حتى اخترقت قلبه.. وبهذه الطريقة انتهت مدة نفوذ وسلطان الأسد أو التجسيد الثانى لـ (يويا) الزعيم، ولم يلبث أن طواه النسيان.

ومن الهضبة ازداد النشاط والهيجان وأصوات شحذ الرماح وحجارة الضرب والرمى.. ولم يتكلم أحد باسم (أوجلومى) خشية أن يظهر لهم.. وكان الرجال فى طريقهم لكى يتحركوا جماعات وبحيث يكونون متقاربين بجوار بعضهم أثناء جولة الصيد ونحو ذلك.. وكان صيدهم أو الفريسة التى يبحثون عنها هى (أوجلومى) خشية أن يسعى هو إلى صيدهم جميعًا!

بيد أن (أوجلومى) كان جاثمًا فى هدوء وسكون خارج عرين الأسد و(إيودينا) راقدة بجواره وهى ممسكة فى يدها بالحربة الرمادية الملطخة كلها بدم الأسد.

خامساً: قتال فى دغل الأسد

قبع (أوجلومى) ساكنًا وهو مستند بظهره إلى شجرة جار الماء، وفخذه كتلة حمراء يرتاع المرء لمنظرها.. لا يمكن لأى إنسان متحضر أن يعيش وهو مصاب بجرح فظيع هكذا.. إلا أن (إيودينا) أحضرت له بعض أوراق الزعرور وغطت بها جراحه وجثمت بجواره ليلاً ونهارًا تبعد عنه الذباب بمروحة صنعتها من الأعشاب بالنهار، وفى الليل تخيف الضباع بأول بلطة استخدمها الإنسان تلوح بها فى يدها.. وبعد قليل بدأ الرجل يتعافى.

كان الوقت أكثر أيام الصيف حرارة ولم تكن تسقط أى أمطار.. وندر الطعام لديهم فى اليومين الأولين وقت أن كانت جراحه مفتوحة.. وفى المكان المنخفض الذى اختبآ فيه لم تكن هناك أى جذور أو نبات أو حيوان.. لا يبعد عنهم الجدول بقواقعه وأسماكه سوى بمائة مترٍ فى العراء. ولم تكن (إيودينا) تستطيع الخروج نهارًا خوفًا من القبيلة وأخواتها وإخوتها ولا ليلاً خوفًا من الوحوش، سواء خوفًا عليه أو على نفسها.. وهكذا شاركتهم النسور فى لحم الأسد.. غير أن جدولاً صغيرًا من الماء كان يمر بجوارها وكانت (إيودينا) تحضر منه الماء بعد غرفه بيديها.

كان (أوجلومى) ممددًا فى مكان خفى عن القبيلة، حيث يستره عنها دغل من أشجار جار الماء بحيث شكلت مع أعشاب البرك والبوص الطويل سورًا محيطًا به.. وتمدد الأسد الذى قتله بالقرب من عرينه القديم فى مكان ذى أعشاب موطوءة أو مدهوسة على

مسافة ٥٠ مترًا منه، وبحيث يمكن رؤيته من خلال جذوع الأشجار.. وتقاتلت النسور على الأجزاء المفضلة من لحم الأسد وطفقت تبعد أبناء (آوى) عنه.. وسرعان ما حلقت فوقها سحابة من الذباب الذى يشبه النحل وسمع (أوجلومى) طنينها المزعج.. وبينما كان لحم (أوجلومى) يتعافى من الجروح التى مُنى بها الرجل منذ بضعة أيام، لم يبق من الأسد سوى بضع عظام بيضاء لامعة منتشرة من حوله. كان (أوجلومى) يجلس ساكنًا معظم الوقت خلال النهار ينظر حوله فى لا شىء.. وأحيانًا يغمغم بكلمات عن الجياد والدببة والأسود.. وأحيانًا يضرب الأرض ببلطته ويذكر أسماء أفراد القبيلة —ويبدو أنه لم يكن يخشى حضورهم إليه —لساعات طويلة. لكنه أساسًا كان ينام ويحلم بالقليل فقط بسبب الدماء الكثيرة التى فقدها فى النزيف وكذا نقص الطعام المتوفر له.

طوال ليالى الصيف القصيرة كان كلاهما يبقى مستيقظًا.. وطوال فترة الظلام كانت تتحرك حولهما أشياء يجهلانها ولا يريانها أثناء النهار.. وخلال بضع ليال لم تظهر الضباع، ثم فى إحدى الليالى حالكة الظلام التى غاب فيها القمر ظهر اثنا عشر منها وتقاتلت فيما بينها على ما تبقى من عظام الأسد. وكانت الليلة عبارة عن خليط من النباح والعواء والزمجرة وسمع (أوجلومى) و(إيودينا) أصوات طقطقة العظام بين أسنانها.. لكنهما كانا يعلمان أن الضباع لا تهاجم أى مخلوق حى ومستيقظ ولذلك لم يشعرا بخوف كبير منها.

وذات صباح سارت (إيودينا) على طول الممر الضيق الذى صنعه الأسد بين الأعشاب حتى رأت المنحنى، وعندئذ زحفت فى الدغل

وأخذت تراقب القبيلة.. ثم كمنت بجوار أشجار جار الماء حيث ربطوها وقدموها طعامًا للأسد، وهكذا باتت تستطيع رؤيتهم على الهضبة جاثمين بجوار النار.. أجسامهم صغيرة ولكن واضحة.. ذلك ما رأته تلك الليلة.. لكنها بعد أن رجعت لم تخبر (أوجلومى) سوى ببعض ما رأته لأنها خافت أن يحضروا إذا ذكرت أسماءهم.. فقد كانوا يعتقدون فى تلك الأيام أنك إن ذكرت اسم امرئ فإنه لا يلبث أن يحضر إليك.

رأت الرجال وهم يجهزون حراب الطعن وأحجار الضرب فى الصباح الذى أعقب قتل (أوجلومى) للأسد، وكانوا يعزمون على مطاردته وقتله بعد ترك النساء والأطفال على الهضبة. ولم يكونوا يدركون سوى القليل عن مدى قربه منهم وهم يتقدمون فى صف واحد باتجاه التلال ويتقدمهم (سيس) قصاص الأثر. راقبت النساء والأطفال بعد ذهاب الرجال وهم يجمعون أوراق "السرخس" وأغصان الأشجار استعدادًا لإيقاد نيران الليل، بينما أخذ الأولاد والبنات يلهون ويلعبون معًا.. بيد أن المرأة الشمطاء جعلتها تخاف. وعند الظهيرة عندما كان معظم الآخرين بالقرب من منحنى جدول الماء، اقتربت ووقفت عند الجانب القريب من الهضبة.. وجثمت هناك كتلة بنية ملتوية تومئ وتشير حتى إن (إيودينا) كانت خائفة أشد الخوف من أن يراها أحد.. وهكذا كمنت (إيودينا) كأرنب برى وعيناها اللامعتان مثبتتان على المنحنى على مرمى البصر.. والآن فهمت إلى حد ما أن ذلك كان الأسد الذى تعبده العجوز، الأسد الذى قتله (أوجلومى).

فى اليوم التالى عاد الصيادون وهم مجهدون ويحملون فى أيديهم ظبيًا وبعد ذلك لاحظت (إيودينا) إقامة الوليمة بحسد شديد.. ثم أقبل شىء غريب.. رأت ـ وسمعت بوضوح ـ العجوز الشمطاء وهى تصرخ وتومئ وتشير إليها.. كانت خائفة وزحفت كثعبان حتى اختفت عن الأنظار مرة أخرى.. بيد أن فضولها تغلب عليها بعد حين ورجعت إلى نقطة مراقبتها وتجسسها.. وبينما هى تحدق توقفت دقات قلبها إذ كان كل الرجال فى تلك اللحظة يحملون حرابهم فى أيديهم ويتقدمون جميعهم من الهضبة باتجاهها.

لم تجرؤ على التحرك خشية أن يكشف ذلك عن مكانها، وبدلاً من ذلك التصقت بالأرض. وكانت الشمس قريبة جدًا وضوءُها الذهبى يسطع على وجوه الرجال.. ورأت أنهم يحملون قطعة لحم حمراء كبيرة يخترقها خازوق رمادى.. الآن توقفوا، وصاحت العجوز: "تقدموا!".. دمدم (جلد القط) وتقدموا جميعًا وأخذوا يفتشون فى الدغل بعيون مخطوفة البصر بسبب أشعة الشمس.

وفجأة قال (سيس): "هنا!".. وعندئذ أخذوا الخازوق الرمادى الحامل لقطعة اللحم وقذفوا بها على الأرض.. وصاح (سيس): "(يويا)!.. انظر هذا نصيبك.. لقد قتلنا (أوجلومى).. حقيقة لقد قتلنا (أوجلومى).. اليوم قتلنا (أوجلومى) وغدًا سوف نحضر جثته إليك".. وكرر الآخرون كلامه هذا.

نظر كل واحد منهم إلى الآخر وخلفه، ثم استداروا مجموعة وراء أخرى وعادوا أدراجهم.. فى البداية ساروا وهم نصف مستديرين إلى الدغل ثم واجهوا الهضبة وأسرعوا فى مشيتهم وهم

ينظرون وراءهم من فوق أكتافهم.. ثم أسرعوا السير وأخيرًا جروا بل وأخذوا يتسابقون حتى اقتربوا من الهضبة.. ثم بدأ (سيس) آخرهم فى إبطاء سرعته.

غربت الشمس فوق الأفق ثم أقبل الشفق، واتقدت النيران الحمراء تحت السماء الضبابية فوق أشجار الكستناء البعيدة، وبدت الأصوات التى فوق الهضبة سعيدة ومرحة.. وجثمت (إيودينا) وهى تكاد لا تتحرك وتنظر من الهضبة إلى قطعة اللحم ثم إلى الهضبة مرة أخرى.. كانت جائعة وفى نفس الوقت خائفة.. وأخيرًا زحفت راجعة إلى (أوجلومى).

حوّل بصره إلى صوت الحفيف البسيط الذى صاحب رجوعها، وكان وجهه شاحبًا.. وقال لها: "هل أحضرت بعض الطعام؟".. فأجابته بأنها لم تجد شيئًا غير أنها سوف تبحث عن المزيد من الطعام، ثم عادت أدراجها على طول ممر الأسد حتى أمكنها رؤية الهضبة مرة أخرى.. لكنها لم تقدر على أخذ قطعة اللحم.. كان لديها إحساس غريزى بوجود فخ للإيقاع بها.. والحقيقة أنها شعرت بالبؤس والشقاء.

وأخيرًا زحفت راجعة باتجاه (أوجلومى) وسمعته وهو يتقلب ويئن من الألم.. فعادت إلى الهضبة مرة ثالثة، ورأت شيئًا ما فى الظلام بجوار الخازوق وعندما حدقت جيدًا وجدته ابن (آوى).. وفى لمح البصر أصبحت غاضبة وشجاعة ووثبت واقفة وصرخت وجرت ناحية الهدية المطروحة.. وقعت على الأرض ثم قامت وسمعت زمجرة ابن (آوى) وهو يبتعد متضايقًا.

وعندما وقفت وجدت الخازوق الرمادى فقط ممددًا على الأرض أما قطعة اللحم فقد اختفت.. لم يكن أمامها شىء تفعله حينئذ سوى الرجوع والصوم طوال الليل هى و(أوجلومى).. وغضب منها (أوجلومى) لأنها لم تحضر أى طعام له، لكنها لم تخبره عن أى شىء رأته أو حدث لها.

مر يومان وكانا يتضوران جوعًا وفى ذلك اليوم قتلت القبيلة جوادًا.. ثم أدوا نفس الطقس وتركوا فخذًا على الخازوق الرمادى، لكن فى هذه المرة لم تجد (إيودينا) أى فرصة للتردد.. وعندما رجعت فهم (أوجلومى) من إيماءاتها وكلماتها ما حدث، غير أنه التهم معظم الطعام قبل أن يفهم شيئًا.. وعندما وصلت المعانى إليه كان قد شعر بالسعادة من تناول الغداء وقال لها: "أنا (يويا).. أنا الأسد.. أنا دب الكهف الضخم.. وكنت من قبل فقط (أوجلومى).. أنا الآن (واو) البارع.. شىء رائع أن يقدموا لنا الطعام، لأننى الآن سوف أقتلهم جميعًا!".

فرحت (إيودينا) فرحًا شديدًا وضحكت معه، ثم أكلت ما تبقى منه من لحم الجواد بسرور وابتهاج. بعد ذلك حلم حلمًا ما، وبناء عليه فى اليوم التالى جعل (إيودينا) تحضر له أسنان ومخالب الأسد ـ أو بتعبير أدق أكبر كمية منها يمكنها العثور عليها ـ وتقطع له عصا ضخمة من إحدى أشجار جار الماء.. وعكف على تثبيت الأسنان والمخالف فى العصا أو الهراوة بحيث تتجه أطرافها الحادة إلى الخارج.. واستغرق ذلك منه وقتًا طويلاً جدًا.. وأثناء دق الأسنان أتلف اثنتين منها وغضب للغاية وقذف الهراوة جانبًا.. لكنه

بعد فترة جر نفسه إلى حيث ألقاها وأخذها وأكمل عمله عليها، وأصبحت الآن هراوة من نوع جديد له أسنان ومخالب!.. وفى هذا اليوم توفر لهما طعام كثير من القربان الذى قدمته القبيلة إلى الأسد.

وفى يوم ما بعد عدة أيام أكثر من عدد أصابع اليد الواحدة - أى أكثر مما يستطيع أحد أن يحصيه - من اليوم الذى صنع فيه (أوجلومى) الهراوة، رقد هو نائمًا وأخذت (إيودينا) تراقب الهضبة من مكمنها فى الدغل.. كانت لم تحصل على أى لحم لمدة ثلاثة أيام.. وجاءت العجوز الشمطاء وقامت بعبادتها للأسد كالمعتاد.. وأثناء تأديتها لطقوس العبادة أقبل (سى) صديق (إيودينا) الصغيرة وطفل آخر - ابن الفتاة الأولى التى أحبها (سيس) - فوق الهضبة ونظرا إلى جسمها النحيل ثم بدأ الاثنان يقلدان حركاتها ويسخران منها. وجدت (إيودينا) ذلك ممتعًا ومسليًا، غير أن العجوز التفتت إليهما فجأة ورأتهما.. وللحظة وقفت هى وهما ساكنين.. ثم أطلقت صيحة غاضبة واندفعت تجاههما واختفى فى الحال الثلاثة من فوق قمة الهضبة.

الآن ظهر الطفلان مرة أخرى بين أشجار "السرخس" خلف الجزء العلوى من التل.. جرى (سى) الصغير أولاً حيث إنه كان طفلاً نشطًا، بينما جرى الطفل الآخر وهو يصرخ والعجوز تقترب منه وتكاد تمسك بتلابيبه.. ومن فوق الهضبة ظهر (سيس) وفى يده عظمة وخلفه (بو) و(جلد القط) فى هدوء.. وكلاهما يحمل قطعة من الطعام ويضحك بصوت عال ويصيح لرؤية العجوز غاضبة بهذا

الشكل.. وفى لحظة أمسكت العجوز بالطفل وبدأت فى لطمه وهو يصرخ.. وكان ذلك المشهد ممتعًا جدًا للجميع بعد وقت تناول الغذاء.. أما (سى) الصغير فقد جرى لمسافة قصيرة ثم توقف أخيرًا، وهو فى حال يقع بين الخوف والفضول لمعرفة ما يحدث.

فجأة أقبلت أم الطفل وشعرها يتطاير حول وجهها وفى يدها حجر، واستدارت العجوز الشمطاء ناحيتها والشرر يتطاير من عينيها.. كانت مثلها مثل أى امرأة أخرى، وهى كبيرة النساء المسئولات عن إيقاد النيران والعناية بها بالرغم من كبر سنها.. ولكن قبل أن تفعل أى شىء صرخت (سيس) فيها واشتبكتا وارتفع صخبهما.. وظهرت عندئذ رءوس شعثاء أخرى على الهضبة.. وبدا أن القبيلة كلها سعيدة ومستمتعة بما يحدث.. بيد أن العجوز لم تجرؤ على مواصلة مهاجمة الطفل صديق (سيس) والانتقام منه.

صاح الجميع ونادوا أسماء، حتى (سى) الصغير.. وعلى الفور أطلقت العجوز سراح الطفل الذى أمسكت به واستدارت بسرعة تجاه (سى)، لأن (سى) لم يكن لها أصدقاء.. وعندما أدركت (سى) الخطر الداهم عليها عندما كادت العجوز تمسك بها أطلقت ساقيها للريح وهى تصرخ من الذعر وجرت ـ وهى غير عابئة بأى مكان تذهب إليه ـ ناحية عرين الأسد.. والآن تتحرك فى مسار متعرج داخل البوص والأعشاب بعد أن أدركت إلى أين تتجه.

غير أن العجوز الشمطاء كانت عجوزًا بارعة حقًا مثلما كانت نشطة وعنيفة وحاقدة.. ولذلك لم تلبث أن أمسكت (سى) من

شعرها المتطاير على مسافة ثلاثين مترًا من (إيودينا).. وفى ذلك الوقت كانت القبيلة كلها تجرى هابطة من على الهضبة وهم يصرخون ويضحكون ويريدون التمتع بهذا العراك.

شعرت (إيودينا) بشىء يثور بداخلها.. شىء لم يثر بداخلها قط من قبل.. فكرت فقط فى (سى) الصغير ونسيت تمامًا خوفها، واندفعت خارجة من مكمنها وجرت بسرعة إلى الأمام.. لم ترها العجوز فى البداية لأنها كانت مشغولة فى ضرب وجه (سى) بيديها بقوة وعنف وفجأة ضربها فى وجنتها شىء ما صلب وقوى.. تدحرجت على الأرض ورأت (إيودينا) والشرر يتطاير من عينيها تقف بينها وبين (سى) الصغير.. صرخت من فرط الدهشة والرعب، وفى تلك اللحظة أطلق الصغير (سى) ساقيه للريح باتجاه القبيلة المشدوهة وهم لا يكادون يفهم شيئًا.. وكان الجميع قد اقتربوا الآن، حيث أن رؤيتهم لـ (إيودينا) طردت من رؤوسهم تمامًا خوفهم من الأسد.

فى لحظة ابتعدت (إيودينا) عن العجوز الجاثمة على الأرض فى خوف ولحقت بالطفل (سى).. وصاحت: "(سى)!.. (سى)!".. ورفعت الطفل بين ذراعيها واستدارت لتجرى إلى مكمنها عرين الأسد العجوز.. ووقفت العجوز وهى غاطسة إلى وسطها بين الأعشاب وصاحت بكلمات قذرة فى نوبة غضب عارمة ألمت بها، لكنها لم تجرؤ على اللحاق بها.. وعند نهاية منحنى المسار نظرت (إيودينا) خلفها ورأت كل رجال القبيلة يتصايحون.. و(سيس) تأتى مهرولة على طول مسار الأسد.

جرت فى مسار مستقيم على طول الممر الضيق خلال الأعشاب والبوص إلى المكان الظليل الذى يجلس فيه (أوجلومى) وفخذه آخذ فى الشفاء.. وقد استيقظ بالكاد من الصياح وأخذ يحك عينيه.. ودنت المرأة منه وهى تحمل بين يديها (سى) الصغير ودق قلبها بسرعة بين جنبيها وصرخت: "(أوجلومى)!.. (أوجلومى)، القبيلة كلها قادمة!".

جلس (أوجلومى) وهو يحدق بدهشة وبلاهة فيها وفى الصغير (سى).. وأشارت بإصبعها و(سى) على ذراعها.. وحاولت استخدام رصيدها الضعيف من الكلمات لشرح الموقف، بينما كانت تسمع الرجال وهم ينادون.. وكان واضحًا أنهم توقفوا بالخارج فى مكان ما.. وضعت (سى) على الأرض وأمسكت بالهراوة الجديدة ذات أسنان الأسد ووضعتها فى يد (أوجلومى)، ثم جرت لنحو ثلاثة أمتار وأمسكت بالبلطة الأولى.. وقال (أوجلومى) وهو يهز الهراوة الجديدة: "آه!".. وفجأة أدرك خطورة الموقف فاستدار على جانبه وبذل مجهودًا كبيرًا ليقف على قدميه.

ثم توقف وهو يترنح.. وسند نفسه على الشجرة بإحدى يديه ولمس بالكاد الأرض بطرف إصبع ساقه المريضة بحذر شديد.. وأمسك بالهراوة الجديدة فى يده الأخرى.. ونظر إلى فخذه المتعافى وفى تلك اللحظة صدر حفيف من البوص والأعشاب ثم توقف ثم عاد من جديد.

كان (سيس) يتقدم بحذر فى الممر وهو محنى الظهر ممسكًا بعصا الطعن الرمادية المتصلبة بالنار فى يده.. لكنه لم يلبث أن

توقف تمامًا عندما قابلت عيناه عينى (أوجلومى).. وفى الحال نسى (أوجلومى) أن ساقه مريضة ووقف بثبات على كلتا قدميه.. بيد أن شيئًا ما سقط منه فى قطرات.. ونظر إلى أسفل ورأى قطرة دم صغيرة نزت من حافة جرحه المتعافى وسقطت على الأرض.. حك يده هناك حتى يستطيع أن يمسك الهراوة بقوة وركز عينيه مرة ثانية على (سيس).

صاح: "(واو)!".. ووثب إلى الأمام، أما (سيس) الذى ما زال منحنيًا ومراقبًا للموقف فقد دفع بسرعة عصا الطعن التى بيده إلى أعلى دفعة قاتلة.. وفعلاً مزقت العصا ذراع (أوجلومى) التى لم تلبث أن سقطت منها الهراوة إلى أسفل كرد فعل لم يفهمه (سيس) قط.. وعلى الفور سقط الرجل، مثلما يسقط الثور بعد ذبحه بساطور الجزار، تحت قدمى (أوجلومى).

بدا ذلك لـ (بو) شيئًا غريبًا جدًا.. فقد كان مرتاحًا للأعشاب الطويلة على كلا جانبيه لوجود متراس قوى لا يمكن اختراقه هو (سيس) بينه وبين الخطر البعيد ـ أما (آكل القواقع) فقد كان وراءه حيث لا يوجد أى خطر عليه ـ كان جاهزًا للتأخر وإرسال (سيس) إما إلى الموت أو النصر.. كانت تلك منزلته كالرجل الثانى فى القبيلة.. ورأى مؤخرة الحربة التى كان يحملها (سيس) تطير بعيدًا عنه، وفجأة سمع وقع ضربة قوية وبعدها سقط النهر العريض إلى الأمام.. وعندئذ نظر أمامه فوجد (أوجلومى) يحدق فيه من وراء زعيمه الممدد على الأرض.. وشعر (بو) بأن قلبه سقط فى قدميه.. كان فى إحدى يديه حجر رمى وفى الأخرى عصا طعن

رمادية.. والحقيقة أنه لم تتح له فرصة كبيرة للتردد واختيار أيهما يستخدم.

كان (آكل القواقع) رجلاً جاهزًا دائمًا، كما أن (بو) لم يسقط إلى الأمام كما فعل (سيس) من قبل.. بيد أنه انهار راكعًا على ركبتيه ثم تكوم على نفسه بعد أن تلقى ضربة هائلة من الهراوة ذات الأسنان.. وفى الحال دفع (آكل القواقع) حربته إلى الأمام فى خط مستقيم وأصاب (أوجلومى) فى عضلة كتفه ثم واصل ذلك بضربه بقوة بحجر الضرب الذى يمسكه بيده الأخرى، وصاح فى نشوة وهو يفعل ذلك.. ثم حفت الهراوة الجديدة خلال تطويحها بين الأعشاب ولكن بلا فاعلية.. ورأت (إيودينا) (أوجلومى) وهو يتقدم مترنحًا من الممر الضيق إلى المنطقة المكشوفة بعد أن تعثر فى (سيس) وسقط أرضًا وطرف عصا الطعن الرمادية نافذ من ذراعه.. وعندئذ تعرض (آكل القواقع) لإصابة أخيرة من (إيودينا) - التى أعطته اسمه أصلاً - بينما كان وجهه خارجًا مبتهجًا من الأعشاب.. إذ إنها طوحت البلطة الأولى عاليًا بسرعة وأصابته اصابة مباشرة فى صدغه بالضبط، وسرعان ما وقع الرجل فوق (سيس) عند قدمى (أوجلومى) المتمدد أرضًا هو الآخر.

لكن قبل أن يتمكن (أوجلومى) من الوقوف على قدميه، كان الرجلان صاحبا الشعر الأحمر يسرعان بالخروج من الأعشاب وحربتاهما وحجرا الضرب معهما جاهزان فى أيديهما، وخلفهما يتقدم (الثعبان) بحذر.. وعاجلت هى أحدهما بضربة على رقبته، غير أنه لم يسقط أرضًا ولكنه تطوح جانبًا مما أفسد ضربة أخيه التى وجهها إلى رأس (أوجلومى).. وفى لمح البصر أهوى (أوجلومى)

بهراوته على خصر مهاجمه وأطاح به جانبًا ولم يلبث أن أسقطه أرضًا.. وبسرعة انتزع الهراوة وأمسكها بقوة.. وفى تلك اللحظة هجم الرجل ـ الذى طعنته (إيودينا) ـ عليها بحربته وهو يترنح، غير أنها انطرحت أرضًا فى الوقت المناسب لتتفادى طعنته القاتلة لها.. ثم وجدت نفسها بينها وبين (أوجلومى) وهو يدور جانبًا وصاح صيحة فرح لوجود (أوجلومى) قريبًا منه جدًا.. ولكن (أوجلومى) تصرف بسرعة وضربه بالهراوة فى حلقه، وهكذا أوقعت الهراوة ضحيتها الثالثة.. وأثناء سقوطه على الأرض صاح (أوجلومى) صيحة النصر.. صيحة بدون أى كلمات، ولكنها تعبر عن الفرح العظيم والبهجة الغامرة.

كان الرجل الثانى ذو الشعر الأحمر على بعد مترين منها وظهره لها، وفى رأسه خط أحمر قان.. وكان يحاول أن يقف على قدميه بصعوبة.. ووجدت لديها دافعًا غريزيًا لمنع وقوفه، فأطاحت بالبلطة تجاهه، لكنها أخطأته ورأت جانب وجهه.. وكان وقتئذ منحرفًا خلف (سى) ويجرى بين الأعشاب.. وفى تلك الحظة لمحت (الثعبان) واقفًا فى مدخل الممر بجانبه أثناء دورانه ثم رأت ظهره.. ورأت الهراوة تئز فى الهواء، وبعدها رأت رأس (أوجلومى) المصاب بشعره المخضب بالدماء وكتفه الذى ينزف يختفى بين الأعشاب أثناء مطاردته للثعبان.. وبعد لحظات سمعت الثعبان يصرخ فى رعب كامرأة ملتاعة.

جرت لما بعد (سى) إلى حيث انغرزت يد البلطة فى كومة من أوراق "السرخس"، ولما استدارت وجدت نفسها تلهث وحيدة مع

ثلاثة جثث ساكنة.. وكان الجو زاخرًا بالصيحات والصرخات.. وللحظة أحست بالغثيان والدوار، وخطر لعقلها فى تلك اللحظة أن (أوجلومى) قُتل فى ممر الأعشاب والبوص.. وسرعان ما وثبت وهى تكتم صراخها من فوق جثة (بو) وأسرعت تلحق به.

امتدت قدما (الثعبان) عبر الممر بينما اختفت رأسه وسط الأعشاب، وانطلقت فى الممر حتى نقطة بداية انحنائه والخروج إلى أشجار جار الماء.. وعندئذ شاهدت كل ما تبقى من القبيلة فى المنطقة المكشوفة منتشرة كالأوراق البالية وقت الإعصار وعائدة إلى هضبة إقامتها.

كان (أوجلومى) يطارد (جلد القط) باستماتة، غير أن الأخير كان رشيقًا سريع الحركة ولذلك تمكن من الإفلات منه.. وهكذا فعل (واو هاو) الشاب عندما شرع (أوجلومى) فى مهاجمته ومطاردته حتى ما بعد الهضبة، وهناك أدرك (أوجلومى) أنه ليس هناك جدوى من الاستمرار وتوقف عن مطاردته.. الآن كان ما زال محتدمًا بحمية القتال، بينما كان الخشبة المخترقة كتفه تخزه كالمهماز.. وعندما رأت (إيودينا) أن الخطر زال من حوله، توقفت عن العدو ووقفت وهى تلهث.. وأخذت تراقب الأشباح البعيدة وهى تجرى وتصعد إلى أعلى هضبة الإقامة.. وبعد برهة وجيزة أصبحت وحيدة مرة أخرى.. كل شىء حدث بسرعة كبيرة جدًا، وارتفعت ألسنة اللهب من الأخ النارى إلى أعلى بانتظام فوق هضبة الإقامة.. بالضبط كما كانت تفعل منذ عشر دقائق مضت عندما كانت المرأة العجوز واقفة هناك تعبد الأسد.

ويبدو، بعد وقت طويل، أن (أوجلومى) ظهر مرة أخرى على هضبة الإقامة وعاد إلى (إيودينا) وهو منتصر ويتنفس بملء رئتيه.. وهناك وقف شامخًا متورد الوجه وشعره منسدل بمحاذاة عينيه وفى يده بلطته الملطخة بالدماء، فى نفس المكان الذى قدمتها فيه القبيلة قربانًا للأسد.. وبمجرد رؤيتها صاح (أوجلومى): "واو!".. وتهلل وجهه لرؤية رفيقته فى القتال ولوح بهراوته الجديدة التى تحول لونها إلى اللون الأحمر وكساها الشعر.. وعند رؤية وجهه المتورد فرحت واطمأنت وزال عنها كل توتر ووقفت وهى تنتحب من فرط سعادتها.

شعر (أوجلومى) بغصة غريبة لا تفسير لها عندما رآها تبكى، لكنه صاح فقط: "(واو)!".. بصوت عال وهز بلطته يمينًا ويسارًا.. وطلب منها برجولة وقوة أن تتبعه، ثم استدار ومشى بسرعة والهراوة تتأرجح فى يديه باتجاه مكان المعيشة كما لو أنه لم يترك القبيلة قط فى يوم من الأيام.. وعلى الفور توقفت عن البكاء ومشت فى إثره كما ينبغى للمرأة الوفية عمله.

وهكذا عاد (أوجلومى) و(إيودينا) إلى مكان المعيشة الذى فرا منه منذ أيام مضت هربًا من بطش (يويا).. وفى مكان المعيشة رقد النصف المتبقى من ظبى بعد أن أكلت القبيلة نصف الآخر، مثلما كان الحال قبل أن يصبح (أوجلومى) رجلاً و(إيودينا) امرأة. وجلس (أوجلومى) ليأكل و(إيودينا) بجواره كرجل تمامًا بينما راقبتهما القبيلة فى مكمن لها على مسافة آمنة بعيدًا عنهما. وبعد بعض الوقت عادت واحدة من الفتيات الكبار بشىء من الخوف وهى

تحمل (سى) الصغيرة بين ذراعيها.. ونادت (إيودينا) عليهما بالاسم وقدمت لهما الطعام.. غير أن الفتاة الكبيرة كانت خائفة ولم تقترب منها، بالرغم من أن (سى) الصغيرة حاولت الاقتراب من (إيودينا). وبعد أن أكل (أوجلومى) وشبع، استسلم للنعاس وأخيرًا نام.. وعندئذ تسلل الآخرون ببطء من مخابئهم واقتربوا منهم.. وعندما استيقظ (أوجلومى)، وبعيدًا عن حقيقة عدم وجود أى رجل بجواره، فقد بدا أنه لم يغادر القبيلة قط من قبل.

ولكن عزيزى القارئ لاحظ حدوث شىء غريب ولكنه حقيقى: فقد نسى (أوجلومى) أثناء كل هذا القتال أنه كان يعانى من العرج، إذ لم يشعر بالعرج أبدًا!.. والآن، بعد أن ارتاح، تذكر أنه كان أعرج وظل بالفعل رجلاً أعرج طوال ما تبقى له من العمر!.

أما (جلد القط) والرجل الثانى أحمر الشعر و(واو هاو) الذين كانوا يشحذون أحجار الصوان بمهارة ـ مثلما كان يفعل أبوه من قبل ـ فقد فرا من وجه (أوجلومى) ولم يعرف أحد إلى أين ذهبوا.. ولكن بعد يومين عادوا كلهم وجثموا فى مكان بعيد عن هضبة المعيشة بين أشجار "السرخس" تحت أشجار الكستناء وأخذوا يراقبونه.. الآن كان غضب وحمية (أوجلومى) قد تبددا تمامًا، وتحرك باتجاههما، لكنه سرعان ما تراجع.. وعند الغروب اختفى أولئك الرجال.. وفى نفس هذا اليوم وجدوا العجوز الشمطاء بين أشجار "السرخس" فى المكان الذى عثر فيه (أوجلومى) عليها عندما كان يطارد (واو هاو).. كانت وقتئذ ميتة وجسمها كامل ولكن وجهها أشد قبحًا من أى وقت مضى.. وكانت الذئاب والنسور

جربت لحم جسدها ولكن سرعان ما لفظتها.. لقد كانت تلك العجوز دائمًا مدهشة للغاية!

فى اليوم التالى عاد الرجال الثلاثة مرة أخرى وجثموا فى مكان أقرب إلى (أوجلومى).. وكان مع (واو هاو) أرنبان بريان لتقديمهما كهدية.. ومع الرجل ذو الشعر الأحمر حمامة مطوقة (حمامة برية).. ووقف (أوجلومى) أمام النساء وقلدهما.

فى اليوم التالى جلسوا فى مكان أقرب بدون حجارة أو عصى ومعهم نفس الهدايا.. وكان مع (جلد القط) سمكة سلمون كبيرة.. وفى تلك الأيام كان من النادر أن يتمكن الرجال من صيد الأسماك.. إلا أن (جلد القط) كان بمقدوره أن يقف فى الماء ساكنًا لساعات طويلة ثم يمسك بالأسماك بيديه. وفى اليوم الرابع سمح (أوجلومى) لأولئك الرجال الثلاثة بالحضور إلى مكان المعيشة بسلام وأمان ومعهم الطعام الذى تمكنوا من توفيره.

أكل (أوجلومى) السمكة السلمون وشعر بسعادة.. وبعد ذلك أصبح (أوجلومى) ولشهور طويلة جدًا الزعيم وفرض إرادته على القبيلة فى وقت السلم. ولكن بعد فترة من الزمن قتل مثل (يويا) وأكلته الحيوانات والنسور.

الرجل الذى يمكنه صنع المعجزات

ثمة شك فى أن الهبة كانت فطرية أو غريزية.. ومن ناحيتى فإننى أعتقد أنها جاءته فجأة.. والحقيقة أنه كان نزاعًا إلى الشك قبل بلوغه سن الثلاثين.. ولم يكن يؤمن بالقدرات الخارقة كالمعجزات. وحيث إن هنا أكثر الأماكن الملائمة، فعلىّ أن أقول إنه كان رجلاً قصير القامة وذا عينين سمراوين متقدتين وشعر أحمر خشن وشارب ملتف الطرفين إلى أعلى ونمش فى الوجه.

وكان الرجل يُدعى (جورج ماكورتر فورترينجاى).. وهو اسم لا يدعو المرء بأى حال من الأحوال لكى يتوقع أن تصدر منه معجزات!.. ويعمل كاتبًا بشركة "جمشوت".. وكان مولعًا بالجزم والتوكيد فى كلامه.. وحدث بينما كان يؤكد استحالة حدوث المعجزات أن صدر منه أول إعلان عن قدراته الخارقة. وكان هذا الجدال الخاص جدًا يدور فى حانة "التنين الضخم"، بينما كان (تودى بيمسن) يلعب دور المعارض له بأسلوب مضجر ولكنه فعّال مثل: "حسنًا، إذن أنت تقول إن...." الذى دفع السيد (فورترينجاى) إلى أقصى حدود صبره.

وكان موجودًا بخلاف هذين الرجلين راكب دراجة يغطيه التراب، وصاحب الحانة (كوكس)، والآنسة (مايبريدج) المحترمة جدًا، وفى نفس الوقت ساقية الحانة البدينة. وكانت الآنسة (مايبريدج) تقف وظهرها للسيد (فورترينجاى) وهى تغسل بعض الأكواب، بينما أخذ الآخرون يراقبونه ويستمتعون إلى حد ما بعقم أسلوبه التأكيدى دائمًا.

وبناء على حث تكتيك[١] السيد (بيمسن) له، قرر السيد (فورترينجاى) أن يخطب خطبة بليغة للغاية ولم يلبث أن قال "انظر إلىّ يا سيد (بيمسن).. لنناقش معًا بالضبط ما هى المعجزة.. إنها شىء مخالف لمسار الطبيعة الذى تقرره مشيئة الرب.. شىء لا يمكن أن يحدث بدون إرادة أو مشيئة خاصة".

قال السيد (بيمسن) مستفزًا إياه "إذن أنت تقول هذا".

احتكم (فورترينجاى) إلى راكب الدراجة، الذى ظل حتى ذلك الوقت مستمعًا صامتًا، وتلقى منه علامة الموافقة بسعاله المتمهل ونظره إلى السيد (بيمش).. بيد أن صاحب الحانة لم يبد رأيًا ما.. ورجع السيد (فورترينجاى) إلى السيد (بيمسن) وتلقى منه تنازلاً غير متوقع بالموافقة مع التحفظ على تعريفه للمعجزة.

وقال السيد (فورترينجاى) وقد تشجع كثيرًا: "مثلاً.. هنا يمكن أن تكون هناك معجزة.. فهذا المصباح لو سارت الأمور سيرها الطبيعى لما احترق هكذا رأسًا على عقب، أليس ذلك صحيحًا يا (بيمسن)؟".

---

(١) الفن العسكرى المتعلق بتنفيذ أهداف معينة (المترجم).

قال (بيمسن) "أنت تقول إنه لن يحترق".. فقال (فورترينجاى) "وأنت؟ أنت لا تعنى أن تقول... إيه؟".

قال (بيمسن) بتردد "لا.. لا يمكن أن يحترق".

قال السيد (فورترينجاى): "حسنًا جدًا.. وقد يأتى شخص ما هنا، وربما يكون أنا، ويقف هكذا مثلى ويقول للمصباح مستجمعًا كل إرادته، مثلما أفعل، : "انقلب رأسًا على عقب بدون أن تنكسر واستمر فى الاحتراق بثبات".. ثم قال "هاللو". كان ذلك كافيًا لكى يقول الجميع "هاللو".. وعندئذ شاهدوا جميعًا شيئًا مستحيلاً لا يمكن تصديقه.. وقف المصباح معلقًا فى الهواء مقلوبًا رأسًا على عقب.. ويحترق بثبات ولهبه يتجه إلى أسفل.. وكان ذلك بلا جدال المصباح الحقيقى المألوف فى حانة التنين الضخم.

وقف السيد (فورترينجاى) وسبابته مفرودة إلى الأمام وجبينه مقطب وينتظر التهشم الوشيك للمصباح. أما راكب الدراجة الذى كان يجلس بجوار المصباح فقد توارى ووثب إلى الجانب الآخر من الحانة.. وعمومًا كل الناس قفزوا أو هرولوا إلى هنا أو هناك.. والتفتت الآنسة (مايبريدج) وصرخت.. وظل المصباح فى مكانه لمدة ثلاث ثوانى.. ثم قال السيد (فورترينجاى) وهو يطلق صيحة خافتة بسبب توتره الشديد: "لا أستطيع حفظه عاليًا هكذا أكثر من ذلك".. ثم ترنح إلى الخلف.. وفى الحال توهج المصباح المقلوب فجأة ثم سقط فى ركن الحانة واصطدم بالأرض وتحطم تمامًا وانطفأ نوره.

من حسن الحظ أن المصباح كان له وعاء معدنى، وإلا لكان المكان بأكمله اشتعل.. وكان السيد (كوكس) أول من يتحدث.. وأفادت

تعليقاته ـ التى كانت تخلو من أى إضافات غير ضرورية وغير مرغوب فيها ـ بأن (فورترينجاى) رجل أحمق.. لكن كانت حال (فورترينجاى) وقتئذ لا تسمح له بالجدال حتى فى قضية فكرية خطيرة كهذه!.. فقد كان الرجل مصعوقًا تمامًا من هذا الشىء العجيب الذى حدث لتوه.. والمناقشة اللاحقة لا تلقى بأى ضوء تقريبًا على هذا الموضوع، على الأقل فيما يتعلق بـ (فورترينجاى).. والرأى العام السائد وقتئذ لم يكن قريبًا فقط من رأى السيد (كوكس) بل كان مؤيدًا له بكل قوة.. الجميع اتهموا (فورترينجاى) بعمل خدع غبية ووصفوه بأنه مبدد أحمق لراحتهم وأمنهم.. وكان ذهن الرجل يتعرض لإعصار من الحيرة.. بل لعله كاد يوافقهم على رأيهم هذا.. وأبدى معارضته غير المجدية بالمرة لاقتراح مغادرته المكان.

اتجه الرجل إلى منزله وهو يحتدم غيظًا.. ياقة سترته متغضنة حول عنقه، وعيناه تؤلمانه وأذناه حمراوان.. ولاحظ بتوتر وعصبية مصابيح الشارع العشرة واحدًا بعد الآخر وهو يمر بها.. وفقط عندما خلا بنفسه فى مخدعه الصغير فى منطقة "تشيرش رو" وجد نفسه قادرًا على استعراض الأحداث التى وقعت له مؤخرًا وسأل نفسه "ترى ما الذى حدث بحق السماء.. وما معنى هذا كله؟".

كان قد خلع سترته وحذاءه طويل الرقبة وجلس على سريره ويداه فى جيبيه، ويكرر دفاعه للمرة السابعة عشرة: "إننى لم أرد أن ينقلب هذا المصباح اللعين". ثم خطر على باله شىء عجيب.. ففى

نفس اللحظة التى قال فيها كلماته التى تطلب من المصباح بأن ينقلب، بدون أن يقصد حدوث شىء ما، رأى المصباح فى الهواء.. وشعر بأن المصباح اعتمد عليه فى بقائه معلقًا هناك بدون أن يفهم كيف حدث هذا. ولم يكن له عقل شديد التعقيد وإلا كان توقف لبعض الوقت عند هذه "المشيئة غير المتعمدة".. وتحديدًا عند الجوانب الغامضة للتصرفات اللاإرادية.. لكن من الواضح أن هذه الفكرة خطرت على باله بشكل غامض مقبول إلى حد ما.. ومن هذا المنطلق، وفى غياب أى منهج منطقى واضح، أعترف بأن الرجل بدأ تجاربه العملية!

أشار بتصميم إلى شمعته وجمع شتات ذهنه وركزه تمامًا عليها.. وعلى الرغم من شعوره بأنه يقوم بتصرف سخيف. ثم قال لها "ارتفعى إلى أعلى".. ولكن بعد ثانية واحدة تلاشى شعوره هذا تمامًا.. فقد ارتفعت الشمعة فى الهواء للحظة رهيبة.. وعندما شهق السيد (فورترينجاى)، سقطت الشمعة مصطدمة بطاولة التزين تاركة إياه وسط الظلام الحالك، باستثناء الوهج المتضائل لمصباحه الفتيلى الزيتى الصغير.

قبع السيد (فورترينجاى) لفترة فى الظلام لا يحرك ساكنًا.. وقال لنفسه "لقد حدث ذلك إذن.. ولكننى لا أعرف كيف أشرح ذلك أبدًا". وتنهد بشدة وأخذ يتحسس جيبه باحثًا عن عود ثقاب.. لم يجد أيًا منها.. فنهض وأخذ يتحسس طاولة التزين.. وقال لنفسه "أتمنى لو كان معى عود ثقاب".. عاد إلى سترته وبحث فيها لكنه لم يجد ثقابًا.. ثم خطر لعقله أن المعجزات تكون ممكنة أيضًا

حتى مع عيدان الثقاب.. وعلى الفور فرد يده ونظر إليها بتجهم وقال "أريد عود ثقاب فى يدى هذه".. وشعر بجسم خفيف يسقط فى كفه وانقفلت أصابع يده على عود ثقاب.

بعد عدة محاولات غير مثمرة لإشعال هذا العود، اكتشف أنه عود ثقاب أمان[٢].. فرماه ثم خطر على باله أنه يمكن أن يطلب إشعاله.. وفعل ذلك فعلاً ووجد أنه يشتعل وسط بساط طاولة التزين.. وأمسكه مسرعًا، إلا أنه انطفأ.. وزاد إحساسه بالاحتمالات الممكنة. وتحسس الشمعة فى الشمعدان ثم استبدلها بأخرى وقال "الآن اشتعلى أيها الشمعة".. وعلى الفور اشتعلت الشمعة.. ثم رأى ثقبًا أسود صغيرًا فى غطاء المرحاض يتصاعد منه خيط رفيع من الدخان.. وأخذ لفترة ينقل بصره من هذا الخيط الدخانى واللهب الصغير للشمعة.. ثم رفع بصره وقابل وجهه ذاته فى المرآة.. وبهذه الطريقة تواصل مع نفسه فى صمت ليعلم الوقت. وأخيرًا قال السيد (فورترينجاى) مخاطبًا صورته فى المرآة "ما رأيك فى المعجزات الآن؟".. بعد ذلك أصبح تفكير السيد (فورترينجاى) ذا طبيعة عنيفة ومضطربة.. وبقدر ما أمكنه أن يرى، فقد كان الأمر مجرد مشيئة محضة بالنسبة له. وطبيعة تجاربه الأولى صرفته عن المزيد من التجارب باستثناء التجارب الحذرة للغاية.

لكنه رفع صحيفة ورق إلى أعلى، وحوّل لون كوب ماء إلى القرنفلى ثم الأخضر، ثم أوجد قوقعًا ثم أباده بمعجزة، وحصل

---

(٢) يمكن إشعاله فقط عند تعريضه لسطح احتكاكى معد كيميائيًا (المترجم).

لنفسه بمعجزة على فرشاة أسنان. وفى بعض الأوقات فى ساعات الصباح الباكر توصل إلى حقيقة أن قوة مشيئته لابد أنها نادرة جدًا ومن نوع فعّال للغاية. وهى حقيقة لا ريب فيها أنه كانت لديه فكرة طفيفة عنها فيما مضى، ولكن لا يوجد دليل واعد مؤكد على ذلك. والآن تمثل خوفه وحيرته بخصوص اكتشافه الأول فى كبريائه وفخره لهذا الدليل على تميزه الخارق وهذا الإخبار الغامض بقدراته المعجزة.

أدرك أن ساعة الكنيسة تدق الواحدة. ونظرًا لأنه لم يخطر على باله أن هذه الواجبات اليومية فى "جامشوت" يمكن الاستغناء عنها بمعجزة، فقد واصل خلع ملابسه حتى يلقى بنفسه فى الفراش بدون أى مزيدَ من إضاعة الوقت. وعندما كان يكافح لكى يخرج قميصه من رأسه، خطرت له فكرة رائعة، فقال محدثًا نفسه "أريد أن أرى نفسى فى الفراش الآن"، وعلى الفور حدث ذلك. ثم قال "أريد أن أرى نفسى وقد خلعت ملابسىِ" وعندما وجد ملاءات السرير باردة، أضاف بسرعة "ومرتديًا قميص نومى ـ لا، بل مرتديًا قميص نوم جميل من الصوف الناعم.. نعم، هو ذا!" .. ثم قال بسرور لا يوصف "والآن أريد أن أنام ملء جفونى" .

استيقظ فى الساعة المحددة له، وأخذ يفكر بعمق طوال مدة تناول إفطاره، وتساءل عما إذا كانت تجربته الليلة المنصرمة حقيقة أم مجرد حلم أخاذ جميل.. وفى النهاية اتجه ذهنه إلى التجارب الحذرة من جديد، فمثلاً كانت هناك ثلاث بيضات لإفطاره، اثنتان أحضرتهما له صاحبة الفندق وكانتا لا بأس بهما، والثالثة كانت

بيضة أوزة رائعة تم وضعها وطهيها وتقديمها له بواسطة قدراته الخارقة، ثم توجه إلى "جمشوت"، وهو فى حالة من الإثارة الشديدة التى نجح فى إخفائها.. ولم يتذكر قشرة البيضة الثالثة إلا عندما تحدثت عنها صاحبة الفندق فى مساء ذلك اليوم، وطوال اليوم لم يفعل شيئًا فى العمل بسبب معرفته المذهلة بقدراته الذاتية العجيبة.. إلا أن ذلك لم يسبب له أدنى ضرر لأنه تمكن من تعويضه بمعجزة فى آخر عشر دقائق.

فى آخر اليوم تحولت حالته العقلية من الدهشة إلى الانبهار والزهو.. ولو أن ظروف طرده من التنين الضخم كانت لازالت تسيئه بتذكرها، كما أن سوء فهم الموضوع الذى وصلت أخباره إلى زملائه فى العمل أفضى إلى بعض المزاح والدعابة معهم. كان من الواضح أنه لابد أن يكون حريصًا فى وصف كيف رفع أجسامًا محسوسة.. بيد أنه من نواح أخرى بدت هبته هذه مبشرة أكثر وأكثر عندما قلّبها فى عقله.. فقد نوى - ضمن أشياء أخرى - أن يزيد من قدر ممتلكاته الشخصية باتباع أساليب إعجازية أقل زهوًا ولفتًا للأنظار.

وأوجد زوجًا من الأزرار الماسية الفاخرة، ثم أبادهما بسرعة عندما عبر شاب من "جمشوت" مكتب المحاسبة ودخل مكتبه.. فقد خشى أن يتساءل هذا الشاب عن كيفية حصوله عليهما. كان يدرك جيدًا أن تلك الهبة التى حباه الله بها تتطلب الحرص والحذر فى ممارستها.. لكن حتى تلك اللحظة كان يرى أن الصعاب المرتبطة بإجادتها، لن تكون أكثر من تلك التى واجهها من قبل فى دراسة ركوب الدراجات. ولعل هذا التشابه، بالإضافة إلى شعوره بأنه شخص غير مرغوب فيه فى حانة التنين الضخم، هو الذى دفعه

إلى الخروج بعد تناول العشاء فى الطريق الضيق الممتد خلف مصنع الغازات.. لكى يتمرن على بعض المعجزات على انفراد.

ولعله كان هناك بعض الضعف أو النقص فى محاولاته.. فبخلاف قوة مشيئته الخارقة، فإن السيد (فورترينجاى) لم يكن قط رجلاً فذًا مختلفًا عن غيره.. وخطرت بباله معجزة عصا موسى (عليه السلام).. لكن الليل كان حالكًا وغير مناسب للسيطرة السليمة على حية هائلة الحجم!.. ثم تذكر قصة (تانهويزر) التى قرأها على ظهر غلاف كتاب موسيقى.. وبدا له ذلك جذابًا جدًا ولا ضير منه.. وفى الحال غرس عصا سيره فى النجيل الذى يغطى حافتى الممر، وأمر الخشب الجاف أن يزهر منبتًا الزهور. وفى الحال تعبق الهواء برائحة الورود.. ورأى بنفسه بواسطة عود ثقاب كيف تحققت بالفعل تلك المعجزة.. بيد أن قناعته لم تلبث أن انتهت باقتراب وقع أقدام.

وخشى (فورترينجاى) أن يتم اكتشاف قدراته مبكرًا، وخاطب عصا الإزهار بسرعة "عودى كما كنت".. وما كان يقصده هو "تغيرى كما كنت".. لكنه بالطبع كان مرتبكًا..,وتراجعت العصا بسرعة هائلة.. ودوت صرخة غضب وكلمة بذيئة من شخص مقترب.. صاح هذا الصوت "ما الذى تفعله أيها المغفل بإلقاء النباتات الشائكة هكذا!.. لقد أصابتنى فى قصبة ساقى".

قال السيد (فورترينجاى) "إننى آسف أيها العجوز".. وبعد أن أدرك الطبيعة المحرجة لهذا التفسير،أمسك شاربه بعصبية. ورأى (وينش)، أحد رجال الشرطة الثلاث التابعين لمنطقة "إمرينج"، وهو يقترب.

سـأل الـشـرطى: "مـا الـذى تـقـصـده بـهـذا؟.. هل هـذا أنت؟ ياللعجب! أنت الرجل الذى كسر المصباح فى حانة التنين الضخم!".

قال السيد (فورترينجاى) "إننى لم أقصد شيئًا من وراء ذلك.. لم أقصد شيئًا قط".

"إذن لماذا فعلت ذلك؟".. فقال (فورترينجاى) "لا تزعج نفسك بهذا الأمر.. إنه لا شىء بالمرة".

"لا شىء بالمرة!..ألا تعرف أن العصا تؤلم؟.. إيه.. لابد أن هناك سببًا دفعك لهذا".

لكن السيد (فورترينجاى) لم يستطع للحظة أن يفكر فى سبب دعاه لذلك.. ويبدو أن صمته كان مدعاة لضيق وتبرم السيد (وينش) الذى قال: "لقد كنت تهاجم قوات الشرطة هذه المرة أيها الشاب.. هذا هو ما كنت تفعله بالضبط".

ظهر الضيق والتبرم على وجه السيد (فورترينجاى) وقال "أصغ إلىّ يا سيد (وينش).. أنا آسف جدًا.. وحقيقة ما حدث هو أن....".. فقال الشرطى "حسنًا؟".

لم يستطع أن يفكر فى غير الحقيقة.. ولذلك قال "لقد كنت أصنع معجزة".. وحاول أن يتكلم بشكل بسيط وارتجالى.. بيد أنه لم يحقق ما يريده بالضبط..

"تصنع ماذا؟.. ياللعجب!.. لا تتكلم يا رجل بهذا السخف.. تصنع معجزة؟.. حقًا؟.. معجزة!.. لم أسمع شيئًا أعجب من هذا من قبل.. والغريب أنك الرجل الذى لا يؤمن بالمعجزات.. أليس كذلك؟

والحقيقة أن هذه واحدة من ألاعيبك الغبية.. نعم هذه هى الحقيقة.. والآن أقول لك فاسمعنى جيدًا ...".

لكن لم يحدث قط أن السيد (فورترينجاى) استمع لما يريد أن يقوله السيد (وينش).. وأدرك أنه فضح نفسه وكشف سره القيّم لكل من هب ودب.. ودفعه غيظه الشديد إلى العمل.. فاستدار إلى الشرطى بسرعة وحدة وقال له " لدىّ ما يكفى من هذا.. نعم لدىّ بالفعل!.. وسوف أريك حيلة من حيل الحواة.سوف أقوم بهذه الحيلة.. أما أنت فلتذهب إلى الجحيم!.. اذهب الآن!".. وفى الحال أصبح بمفرده.

لم يقم السيد (فورترينجاى) بأى مزيد من المعجزات تلك الليلة.. بل ولم يتعب نفسه لكى يرى ما آلت إليه عصا الإثمار التى معه.. ورجع إلى البلدة وهو خائف وهادئ جدًا.. ودلف إلى مخدعه وقال "يا إلهى!.. إنها هبة رائعة.. هبة جبارة للغاية.. إننى لم أقصد كل هذا.. وأعجب ما هو شكل الجحيم"!.

جلس على حرف السرير يخلع حذائيه طويلى الرقبة.. وخطرت على باله فكرة سعيدة نقلت الشرطى إلى سان فرانسيسكو.وبدون أى مزيد من التدخل فى علاقة السببية، ألقى بنفسه بهدوء على الفراش. وفى الليل حلم بغضب (وينش) الشديد منه!

فى اليوم التالى سمع السيد (فورترينجاى) خبرين مثيرين. إذ زرع بعضهم وردًا متسلقة رائعة الجمال أمام المنزل الخاص للسيد (جومشوت) الأكبر فى طريق "لولابورده".. كما أن النهر حتى طاحونة "رولينج" يجرى البحث فيه عن جثة الكونستابل (وينش)، وكان السيد (فورترينجاى) شارد الذهن ومستغرقًا فى تفكير

عميق طوال ذلك اليوم.. ولم يجر أى معجزات، وإنما كان يفكر لـ (وينش).. وكذا معجزة إكمال عمله اليومى بدقة فائقة بالرغم من حشد الأفكار التى تطن فى عقله. ولاحظ الكثير من الناس شرود ذهنه غير العادى واعتدال أسلوبه.. وكان ذلك مثارًا لمزاحهم وسخريتهم.. والحقيقة أنه قضى أكثر اليوم يفكر فى (وينش) وفى مساء يوم الأحد ذهب إلى الكنيسة، والغريب أن السيد (ميدج) الذى يهتم بشكل خاص بأمور السحر والتنجيم ألقى موعظة فى موضوع "الأشياء غير القانونية". ولم يكن السيد (فورترينجاى) من المترددين النظاميين على الكنيسة، إلا أن نظام الشك المؤكد، الذى أشرت إليه بالفعل من قبل، اهتز الآن اهتزازًا كبيرًا. وألقى مضمون الموعظة ضوءًا جديدًا تمامًا على تلك الهبات الجديدة، مما حدا به إلى أن يستشير السيد (ميدج) عقب الصلاة مباشرة. وبمجرد أن فعل ذلك، وجد نفسه يتساءل لماذا لم يفعل ذلك من قبل.

شعر السيد (ميدج) وهو رجل نحيل سريع الغضب، ذو معصمين طويلين جدًا، وعنق بالغ الطول، بالسرور عندما طلب منه شاب، يُعرف عنه اللامبالاة فى أمور الدين على نحو أصبح معروفًا للجميع فى البلدة، أن يتحدث معه على انفراد. وبعد بعض التأخيرات الضرورية، قاده إلى غرفة مكتب القس التى كانت ملحقة بالكنيسة.. وأجلسه على مقعد مريح.. ثم وقف أمام نار مدفأة مبهجة.. وساقاه ترسلان ظلين مقوسين على الجدار المقابل.. وطلب من السيد (فورترينجاى) أن يدخل فى موضوعه.

فى البداية شعر السيد (فورترينجاى) بقليل من الارتباك ولاقى بعض الصعوبة فى فتح الموضوع.. وأخذ يقول "إنك لن تصدقنى يا سيدى (ميدج) لو قلت لك إننى خائف..." مرارًا وتكرارًا لبعض الوقت.. وأخيرًا وجد الجرأة لكى يطرح على السيد (ميدج) سؤالاً واحدًا عن رأيه فى المعجزات.. وأخذ السيد (ميدج) يكرر كلمة "حسنًا" بشكل رتيب عندما قاطعه السيد (فورترينجاى) قائلاً: "أعتقد أنك لا تصدق أن شخصًا عاديًا جدا، مثلى أنا، يجلس أمامك الآن، لديه نوع ما من القدرة العجيبة داخله جعلته قادرًا على عمل أشياء معينة بإرادته".

قال السيد (ميدج) "إن هذا ممكن.. هناك قدرات معينة يمكنها أن تفعل ذلك".. فقال السيد (فورترينجاى): "لو أخذت شيئا ما من هنا، فأعتقد أننى قد أريك تجربة من نوع ما.. والآن خذ مثلاً علبة التبغ الموجودة على المائدة.. وما أريد معرفته هو ما إذا كان ما سأفعله بها معجزة أم لا.. أريد فقط نصف دقيقة من فضلك يا سيد (ميدج)".

قطب حاجبيه وأشار إلى علبة التبغ وقال "لتصبحى مزهرية بنفسك".. وفعلت علبة التبغ مثلما أمرها. ودهش السيد (ميدج) بشدة عند حدوث هذا التغير.. ووقف يراقب كلاً من صانع المعجزة ووعاء الزهور.. ولم يجد شيئًا ليقوله.. والآن تجرأ واستند على الطاولة وشم رائحة زهور البنفسج.. كانت زهورًا نضرة قُطفت لتوها ولها رائحة ذكية.. ثم حدج السيد (فورترينجاى) مرة أخرى وسأله "كيف فعلت ذلك؟".

فتل السيد (فورترينجاى) شاربه وقال "بمجرد أننى طلبت ذلك.. وهاهى أمامك.. والآن هل هذه معجزة أو أنها سحر وشعوذة؟ أو ما هى بالضبط؟.. وما هو رأيك فيما يحدث لى؟.. هذا هو سؤالى لك".

"هذه بلا شك أحداث وأمور خارقة للعادة.. وهذا هو رأيى".

"فى مثل هذا اليوم من الأسبوع الماضى لم أكن أعرف أننى أستطيع أن أفعل شيئًا كهذا أكثر منك.. ثم بعد ذلك حدث كل شىء بسرعة مفاجئة.. وأعتقد أن هناك شيئًا عجيبًا بشأن إرادتى أو مشيئتى حسبما أرى".

"لكن هل هذا كل شىء؟.. أعنى هل تستطيع أن تفعل أشياء أخرى غير ذلك؟".

قال السيد (فورترينجاى): "يا إلهى! نعم أستطيع!.. أى شىء تريد".. وفكر ثم فجأة تذكر حيلة للدعابة والمرح رآها من قبل، وقال وهو يشير بأصبعه "هاهى!.. تغيرى إلى حوض أسماك.. لا ليس هذا.. تغيرى إلى إناء زجاجى ممتلئ بالماء الذى تعوم فيه أسماك الزينة الذهبية الصغيرة.. نعم هذا أفضل! هل ترى ذلك يا سيد (ميدج)؟".

"نعم، إن هذا مدهش حقًا.. إنه شىء لا يُصدق.. إنك إما أن تكون صانع معجزات غير عادى.ولكن لا ....".

أسرع السيد (فورترينجاى) قائلاً "إننى أستطيع تغييرها إلى أى شىء.. أى شىء تريد.. هاك مثلاً.. الآن لتصبحى حمامة".

وفى لحظة كانت هناك حمامة زرقاء تخفق بجناحيها فى أرجاء الغرفة، مما جعل السيد (ميدج) يخفض رأسه كلما مرت بالقرب منه.. فقال السيد (فورترينجاى) "هلا توقفت الآن؟".. وعندئذ سكنت حركة الحمامة تمامًا وهى تطير فى الهواء. وقال مستطردًا: "أستطيع أن أعيدها مرة أخرى إلى وعاء زهور".. ثم عادت وعاء الزهور مرة أخرى على الطاولة.. وقال أخيرًا "أظن أنك تريد أن تشعل سيجارًا بعد كل ذلك".. وفى الحال حوَّل المزهرية إلى علبة التبغ الأصلية.

تابع السيد (ميدج) كل تلك التغيرات الأخيرة فى صمت يتخلله الهتاف والتعجب.. وحدق فى السيد (فورترينجاى) ثم التقط علبة التبغ بحذر شديد.. وفحصها ثم أعادها إلى الطاولة.ولم يزد تعبيره عن أحاسيسه وقتئذ عن كلمة "حسنًا!". وقال السيد (فورترينجاى): "والآن بعد كل ذلك من السهل على أن أشرح لك ما حدث".. وشرع السيد (فورترينجاى) فى قصة طويلة ومثيرة عن تجاربه الغريبة.. بدءًا بالحادثة الغريبة التى وقعت للمصباح بحانة التنين الضخم، ومرورًا بالهواجس الملحة التى كانت تطارد (وينش) المسكين. وعندما أفاض فى حديثه، فإن الزهو المؤقت الذى سببه ذعر السيد (ميدج) تبدد تمامًا.. وعاد إلى شخصية السيد (فورترينجاى) الطبيعية اليومية التى ألفها الناس.

أنصت السيد (ميدج) باهتمام بالغ إليه، وهو ممسك بعلبة التبغ فى يده، وجلسته تتغير من وقت لآخر تبعًا لمجرى الحديث. والآن بينما كان السيد (فورترينجاى) يتناول قصة معجزة البيضة الثالثة، قاطعه القس بفرد يده قائلاً "هذا ممكن ومعقول.. وهو مدهش

بالطبع لكنه يوفق بين عدد من المشاكل. والقدرة على عمل معجزة هى نعمة بلا شك.. خاصية فريدة ومميزة جدًا مثل العبقرية أو كشف الغيب.. وهى حتى الآن تأتى نادرًا جدًا ولأشخاص استثنائيين.. لكن فى حالتنا هذه.. إننى طالما تعجبت من معجزات (محمد) ﷺ ومعجزات أتباع اليوجا ومعجزات السيدة (بلافاتسكى).. ولكن بالطبع!.. نعم إنها ببساطة نعمة أو هبة.. تحمل فى طياتها الأقوال الرائعة للفكر العظيم - وانخفض صوت السيد (ميدج) "- نيافة دون أرجيل.. إننا هنا نتقصى أبعاد قانون أكثر عمقًا بكثير من قوانين الطبيعة العادية.. نعم.. نعم استمر.. استمر!".

واصل السيد (فورترينجاى) حديثه موضحًا الموقف السيئ الذى تعرض له (وينش)، وبدأ السيد (ميدج) - الذى لم يعد خائفًا - يفرد ساقيه ويبدى دهشته، فقال: "إن هذا هو أكثر ما أقلقنى فى الأمر كله.. وهذا أكثر المواضع التى أحتاج فيها بالتأكيد إلى النصيحة.. بالطبع هو الآن فى سان فرانسيسكو - أيا كانت مدينة سان فرانسيسكو هذه - إلا أن ذلك بالطبع مقلق لكلينا كما سوف ترى يا سيد (ميدج).. ولا أستطيع أن أدرك كيف يمكنه أن يفهم ما حدث.. وأخشى أنه مذعور وساخط وحانق جدًا ويحاول أن ينال منى.. ويمكننى القول بأنه يسعى للانطلاق فى أول فرصة إلى هنا.. وسوف أعيده إلى هنا بمعجزة بعد بضع ساعات عندما أفكر فى هذا الأمر.. وبالطبع هذا شىء لن يستطيع أن يفهمه والأرجح أنه سيضايقه ويثير حنقه. وبالطبع لو اشترى تذكرة فى كل مرة ليحضر إلى هنا فسوف يكلفه ذلك أموالاً كثيرة.. وأنا فعلت كل ما

فى وسعى من أجله.. لكن الحقيقة أنه من الصعب عليه أن يضع نفسه فى مكانى لكى يستطيع أن يحكم علىّ بطريقة عادلة.. وفكرت بعد ذلك فى أن ملابسه قد تكون اتسخت أو بالأحرى احترقت ـ إذا كانت الجحيم على نفس الصورة التى نتخيله بها ـ ولكن بعد أن حولته إلى هناك.. وفى هذه الحالة فإننى أعتقد أنهم حبسوه فى سان فرانسيسكو.. وبالطبع أردت توصيل حلة جديدة وملابس جديدة إليه بمجرد أن فكرت فى ذلك.. ولكن، كما ترى، فإننى فى حيرة من أمرى....".

نظر السيد (ميدج) إليه بجدية وقال له "أرى أنك فعلاً فى ورطة.. نعم، إنه موقف صعب.. ولكن تُرى كيف ستتمكن من إنهائه؟". وبدا أنه مشتت الفكر ولم يصل إلى رأى محدد.. ثم أردف "ومع ذلك فإننا سوف نترك (وينش) لبعض الوقت لنناقش الموضوع الأكبر.. لا أظن أن هذه حالة من حالات السحر أو الشعوذة أو أى شئ من هذا القبيل.. ولا أظن أن هناك أى طبيعة إجرامية من أى نوع فى هذا الأمر كله يا سيد (فورترينجاى) لا شىء من هذا القبيل، ما لم تكن تخفى عنى حقائق مادية هامة.. إن هذه معجزات.. معجزات حقيقية خالصة.. إذا جاز لى التعبير.. ومن أعلى درجة يتصورها المرء".

وبدأ يذرع بساط المدفأة ويومئ بجسمه وهو يتكلم.. بينما جلس السيد (فورترينجاى) واضعًا يده على الطاولة، ورأسه على ذراعه.. ويبدو عليه القلق.. وقال "إننى لا أرى الآن كيف يمكننى أن أتصرف مع (وينش)".

وقال السيد (ميدج): "إن هبة صنع المعجزات ـ وهى هبة قوية جدًا ـ سوف تجد طريقة لمساعدة (وينش) للخروج من أزمته.. فلا تخش شيئًا.. سيدى، إنك رجل هام جدًا.. رجل ذو قدرات مدهشة للغاية.. وهناك أدلة على ذلك بالطبع!.. ومن جهة أخرى فإن الأشياء التى يمكنك أن.....".

قال السيد (فورترينجاى): "نعم لقد فكرت فى شىء أو شيئين.. لكن بعض الأشياء تحدث محرفة قليلاً.. هل رأيت مثلاً هذا السمك أول مرة؟.. كان كل من الحوض والأسماك من النوع الخطأ.. واعتقدت أننى بحاجة لأن أسأل شخصًا ما".. فقال السيد (ميدج) "هذا أسلوب صحيح.. أسلوب صحيح جدًا.." وتوقف ثم حدج السيد (فورترينجاى) وأردف "إنها من الوجهة العملية هبة غير محدودة، ودعنا نختبر مدى قوة قدراتك.. فمثلاً لو كانت قوية بالفعل مثلما تبدو....".

وصدق أو لا تصدق، ففى غرفة مكتب بالمنزل الصغير الموجود خلف الكنيسة، عشية يوم الأحد ١٠ نوفمبر ١٨٩٦ بدأ السيد (فورترينجاى) يصنع المعجزات، بتشجيع وإلهام من السيد (ميدج).. وبلا شك فإن اهتمام القارئ سوف يتركز على التاريخ.. ولعله يعترض، أو ربما اعترض بالفعل، على أن هذه القصة مختلقة وغير ممكنة.. وأنه لو كانت أشياء من هذا النوع قد حدثت فعلاً، لكانت نشرت فى جميع الصحف منذ عام.. والتفاصيل التى ستلى مباشرة سوف يجد القارئ من الصعب عليه قبولها.. لأنها ـ ضمن أشياء أخرى ـ تتضمن الاستنتاج بأنه أو أنها ـ أى القارئ الذى نعنيه ـ قد

قُتل بطريقة عنيفة وغير مسبوقة منذ أكثر من عام مضى. وعمومًا فإن أى معجزة تصبح لا شىء وفارغة من أى معنى إذا كانت غير ممكنة.. والواقع أن القارئ قُتل فعلاً بطريقة غير مسبوقة منذ عام مضى. والجزء التالى من هذه القصة سوف يكون واضحًا ومعقولاً تمامًا، كما سوف يرى كل قارئ عاقل وحصيف. ولكن ليس هذا مكان نهاية القصة.. لأنه يبعد قليلاً فقط عن الجانب القريب من الوسط.

وفى البداية كانت المعجزات التى صنعها السيد (فورترينجاى) بسيطة وحذرة.. مثلاً أشياء بسيطة تحدث للأكواب والأثاث الموجود بالردهة. وهى معجزات محدودة مثل معجزات المتصوفين ومع ذلك فقد استقبلها جليسه برهبة، وكان يفضل أن ينهى موضوع (وينش) حالاً.. لكن السيد (ميدج) لم يسمح له بذلك. لكن بعدما أكلا ما يقرب من اثنتى عشرة تفاحة زاد إحساسهما بالقوة.. وبدأ خيالهما فى إظهار دلائل على الإثارة والانتعاش كما ازداد طموحهما. أول مشروع كبير لهما انبثق نتيجة جوعهما وإهمال السيدة (مينشين) مديرة منزل السيد (ميدج) لهما والوجبة التى دعا القس إليها السيد (فورترينجاى) كانت بالتأكيد سيئة الإعداد وغير جذابة، وخاصة المرطبات لاثنين من صانعى المعجزات المجتهدين.. لكنهما كانا جالسينِ، والسيد (ميدج) يثرثر بحزن وليس بغضب عن نقائص وعيوب مديرة منزله.. قبل أن يخطر على بال السيد (فورترينجاى) أن هناك فرصة لا بأس بها مواتية لهما.. فقال: "ألا تعتقد يا سيد (ميدج) أنه ما لم أكن متجاوزًا حدود اللياقة، فإننى....".

ـ عزيزى السيد (فورترينجاى)!.. بالطبع!.. لا .... إننى لم أعتقد ذلك".

لوح السيد (فورترينجاى) بيده وقال: "والآن ماذا لدينا؟".. وقال ذلك بروح عالية وثابة.. وبناءً على أمر السيد (ميدج)، غيّر من العشاء كثيرًا جدًا.. وقال وهو يحدج ببصره التشكيلة التى اختارها السيد (ميدج): "بالنسبة لى، فإننى مولع بوجه خاص بإبريق من الجعة القوية الداكنة والخبز المحمص الممسوح بالجبن اللذيذ.. وسوف آمر بذلك.. ولا أميل كثيرًا لنبيذ (بيرجندى) الفرنسى". وعلى الفور ظهرت الجعة والخبز المحمص الممسوح بالجبن تحت تصرفهما.

جلس الرجلان يتناولان طعامهما.. ويتحدثان كصديقين..حيث أدرك السيد (فورترينجاى) الآن بشىء من الدهشة والرضا كل المعجزات التى يمكنهما عملها.. ولم يلبث أن قال: "وبالمناسبة يا سيد (ميدج).. لعلنى أقدر على مساعدتك.. أقصد فى الجانب المنزلى".. فقال السيد (ميدج) وهو يصب كأسًا من نبيذ (البيرجندى) المعتق المعجزة "لكن على رسلك.. فالأمر ليس عاجلاً".

تناول السيد (فورترينجاى) مرة ثانية قطعة من الخبز المحمص الممسوح بالجبن، لعدم وجود ما يشغله.. وأخذ منها قضمة وقال: "كنت أفكر فى أننى قد أستطيع أن أصنع معجزة للسيدة (مينشن) لكى أجعلها امرأة أفضل".. فوضع السيد (ميدج) كأسه ونظر إليه فى شك وقال "إنها.. إنها تعترض بشدة على أى تدخل فى عملها كما تعرف يا سيد (فورترينجاى) و.... الحقيقة أن الساعة تجاوزت

الحادية عشرة بكثير ولعلها الآن نائمة على سريرها. لكن هل تعتقد بوجه عام أن....".

فكر السيد (فورترينجاى) فى هذه الاعتراضات وقال "إننى أرى أنه يجب ألا نفعل شيئًا وهى نائمة". وظل السيد (ميدج) لبعض الوقت معترضًا على الفكرة، غير أنه لم يلبث أن سلم بها. وعندئذ أصدر السيد (فورترينجاى) أوامره، وسرعان ما واصل الرجلان طعامهما بشىء من الاطمئنان والتحرر من القلق.

أخذ السيد (ميدج) يسهب فى التغييرات التى يتوقعها فى مديرة منزله فى اليوم التالى، وبدا متفائلاً جدًا لدرجة أن السيد (فورترينجاى) ظن أنه متكلف أو يعانى من القلق والتوتر.. وفى ذلك الوقت صدرت سلسلة من الأصوات المختلطة من الطابق العلوى. ونظر كل من الرجلين إلى الآخر مستفهمًا.. وأسرع السيد (ميدج) بمغادرة الغرفة.. وسمعه السيد (فورترينجاى) ينادى على مديرة منزله.. ثم سمع وقع أقدامه وهو يصعد إليها فى الطابق العلوى.

عاد القس فى خلال دقيقة أو نحو ذلك بخطوات رشيقة ووجه متهلل وقال "رائع جدًا!.. ومؤثر جدًا".. وأخذ يذرع بساط المدفأة واستطرد "إنها حالة توبة وندم.. نعم ندم مؤثر للغاية.. نعم هذا ما رأيته من خلال ثغرة فى الباب.. يا للمرأة المسكينة!.. ما أعجبه من تغيير حدث لها!.. لقد استيقظت من نومها.. لا بد أنها استيقظت على الفور.. وعندما نهضت من نومها كسرت قارورة براندى خاصة بها وهى فى صندوقها.. بل إنها تعترف بذلك أيضًا!.. بيد أن ذلك

يفتح أمامنا مجالاً هائلاً من الاحتمالات.. فإذا أمكننا أن نحدث هذا التغير المعجز فيها....".

قال السيد (فورترينجاى): "يبدو لى أن هذا المجال واسع جداً وغير مقيد.. وفيما يتعلق بالسيد (وينش)....".. فقاطعه السيد (ميدج): "نعم واسع جدًا".. ونحى السيد (ميدج) مشكلة (وينش) جانبًا، وهو يذرع بساط المدفأة، وافتتح سلسلة من الطلبات أو الاقتراحات العجيبة التى ابتكرها وهو يفكر أثناء سيره.

والآن فإن هذه الاقتراحات لا تتعلق بصلب هذه القصة.. ويكفى القول إنها طرحت بروح الخير المطلق، وهو نوع من الخير يُطلق عليه "الخير الذى يعقب تناول الطعام".. ويكفى أيضًا القول بأن مشكلة (وينش) ظلت بدون حل.. كما أنه ليس ضروريًا وصف إلى أى مدى تم تنفيذ تلك السلسلة من الاقتراحات. المهم أنه حدثت بالفعل تغييرات مدهشة.. وشهدت ساعات الصباح الباكر السيد (ميدج) والسيد (فورترينجاى) وهما يهرولان عبر ميدان السوق قارس البرودة.. فى حالة أقرب ما تكون إلى نشوة صنع المعجزات.. السيد (ميدج) قلق ومتوتر ويحرك جسمه أثناء تحدثه.. والسيد (فورترينجاى) قصير وخشن الشعر ولم يعد يخجل أو يرتبك من عظمته.

وقام الرجلان بإصلاح كل السكارى فى حى البرلمان.. وحولا كل الجعة والخمر إلى ماء (والحقيقة أن السيد (ميدج) سيطر على السيد (فورترينجاى) فى هذه النقطة).. وأكثر من ذلك حسنا بشكل كبير من اتصالات بعض السكك الحديدية ببعضها من الميدان.. ونزحا الماء من مستنقع "فليندر".. وحسنا تربة منطقة

"وان ترى هيل" وعالجا ثؤلول[٣] كاهن الكنيسة.. وكانا فى طريقهما لتحديد ما يمكن أن يفعلاه لترميم ركيزة جسر الجنوب المشروخة. وهتف السيد (ميدج): "إن الميدان لن يكون هو نفس الميدان غدًا.. وسوف يعبّر جميع الناس عن شكرهم وامتنانهم لما حدث!".. وفى تلك اللحظة بالضبط دقت ساعة الكنيسة ثلاث دقات.

قال السيد (فورترينجاى): "إننى أرى أن الساعة بلغت الثالثة! لابد أن أرجع الآن.. يجب أن أكون فى عملى قبل الساعة الثامنة.. وعلاوة على ذلك فإن السيدة (ويمز)...".

قاطعه السيد (ميدج).. وهو لا زال متأثرًا بسحر وعذوبة القدرة الخارقة غير المحدودة.. "يا عزيزى لقد بدأنا لتونا عملنا هذا.. ولم تنم سوى القليل.. فكر فى كل الأشياء الصالحة التى نفعلها.. وبالطبع لا تنس أنه عندما يستيقظ الناس....".. فقاطعه السيد (فورترينجاى): "نعم، ولكن....".

وفجأة أطبق السيد (ميدج) على ذراعه وكانت عيناه تلمعان وتتقدان حماسة.. وقال له: "عزيزى الشاب الطيب.. لا يوجد أى داع للعجلة.. انظر".. وأشار إلى القمر عند سمت رأسيهما وأردف "يشوع". فقال (فورترينجاى): "يشوع؟[٤] ماذا تقصد؟.. "فقال السيد (ميدج): "نعم يشوع.. ولم لا.. أوقفه يا رجل!".

(٣) نمو جلدى قاس ينتج عن مرض فيروسى عادة (المترجم).

(٤) شخصية من العهد القديم، كان قائد إسرائيل بعد موت سيدنا موسى، يقال إنه دعا ربه حتى لا تغيب الشمس حتى يتمكن جيشه من القتال فى نور النهار. وبقدرة الله كان له ذلك (المترجم).

نظر السيد (فورترينجاى) إلى القمر.. وقال بعد فترة من الصمت: "إنه بعيد جدًا".. فقال السيد (ميدج).

ـ ولم لا؟.. بالطبع إنه لا يقف من تلقاء ذاته.. وأنت تستطيع إيقاف دوران الأرض لو شئت!.. وأنت تعرف ذلك.. إن الزمن نفسه يقف!.. إن ذلك لا ينطوى على أى أذى نسببه لأحد.. هل تفهم ما أقول؟".

قال السيد (فورترينجاى): "آه!.. حسنًا.. لا بأس!" وتنهد ثم أردف "سوف أحاول......".

وفك أزرار سترته.. ووجه خطابه إلى كوكب الأرض المأهول بالسكان.. وهو ممتلئ بالثقة فى قدراته الخارقة.. وأصدر أمره: "أيتها الأرض!.. توقفى عن الدوران.. هل تسمعينى؟".

وفى الحال وجد نفسه يسبح فى الهواء رأسًا على عقب بسرعة ٢٠ كم/ دقيقة.. وبالرغم من دورانه فى عدد لا يحصى من الدوائر فى الثانية الواحدة. فكر فى أنه أحيانًا تكون حركته بطيئة وكسولة كمن يصعد على مرتفع وأحيانًا تكون لحظية كالضوء.. وفكر بسرعة فى ثانية واحدة وأصدر أمرًا: "أنزلنى من هنا بشكل آمن وسليم.. ومهما حدث من أشياء أخرى، فإننى أريد النزول بأمان وسلامة".

وجاءت أمنيته هذه فى وقتها.. لأن ملابسه سخنت بشدة من جراء طيرانه السريع فى الهواء.. وبدأت تشيط بالفعل.. ووجد نفسه يهبط مصطدمًا بقوة ـ لكن بدون أن يتعرض لأى أذى ـ بما يشبه كومة عالية من الرمال المحفورة لتوها.. وبالقرب منه

اصطدمت بالأرض كتلة كبيرة من المعدن والمبانى، تشبه إلى حد كبير برج الساعة فى ميدان السوق ثم ارتدت من فوقه فى شكل أحجار وطوب ومبانى طائرة مثل قنبلة تنفجر شظاياها.. واصطدمت بقرة مسرعة بأحد كتل المبانى الضخمة وانسحقت مثل البيضة. وكان الاصطدام المحيط به هائلاً لدرجة جعلت أكثر الاصطدامات التى عرفها فى حياته عنفًا لا تعدو صوت رمال ساقطة بالنسبة إليه. ثم تبع ذلك الدوى الهائل سلسلة متناقضة من اصطدامات أقل عنفًا. ودوت فى الأرض والسماء رياح هائلة عاصفة حتى أنه لم يكد يرفع رأسه لينظر إليها.. وكتم أنفاسه لبعض الوقت وكان مندهشًا للغاية لدرجة أنه لم يستطع أن يرى أين هو ولا ما الذى حدث. وأول حركة له هى أنه تحسس رأسه ليتأكد مما إذا كان مازال حيًا.. وليطمئن نفسه بأن هذا الشعر النضر مازال شعره هو!..

لهث السيد (فورترينجاى).. وخشى أن يتكلم بلسان الريح العاصفة.. وهتف "يا إلهى!.. لقد بُحّ صوتى! ما هو الخطأ الذى حدث؟.. العواصف والرعد.. ومنذ دقيقة واحدة كان الليل رائعًا.. إن (ميدج) هو الذى حرضنى على عمل هذا.. ما أشدها من رياح!.. لو استمررت فى هذه الحماقة سوف ينتهى بى الأمر إلى الإصابة بصاعقة!.. لكن أين (ميدج)؟ ياللغرابة.. لقد فسد كل شىء تقريبًا!".

نظر حوله إلى الحد الذى سمحت له به سترته المتهدلة.. كان مظهر الأشياء غريبًا جدًا حوله.. وقال محدثًا نفسه "السماء

لا زالت سليمة ولا شىء حدث لها.. وكل شىء هناك يبدو سليمًا.. ولكن حتى هناك فيبدو لى أن عاصفة رهيبة على وشك أن تهب.. لكن القمر من فوق ما زال على ما يرام!.. مثل عهده دائمًا إلى الآن!.. فهو مضىء وهادىء.. لكن بالنسبة لبقية الأشياء.. ترى أين القرية؟ وأين.. أين كل شىء؟.. وما هو بحق السماء السبب فى هبوب تلك الريح العاصفة الهوجاء؟ إننى لم آمر بهبوب أى ريح!".

بذل السيد (فورترينجاى) جهدًا هائلاً لكى يقف على قدميه بدون جدوى.. وبعد فشل واحد بقى على قوائمه الأربع متشبثًا بمكانه.. وتفحص العالم المضاء بنور القمر من حوله باتجاه الريح.. وذيول سترته تطير فى الهواء فوق رأسه.. وقال لنفسه "لا بد أن خطأ جسيمًا حدث.. لكن ما هو.. إن هذا لا يعلمه إلا الله".

لم يكن هناك شىء قريب أو بعيد يستطيع أن يراه وسط الوهج الأبيض والضباب الترابى الذى ساقه الإعصار، سوى كتل أرضية ساقطة وأكوام من الأنقاض حديثة التقوض.. بدون أى أشجار أو منازل أو أى أشكال مألوفة.. فقط قفار من الفوضى تختفى هناك وسط الظلام الحالك تحت أعمدة وأشعة دوارة والبرق والرعد المصاحبين لعاصفة سريعة مروعة. ووجد بالقرب منه وهجًا خافتًا، لعله كان منذ قبل شجرة (دردار).وكتلة من الشظايا المحطمة التى تهتز من أعلى ومن أسفل.. وأيضًا كتلة ملتوية من العارضات الحديدية التى يبدو أنها كانت لجسر حديدى تبرز إلى أعلى من وسط النفايات المكومة..

وكما ترى فإن (فورترينجاى) عندما أوقف دوران الكوكب الصلب، فإنه لم يحدد ماذا يريده لكل المنقولات المتحركة على سطحه.. وبالطبع فإن الأرض تدور حول نفسها بسرعة كبيرة لدرجة أن سطحهاعند خط الاستواء يتحرك بأكثر من ١٦٠٠ كم / ساعة..وعند خطوط العرض هذه بأكثر من نصف تلك السرعة.. وعلى ذلك فإن القرية بأكملها والسيد (ميدج) والسيد (فورترينجاى) وكل إنسان وكل شىء بالقرية تم قذفه بعنف إلى الأمام بسرعة تبلغ حوالى ١٦ كم/ث.. وتستطيع أن تقول إن ذلك أكثر قوة وعنفًا مما لوتم قذفها من فوهة مدفع!.. وكل إنسان وكل مخلوق حىّ وكل منزل وكل شجرة، أو باختصار كل العالم كما نعرفه، قد قُذف إلى الأمام بقوة وتهشم وتحطم. هذا كل ما فى الأمر!

وبالطبع لم يع السيد (فورترينجاى) هذه الأشياء ويقدرها حق قدرها.. لكنه فهم أن هذه المعجزة أخفقت. وشعر بمقت شديد للمعجزات.. الآن هو فى الظلام.. لأن السحاب تكاثر وتجمع وحجب مؤقتًا رؤيته للقمر..وامتلأ الهواء بصراع متقطع بين خطوط البرد المتساقط الملتوية.. ولم تلبث الأرض والسماء أن امتلأتا بدوىّ هائل من الرياح والأمطار..وعندما حدق من تحت يده فى الغبار والأمطار المتجمدة باتجاه الريح، رأى من خلال تحركات البرق جدارًا ضخمًا من الماء يتدفق تجاهه.

صرخ السيد (فورترينجاى) بصوت واهن وسط الهدير الطبيعى المحدق به: "(ميدج)!.. أنا هنا!.. (ميدج)!" ..ثم صاح فى الماء المندفع تجاهه "توقف.. ناشدتك بالله أن تتوقف!".

ثم قال السيد (فورترينجاى) للبرق والرعد: "لحظة واحدة.. أرجوكما توقفا للحظة واحدة حتى أستطيع أن أجمّع أفكارى.. والآن ماذا سأفعل؟.. ماذا أفعل؟.. يا إله السماوات!.. أتمنى لو كان (ميدج) هنا معى".

وقال السيد (فورترينجاى) "أعرف.وأتوسل إليك أن ينصلح الأمر هذه المرة".. وظل معتمدًا على أطرافه الأربعة ومائلاً فى اتجاه الريح وهو مصمم تمامًا على تصحيح كل شىء.. ثم قال "آه!.. أرجو ألا يحدث شىء قبل أن أقول "انتهى!".. يا إلهى!.. أتمنى لو كنت فكرت فى هذا من قبل!".

ورفع صوته قليلاً قليلاً وسط الزوبعة الهائلة المحيطة به.. فى محاولة عقيمة لكى يسمع نفسه.. ثم قال "الآن!.نعم الآن فقط!..لا تنس ما قلته لتوى وأهم شىء عندما أنتهى مما أريد أن أقوله.. خذ منى كلية قوتى الخارقة التى أصنع بها المعجزات.. ولتصبح رغبتى أو مشيئتى مثل أى إنسان آخر، وتتوقف تمامًا تلك المعجزات الخطرة..إننى لا أحبها.. وأفضل ألا أكون قد صنعتها..نعم وأبدى أسفى على صنعها.. هذا أول شىء.. أما الشىء الثانى.. أريد أن أعود إلى نفس مكانى وحياتى السابقة قبل أن أبدأ فى صنع المعجزات.. نعم أريد كل شىء أن يعود إلى ما كان عليه قبل أن ينطفئ ذلك المصباح الشؤم فى تلك الحانة اللعينة.. أعرف أن هذا طلب صعب جدًا، ولكنه على أى حال آخر طلب لى..هل فهمت ما أقصده؟.. لا معجزات.. وكل شىء يعود كما كان.. وأنا أعود إلى حانة (التنين الضخم) قبل أن أحتسى كأسى الصغير.. هذا كل ما أريده.. نعم لا شىء أكثر من ذلك".

ثم دفع أصبعه إلى داخل الأرض وأقفل عينيه وقال "انتهى".

ساد سكون تام.وأحس بأنه يقف منتصبًا.. وسمع صوتًا يقول له: "إذن أنت تقول هكذا". وفتح عينيه.. فوجد نفسه فى حانة (التنين الضخم).. يجادل بشدة فى موضوع المعجزات مع (تودى بيمش).. وكان لديه إحساس غامض بشىء عظيم حدث له فى لحظة.. لكنه نسى هذا الشىء تمامًا..

وكما ترى فباستثناء فقده لقدرته الخارقة على صنع المعجزات.. فإن كل شىء عاد إلى ما كان عليه بالضبط.. فعقله وذاكرته عادتا الآن إلى ما كانتا عليه وقت بداية هذه القصة.. وبتعبير آخر فإن السيد (فورترينجاى) لا يعرف حقيقة أى شىء مما سردناه فى هذه القصة.. ولا يعرف أى شىء عنها حتى يومنا هذا.. وضمن أشياء أخرى فإنه ما زال بالطبع لا يؤمن بالمعجزات.

وقال السيد (فورترينجاى): "إننى أقول لك، وأعنى ذلك تمامًا، إن المعجزات لا يمكن أن تحدث.. مهما كان رأيك فى هذا الموضوع أو أيًا كانت معتقداتك.. وأنا مستعد لكى أثبت لك ذلك بحذافيره".

قال (تودى بيمش): "هذا هو رأيك يا صاحبى.. وعمومًا فلا بأس أن تثبت ذلك إذا استطعت".

قال السيد (فورترينجاى): "أصغ إلىّ جيدًا يا سيد (بيمش).. أولاً لنفهم جيدًا ما هى المعجزة.. إنها شىء مخالف لنواميس الطبيعة تسببه مشيئة أو قدرة خارقة.....".

فيلمــر

الحقيقة أن إجادة الطيران كانت نتاج عمل جماعى اشترك فيه آلاف الرجال.. ذلك يدلى باقتراح له وذاك يقوم بتجربة عملية.. حتى أخيرًا لزم بذل جهد ذهنى هائل لإنهاء هذا العمل الطويل.. إلا أن الظلم الفادح للرأى العام قرر أن من بين كل أولئك الآلاف من البشر هناك رجل واحد.. رغم أنه لم يَطرْ قط بطائرة - هو الذى يجب اختياره كمكتشف، تمامًا مثلما اختار الناس (واط)[1] كمكتشف للبخار و(ستيفنسون)[2] كمخترع للمحرك البخارى. وبالتأكيد من بين كل الأسماء التى كرمها التاريخ لا يوجد أحد تم تكريمه بشكل غريب بل ومأساوى مثل ذلك المفكر البائس (فيلمر) الذى حل المشكلة التى حار فيها العالم وتخوف منها لأجيال متعاقبة.. إنه الرجل الذى ضغط على زر غيَّر به السلم والحرب وتقريبًا كل جوانب الحياة والسعادة البشرية.. ولا يوجد مثال أروع من ذلك للدهشة المتكررة فى ضآلة الإنسان العلمى بالنسبة لروعة إنجازاته العلمية.

---

(١) جيمس واط (١٧٣٦ - ١٨١٩) مخترع اسكتلندى (المترجم).

(٢) جورج ستيفنسون (١٧٨١ - ١٨٤٨) مهندس ومخترع بريطانى (المترجم).

بيد أن الكثير الذى يتعلق بـ (فيلمر)، والذى يجب أن يظل سرًا غامضًا، هو أن (فيلمر) لم يستقطب شخصًا لكى يكتب سيرته، إلا أن الحقائق الأساسية والمشهد الختامى لها واضحة تمامًا.. وهناك حروف ومذكرات وإشارات عرضية أو تلميحات تربط بعض هذا ببعضه.. وهذه هى القصة التى يستطيع المرء أن يتوصل إليها بعد وضع هذا الشىء بجوار ذاك لحياة (فيلمر) ثم موته.

أول أثر مؤكد لـ (فيلمر) فى صفحة التاريخ هو طلب قدّمه للحصول على مجانية دراسة الفيزياء بالمختبرات الحكومية فى (ثاوث كينسنتجون)، حيث يصف نفسه هناك كابن "لصانع أحذية عسكرية" من (دوفر).. ويورد أدلة كثيرة على نجاحه بتفوق كبير فى الكيمياء والرياضيات.. وفى محاولاته للظهور بمظهر الكبرياء والكرامة فإنه يحاول تدعيم إنجازاته بادعاء الفقر والبؤس.. ويكتب عن تلك المختبرات باعتبارها "هدفًا" لطموحه.. وهى زلة تعزز من زعمه بأنه كرس نفسه فقط لخدمة العلم.. وهذه الوثيقة مصوغة بكيفية تبين أن (فيلمر) كان قد نذر نفسه لتلك الفرصة التى حلم بها.. لكن حتى وقت حديث لم يستطع أحد العثور على دلائل وآثار نجاحه فى تلك المؤسسة الحكومية.

غير أنه ظهر الآن أنه بالرغم من الغيرة التى عبّر عنها (فيلمر) فى إجراء الأبحاث العلمية، فإنه قبل أن يحصل على منحة للدراسة المجانية لمدة عام أغراه احتمال حدوث زيادة طفيفة فى دخله المباشر بترك تلك الأبحاث لكى يصبح أحد المحاسبين الذين يحصلون على ٩ بنسات فى الساعة لدى أستاذ جامعى معروف

باهتماماته وتضحياته فى مجال الأبحاث العلمية الواسعة النطاق فى فيزياء ما بداخل الشمس.. وهى أبحاث لازالت تحير الفلكيين وتثير تساؤلاتهم.

بعد ذلك ولمدة سبع سنوات، باستثناء كشوف الناجحين بجامعة لندن التى تظهر أنه تقدم ببطء إلى بكالوريوس فى العلوم بمرتبة الشرف مرتين فى الرياضيات والكيمياء، لا يوجد أى دليل على كيفية سلوك (فيلمر) فى حياته. فلا أحد يعرف كيف وأين عاش.. رغم أنه من المحتمل جدًا أنه استمر فى إعالة نفسه بالعمل بالتدريس، بينما تابع الدراسات اللازمة لمثل هذا التفوق.. ثم فجأة وبشكل غريب يجد المرء اسمه مذكورًا فى مكاتبات متبادلة بينه وبين (آرثر هيكز) الشاعر.

يكتب (هيكز) إلى صديقه (فانس) قائلاً له ذات مرة: "هل تذكر (فيلمر)؟.. إنه لم يتغير قيد أنملة.. نفس أسلوبه العدائى ووجهه البغيض.. كيف يمكن للمرء أن يمر عليه ثلاثة أيام دون أن يحلق ذقنه؟.. وسلوكه الذى يدل على الجبن والخداع!.. حتى سترته وياقته المنسلة لا تبدى أى علامات على مرور السنين.. لقد كان يكتب فى المكتبة وجلست بجواره باسم الأعمال الخيرية.. حيث أهاننى عامدًا بتغطية مذكراته.. ويبدو لى أنه كان عاكفًا على بحث هام جدا ومن بين كل الناس خشى منى أنا بالذات من سرقته.. لقد حصل على درجات شرف رائعة بالجامعة.. ولقد سردها لى فى عجالة، كما لو كان يخاف أن أقاطعه قبل أن ينتهى منها.. وتحدث عن حصوله على دكتوراه فى العلوم كما يتحدث المرء عادة عن ركوب

سيارة أجرة! وسألنى عما أفعله.. بلهجة تعبر عن المقارنة بين حالينا.. وفرد ذراعه بعصبية.. ذراع حامية بكل تأكيد، فوق الورقة التى تخفى المعلومات الهامة.. معلوماته الشخصية الهامة".

قلت له "كتابة الشعر".. فقال "الشعر.. لا بأس.. ولكن ماذا تريد أن تعلمه للناس من خلال الشعر يا (هيكز)؟" فأجبته "إنه نوع من التعبير الريفى الصادق.. لكننى لم أصل إلى قمة التعبير بعد.. وأشكر الله كثيرًا على أنه لولا نعمة الكسل التى لا تقدر بثمن لكنت اتجهت ناحية الدكتوراه فى العلوم والتدمير...".

إنه شرح كتابى موجز أميل إلى الاعتقاد أنه أمسك بتلابيب (فيلمر) وهو قريب جدًا من لحظة اكتشافه العلمى. غير أن (هيكز) أخطأ عندما توقع الأستاذية والشهرة لـ (فيلمر).. لأن صورتنا التالية له وهو يلقى محاضرة عن "المطاط وبدائل المطاط" لجمعية الفنون؛ فقد نجح فى أن يصبح مديرًا لمصنع كبير لمنتجات البلاستيك، وقد أصبح الآن معروفًا أنه كان عضوًا فى جمعية الفضاء والطيران.. رغم أنه لم يشارك بأى شئ ذى قيمة فى مناقشات تلك الجمعية.. مفضلاً بلا شك أن يحقق أفكاره العظيمة بدون مساعدة خارجية..

وفى غضون عامين منذ قدّم هذا البحث أمام جمعية الفنون، حصل بسرعة على عدد من براءات الاختراع وادعى - بمختلف الطرق غير اللائقة - أنه أكمل كل الاستعدادات لجعل آلته الطائرة حقيقة واقعة.. وأول تعبير واضح له بهذا المعنى ظهر فى جريدة مسائية رخيصة بمساعدة رجل يقيم بنفس المنزل مع (فيلمر). ولعل

أول تسرع له بعد صبر ومعاناة طويلين كان بسبب خوف لا داعى له.. لأن (بوتل) الدجال العلمى الأمريكى سيىء السمعة كان قد أعلن ما فهمه (فيلمر) خطأ على أنه توقع لفكرته الجديدة.

والآن ماذا كانت فكرة (فيلمر) بالضبط؟.. الواقع أنها فكرة بسيطة جدًا.. فقبل عصره كانت أبحاث الطيران تتجه فى خطين متباعدين، حدث تطور للمناطيد بعد المناطيد التى تمسك بيد واحدة.. فى الخط الآخر نجدها كبيرة الحجم وأخف من الهواء وسهلة الصعود ومأمونة نسبيًا فى الهبوط.. لكنها تنساق بسهولة أمام أى تيار هوائى يدفعها فى طريقه.. أما الخط الثانى فهو آلات طائرة - تطير نظريًا فقط! - وهى إنشاءات ضخمة مسطحة أثقل من الهواء.. تطير وتحافظ على ارتفاعها بواسطة محركات ثقيلة.. لكنها فى أغلب الأحوال تتحطم عند أول هبوط لها. وبالرغم من حقيقة أن التحطم النهائى الحتمى لها لا يجعلها مستحيلة من الوجهة العلمية، إلا أن وزن الآلة الطائرة أعطاها ميزة نظرية لا يستهان بها.. فهى تستطيع اختراق الهواء ضد الريح، وهذا شرط ضرورى إذا أريد أن يكون للطيران الجوى أى قيمة عملية.

والشىء الجديد الخاص بـ (فيلمر) أو الفضل الذى ينسب إليه هو أنه توصل إلى طريقة جمع فيها بين خاصيتين متضادتين وغير متجانستين للبالون الخفيف والآلة الطائرة الثقيلة فى آلة واحدة يمكن أن نجعلها أثقل أو أخف من الهواء حسبما نشاء. واستفاد الرجل من خصائص مثانة الأسماك المنقبضة والتجاويف الهوائية للطيور.. وصنع الرجل تجهيزه من المناطيد الانقباضية والمقفلة

تماماً، والتى عندما تتمدد يمكنها رفع أجهزة الطيران بسهولة، وعند انقباضها ـ بواسطة "الضاغطات" التى حاكها حولها ـ فإنها تنسحب تماماً تقريباً بداخل الإطار الخارجى.. كما نجح فى بناء الإطار الخارجى الضخم الذى تتحمله تلك المناطيد من مواسير قوية مجوفة.. وصمم آلية ذكية تقوم تلقائياً بتفريغها من الهواء عند هبوط الأجهزة.. والتى تظل مفرغة هكذا طالما رغب الملاح أو راكب المنطاد فى ذلك.

لم يكن للآلة الطائرة أى أجنحة أو مراوح، مثلما كان لكل الطائرات السابقة عليها، والمحرك الوحيد المطلوب كان صغيراً وقوياً بما يكفى لانقباض أو انكماش المناطيد. وقدر أن مثل هذا الجهاز الذى صممه سوف يرتفع حاملاً معه الإطار المفرغ والمناطيد المتمددة إلى ارتفاع كبير.. ثم يقبض مناطيده ويسحب الهواء داخل إطاره.. وبتغيير وزنه يمكنه أن يندفع ويشق طريقه فى الهواء فى أى اتجاه يريد. وعند هبوطه فإنه يزيد من سرعته وفى نفس الوقت يقلل وزنه.. ويمكن الاستفادة من كمية التحرك المتجمعة من الهبوط إلى أسفل وذلك عن طريق تغيير أوزانها للصعود فى الهواء مرة أخرى عندما تتمدد المناطيد.

وهذه الفكرة ـ التى لا تزال حتى الآن الفكرة الجوهرية فى كل الآلات الطائرة الناجحة ـ كانت فى احتياج لبذل قدر كبير من الجهد والتعب لإنهاء كل تفاصيلها وإتقانها قبل أن تصبح حقيقة واقعة.. والحقيقة أن (فيلمر) ـ كما اعتاد أن يقول للكثير من الصحافيين والإعلاميين... إلخ الذين احتشدوا حوله فى قمة

شهرته ـ قام بهذا الجهد عن طواعية وبدون أن يبخل بشىء منه. ومشكلته الحقيقية كانت فى البطانة المرنة للمنطاد الانقباضى. فقد رأى أنه بحاجة إلى مادة جديدة، وأثناء اكتشافه وصناعته لهذه المادة الجديدة فإنه ـ وهذا شىء لم يتوان قط فى التأكيد على إعلانه لكل من قابله أو تحدث معه ـ بذل جهدًا مضنيًا وشاقًا يفوق الجهد الذى بذله فى إنجازه الفعلى لاكتشافه العظيم.

لكن يجب ألا نتخيل أن أولئك الصحافيين والإعلاميين استماتوا فى متابعة كل ما يعلنه (فيلمر) عن اختراعه.

فقد مرت تقريبًا فترة خمس سنوات قبع خلالها فى سكون بمصنع المطاط الذى يديره.. ويبدو أنه اعتمد كلية على دخله البسيط من هذا المصنع.. وأخذ يبذل محاولات غير موفقة لإقناع الناس بأنه تمكن بالفعل من ابتكار كل ما يلزم اختراعه العظيم. وكان يقضى أكثر وقت فراغه فى تحرير خطابات إلى الجهات العلمية والصحف اليومية وهكذا.. موضحًا بالتحديد نتائج محاولاته وأبحاثه العلمية وطالبًا المساعدة المالية ممن يهمه الأمر.. وهذا بمفرده كان يكفى لإهمال خطاباته..

وقضى كل عطلاته وإجازاته فى التجهيز لمقابلات غير مرضية مع بوابى الصحف اللندنية الكبرى ـ فهو شخصيًا لم يكن يستعد للتأثير على الحمالين بثقة كبيرة ـ.. ونجح بشكل إيجابى فى إقناع وزارة الحربية بأن تتبنى أبحاثه.. ويبقى هناك خطاب سرى من اللواء (فوليفاير) إلى إيرل[٢] (فروجس).. يقول فيه اللواء بأسلوبه

---

(٢) لقب إنجليزى (المترجم).

العسكرى الماكر المعقول "إن الرجل يبدو لى مهووسًا بفكرة مسيطرة عليه.. كما أنه شخص يفتقر إلى الذوق والكياسة".. وهكذا ترك الباب مفتوحًا لليابانيين لكى يعطوه، وهذا ما فعلوه بعد ذلك بالفعل مما أدى إلى تحقيقهم المكاسب فى الحرب.

ثم بضربة حظ مفاجئة ثبت أن الغشاء المرن الرقيق الذى اخترعه (فيلمر) لمنطاده الانقباضى مفيد لصمامات المحرك الزيتى الجديد.. وتمكن من الحصول على ما يلزمه لصنع نموذج تجريبى لاختراعه.. ولم يلبث أن استقال من عمله بالمصنع وتوقف عن كتابة أى خطابات بعد ذلك.. وتحت جناح السرية التى يبدو أنها خاصية ملازمة لكل تصرفاته وإجراءاته.. شرع فى العمل فى ذلك الجهاز الطائر.. ويبدو أنه أعطى تعليماته لصنع أجزائه وقام بتجميع معظم تلك الأجزاء فى حجرة بمنطقة (الشورديتش).. إلا أن التجميع النهائى لكل الأجزاء لم يتم إلا فى كنيسة (ديم) يكتب: وهو لم يصنع آلة كبيرة بما يكفى لحمل إنسان، ولكنه استخدم بشكل بارع حقًا ما كان يسمى وقتئذ "أشعة ماركونى" للتحكم فى ارتفاعها. وتم طيران هذه الآلة الطائرة العملية فى أحد الحقول بالقرب من جسر (بورفورد) بالقرب من هيث بكنت.. وتابعها (فيلمر) وأخذ يتحكم فى طيرانها من على دراجة آلية بثلاث عجلات صممت خصيصًا لذلك.

كان الطيران التجريبى ناجحًا ومدهشًا من جميع الجوانب.. الجهاز تم إحضاره فى عربة يدوية من خلف جسر (بورفورد).. ثم طار عائدًا تقريبًا إلى كنيسة (ديم) ثم سقط تجاه الأرض من ارتفاع

نحو ثلاثمائة قدم ثم صعد من جديد ودار فى دائرة ثم هبط فى آخر الأمر سليمًا فى أحد الحقول خلف فندق جسر (بورفور).. لكن عند هبوطه حدث شىء عجيب.. إذ ترجل (فيلمر) من على دراجته وتعثر فوق متراس فى الطريق، ثم تقدم نحو عشرين ياردة تجاه نصره المبين.. ثم فرد ذراعيه فى إيماءة غريبة ثم سقط مغشيًا عليه كما لو كان ميتا! كل إنسان يستطيع أن يتذكر عندئذ شحوب وجهه وكل دلائل الإثارة الفائقة التى لاحظها طوال التجربة.. أشياء كان الناس فى غير ذلك الموضع سوف ينسونها.. ثم بعد ذلك فى الفندق لاقى (فيلمر) عاصفة من الترحيب الهستيرى الممزوج بالبكاء والذى لا يمكن تفسيره.

لم يكن هناك أكثر من عشرين مشاهدًا لهذا العرض المدهش.. وكان معظمهم من البسطاء غير المتعلمين. ورأى طبيب من (نيورومنى) صعود الجهاز لكنه لم ير هبوطه.. إذ إن جواده جفل من الجهاز الكهربائى الموجود بدراجة (فيلمر) بل وأسقطه من على ظهره. كذلك شاهد العرض اثنان من رجال شرطة (كنت).. وكذلك بقال يبيع بضاعته فى السوق.. وسيدتان تركبان دراجتين.. وبهما تكتمل قائمة الأشخاص المتعلمين الذين شاهدوا العرض، كما حضر محرران صحفيان، يمثل أحدهما صحيفة (فولكستون) والآخر صحافى مبتدئ، وكان (فيلمر) مهتمًا للغاية بتوفير الإعلان الكافى لاختراعه. والأخير كان أحد أولئك الكتاب الذين يمكنهم إقناعك بعدم صدق أحداث حقيقية وقعت.. وظهر مقاله شبه الطريف فى إحدى الصحف الشهيرة. ومن حسن حظ (فيلمر) أن اللغة الدارجة لهذا الشخص كانت أكثر من مقنعة.. ثم بعد ذلك أرسل مقالة

طويلة عن نفس الموضوع إلى (بانجهيرست) مالك صحيفة (نيوبيبر) وأحد أقدر الصحافيين اللندنيين وأكثرهم تجردًا من المبادئ الأخلاقية. وعلى الفور اهتم (بانجهيرست) بالموضوع.. وسرعان ما اختفى الكاتب الأول من القصة ـ بعد أن حصل بلا شك على تعويض كاف ـ بينما ظهر (بانجهيرست) شخصيًا باللغد المتدلى من ذقنه وحلته القطنية الرمادية وكرشه البارز وصوته الجهورى وإيماءاته وحركاته وكل شىء، بكنيسة (ديم) متحركًا خلف حاسته الصحفية الخبيرة التى لا نظير لها.. وكان الرجل قد رأى كل شىء بنظرة سريعة.. وأدرك ما تم فيه وما يمكن أن يتم بعد ذلك.

وبفضل لمسات هذا الرجل الساحرة، أصبحت أبحاث (فيلمر) التى ظلت طى الكتمان طويلاً حديث الناس وانفجرت شهرته بين ليلة وضحاها.. وفى الحال أصبح أشهر شخصية بين الناس.. ولو نظرنا إلى صحف ومجلات عام ١٩٠٧ لأدركنا سرعة انتشار صيته فى تلك الأيام.. فمثلاً لا تتناول صحف شهر يوليو من هذا العام أى شىء عن الطيران ولا ترى فيه شيئًا يستحق الاهتمام وتظهر صمتًا تامًا فى هذا الصدد يوحى بأن الإنسان لن يطير قط ولا يجب عليه ذلك. أما فى صحف شهر أغسطس من نفس العام فظهر فى صفحاتها الأولى (فيلمر) وطيرانه والمظلات والتكتيكات الجوية والحكومة اليابانية ثم (فيلمر) والطيران مرة أخرى وهكذا.. بل إنها غطت على أخبار الحرب فى اليونان ومناجم الذهب فى (جرينلاند).

أعطاه (بانجهيرست) عشرة آلاف جنيه، ثم أعطاه خمسة آلاف جنيه أخرى.. كما فتح له أبواب مختبراته الخاصة الشهيرة (التى

كانت حتى ذلك الوقت معقمة)، وخصص له عدة أفدنة من الأرض بالقرب من مسكنه الخاص بتلال (سورى) من أجل الإكمال الشاق والعنيف - على طريقة (بانجهيرست) - لآلة الطيران الواقعية بالحجم الطبيعى. وفى غضون ذلك، وعلى مرأى من كثير من علية القوم والمشهورين داخل الحديقة المسورة لمقر إقامة (بانجهيرست) فى (فولهام).. قدم (فيلمر) عرضًا أسبوعيًا لتطوير النموذج العملى على خطوات وصولاً إلى الشكل النهائى. وقامت صحيفة (نيوبيبر)، بتكلفة مبدئية عالية ولكن بربح فى النهاية، بطرح صورة فوتوغرافية تذكارية جميلة لأول واحدة من تلك العروض لقرائها.

وهنا تأتى الخطابات المتبادلة بين (آرثر هيكز) وصديقه (فانس) لمساعدتنا..

كتب (هيكز) وفى كلماته لمسة حسد طبيعية لمن كان فى مركزه كشاعر أفل مجده "رأيت (فيلمر) فى مجده.. كان دائمًا نظيفًا حليق الذقن ويرتدى أحدث الموضات كمحاضر مسائى بالمعهد الملكى.. وخصوصًا أحدث سترات الفراك الرسمية والأحذية الطويلة المسجلة ببراءات اختراعات.. وعمومًا فى حالة من القلق الغريب ما بين رجل عظيم قبيح كالبومة وشخص مرح خائف وخجول ومرتبك من التعرض لأى موقف صعب.. ولون بشرة وجهه ليس مريحًا بالمرة.. ورأسه يبرز إلى الأمام.. وعيناه الصفراوان الداكنتان الصغيرتان تحرسانه خفية من كل شر..

وملابسه مناسبة على مقاسه تمامًا، لكنها عندما يرتديها تبدو كما لو كانت ملابس جاهزة.. وهو يتحدث كمن يغمغم.. ويسهل

عليك أن تلاحظ أنه يقول الكثير من الأشياء التى تدل على الغطرسة والثقة المفرطة بالذات.. وهو يتقهقر إلى مؤخرة الجماعات لا إراديًا إذا أرسل إليه (بانجهيرست) رسالة قصيرة.. وعندما يسير على نجيل منزل (بانجهيرست) فإن المرء يتصوره مبهورًا متقطع النفس ويكاد يتشنج، كما تنطبق أصابع يديه الشاحبتين الضعيفتين. ويكون عمومًا فى حالة قلق وتوتر شديد للغاية.. والغريب أنه مكتشف هذا العصر وأى عصر.. نعم إنه أعظم مكتشف لهذا العصر وكل عصر!..

الشىء الذى يحيرنى فعلاً بشأنه أنه لم يتوقع ذلك قط بأى شكل من الأشكال.. و(بانجهيرست) موجود فى كل مكان.. النموذج الفعال لاختراعه الصغير.. وأقسم أنه سوف يحضر الجميع على نجيل منزله قبل أن ينتهى من صنع المحرك..

تخيل ذلك!.. (فيلمر)، (فيلمر) الغامض السوقى، فخر العِلْم البريطانى!.. والدوقات الجميلات الجريئات وكذلك كل النبيلات يحتشدن حوله ويقلن له بصوت عذب واضح "أوه، سيد (فيلمر).. كيف فعلت ذلك؟".

"الرجال العاديون عندما يتوترون لا يستطيعون الإجابة.. ويتصور المرء شيئًا ما أثناء المقابلة.. "سيدتى.. ببذل الجهد الوفير وبدون أى تذمر.. وربما ـ لا أدرى بالضبط ـ بعض الاستعداد الخاص".. وحتى الآن فإن (هيكسش) وبعض المساعدات التصويرية لجريدة (نيوبيبر) يطبق عليهم هذا الوصف بدرجة كبيرة.. وفى إحدى الصور تتأرجح الآلة وهى تهبط تجاه النهر.. ويبدو برج كنيسة (فولهام) أسفل منها

من خلال فتحة فى أشجار (الدردار).. وفى صورة أخرى يجلس (فيلمر) عند بطاريات التوجيه.. وتمتد حوله الأرض العظيمة الجميلة.. بينما يقبع (بانجهيرست) بشكل متواضع ولكن بعزم لا يلين فى مؤخرة الصورة..

المجموعة كلها رائعة بشكل غريب.. وتقف السيدة (مارى إلكينجهورن) التى مازالت جميلة على الرغم من أنها جاوزت الثمانية والثلاثين عامًا، بحيث تحجب الكثير من (بانجهيرست)، وهى تنظر بتعبير تأملى منطو على تفكير عميق إلى (فيلمر)، وهى الشخص الوحيد الذى لم يدرك وجود الكاميرا التى كانت تلتقط صورًا لهم جميعًا..

أعتقد أننى أطلت فى الحقائق والأحداث الخارجية للقصة.. والحقيقة أنها خارج موضوع القصة تمامًا.. أما موضوعنا الحقيقى فهو مازال بالضرورة فى الظلام.. ترى ماذا كان شعور (فيلمر) فى ذلك الوقت؟.. وما هو احتمال وجود ترقب معين غير سار داخل هذا الفراك الحديث والراقى جدًا؟.. كانت أخباره منشورة فى الجرائد الرخيصة والغالية على السواء (التى تتراوح أسعارها من نصف بنس إلى بنس إلى ستة بنسات وأكثر).. ويعرفه كل العالم بالوصف "أعظم مكتشف لهذا العصر وكل العصور".

لقد ابتكر الرجل آلة طائرة عملية.. وفى كل يوم يمر يزداد تجهيزه لآلة طائرة بالحجم الطبيعى بمنطقة تلال (سورى). وعندما تصبح جاهزة تمامًا، كنتيجة حتمية لاختراعه، فإنه سوف يتقدم بكل فخر وسعادة بالصعود على متنها وقيادتها والطيران بها.. وكل

إنسان فى العالم اعتبرها أمرًا مفروغًا منه.. ولم تكن هناك أى ثغرة فى هذا الموقف المتقارب من التوقع..

بيد أننا نعرف الآن بوضوح أن الفخر البسيط والسعادة والسرور فى مثل هذا العمل تعتبر أعمالاً لا تتفق مع القانون أو المزاج الخاص لـ (فيلمر).. ولم يخطر هذا ببال أحد، إلا أنها الحقيقة.. ونستطيع أن نخمن ببعض الثقة الآن أن ذلك لابد أنه كان يدور فى ذهنه بشكل كبير أثناء النهار، ومن واقع شكواه البسيطة لطبيبه المعالج له بأنه يعانى من أرق دائم، فإن لدينا الدليل الصحيح على افتراض أنه كان يطارده أيضًا فى لياليه..

وهذه الفكرة هى أن ذلك، عمومًا ورغم أمانه النظرى، يعتبر مرضًا وأمرًا خطيرًا وغير مريح له أن يخفق بجناحين عاليًا فى الهواء على ارتفاع ألف قدم أو نحو ذلك..

ولا شك أن رؤية ذلك كله يحدث فى الهواء ومن أسفل فراغ كثيف قد استولت عليه مبكرًا فى فترة مجده وقت أن أصبح أعظم مكتشف لهذا العصر وجميع العصور.. ولعله أثناء فترة شبابه نظر إلى أسفل من ارتفاع شاهق جدًا، أو سقط بطريقة مؤلمة للغاية.. ولعله كان يعتاد اليوم على الجانب الخطأ من الأشياء مما ترتب عيه هذا السقوط فى كابوس تعرض له مما ولد هذا الخوف.. وليس لدينا الآن ذرة من الشك فى شدة هذا الخوف أو الهلع.. والواضح أنه لم يفكر مليًا فى دوره أو واجبه فى الطيران فى الأيام الأولى التى قضاها فى أبحاثه العلمية.. وكانت الآلة الطائرة هى كل هدفه.. ولكن الآن بدأت الأمور تحول دون تحقيقه لهذا الهدف،

وبخاصة إصابته بالغثيان والدوران من التحليق عاليًا هناك.. لقد كان الرجل مكتشفًا، وهاهو قد اكتشف!.. غير أنه لم يكن رجلاً طائرًا.. والآن فقط بدأ يدرك بوضوح أن الناس يتوقعون منه الطيران.. ولكن رغم أن ذلك الأمر كان فى ذهنه، إلا أنه لم يعبر عنه حتى انتهى من كل شىء. وفى غضون ذلك كان يذهب هنا وهناك من وإلى مختبرات (بانجهيرست) الشهيرة.. وأجريت معه كثير من المقابلات واللقاءات وارتدى أفخر الملابس وأكل أطيب الطعام وسكن فى شقة رائعة.. وتمتع بأقصى صور المجد والنجاح والشهرة كإنسان.. وبعد كل الجوع أو الحرمان الذى عاناه طوال سنوات عمره، فقد أتته الفرصة للمجد والمتعة..

وبعد قليل من الوقت، توقفت الاجتماعات الأسبوعية فى (فولهام).. وذات يوم تعطل نموذج الطائرة فى لحظة ورفض الاستجابة لتوجيهات (فيلمر).. أو لعله تشتت تفكيره من إطراء كبير الأساقفة له.. وعلى أية حال، فقد شقت مقدمة الآلة الهواء بميل أكثر من اللازم قليلاً، بينما كان كبير الأساقفة يجيب بسهولة عن بعض الأسئلة المطروحة عليه من جميع أرجاء العالم، مثل كبير الأساقفة المثالى، إلا أنها هبطت فى طريق (فولهام) على مسافة ثلاثة أمتار من جواد يجر حافلة.. وجثمت هنالك لثانية واحدة، ولعلها كانت مندهشة مما يحدث لها!، ثم لم تلبث أن تحطمت وتناثرت أجزاؤها، وعلى الفور قُتل جواد الحافلة المجاور لها..

وتوقف إثر ذلك إعجاب كبير الأساقفة وإطراؤه لـ (فيلمر)، ووقف الأخير بثبات وحدق فى اختراعه بعد أن ابتعد عن ناظريه

وعن متناوله.. ويداه الشاحبتان الطويلتان ما زالتا قابضتين على الجهاز الذى لا قيمة له.. وتبع كبير الأساقفة نظرته إلى السماء بخوف لا يليق بكبير الأساقفة.. ثم دوى صوت الانفجار والصرخات والصيحات من الطريق لتخفف من توتر (فيلمر).. وهمس قائلاً "يا إلهى!" وجلس لفوره..

كل الناس كانوا يحملقون فى كل اتجاه ليعرفوا مكان اختفاء الآلة أو يندفعون إلى داخل منازلهم.. ومنذ ذلك الوقت ازداد معدل تقدم صنع الآلة الضخمة.. وطوال صنعها كان (فيلمر) يشرف على كل شىء ببطء وبحذر شديد.. وكانت هواجسه تزداد مع الوقت خشية وقوعه فى أخطاء.. وكانت عنايته بقوة ومتانة الآلة غير عادية بل مذهلة.. وكلما شعر بأدنى شك فى أمر ما، كان يعطل ويوقف كل شىء حتى يتم استبدال الجزء المشكوك فيه.. حتى أن مساعده الرئيسى (ويلكنسون) أرغى وأزبد إزاء بعض تلك التعطيلات التى أصر على أنها لم تكن ضرورية على الإطلاق..

وعظم (بانجهيرست) من الثقة والصبر اللذين يتمتع بهما (فيلمر) فى جريدته (نيوبيبر).. ولكنه انتقدها بحدة لدى زوجته و(ماك أندرو) المساعد الثانى.. وقال (ماك أندرو): "إننا لا نريد أن نفشل يا رجل.. لا شك أنه رجل حكيم ويجب أن يتأكد من كل شىء.. فلا تقلق واتركه يعمل".. وفى كل فرصة ممكنة، يشرح (فيلمر) لمساعده (ويلكنسون) وأيضًا (ماك أندرو) كيف أن كل جزء من الآلة الطائرة يجب أن يتم تصميمه وصفّه بكفاءة عالية، بحيث يكون قادرًا عندما يحين الوقت على توجيه الآلة بدقة فى السماء إلى وجهتها المطلوبة..

الآن يجب علىّ أن أتصور أنه لو كان (فيلمر) صالحًا فى تلك المرحلة لوصف ما كان يشعر به بالضبط، ولتمكن من الصعود بالآلة فى خط محدد للإقلاع، ولأمكنه أن يهرب من تنفيذ تلك المهمة الثقيلة أو المحنة بسهولة فائقة..

ولو كان كل شىء واضحًا فى ذهنه من البداية، لأمكنه عمل الكثير والكثير.. فمثلاً لم يكن ليجد صعوبة فى التحقق من أى طبيب متخصص من خلوه من أى ضعف فى القلب أو أى مشاكل هضمية أو رئوية من التى يمكن أن تقف فى طريقه.. وهذا هو الأسلوب الصحيح الذى يدهشنى أنه لم يتبعه.. أو لعله إذا كان إنسانًا حقًا لتوفرت لديه الشجاعة فى أن يعلن ببساطة أنه لا ينوى المضىّ فى هذا العمل..

لكن الحقيقة أنه بالرغم من قلقه وخوفه الشديدين، كان الهدف محددًا وواضحًا جدًا فى ذهنه.. وأتصور أنه خلال كل تلك الفترة كان يخبر نفسه دائمًا أنه عندما تحين الفرصة فسوف يجد نفسه جاهزًا لها.. حاله كان يشبه الرجل المصاب بمرض عضال ولكنه يقول للجميع إنه يشعر بتوعك مزاجه فقط وأنه سوف يتعافى قريبًا.. وفى غضون ذلك، أجّل إكمال صنع الآلة، وترك الافتراض بأنه سوف يطيّرها يترسخ وينتشر بين الناس.. بل إنه حتى تقبل كل عبارات الإطراء والتشجيع لشجاعته ومثابرته.. وباستثناء هذا الغثيان السرى، فليس هناك شك فى أنه تلقى كل الشكر والتقدير والإطراء والألقاب الشرفية، كما أنه تلقى حوالة مالية بمبلغ كبير يخلب الألباب..

غير أن السيدة (ماري الكينجهورن) قامت بأشياء عقدت الأمور أمامه.. أما كيف بدأ هذا فقد كان موضوع تخمين لا ينضب قام به (هيكز).. ولعلها في البداية كانت امرأة رقيقة ولطيفة بالنسبة له، وخصوصًا بتحيزها "العادل" له.. وربما كانت صورته في عينيها، وهو واقف بوضوح يسيطر على وحشه الذى صنعه وهو يصعد فى الهواء، كانت متميزة للغاية لدرجة أن (هيكز) لم يكن مستعدًا لقبولها.. ولابد أنهم تمكنوا بطريقة ما من البقاء فى عزلة كافية لبعض الوقت وأيضًا توفر للمكتشف العظيم لحظة من الشجاعة الكافية لعمل شىء شخصى صغير بحيث لا يمكن إفشاؤه أو أن تلوكه الألسن.. ومع ذلك فقد بدأ.. ليس ثمة شك فى أنه بدأ.. والآن أصبح معروفًا لعالم اعتاد أن يجد فى أعمال وأخبار السيدة (ماري اليكنجهورن) موضعًا للمتعة والإثارة.. وعقّد ذلك الأمور لأن حالة الحب فى عقل خام وغض كعقل (فيلمر) لابد أن تقوى من تصميمه - إن لم يكن بقدر كاف فبدرجة كبيرة لا يستهان بها - على مواجهة الخطر الذى يخشاه.. كما أنه يعوقه ويعرقله بشأن محاولاته لتجنبها، وهو ما كان ليحدث فى أى ظروف أخرى طبيعية وملائمة..

وما زال هناك خلاف حتى الآن حول شعور السيدة (مارى) بشأن (فيلمر) وكيف كان رأيها فيه.. ففى الثامنة والثلاثين يكون المرء مر بتجارب عديدة وجمع الكثير من جوانب الحكمة، لكنه قد لا يكون حكيمًا تمامًا.. والأرجح أن خياله مازال يعمل بنشاط كبير لخلق مواقف ساحرة ومحاولة تحقيق المستحيل.. وظهر هو أمام عينيها كرجل هام ومبدع.. كما أنه بدا ذا قدرات هائلة ومتميزة فى الهواء بالطبع!

إن أداء النموذج الذى صنعه كان له لمسة أو صفة التعويذة القوية.. والنساء يبدين دائمًا ميلاً غير مقبول لتصور أن الرجل المتميز فى عمله لابد أن يكون ناجحًا أيضًا فى الحب والعلاقات الغرامية.. وفى هذه الحالة أصبح كل ما هو سيئ فى سلوكيات مظهر (فيلمر) ميزة إضافية له!.. وكان الرجل متواضعًا ويكره التظاهر والكذب.. ولو أعطيت له فرصة لظهور صفاته الحقيقية، فسوف يرى المرء الكثير منه!..

رأت المرحومة السيدة (بامبتون) أنه من الحكمة أن تنقل إلى السيدة (مارى) رأيها بأن (فيلمر) لو نظرنا إليه من جميع النواحى لوجدناه شخصًا "زرىّ المظهر".. وقالت السيدة (مارى): "إنه بالتأكيد ليس ذلك النوع من الرجال الذين قابلتهم من قبل".. وقالت ذلك بهدوء شديد!.. وعندها رأت السيدة (بامبتون) بعد نظرة سريعة متفحصة لذلك الهدوء، أنها فعلت كل ما فى وسعها بخصوص إظهار كل شىء للسيدة (مارى).. لكنها قالت ما هو أكثر منه للآخرين..

وأخيرًا.. وبدون أى عجلة لا داعى لها أو تصرف غير مناسب، طلع النهار.. اليوم العظيم الذى وعد فيه (بانجهيرست) الناس، أو لنقل العالم كله، بأن يتحقق الطيران بدون مشاكل خلاله.. ورآه (فيلمر) و(هونجز)، بل لاحظه حتى وهو فى الظلام السابق للفجر.. لاحظ نجومه وهى تخبو وأنواره الرمادية والقرنفلية المتلألئة ترحل لتحل محلها سماء زرقاء صافية ويوم مشمس بلا أى سحاب، لاحظه من نافذة مخدعه بالجناح المبنى حديثًا من منزل

(بانجهيرست تيودور). وحيث إن النجوم رحلت وأشكال الأشياء والأجسام بدأت تتضح بعد تبدد الظلام، لا بد أنه رأى بوضوح أكثر وأكثر الاستعدادات البهيجة وراء مجموعة أشجار (الزان) بالقرب من السرادق الأخضر فى الحديقة الخارجية.. ثلاثة أجنحة للمتفرجين المتميزين.. السور الحديد غير المصقول للحلبة المسيَّجة.. الحظائر والورش.. الصوارى والرايات الخفاقة التى رأى (بانجهيرست) أنها ضرورية، سوداء ومترهلة فى جو الفجر الساكن الخالى من أى نسمات للهواء.. ووسط كل تلك الأشياء لمح جسمًا ضخمًا ملفوفًا بالشمع.

كان ذلك الشكل بمثابة أعجوبة أو شىء رائع ورهيب للبشرية كلها.. أو بداية لن تلبث أن تتسع وتنتشر وتتغير وتسيطر على مقدرات الناس.. لكن بالنِّسبة إلى (فيلمر) لم يظهر إلا فى ضوء خافت محدود.. وسمعه الكثيرون يذرع غرفته فى ساعات الصباح الأولى.. إذ إن القاعة الكبيرة كانت مزدحمة بالضيوف بمعرفة صاحب مؤسسة النشر الذى كان قبل كل شىء يفهم معنى الإقناع..

وحوالى الساعة الخامسة، إذا لم يكن قبل ذلك، غادر (فيلمر) حجرته وانطلق من غرفة النوم إلى الحديقة، التى نشطت فى ذلك الوقت بضوء الشمس والطيور والسناجب والوعول السمراء.. وقابل هناك (ماك أندرو) الذى استيقظ مبكرًا هو الآخر بالقرب من الآلة.. وذهب الاثنان لكى يلقيا عليها نظرة معًا.

والأرجح أن (فيلمر) لم يتناول أى إفطار، بالرغم من إلحاح (بانجهيرست) على ذلك.. ولذلك بمجرد تجمع عدد لا بأس به من

الضيوف، يبدو أنه قفل راجعًا إلى غرفته. وهناك حوالى العاشرة ذهب إلى منطقة الأشجار.. ربما لأنه كان قد شاهد السيدة (مارى إلكينجهورن) هناك.. كانت تسير جيئة وذهابًا، مشغولة بالحديث مع صديقتها القديمة من أيام المدرسة السيدة (بريويس كرافن).. ورغم أن (فيلمر) لم يقابل السيدة الأخيرة قط من قبل، إلا أنه انضم إليهما وسار بجوارهما لبعض الوقت.

سادت فترات سكوت كثيرة بينهما، بالرغم من تألق وفتنة السيدة (مارى).. كان الموقف صعبًا إلى حد ما، غير أن السيدة (بريويس كرافن) لم تدرك تلك الصعوبة.. إذ قالت بعد ذلك بتناقض ذاتى واضح "لقد صدمت عندما رأيته.. نعم لقد بدا كإنسان بائس حزين يريد أن يتحدث ويقول شيئًا ما.. وكان من الضرورى قبل أى شىء آخر أن يساعده شخص ما ولكن كيف إذا كان المرء لا يعرف ما هى مشكلته؟".

فى الساعة الحادية عشرة والنصف كانت الساحة المحوّطة مكتظة.. ومن وقت لآخر تتدفق العربات على طول الشريط الذى يحوّط المدينة الخارجية.. وانتشرت جماعة فى شكل نقط عبر المرج ومنطقة الأشجار وركن الحديقة الداخلية.. فى سلسلة من الدوائر المزخرفة الجميلة.. والجميع يندفع إلى الآلة الطائرة. وتحرك (فيلمر) فى مجموعة من ثلاثة مع (بانجهيرست) الذى بدا رائعًا وسعيدًا للغاية والسير (تيودور هيكل) رئيس جمعية الطيران.. ومن ورائهما مباشرة سارت السيدة (بانجهيرست) مع السيدة (مارى الكينجهورن) و(جورجينا هيكل) ورئيس الكهنة فى كاتدرائية (ستييز).

كان (بانجهيرست) رائعًا ووافرًا فى حديثه، والفراغات التى أظهرها انصرافه تمكن (هيكل) من ملئها وذلك بتوجيه تعليقات المدح والمجاملة إلى (فيلمر).. بينما سار (فيلمر) بينهما بدون أن يقول كلمة واحدة عدا الردود التى لا مفر منها بالطبع. وفى الخلف أنصتت السيدة (بانجهيرست) إلى الحديث الجميل واللطيف لرئيس الكهنة واهتمت كثيرًا بكل تلك الخدمات الجليلة التى قام بها طوال عشر سنوات من الترقى وخدمة الدين المسيحى.. وراقبت السيدة (مارى) ما يجرى. وكانت على ثقة تامة بتحرر العالم من الأوهام.. من خلف الكتفين المتدليين للرجل الذى أمامها والذى لم تره قط من قبل.

أقبلت الجماعة المركزية نحو الساحة المحوطة وتناهت إلى أسماعها أصوات الهتاف.. بيد أنه لم يكن هتافًا جماعيًا ولا نشطًا.. كانوا على مسافة خمسين ياردة من الجهاز عندما نظر (فيلمر) بسرعة من فوق كتفه لتقدير المسافة التى تبعد بها السيدات وراءهم.. ولم يلبث أن قرر إبداء الملاحظة الأولى التى قررها عندما غادر المنزل.. وبصوت أجش إلى حد ما قاطع (بانجهيرست) وهو فى منتصف جملته قائلاً "إننى أقول يا (بانجهيرست)" ثم توقف.

قال (بانجهيرست) "نعم".. فقال: "إننى أريد.." وبلل شفتيه وواصل: "إننى لست على ما يرام" وعلى الفور توقف (بانجهيرست) وصاح: "ماذا تقول؟".. فقال (فيلمر): "إننى أشعر بشعور غريب".. وحاول (فيلمر) أن يتحرك لكنه وجد (بانجهيرست) لا يحرك ساكنًا

فقال: "أنا لا أعرف.. لعلى أتحسن بعد دقيقة.. فإذا لم أتحسن فربما... (ماك أندرو).....".

قال (بانجهيرست): "أنت لست فى خير حال؟".. وحدق فى وجهه الأبيض الشاحب وقال "عزيزتى!" حيث انضمت إليهما السيدة (بانجهيرست) وواصل: "(فيلمر) يقول إنه ليس فى أحسن حال".. وصاح (فيلمر) بقول: "إن لدىّ إحساسًا غريبًا" وحاول أن يتجنب نظرات السيدة (مارى) وأردف: "لعله ينتهى..." وساد الصمت لبعض الوقت.. وشعر (فيلمر) بأنه أكثر الناس انعزالاً عن العالم فى تلك اللحظات.

قال (بانجهيرست): "على أية حال.. لابد من القيام بالطيران والصعود فى الجو.. وربما لو جلست فى مكان واحد لبعض الوقت..." فقال (فيلمر): "أعتقد أنه الزحام الشديد".. وساد الصمت مرة أخرى.. وتركزت عينا (بانجهيرست) فى تمحيص دقيق على (فيلمر)، ثم استعرضت عينة من الجمهور الموجود داخل الساحة المحوّطة.. وقال السيد (تيودور هيكل): "هذا شئ يؤسف له.. لكن ما زال.... أعتقد.... أن مساعديك... بالطبع، إذا كنت تشعر بأنك لست فى حالتك الطبيعية وغير راغب فى هذا العمل...".

قالت السيدة (مارى): "لا أظن أن السيد (فيلمر) سوف يسمح بذلك للحظة واحدة".. فتنحنح (هيكل) وقال: "لكن إذا كانت أعصاب (فيلمر) مجهدة، فربما يكون من الخطر عليه أن يحاول...".. وبدأت السيدة (مارى) بقولها: "هذا فقط لأن الأمر

ينطوى على مخاطرة".. وشعرت بأنها أوضحت وجهة نظرها وفى نفس الوقت وجهة نظر (فيلمر).. وبدا أن (فيلمر) تتصارعه أفكار متضاربة.

قال وهو ينظر إلى الأرض:"أشعر أنه يجب علىّ أن أطير".. ثم رفع بصره ونظر فى عينى السيدة (مارى) وقال: "أريد أن أطير فى الجو".. وابتسم لها ابتسامة خفيفة.. ثم استدار تجاه (بانجهيرست) وقال له: "لو أمكننى أن أجلس فى مكان ما للحظة بعيدًا عن الزحام والشمس...".

أخيرًا بدأ (بانجهيرست) يفهم الموقف وقال "هيا إلى حجرتى الصغيرة بالخيمة الخضراء.. إن الجو بارد هناك" وأمسك بـ (فيلمر) من ذراعه.. وأدار (فيلمر) وجهه إلى السيدة (مارى إلكينجهورن) من جديد وقال "سوف أكون على خير ما يرام خلال خمس دقائق.. أنا آسف للغاية".

ابتسمت السيدة (مارى إلكينجهورن) له.. ثم قال لـ (هيكل): "لم أستطع أن أفكر" واستسلم لقوة سحب (بانجهيرست) له.. بينما ظل بقية الناس يراقبون الرجلين وهما يبتعدان.

قالت السيدة (مارى): "إنه ضعيف ورقيق للغاية".. وقال رئيس الكهنة: "لا شك أنه من الطراز العصبى للغاية".. والحقيقة أن نقطة ضعف رئيس الكهنة تكمن فى نظرته إلى العالم بأكمله، فيما عدا رجال الدين المسيحى الذين لديهم عائلات كبيرة، على أنه عصبى!

وقال (هيكل): "بالطبع، إذ ليس ضروريًا قط بالنسبة إليه أن يطير لمجرد أنه اختراع...." وهنا سألت السيدة (مارى) بنبرة يكمن

فيها بعض السخرية: "وكيف يمكنه أن يتجنب ذلك؟" فقالت السيدة (بانجهيرست) بجفاء: "لاشك أنه من المؤسف أن تصيبه تلك الوعكة الآن"وقالت السيدة (مارى) وعيناها فى عينى (فيلمر) مباشرة: "إنه لن يكون مريضًا".

وقال (بانجهيرست) وهما يتجهان إلى الخيمة: "سوف تكون على خير حال يا رجل.. كل ما تحتاجه الآن رشفة من البراندى.. أنت تعرف أنه يجب أن تطير أنت وليس أى شخص آخر.. إذ إنك سوف تجعل الأمر صعبًا لو تركت رجلاً آخر...".

قال (فيلمر): "آه، إننى أريد فعلاً أن أطير.. على أى حال لا تقلق، فسوف أكون على خير حال قريبًا جدًا. والحقيقة أننى أميل الآن إلى .... لا!.. أعتقد أننى بحاجة إلى رشفة من البراندى وليكن بعد ذلك ما يكون".. فأخذه (بانجهيرست) إلى الحجرة الصغيرة وأخرج دورقا فارغا.. وغادرا الغرفة بحثًا عن الشراب.. ولعله بقى بالخارج لمدة خمس دقائق. العجيب أن تاريخ تلك الدقائق الخمس لا يمكن كتابته!.. فعلى فترات زمنية متتابعة أمكن للناس الموجودين فى أقصى الشرق من المدرجات المقامة لجمهور المشاهدين أن يروا وجه (فيلمر) خلف زجاج النافذة وهو يحدق إلى الخارج.. ثم بدأ يبتعد حتى تلاشى تمامًا.. وكذلك اختفى (بانجهيرست) وهو يصيح خلف المدرجات الرئيسية.. والآن ظهر الساقى حاملاً صينية ومتجهًا إلى ناحية الخيمة.

الشقة التى دخل فيها (فيلمر) قبل اختفائه كانت عبارة عن حجرة صغيرة جميلة ذات أثاث بسيط جدًا وفرش أخضر ومكتب

قديم، ذلك أن (بانجهيرست) كان بسيطًا فى كل شئون حياته الخاصة.. وهذه الحجرة مزينة بنقوش صغيرة على نسق نقوش (مورلاند)، وبها رف للكتب.. ولكن الذى حدث أن (بانجهيرست) ترك خلفه بندقية رمادية صغيرة كان يلهو بها أحيانًا على سطح المكتب.. وعلى ركن رف المدفأة توجد علبة مازال بها ثلاث أو أربع طلقات.

بينما كان (فيلمر) يذرع أرجاء الغرفة لمغالبة مشكلته التى لا تطاق، ذهب أولاً باتجاه البندقية الصغيرة الأنيقة الموجودة متقاطعة مع نشافة الحبر، ثم باتجاه البطاقة الحمراء الصغيرة الأنيقة (Long ٠٢٢) لا بد أن فكرة ما تولدت فى ذهنه فى لحظة واحدة.

لا يبدو أن هناك أحد ربط بين الدوى وبينه، رغم أن البندقية التى أطلقت النيران فى هذا الحيز الصغير لابد أنها أصدرت دويًا قويًا، أثناء وجود أناس كثيرين فى حجرة البلياردو، ولا يفصلهم عنه سوى حاجز من الألواح الخشبية والجص. وبسرعة فتح ساقى (بانجهيرست) الباب وشم رائحة الدخان الفاسدة، وأدرك ـ كما قال بعد ذلك ـ ماحدث. وعلى الأقل فإن خدم منزل (بانجهيرست) خمنوا شيئًا مما كان يدور فى ذهن (فيلمر).

وطوال فترة ما بعد الظهيرة المؤلمة والمرهقة هذه، كان (بانجهيرست) يتصرف كما يعتقد أنه التصرف الصحيح للرجل الذى يواجه كارثة عضال.. ونجح ضيوفه فى أغلب الأحوال فى عدم الإصرار على حقيقة أن (بانجهيرست) ـ بالرغم من أن محاولة

إخفاء إدراكهم لها كلية كان مستحيلاً ـ كان ضحية للخداع المتقن والكامل من قبل الميت.

وقال لى (هكس) بشكل مشتت إن الجمهور الموجود بالساحة المطوّقة: "كان مثل جماعة يحاولون الهرب من موقف صعب"، وأنه لم يكن هناك فى (لندن) أحد يجهل أن الطيران أمر يستحيل أن يقوم به إنسان.. وقال كثيرون: "لكنه ربما حاول ذلك بعد حمل تلك الآلة العجيبة لمسافة طويلة".

وفى المساء عندما كان وحيدًا نسبيًا، انهار (بانجهيرست) وأصبح فى حالة يرثى لها.. وقيل لى إنه بكى، وهذا بلا شك كان مشهدًا مؤثرا.. وبالقطع أنه قال إن (فيلمر) حطم حياته.. وأنه باع الجهاز كله إلى (ماك أندرو) نظير نصف كراون.. وقال (ماك أندرو) عند إنهاء هذه الصفقة: "لقد كنت أفكر... " ثم توقف عن الكلام.

فى الصباح التالى كان اسم (فيلمر) لأول مرة أقل وضوحًا فى جريدة (نيوبيبر) من أى جريدة يومية أخرى فى العالم أجمع. وأعلن بقية المدربين فى العالم بدرجات تأكيد مختلفة، تبعًا لمنزلة كل منهم ودرجة التنافس فيما بينهم وبين بعضهم البعض، أن: "آلة الطيران الجديدة فشلت فشلاً ذريعًا" و"انتحار النصّاب". ولكن فى مقاطعة (نورث سورى) تم تلطيف استقبال الأخبار بالزعم بوجود ظواهر جوية غير عادية.

وقضى (ولكنيسون) و(ماك أندرو) طول الليل فى جدال عنيف حول الدوافع الحقيقية للتصرف الطائش الذى أقدم عليه رئيسهما. وقال (ماك أندرو): "لا شك أن الرجل كان شخصًا جبانًا بائسًا لكن

من الوجهة العلمية التى أدلى فيها بدلوه فإنه لم يكن نصابًا قط.. وأنا مستعد يا سيد (ولكينسون) لإعلان هذا الخبر فى عرض عملى جدًا، بمجرد أن نجهز هذا المكان بشكل أفضل لأنفسنا.. إذ ليس لدىّ ثقة فى جدوى كل هذه الدعاية بالنسبة للمحاولات التجريبية الجادة".

ولتحقيق هذا الغرض عكف (ماك أندرو) - فى الوقت الذى كان فيه العالم يقرأ أخبار فشل الآلة الطائرة الجديدة - على التحليق والقفز بالآلة الطائرة لمسافات كبيرة بثقة واقتدار، فوق مناطق (إبسوم) و(ويمبلدون).. وعاد الأمل والحماس مرة أخرى إلى (بانجهيرست) الذى أخذ يتابع - بغض النظر عن الأمن العام و"مجلس التجارة" - حركاته ودورانه.. وحاول جذب اهتمامه مستقلاً سيارة وهو مرتد لباس نومه.. وكان معه ضمن أشياء أخرى كاميرا فيلمية ثبت له فيما بعد أنها كانت لا تعمل.

وكان (بانجهيرست) شاهد الطيران بالآلة عندما سحب إلى أسفل الستارة المعدنية لنافذة مخدعه.. أما (فيلمر) فكان ممددًا على طاولة البلياردو فى الخيمة الخضراء، وجسده مغطى بملاءة سرير.

المتجـر المسحـور

شاهدت المتجر السحرى مرات عديدة من على بعد. كما مررت به مرة أو مرتين، ورأيت فى نافذة العرض به، أشياء صغيرة ذات جاذبية خاصة، كرات سحرية، دمى سحرية على شكل دجاج. مخاريط رائعة، دمى تتحدث من بطنها، المواد التى تستخدم فى ألعاب السلة، مجموعات من أوراق اللعب التى تبدو وكأنها حقيقية، وأشياء سحرية أخرى مختلفة. ولم أفكر أبدًا فى دخول هذا المتجر. إلى أن جاء يوم وجدت فيه ابنى (جب) - بدون أى إنذار - يجذبنى من إصبعى نحو نافذة العرض للمتجر السحرى، وهكذا لم أجد مفرًا من أن أدخل معه.

ولم أكن أتصور من قبل، أن مثل هذا المكان يمكن أن يوجد فى شارع (ريجنت)، بواجهته ذات المساحة الصغيرة، ما بين محل الصور ومتجر بيع الدجاج، حيث تخرج الكتاكيت من حاضناتها وتشرع فى الجرى هنا وهناك. بيد أن المتجر السحرى كان فى هذه المنطقة بالتأكيد. لطالما خيل لى أنه ربما يقع بالقرب من (بيكاديللى سيركس) أو عند ناصية بشارع (أوكسفورد) أو حتى فى (هولبورن).

كان المتجر السحرى دائمًا بعيدًا عن طريقى المعتاد، ومتعذرًا بلوغه وكأنه يشبه السراب، ولكنه أصبح الآن يقينا لا سبيل إلى إنكاره ، وها هو أمامى. وإصبع (جب) الصغير يحتك بزجاج نافذة العرض محدثًا صوتًا. وأخذ يربت برفق على البيضة القابلة للاختفاء، ويقول: "لو كنت ثريًا، لابتعت لنفسى هذه.. وهذه" التى كانت لعبة تتضمن لغزًا، وبجانبها كانت هناك بطاقة أنيقة مكتوب عليها: "اشتر واحدة وأدهش أصدقاءك".

قال (جب): "أى شىء يختفى تحت واحد من هذه الأقماع، لقد قرأت عنها فى أحد الكتب". واستطرد قائلاً: "وها هو يا أبى (نصف البنس[1] المختفى)، لقد وضعوه فى مكان مرتفع حتى لا نعرف كيف تتم الخدعة".

إن (جب) - ابنى العزيز - ورث أسلوب أمه المهذب، ومن ثم لم يقترح علىّ دخول المتجر السحرى، وكل ما فعله - وبالتأكيد بدون وعى - أنه جذبنى من إصبعى فى اتجاه باب المتجر، وهكذا عبّر عن رغبته بوضوح.

أشار إلى زجاجة سحرية وقال: "أريد هذه" وكان ينظر إليها بحماس مفاجئ فقلت له: "وماذا ستفعل بها؟".

أجابنى وهو مستغرق فى التفكير: "يمكننى أن أريها لـ (جيسى)".

قلت له: "(جيبلس)! إن عيد ميلادك بعد نحو مائة يوم".

---

(١) عملة إنجليزية صغيرة (المترجم).

وضعت يدى على مقبض باب المتجر وفتحته.

لم يجبنى (جب)، بل أطبق بقبضته على إصبعى بإحكام، ودلفنا المتجر. لم يكن هذا متجرًا عاديًا، بل كان متجرًا سحريًا. ولم يعد (جب) يثب مرحًا كما كان يفعل فى الخارج. كما أنه ترك لى إدارة دفة الحديث.

كان متجرًا صغيرًا ضيقًا خافت الإضاءة، فرقع جرس الباب من جديد بصوت كئيب، بمجرد أن أغلقناه وراءنا وهكذا أصبحنا وحيدين، وأمكننا أن نتأمل المكان من حولنا. كان هناك نمر مصنوع من الورق المُقَسّى(٢) وموضوع فى الصندوق الزجاجى الذى يغطى النضد المنخفض، نمر له عينان حنونان عميقتان، وكان رأسه يتأرجح بطريقة منتظمة. كما كانت هناك أجسام كروية بللورية ويد من الخزف الصينى تمسك بأوراق لعب سحرية، ومجموعة من أحواض السمك السحرية فى أحجام مختلفة، وقبعة سحرية غير مألوفة تظهر نابضاتها بداخلها، وشكلها يخدش الذوق العام. وعلى الجدار كانت هناك مرايا سحرية، واحدة تظهرك بالغ الطول ونحيفًا، وأخرى تضخم رأسك وتخفى ساقيك، وثالثة تجعلك قصير القامة وبدينًا مثل البرميل، وبينما كنا نضحك على صورنا الظاهرة فى المرايا، دخل شخص ما، عرفت أنه صاحب المتجر.

وقف خلف النضد، شخص مثير للفضول، شاحب الوجه، أسمر البشرة، له أذن أكبر من الأخرى وذقن مثل مقدم الحذاء ذى الرقبة.

---

(٢) مادة مصنوعة من لب الورق مع مواد أخرى كالصمغ حيث يمكن تشكيلها وهى مبللة (المترجم).

قال لنا وهو يفرد أنامله الطويلة السحرية فوق الصندوق الزجاجى: "ماذا يمكننى أن أقدم لكما؟".

وهكذا شعرنا بوجوده. قلت له: "أريد أن أبتاع لطفلى بعضًا من الخدع البسيطة".

"تعتمد على خفة اليد أم آلية أم تصلح للحفلات المنزلية؟".

قلت له: "أى شىء مسلٍ". قال صاحب المتجر: "آه دعنى أرى".

ثم أخذ يحك رأسه للحظات، كما لو كان يفكر. ثم فجأة جذب من رأسه كرة زجاجية. وقال: "شىء مثل هذا". ووضعها فى يده وقدمها لنا.

كانت حركته هذه مفاجئة وغير متوقعة، رأيتها مرارًا تُؤدَّى فى دور اللهو، إنها جزء معتاد من استعراضات ترفيهية يقوم بها السحرة والمشعوذون، ولكننى لم أتوقع حدوثها هنا، ضحكت وقلت له: "شىء رائع".

قال صاحب المتجر: "أليس كذلك؟".

مد (جب) يده المتحررة ليأخذ الكرة الزجاجية.. بيد أنه وجد مجرد كف خالية.

قال صاحب المتجر: "إنها فى جيبك" وبالفعل كانت هناك!

سألته: "كم ثمن هذه الخدعة؟".

أجاب صاحب المتجر بأدب: "نحن لا نضع أثمانًا للكرات الزجاجية، طالما أننا نحصل عليها مجانًا!".

وأخرج كرة زجاجية أخرى من كمّه، بينما كان يتحدث. واستطرد قائلاً: "مجانًا".

وأبرز كرة ثالثة من وراء عنقه، ووضعها بجانب الأخرى، فوق النضد.

أخذ (جب) ينظر إلى كرته الزجاجية بدهشة بالغة،ثم تطلع إلى الكرتين الأخريين الموجودتين فوق النضد، وأخيرًا نظر بعينيه المستديرتين المتفحصتين إلى صاحب المتجر، الذى ابتسم قائلاً: "يمكنك أن تأخذ هاتين الكرتين أيضًا، وكذلك كرة زجاجية أخرى من فمى.. هكذا".

نظر إلىّ (جب) فى صمت، ثم أخذ الكرات الأربع وضغطت على إصبعه لأبعث فى نفسه الطمأنينة، ولكى يستعد للمفاجأة التالية. قال صاحب المتجر: "نحن نحصل على كل حيلنا الصغيرة هكذا".

ضحكت وكأننى أشارك فى دعابة، وقلت: "بدلاً من التعامل مع تاجر جملة، هكذا أرخص بالتأكيد".

قال صاحب المتجر: "إلى حد ما. لكننا ندفع فى النهاية. ولكن ليس مبالغ كبيرة كما يعتقد الناس.. أما حيلنا الأكبر وتجهيزاتنا اليومية وكل الأشياء الأخرى التى نحتاج إليها. فإننا نحصل عليها من هذه القبعة.. ولو سمحت لى يا سيدى فإننى أقول لك: "لا توجد متاجر جملة للسلع السحرية الأصيلة! ولا أدرى إن كنت قد لاحظت لافتتنا فوق الواجهة (المتجر السحرى الأصيل)" وأخرج بطاقة صغيرة من خده وقدمها لى قائلاً: "سيدى! ليس هناك أى خداع على الإطلاق. كل بضائعنا أصيلة".

وشعرت بأنه انزعج من دعابتى.

التفت إلى (جب) وافتر ثغره عن ابتسامة رقيقة وقال: "أنت - كما تعرف - (الولد المناسب)!" نظر إليه (جب) برباطة جأش. واستطرد الرجل: "إن الولد المناسب فقط هو الذى يستطيع الدخول من هذا الباب".

وكأنما لتوضيح قوله هذا، سمعنا صوت صليل عند الباب، وصوت قصير حاد ولكنه خافت يمكن سماعه بالكاد: "(نايار)! أريد أن أدخل يا أبى. أريد الدخول" ثم صوت أب يسترضى ويواسى: "إنه موصد يا (إدوارد)!".

قلت أنا: "لكن الباب ليس موصدًا!".

قال صاحب المتجر: "إنه موصد دائمًا، لولد غير مناسب مثل هذا".

وبينما كان يتحدث لمحنا الولد الذى فى الخارج، من النافذة الزجاجية، لقد كان وجهه أبيض شاحبًا، شوهته الشهوات الشيطانية وأسنانه أصابها السوس من كثرة أكل الحلويات، ولد أنانى قاسى القلب، يلمس بخشونة زجاج النافذة ويكاد يحطمه.

بينما كنت أهم بالاتجاه إلى الباب، مدفوعًا بطبيعتى الخيّرة، قال صاحب المتجر: "لا جدوى من ذلك يا سيدى" وسرعان ما حملوا الولد الفاسد بعيدًا وهو ينتحب. قلت وأنا أشعر بالراحة: "كيف فعلت هذا؟".

أجابنى بقوله: "إنه السحر!" ثم أخذ يلوّح بيديه فى حركات

متماوجة، وفجأة! صدر عن أصابعه شرر متطاير ونيران ملونة، اختفت فى ظلال المتجر.

وجه حديثه لـ (جب) وقال: "قبل أن تدخل المتجر. كنت تقول إنك تريد الحصول على واحدة من ألعابنا المسماة (اشتر واحدة وأدهش أصدقاءك)؟".

بذل (جب) جهدًا لافتًا للنظر ثم قال: "نعم".

"إنها فى جيبك".

وانحنى فوق النضد ـ لقد كان جسمه طويلاً بشكل استثنائى ـ وأظهر هذا الشخص العجيب اللعبة بطريقة سحرية كما نراها على المسارح وصاح: "ورق" وأخذ لفة ورق كبيرة من القبعة الفارغة ذات النوابض ثم هتف: "خيط" وأخرج من فمه صندوقًا يحتوى على خيوط، أخذ يسحب منه خيطًا طويلاً بلا نهاية، وراح يحكم ربط علبة اللعبة به، بعد أن غلفها. ثم أشعل شمعة عند أنف إحدى الدمى المتكلمة من بطنها، وغمر فيها أحد أصابعه (الذى أصبح مثل الشمع الأحمر) وختم به العلبة. وقال: "وهذه هى البيضة المختفية" وأظهر واحدة من تحت صدر سترتى وغلفها وكذلك "الطفل الباكى"، الذى يشبه طفلاً حقيقيًا. وكنت أسلم (جب) كل طرد بمجرد أن يصبح جاهزًا، وكان يضم كل واحد إلى صدره.

لم يتحدث إلا بكلمات قليلة، ولكن عينيه كانتا معبرتين عما يجيش فى صدره من عواطف خفية متباينة. إن هذا ـ بحق ـ سحر حقيقى!

وجفلت عندما شعرت بشىء ما يتحرك فى قبعتى، شىء ناعم يتواثب. أزحت القبعة عن رأسى، فسقطت منها حمامة ذات ريش طويل، أخذت تجرى على النضد، وتوارت ـ على ما أعتقد ـ فى علبة من الورق المقوى، خلف النمر المصنوع من الورق المقسّى. قال صاحب المتجر: "يا لك من طائر أرعن" وتناول قبعتى، وهزها وأخرج منها بيضتين أو ثلاث بيضات، بلية كبيرة، ساعة، وما يربو على نصف دستة من الكرات الزجاجية، وأوراقًا ملونة مجعدة، وأشياء أخرى كثيرة، بينما كان يتحدث عن إهمال البعض فى تنظيف قبعاتهم من الداخل والخارج. كان يلومنى ـ ولكن بأدب جم ـ وهو يخرج هذه الأشياء من داخل قبعتى: "كل هذه الأشياء تتراكم هنا يا سيدى، إننى لا أعنيك أنت بالذات، بل أعنى كل عميل.. من المدهش أن تكتشف كل الأشياء التى يحملونها داخل قبعاتهم..".

ثم أخذ الورق الملون المجعد فوق النضد، ينتصب ويتموج أكثر وأكثر، ثم أخذ يختفى رويدًا من أمامنا، حتى تلاشى عن أنظارنا تمامًا، ولكن صوته مازال مسموعًا.

قال صاحب المتجر: "لا أحد منا يدرى يا سيدى، كم يخفى المظهر الخارجى للإنسان".

توقف عن الكلام بغتة، تمامًا وكأنك أصبت حاكيًا قريبًا منك بطوبة جيدة التصويب، نفس الصمت المفاجىء. وتوقف حفيف الورق، وأصبح كل شىء ساكنًا.

قلت بعد هنيهة: "هل انتهيت من العبث بقبعتى؟".

فلم يحر جوابًا. حدقت فى (جب) وحدق فىّ، ونظرنا من جديد إلى صورنا المشوهة فى المرايا السحرية، كانت بالغة الغرابة. قلت: "أعتقد أننا سوف نذهب الآن، فهلا أخبرتنى كم ثمن هذه الألعاب؟".

رفعت صوتى قليلاً واستطردت: "كنت أقول. أريد فاتورتى وقبعتى، من فضلك".

سمعنا شهقة من وراء كومة أوراق.

قلت: "(جب)! دعنا ننظر وراء النضد، إنه يداعبنا!".

وقدت (جب) حول النمر ذى الرأس المتأرجحة، فماذا تظننا وجدنا خلف النضد؟ لا أحد على الإطلاق! فقط قبعتى على الأرضية، وإلى جوارها أرنبًا أبيض ذا أذنين متدليتين، غارقًا فى التأمل! يبدو ساكنًا كأى أرنب. استعدت قبعتى. ووثب على الأرض عدة مرات مبتعدًا عن طريقى.

همس (جب) وكأنما يشعر بالإثم: "أبى!".

قلت: "ما الذى تريده يا (جب)؟".

"أبى! إننى أحب هذا المتجر".

قلت فى نفسى: "وأنا أيضًا. ما لم يمتد النضد فجأة ليغلق الباب علينا!".

ولكنى لم أخبر (جب) بما يعتمل فى نفسى. قال (جب): "(بوسى) قم بلعبة سحرية من أجل (جب)" ومد يده إلى الأرنب الذى أخذ يتواثب بعيدًا عنا، نحو باب آخر لم ألحظه من قبل.

وفجأة انفتح هذا الباب على مصراعيه، ولمحنا الرجل ذا الأذن الأكبر من الأخرى يظهر من جديد. كان ما يزال مبتسمًا، لكن عينيه التقيتا بعينى، فشاهدت فيهما تعبيرًا يجمع بين التسلية والتحدى!

قال فى رقة: "إنكما ستحبان مشاهدة قاعة عرضنا يا سيدى".

جذب (جب) إصبعى إلى الأمام. تطلعت إلى النضد وواجهت عينى صاحب المتجر من جديد.

وبدأت أعتقد أن السحر هنا أكثر أصالة مما يجب.

قلت: "الواقع أنه ليس لدينا متسع من الوقت".

لكن ـ بطريقة ما ـ وجدنا نفسينا داخل قاعة العرض، قبل أن أنهى كلامى قال صاحب المتجر: "إن كل بضائعنا بنفس الجودة" ثم أخذ يفرك يديه بعضهما ببعض واستطرد قائلاً: "لدينا أفضل الألعاب على الإطلاق، وهى سحرية أصيلة. ومضمونة بالكامل. عفوًا يا سيدى".

ورأيته ينتزع شيئًا ما يتشبث بكم سترتى، فإذا به "عفريت" صغير أحمر، أمسكه الرجل من ذيله، بينما كان العفريت يقاوم محاولاً عض يده. وسرعان ما ألقى به صاحب المتجر فى إهمال خلف النضد، كنت على يقين أن هذا شىء عبارة عن دمية مطاطية، ولكن للحظة تصورته حقيقيًا! وكان صاحب المتجر يتصرف كمن يمسك بأفعى سامة!

حدقت فى (جب) ولكننى سعدت أنه لم يلاحظ شيئًا، بل كان

ينظر إلى حصان خشبى هزاز سحرى. قلت بصوت خافت: "هل لديك أشياء أخرى مثل هذا؟".

قال صاحب المتجر مبتسمًا: "إنه ليس من بضائعنا، ربما تكون قد أحضرته معك".

وازدادت ابتسامته وهو يردف: "عجيبة تلك الأشياء التى يمكن للإنسان حملها، غير مدرك". ثم وجه كلامه لـ (جب): "هل رأيت أية لعبة أعجبتك هنا؟".

كانت هناك ألعاب عديدة حازت على إعجاب (جب). فاستدار ليواجه صاحب المتجر المدهش، وفى عينيه مزيج من الجرأة والاحترام وقال: "هل هذا سيف سحرى؟".

"إنه (لعبة السيف السحرى)، لا تنثنى ولا تنكسر ولا تجرح الأصابع، إن هذا السيف يجعل حامله لا يقهر فى أية معركة ضد أى شخص عمره أقل من ثمانية عشر عامًا، إن سعره ما بين نصف كراون وسبعة كراونات وستة بنسات، حسب الحجم المطلوب. إن هذه الملابس الرسمية بجانب البطاقات، يرتديها الفرسان الصغار فى الاحتفالات، وهى مفيدة للغاية. وهناك أيضًا درع واق، وصندل سحرى، وخوذة تجعلك خفيًا".

تنهد (جب) وهو يلهث: "آه يا أبى".

حاولت أن أعرف ثمن هذه الأشياء، لكن صاحب المتجر لم يكترث لطلبى، بل كان منهمكًا فى عرض كل ما هو موجود لديه من ألعاب متباينة، ولا يوقفه شىء!

شعرت نحوه ـ على حين غرة ـ بعدم ارتياح، وإحساس بالغيرة عندما ترك إصبعى وأمسك بإصبع هذا الشخص. لا شك أن صاحب المتجر هذا شخص مثير للاهتمام، ولديه بضائع مسلية ولكنها بالتأكيد خادعة.

سرت خلفهما، ولم أتكلم إلا قليلاً، ولكنى كنت أراقب عن كثب ذلك الشخص الذى لديه مهارة يدوية فى تنفيذ الخدع والحيل. على الأقل كان (جب) مستمتعًا بكل هذا.

لكن عندما يحين الوقت للرحيل، سوف نرحل بسهولة من المتجر السحرى.

كانت قاعة العرض طويلة يحلو التجول فيها، بهو تتخلله أعمدة وأقواس تؤدى إلى أقسام أخرى، حيث يوجد عاملان حدقا فينا بمجرد دخولنا، وتمتلئ هذه الأقسام بالمرايا السحرية والستائر المسدلة ذات الألوان الغريبة. شعرت بالارتباك بسبب كل هذه الأشياء العجيبة، حتى إننى لم أتبين الباب الذى دلفنا منه إلى قاعة العرض.

عرض صاحب المتجر على (جب) قطارات سحرية تسير دون وقود أو آلية ما، بل عندما تتم تهيئة الإشارات، وصناديق تشتمل على جنود تكاد أن تدب فيهم الحياة بمجرد فتح الغطاء، ويقولون..، لم أتمكن من التقاط كلمة السر إذ إنها عصية على النطق، إلا أن (جب) ـ الذى ورث عن أمه أذنيها الحادتين ـ استطاع أن يحفظها. وقال صاحب المتجر "مرحى" وهو يعيد الجنود من جديد إلى الصندوق، دون اكتراث وأعطاه لـ (جب)، وقال له: "الآن"، وفى

لحظة تمكن (جب) من بث"الحياة" فيهم ثانية. سأله صاحب المتجر: "هل ستأخذ الصندوق؟" قلت له: "سوف نأخذ الصندوق، ولكن بعد أن ندفع الثمن بالكامل" فقال صاحب المتجر: "لا يا عزيزى .. لا".

ثم أعاد الجنود إلى الصندوق، وأغلق الغطاء وقذف بالصندوق فى الهواء، وسرعان ما ألفيناه أمامنا، ملفوفًا بإحكام بورق بنى، وقد كتب عليه اسم (جب) الكامل وعنوانه!!

وضحك صاحب المتجر مما ارتسم على وجهى من ذهول. وقال: "هذا هو السحر الأصلى. السحر الحقيقى". قلت له: "إنه سحر أصلى أكثر من المفروض".

وبعد هذا استمر الرجل فى إبهار (جب) بالحيل الغريبة التى لا مثيل لها. وشرحها له، وأوضح له تفاصيلها وكيفية صنعها، وكان ابنى العزيز يهز رأسه إعجابًا بما يراه . ولم أكن مهتمًا كما يجب. فقال لى: "مرحى! برستو!". وقلده (جب) بصوته الرقيق: "مرحى! برستو!" وكأنها كلمات سحرية تجعل الألعاب تعمل. وانشغلت بالنظر إلى أشياء أخرى حولى، ورحت أتأمل ذلك الجو الغامض الذى يكتنفه التوتر، المخيم على قاعة العرض، حتى الأشياء الثابتة كانت غريبة، السقف والأرضية والمقاعد المبعثرة بلا نظام. وانتابنى إحساس بأننى عندما لا أنظر إليها، فإنها سوف تتحرك وتلعب خلف ظهرى. وكان الإفريز العلوى للسقف ممتلئًا بالمنحنيات والتعرجات والأقنعة العجيبة.

وفجأة! استرعى انتباهى وجود أحد مساعدى صاحب المتجر، وكان رجلاً غريب الشكل ولم يشعر بوجودى، وشاهدت ثلاث أرباع

جسمه ينحنى على كومة ألعاب مثل قوس، وأخذ يصنع أشياء غريبة بقسمات وجهه، وتحديدًا أنفه! أشياء يفعلها كما لو كان يشعر بالسأم ويريد أن يسلى نفسه.

فى البداية كان أنفه قصيرًا وفجأة أطلقه ليصبح رفيعًا ثم استطال ليصير كالسوط الأحمر الطويل، وأحسست أننى أشاهد كابوسًا! وقذف بهذا السوط بقوة بعيدًا، كما يرمى صياد السمك شبكته!

وكان أول ما خطر لى، هو أن (جب) ينبغى ألا يرى هذا الشخص، استدرت بسرعة لأجد (جب) منهمكًا فى الاستماع إلى صاحب المتجر، دون أن يفكر فى أى شىء آخر ينذر بالشر. كانا يتهامسان وينظران إلىّ. كان (جب) يقف فوق مقعد بلا ظهر ولا مساند، وكان صاحب المتجر يمسك بشىء يشبه الطبلة الكبيرة. صاح (جب): "نحن نلعب (الغميضة)[٣] يا بابا".

وقبل أن أفعل أى شىء لأمنع هذا، وضع صاحب المتجر الطبلة الكبيرة فوق (جب) فأخفته داخلها. وعرفت على الفور ما الذى سوف يحدث. فصحت: "انزع الطبلة على الفور! إنك سوف تفزع الصبى! انزعها!".

استجاب صاحب المتجر لكلماتى دون أن ينبس ببنت شفة، وأدار الطبلة الكبيرة فى اتجاهى، ليرينى أنها خاوية! فى هذه اللحظة اختفى ابنى نهائيًا!

---

(٣) لعبة أطفال يغمض فيها أحدهم عينيه، ويختبىء الآخرون وعليه أن يبحث عنهم وهو مغمض العينين (المترجم).

ربما تكون قد عرفت ذلك الإحساس المروع القادم من المجهول، والذى يبدو كيد خفية تعتصر قلبك، عندئذ تشعر بأنك ابتعدت عن نفسك المعتادة، لتصبح متوترًا ومتأملاً، لا تتصرف بسرعة ولا ببطء، لست غاضبًا أو خائفًا. هكذا كان الحال معى.

هرعت إلى صاحب المتجر الذى افتر ثغره عن ابتسامة عريضة، وركلت المقعد جانبًا وصحت به: "أوقف هذا العبث! وأخبرنى أين ابنى؟".

قال وهو يرينى داخل الطبلة من جديد: "كما ترى. ليس هناك أى خداع!".

مددت يدى نحوه أمسك به، فتملص منى بحركة بارعة، وتراجع بعيدًا عنى ثم فتح بابًا ليهرب. فصرخت فيه بقمة انفعالى: "توقف!". ولكنه ضحك وأخذ يتقهقر. وثبت فى اتجاهه، عبر الظلام الحالك. وسمعت صوتًا مكتومًا، كالذى يصدر عند وقوع شىء ثقيل، وشخص ما يقول: "فلترحمنى السماء! لم أرك وأنت قادم يا سيدى!".

فجأة وجدت نفسى فى شارع (ريجنت)، وقد اصطدمت بعامل يبدو دمث الأخلاق، وعلى بعد ياردة[٤] منى، كان يقف (جب) مرتبكًا وحائرًا. ورأيته يدنو منى وعلى وجهه ابتسامة مشرقة، لقد كان سعيدًا للغاية برؤيتى من جديد. وكان يحمل الطرود الأربعة تحت إبطيه! وعلى الفور أمسك بإصبعى كما اعتاد. وللحظة شعرت

---

(٤) الياردة تساوى نحو ٩٠ سنتيمترًا (المترجم).

بالضياع وحدقت خلفى لأشاهد باب المتجر السحرى، ولكنه لم يكن هناك! فقط محل الصور ومتجر بائع الدجاج. وفعلت الشىء الوحيد الممكن فى مثل هذه الظروف الصعبة، رفعت مظلتى إلى أعلى لأنادى على عربة أجرة.

قال (جب) بلهجة تنم عن ذروة الابتهاج: "يا له من يوم رائع". ساعدته فى الدخول إلى العربة، وقلت للسائق عنوانى، ثم دخلت أنا أيضًا. عندئذ شعرت بشىء ما فى جيب معطفى، واكتشف وجود كرة زجاجية. فقذفت بها على الفور إلى الشارع. ولم ينطق (جب) بكلمة واحدة. ولمدة قصيرة لم يتحدث أحدنا إلى الآخر.

قال (جب) أخيرًا: "بابا! كان هذا متجرًا رائعًا".

وانتهزت الفرصة لأعرف كيف بدا له هذا الأمر، كان يجلس بجانبى دون أن يكون متأثرًا بهذه الأحداث الغريبة على الإطلاق، لم يكن خائفًا أو متوترًا، بل كان سعيدًا إلى حد كبير بالترفيه الذى تمتع به فى فترة ما بعد الظهيرة. وتحت إبطيه كانت هناك أربعة طرود. وظللت أتساءل فى حيرة عما قد تحتويه الطرود.

قلت له: "(جب)! إن الأولاد الصغار لا يذهبون إلى مثل هذه المتاجر فى كل يوم".

تلقى هذه الكلمات دون اكتراث. وفى هذه اللحظات ندمت على أننى والده ولست أمه. وإلا كان بمقدورى أن أقبّله فجأة وأمام الناس جميعًا. ولكنى لم أشعر بالطمأنينة إلا عندما فتحنا الطرود.

ثلاثة منها كانت تحوى دمى لجنود عاديين، جنود مصنوعين من الرصاص، بإتقان بالغ. أما الطرد الرابع فكانت به قطيطة بيضاء صغيرة حقيقية، تتمتع بصحة رائعة وشهية مفتوحة وخفة ظل. وكان (جب) قد نسى ما كانت تحويه هذه الطرود فى الأصل. شعرت بالارتياح بعد أن فتحت هذه الطرود الأربعة. وأفرغنا محتوياتها فى حجرة (جب) وبقيت هناك لمدة طويلة.

حدث هذا منذ ستة أشهر. والآن أعتقد أن الأمور أصبحت على ما يرام، فالقطيطة لم تكن مسحورة أكثر من أى قطة أخرى، والجنود كانوا دمى رائعة. أما (جب)..؟ إن أى أب ذكى سوف يدرك أنه كان علىّ أن أتوخى الحذر مع (جب)،إلا أننى تماديت وسألته: "(جب)! هل تريد أن تعيد هؤلاء الجنود إلى الحياة، ويسيرون هنا وهناك بأنفسهم؟".

قال (جب): "إنهم بالفعل أحياء، فقط ينبغى أن أقول لفظة ما ـ أعرفها ـ قبل فتح غطاء العلبة".

"وحينئذ تدب فيهم الحياة ويسيرون بأنفسهم!".

"نعم يا بابا، ما كنت لأحبهم لو لم يسيروا بأنفسهم".

ولم أبدِ له أننى دهشت أو أننى لا أصدقه. واعتدت من وقت لآخر أن أدخل حجرته، دون سابق إنذار. لكنى ـ حتى الوقت الحاضر ـ لم أرهم يقومون بأى عمل سحرى. والواقع أن الأمر صعب ولا يمكن التيقن منه. وهناك موضوع آخر يتعلق بالنقود. إننى حريص كل الحرص على أن أدفع كل فواتيرى. ولقد سرت جيئة وذهابًا مرات عديدة فى شارع (ريجنت) للبحث عن المتجر

السحرى. وأعتقد أننى - كرجل مهذب - قد فعلت المطلوب منى، وبذلت جهداً فى هذا الشأن. وطالما أن اسم (جب) وعنوانه معروفان لدى هؤلاء الناس - أيًا كانوا - فإننى أنتظر منهم أن يرسلوا فاتورتهم لنا، فى الوقت الذى يناسبهم.

وادى العناكب

عندما كاد النهار ينتصف، وصل المطاردون الثلاثة بغتة إلى منحنى مجرى السيول الجاف، المطل على مشهد وادٍ فسيح المدى. أما الخندق الملتف وصعب الاجتياز والممتلئ بالحصى، والذى اقتفوا أثر الهاربين على طوله لمسافة شاسعة، فقد اتسع ليصبح منحدرًا عريضًا. وبرغبة مفاجئة جماعية، ترك الرجال الثلاثة هذا المسار، وتوجهوا إلى ربوة منخفضة عليها كثبان رملية وأشجار زيتون، وهناك توقفوا. كانا رجلان يتبعان ثالثًا يمتطى جوادًا، بلجام مرصع بأزار زينية فضية، ولوقت قصير، راحوا يحدقون بعيون تواقة إلى الرقعة الهائلة فسيحة الأرجاء من الأرض. كانت تمتد بعيدًا جدًا، مقفرة إلا من شجيرات الشوك القليلة الذابلة والتى تتجمع هنا وهناك، وثمة واد صغير ضيق جاف به بعض الأعشاب الصفراء، وعلى مسافد بعيدة يتلاشى لونه الأرجوانى، فى المنحدرات الضاربة إلى الزرقة، للتلال القصية، التى ربما كانت خضراء اللون. وإلى الأعلى تتعلق فى زرقة السماء الصافية، قمم جبال تكسوها الثلوج. وتصبح هذه الجبال أكثر

وأكثر بروزًا للعيان فى الاتجاه الجنوبى الغربى، حيث يلتقى جانبا الوادى.

ونحـو الغـرب، ينفتح الـوادى حتـى تشـير الظلمة القصيّة تحـت السماء، إلى بداية الغابات، بيد أن الرجال الثلاثة لم ينظروا لا للشرق ولا للغرب. ولكن حدقوا بثبات عبر الوادى. كان الرجل الهزيل ذو الشفة ذات الندوب، أول من تكلم: "ليسا فى أى مكان هنا" ثم تنهد، وكان صوته ينم عن خيبة الأمل. واستطرد قائلاً: "لكنهما متقدمان عنا بيوم كامل".

قال الرجـل القصـير الـذى يمتطـى الجـواد الأبيض: "إنهما لا يعرفان أننا نقتفى أثرهما".

قال القائد بمرارة وكأنما يتحدث إلى نفسه: "سوف تعرف هى".

"حتى لو علما. فلن يهربا بسرعة. إذ ليس معهما من الدواب إلا البغل. ولا شك أن قدم الفتاة مازالت تنزف حتى اليوم".

التمعت عينـا الـرجل ـ صـاحب الحصـان ذى اللجـام المرصع بالفضة ـ وهو ينظر إليه ويقول مزمجرًا بصوت ينم عن الحنق: "أتظننى لا أدرك هذا؟".

همس الرجل القصير لنفسه: "إن ذلك يفيد، على أية حال".

حدق الرجل النحيل ذو الندبة بثبات ثم قال: "إنهما بالتأكيد لم يتجاوزا الوادى بعد. فإذا أسرعنا ...".

ثم نظر إلى الحصان الأبيض ولم يكمل كلامه بل صمت.

قال الرجل، صاحب الحصان ذى اللجام المرصع بالفضة: "اللعنة على كل الخيول البيض".

ثم استدار وأخذ يتفحص الحصان الذى كان يضمنه فى هذه اللعنة.

قال الرجل القصير وهو ينظر إلى أسفل، بين أذنى حصانه المتدليتين: "لقد بذلت أقصى جهدى". أما الرجلان الآخران فقد حدقا من جديد، عبر الوادى لبعض الوقت. ومسح الرجل ظهر يده بشفته ذات الندبة.

فجأة قال الرجل صاحب الحصان ذى اللجام المرصع بالفضة: "هيا بنا!" بدأ الرجل القصير فى هز عنان حصانه، وأخذت حوافر الخيول الثلاثة تقرع العشب الذابل بخطوات خفيفة، عندما كانوا يعودون إلى الوراء ليتبعوا الأثر..

أخذوا يسيرون بحذر، وهم يهبطون المنحدر الطويل الذى كان أمامهم ثم راحوا يتحركون عبر قفر من الشجيرات الملتوية ذات الأشواك، والأغصان الغريبة الجافة الجاسئة، التى كانت تنمو وسط الصخور. حينئذ ازداد الأثر خفوتًا، لأن التربة كانت شحيحة العشب، ولا يوجد فوقها إلا القش الذابل الميت، بسبب شدة الحرارة.

لكن الرجال الثلاثة ـ بالمزيد من التحديق والاتكاء على أعناق جيادهم والتريث بين فترة وأخرى ـ استطاعوا متابعة اقتفاء أثر الهاربين. كانت هناك أحيانًا أراضٍ مطروقة، وأخرى منحنية وعشب ذابل مهشم ونجيل خشن، ولكن مازالت هناك آثار كافية لاتباعهما.

وذات مرة شاهد القائد لطخة بنية من الدم، تركتها الفتاة خلفها. فأخذ يلفظ الشتائم والسباب، ونعتها بالحمقاء.

أخذ الرجل النحيل يتبع قائده، أما الرجل القصير الذى يمتطى الحصان الأبيض، فقد بقى فى الخلف وكأنه يحلم. سار الثلاثة كل وراء الآخر، والرجل صاحب الحصان ذى اللجام المرصع بالفضة، يقودهم. ولم يتبادلوا كلمة واحدة. وبعد قليل، شعر الرجل القصير الذى يمتطى صهوة الحصان الأبيض بأن الدنيا تغرق فى الصمت. وأفاق من حلمه. وما عدا الأصوات الرتيبة لجيادهم والمعدات التى تحملها، كان الوادى العظيم برمته يبدو فى سكونه، وكأنه مجرد لوحة مرسومة. أمامه كان يرى سيده ورفيقه فوق جواديهما، وكل منهما ينحنى إلى الأمام. وقد سقط ظلاهما أمامهما، ساكنين مستدقى الطرف ومرافقين، وعلى مسافة قصيرة كان ظله يسقط على الأرض أيضًا. نظر إلى ما حوله. وتساءل: "أين ذهب كل شىء؟". عندئذ تذكر ارتداد الصدى من على ضفاف الممر الضيق، والحركة المستمرة للفقاقيع المتدافعة على سطح النهر. وإلى جانب ذلك..؟ ليس ثمة نسيم على الإطلاق فى هذا المكان.. ما هذا! مجرد مكان شاسع مضجر يهجع فى فترة ما بعد الظهيرة. والسماء مفتوحة وصافية، إلا من غلالة معتمة من الضباب فى أعلى الوادى. استقام بظهره، وضغط على لجام حصانه، وضم شفتيه ليحدث صفيرًا ثم تنهد. أدار ظهره وهو على سرجه لبعض الوقت، وتفرس فى مدخل الممر الجبلى الذى أتوا منه. مجرد خواء! منحدرات خاوية على كل جانب، وليس ثمة إشارة على وجود وحش ولا شجرة ولا حتى

إنسان. أى أرض هذه! يا لها من برية قفر! وغرق فى أفكاره من جديد.

امتلأ بمتعة لحظية. عندما شاهد أفعى باللونين الأرجوانى والأسود، تندفع بسرعة ثم تختفى وسط الأعشاب البنية الذابلة. إذ على الأقل كان هذا الوادى الجهنمى به نوع ما من الحياة. وعندئذ، وحتى يزداد شعوره بالابتهاج، لمست وجهه لمسة هواء فى حنان، وكأنها همسة جاءت ثم ذهبت، مجرد انحناء بسيط لشجيرة سوداء تنتصب متيبسة فوق قمة ما، مما يبشر باحتمالات هبوب نسمات. ومن ثم بلل إصبعه ورفعه فى الهواء.. بتكاسل.

شد لجام الحصان بقوة، متجنبًا صدامًا بحصان الرجل النحيل. الذى توقف بغتة أمام صدع[1] على مسار الأثر الذى يتبعونه، عندئذ شاهد عينى سيده تتطلعان إليه فى حنق. ولبعض الوقت، أبدى اهتمامًا كبيرًا باقتفاء الأثر. وبعد أن عاودوا التحرك، أخذ ينظر بعناية وترو إلى هيكل جسم سيده من الخلف، وقبعته وكتفه يظهران ويختفيان، وراء أبعاد جسم الرجل النحيل، القريبة منه. لقد امتطوا جيادهم لمدة أربعة أيام، بعيدًا عن حدود العالم، إلى هذا المكان الموحش. حيث تندر المياه، وبلا طعام إلا من شريحة يابسة من اللحم تحت السروج. يسيرون بجيادهم فوق صخور وجبال، حيث لم يعش ـ التأكيد ـ فيها من قبل، سوى هذين الهاربين. تخيل هذا! وكل ذلك من أجل فتاة. مجرد طفل عنيد! لقد كان أمام الرجل عدد هائل من الفتيات والسيدات تزخر بهن المدن. فلماذا كان متقد

---

(١) فلق فى قشرة الأرض (المترجم).

العاطفة بالنسبة لهذه الفتاة بالذات؟ هكذا تساءل الرجل القصير بينه وبين نفسه، وقطب جبينه كتعبير عن الرفض ثم لعق شفتيه الجافتين - بفعل الحرارة - بلسان مسود. كانت تلك طريقة سيده، وهذا كل ما يعرفه. لقد جن الرجل لمجرد أن الفتاة سعت للفرار منه.

واسترعى نظره صف كامل من نباتات طويلة السيقان - تشبه الخيزران - كانت تتمايل فى تناغم، وكاد يسقط الوشاح الحريرى الذى يلفه حول عنقه. لاحظ أن النسيم يزداد قوة. وبطريقة ما انتزع جمود السكون للأشياء، وكان هذا أمرًا حسنًا. قال الرجل النحيل: "توقفوا" وتوقف كل الرجال الثلاثة فجأة، قال السيد: "ماذا هناك؟"، قال الرجل النحيل وهو يشير إلى الوادى: "هناك".

"ماذا؟".

"هناك شىء ما قادم نحونا".

وبينما كان يتحدث، ارتقى حيوان أصفر اللون، مرتفعًا صغيرًا، واندفع يركض نحوهم.

لقد كان كلبًا بريًا كبير الحجم، لسانه متدل وكان يجرى بسرعة متهورة لا يلوى على شىء، وكأنه يهرب من شىء ما، حتى إنه لم يلحظ راكبى الخيول حينما دنا منهم. كان يركض وأنفه مرفوع يتشمم به، وبدا واضحًا أنه ليس ثمة رائحة متخلفة عن حيوان أو طريدة.

عندما اقترب الكلب منهم، تحسس الرجل القصير سيفه. وقال الرجل النحيل: "لا ريب أنه مسعور". قال الرجل القصير: "اصرخوا حتى يبتعد عنا" ثم صرخ.

اقترب الكلب منهم أكثر. استل الرجل القصير سيفه وأمسك به مستعداً. إلا أن الكلب انحرف عن مساره جانباً، وأخذ يلهث بشدة وهو يبتعد ويتجاوزهم. وتابعت عينا الرجل القصير هروبه. وقال: "ليس هناك زبد على فمه، إذن فهو ليس مسعوراً". ولوقت قصير، حدق الرجل –راكب الحصان ذى اللجام الفضى –فى الوادى. وصاح فى نهاية الأمر: "هيا بنا، لم يحدث شىء ذو أهمية" وحث حصانه على التحرك من جديد.

وترك الرجل القصير اللغز المستعصى على الحل، عن كلب يهرب وقد فقد عقله، من الريح فقط، وأخذ يفكر بعمق فى الطبيعة البشرية. همس لنفسه: "فكر! لماذا يعطى بعض الناس السلطة لكى يتمكنوا من التحدث بهذه الثقة والقوة الكاسحة. كان الرجل ممتطى الحصان ذى اللجام الفضى، يتحدث بهذه الثقة والقوة طوال عمره. خاصة هاتين الكلمتين: "هيا بنا"! لو قلت أنا هاتين الكلمتين..!" إلا أن الناس كانوا يتعجبون عندما يُعصى السيد، حتى عندما يأتى بأغرب التصرفات. ومن ثم فإن هذه الفتاة تبدو له - ولكل الناس - مجنونة وربما ملحدة.

وأجرى الرجل القصير مقارنة فى ذهنه ,انصبت على الرجل النحيل ذى الندبة، وتوصل إلى أنه شجاع مثل سيده وربما أكثر شجاعة منه. إلا أنه كان مطيعاً ومذعناً لأوامر وتعليمات سيده، دون إبطاء..

قطع عليه سيل أفكاره، إحساس مفاجئ بشىء ما فى يديه وركبتيه، مما أعاده إلى الواقع الذى يتراءى له فى هذه اللحظات.

أصبح مدركًا لأمر ما. أسرع ليغدو بجانب رفيقه النحيل، وبادره قائلاً بنبرة خافتة: "هل لاحظت الخيول؟".

بدت الحيرة على وجه الرجل النحيل. فقال الرجل القصير: "إنها لا تحب هذه الريح" ثم عاد بحصانه إلى الخلف عندما استدار إليه الرجل راكب الحصان ذى اللجام الفضى. قال الرجل النحيل: "كل شىء على ما يرام".

ساروا بخيولهم دون أن يتفوه أحدهم ببنت شفة. وكان الرجلان اللذان فى المقدمة، يقتفيان الأثر، ويبدو على وجهيهما الاكتئاب. أما الرجل الثالث الذى فى المؤخرة، فقد كان يراقب الغمامة التى كانت تزحف، عبر الوادى فسيح الأرجاء، رويدًا رويدًا، كما لاحظ أن الريح تشتد دقيقة بعد أخرى. وعلى البعد إلى اليسار، أبصر صفًا من الكتل السوداء، ربما كانت خنازير برية، تعدو بسرعة إلى أسفل الوادى، إلا أنه لم يعلق على هذا الأمر قط، ولا حتى أبدى ملاحظة حول حالة التوتر التى انتابت الخيول.

عندئذ رأى كرة بيضاء جبارة تلتها أخرى، كانت الكرة بيضاء لامعة هائلة وكأنها زغب عملاق لنبات شائك، تندفع أمام الريح، من جانب إلى آخر، عبر ممر ضيق. كانت هذه الكرات ترتفع عاليًا فى الهواء ثم تنزلق هابطة وتواصل تقدمها، وبمجرد أن رأتها الجياد زاد توترها.

ولكن سرعان ما شاهد أعدادًا أكبر من هذه الأجسام الكروية الغريبة، التى تنساب مع التيارات الهوائية، التى أخذت تندفع صوب الرجال الثلاثة، عبر الوادى. وفجأة سمعوا صراخًا، كان خنزيرًا

بريًا عملاقًا يندفع فى الممر، من جانب إلى آخر، أدار رأسه لينظر إليهم للحظة واحدة، ثم واصل الجرى السريع أسفل الوادى من جديد.

وعند هذا، توقف الرجال الثلاثة وجلس كل منهم على سرج حصانه، وأخذوا يحدقون فى الغمامة المتكاثفة التى كانت تنساب نحوهم، قال القائد: "لو لم يكن هذا زغب النباتات الشائكة..".

عندئذ أبصروا جسمًا كرويًا ضخمًا ينساق فى اتجاههم على بعد عدة ياردات منهم. لم تكن كرة كاملة الاستدارة على الإطلاق، ولكن شيئًا ضبابيًا ورخوًا وهلاميًا كبير الحجم، وكأنه أحد قناديل البحر ولكنه ينساب فى الهواء. كانت هذه الكرة العجيبة تجر وراءها خيوطًا رقيقة كشبكة العنكبوت.

قال الرجل القصير: "هذا ليس زغب نبات شائك!".

قال الرجل النحيل: "لستِ مرتاحًا لهذه الأشياء".

ونظر كل منهم للآخر. صاح القائد: "اللعنة عليها. إن الهواء ممتلئ بها هناك. ولو استمرت بهذه الكثافة لوقت طويل، فإنها سوف تعطلنا تمامًا.. دفعهم شعور غريزى ـ كالذى ينتاب قطيعًا من الأيائل[٢] عندما يقترب منه وحش مفترس ـ حفزهم على أن يديروا جيادهم فى اتجاه الريح، ويتقدموا لمسافة قصيرة، وأن يحدّقوا فى تلك الكتل المروعة التى تتقدم طافية نحوهم بكميات هائلة.

---

(٢) حيوان مجتر من ذوات الظلف ذو قرون تنمو فوق رؤوس الذكور (المترجم).

أتت تلك الكرات تسبق الريح، أشياء ناعمة تنطلق بسرعة، ترتفع وتهبط، فى سكون، تنزلق إلى سطح الأرض ثم ترتد إلى أعلى وتطير، ويحدث كل هذا فى نظام ووفاق تام وكأنما بآراء متطابقة، وبتصميم وتأكيد وفى هدوء تام.

وتقدمت طليعة هذا الجيش العجيب من يمين ويسار الركاب الثلاثة. كانت الكرة تهبط فوق الأرض، وتتدحرج وتتحول إلى شكل غير محدد، من الخيوط والأشرطة. وفزعت كل الجياد وأخذت تقف على أقدامها الخلفية وتطلق صهيلها. عندئذ نفد صبر القائد وأخذ يلفظ الشتائم والسباب وصاح قائلاً: "هيا بنا! فلنستمر فى اقتفاء أثر الهاربين. ما أهمية هذه الأشياء؟ كيف يمكن أن تكون خطيرة علينا؟ هيا بنا نستمر فى بحثنا".

وأخذ يسب حصانه، وجذب اللجام، فكادت الأجزاء الحادة فيه تجرح فم الحصان. صرخ بقمة انفعاله: "سوف أتبع هذا الأثر، أؤكد لكم. ولكن أين الأثر؟". وأمسك لجام حصانه بقوة، وأخذ يبحث عن شىء ما بين العشب الجاف.

وبغتة من غير إنذار، هبط على وجهه خيط رفيع طويل تشبث به، وكذلك هوت على يده التى تمسك باللجام أشرطة ناعمة، وركضت أشياء كبيرة رمادية وسريعة الحركة، ذات أرجل عديدة، إلى مؤخرة رأسه.

نظر فى فزع واكتشف أن إحدى هذه الكتل الرمادية فوق رأسه، وكانت تقذف بخيوط تتجمع فوق وجهه، وكانت ترفرف وكأنها أشرعة قوارب تبحر، ولكن فى سكون تام.

وانطبعت فى ذهنه، صورة لعدد كبير من العيون، وحشد كثيف من الأجسام الجاثمة، ذات أطراف عديدة تحاول سحب خيوطها حتى تهبط فوقه. ولمدة قصيرة أخذ يحدق إلى أعلى، ثم أمسك بلجام حصانه حتى يهدىء من روعه، مستفيداً من خبرته فى مجال الفروسية. ثم شعر بتسديد ضربة قوية من السيف، لتمزق الخيوط التى على ظهره، والتمع نصل السيف فى الأعلى، وقطع شبكة العنكبوت الدائرية ـ التى تشبه البالون ـ ومن ثم انفصلت على الفور تلك الكتلة الرمادية وسقطت على الأرض، وتدحرجت بعيداً.

صاح الرجل النحيل: "إنها عناكب! إن هذه الأشياء تعج بالعناكب الكبيرة! انظروا! يا إلهى!".

وظل الرجل الممتطى الحصان ذى اللجام الفضى، يتتبع تلك الكتلة الرمادية التى أخذت تنساب بعيداً. ووجد السيد نفسه يحدق فى الشىء الأحمر المهشم الذى يوجد على الأرض، وعلى الرغم من أنه فقد جزءاً من جسمه، إلا أنه مازال يحاول تحريك أرجل عاجزة. وأشار الرجل النحيل إلى كتلة رمادية أخرى تنساب هابطة فوقهم، وعلى الفور استل سيفه لتمزيقها. عندئذ كان الوادى كله مليئًا بكائنات مشابهة، كانت تبدو كقطع ممزقة من الضباب. وحاول أن يدرك ذلك الموقف المروع.

صاح الرجل القصير: "هيا نقضى عليها هناك فى الوادى".

أما ما حدث بعد ذلك، فقد كان أقرب إلى الفوضى والارتباك الذى يسود أثناء المعارك الحربية. شاهد الرجل ـ صاحب الحصان ذى اللجام المرصع بالفضة ـ الرجل القصير يتجاوزه، ويوجه بهياج

ضربات قوية بسيفه، لشبكات عنكبوت وهمية، ويهاجم فرس الرجل النحيل ويسقطه مع راكبه فوق الأرض. أما حصانه فقد سار لعدة خطوات بعيدًا، قبل أن يتمكن من جذب لجامه، والسيطرة عليه. ثم نظر إلى أعلى ليتجنب أخطارًا وهمية. وبنظرة سريعة وجد أن حصان الرجل النحيل كان يتدحرج فوق الأرض، والرجل النحيل نفسه يضربه بقوة، محاولاً أن يقضى على كتلة رمادية تخفق، وتلتصق بجسم الحصان ثم أصبحت تتشبث بجسميهما معًا.

كانت شبكات العناكب الكروية تأتى إليهم منسابة عبر الريح، فى كثافة وسرعة زغب النباتات الشائكة فى يوم عاصف فى شهر يوليو. كان الرجل القصير قد ترجل، ولكنه لم يجرؤ على أن يترك حصانه حرًا. كان يسعى جاهدًا، لتهدئة هياج حصانه، بقوة يد واحدة بينما يمسك بيده الأخرى بالسيف، الذى يضرب به بلا هدف.

وكانت مجسات كتلة رمادية ثانية، قد تشابكت مع الرجل القصير وحصانه، بعد أن هبطت فوقهما من أعلى. عض القائد على نواجذه وأحكم قبضته على لجام حصانه ثم خفض رأسه ونخسه ليتقدم للأمام. أخذ الحصان الذى يرقد على الأرض، يتدحرج ويتلوى من الألم، وكانت هناك دماء وأشكال تتحرك على قطع من لحم الخاصرة، وفجأة تركه الرجل النحيل، وهرع فى اتجاه سيده، على بعد نحو عشر خطوات. كانت ساقاه مغلفتين بخيوط الكتل الرمادية مما يعيق حركته، وكان يبذل جهدًا خارقًا بسيفه، إلا أنه كان غير مجد. وكان وجهه قد اكتسى بقناع رقيق من مادة

رمادية. واستخدم يده اليسرى فى محاولة لدرء الأذى عن جسمه، وفجأة تعثر وسقط على الأرض، كافح لكى ينهض، إلا أنه سقط من جديد، حينئذ أخذ يصدر أصواتًا مروعة: "أوه.. أوهوو.. أوهوو".

كان السيد يستطيع أن يرى العناكب الجبارة، تغزو جسمه وكذلك الآخرين فوق الأرض. وكان الرجل القصير يحاول الصعود على صهوة جواده بعد أن فقد سيفه. ثم ارتكز ببطنه على ظهر حصانه الأبيض ولكن بانحراف، متشبثًا بعرفه الطويل.

وهبط من جديد نسيج عنكبوت رمادى دبق على وجه السيد وفوقه، وبدا أنه ينساق بفعل تيار هوائى، وفى سكون، ليلتف حول كل جسمه.. ولن يستطيع أن يدرك أبدًا - إلى يوم وفاته - ما حدث فى تلك الدقائق. هل جذب لجام حصانه ليجعله يسير فى اتجاه معين أم أن الحصان قد فر مذعورًا من تلقاء نفسه؟ أيًا كان الأمر، يكفى أنه بعد لحظات فقط كان يركض بسرعة إلى الوادى، وسيفه مشرع فوق رأسه يلوح به فى جنون. ومن حوله فى كل مكان، تتطاير العناكب - التى تشبه المناطيد - مثل كرات من نسيج ناعم هش، فى الريح المتزايدة، تبحث عنه بلا هوادة وبتصميم واع لا يعرف الكلل.

وتنتشر أصوات طقطقة وقرقعة مستمرة وكذلك أصوات مكتومة كالتى تصدر عند وقوع شىء ثقيل، أخذ السيد يتحرك هنا وهناك بجنون متهور دون أن يسير فى اتجاه محدد، ووجهه الذى ينم عن الخوف المروع، ينظر إلى اليمين وإلى اليسار، والسيف فى يده على استعداد لتمزيق العناكب الهائلة. وعلى بعد عدة مئات من الياردات أمامه، كان الرجل القصير يمتطى حصانه الأبيض ولكن فى وضع

منحرف فوق سرجه، وتتطاير خلفه، أجزاء من شبكة عنكبوت ممزقة.

وكانت نباتات البوص تنحنى أمامهما، بينما أصبحت الريح قوية. ومن وراء كتفه، استطاع السيد أن يرى العناكب تتقدم لتلحق به. كان معنيًا بالفرار من شبكات العناكب، إلى الحد أنه لم يلحظ وجود الوادى الصغير الضيق الشديد الانحدار، إلا عندما شاهد حصانه يتأهب للقفز فوقه. ولكن حين رآه، كان رد فعله يكتنفه سوء فهم وعقبة لوثبة الحصان. انحنى فوق عنق حصانه ثم عاد إلى الوراء، فقد قضى الأمر.

وإذا كان قد فشل فى القفز ـ بسبب تلك الظروف العجيبة التى تواجهه ـ إلا أنه مازال يتذكر كيف يسقط دون أن يصاب. وهكذا أصبح فارسًا خبيرًا من جديد، وهو فى الهواء نهض دون أية إصابات شديدة، مجرد كدمة فى كتفه، أما حصانه فأخذ يتدحرج، ويركل بسيقان متشنجة ثم رقد ساكنًا.

وكان سيفه قد هوى فوق التربة، وعندما سقط السيد بجانبه، تفادى ارتطام وجهه بحد نصله، بمسافة تبلغ نحو بوصة واحدة فقط. استطاع الوقوف على قدميه خلال دقائق لاهثًا، وأخذ يحدق بإمعان فى تدفق شبكات العناكب المتطايرة.

ولدقيقة فكر فى أن يركض، ولكنه تذكر الوادى الضيق الشديد الانحدار، ومن ثم استبعد هذه الفكرة. ركض جانبًا حتى يتفادى الرعب الذى ينجرف إليه مع الهواء، وفى النهاية تسلق بصعوبة جانب الوادى الضيق الشديد الانحدار، وبقى هناك بعيدا عن الريح العاصفة.

وعند الجانب البعيد عن اتجاه هبوب الريح، داخل الوادى الضيق، خطر له أن يكمن، ويراقب هذه الكتل الرمادية الغريبة، وهى تتجاوزه وتذهب بعيدًا عنه، حتى تهدأ الرياح ويصبح بالإمكان أن يهرب آمنًا.

وهناك ولفترة طويلة جلس القرفصاء، وهو يرقب هذه الكتل الرمادية المتطايرة، فى جزء السماء الذى يمكنه مشاهدته. وحدث أن سقط عنكبوت شارد فى المجرى قريبًا منه. كان طوله يبلغ نحو قدم، وجسمه كله فى حجم قبضة يد رجل. وأخذ ينظر إليه متعجبًا من سرعته الهائلة فى البحث والهروب، وداعبه بأن سمح له بِعَضٍّ سيفه المكسور ثم سحقه بكعب حذائه المعدنى. وراح يلعن وهو يقوم بهذا، بعدها أخذ يحدق فى الأعلى والأسفل، يبحث عن عنكبوت آخر.

وعندما تأكد بأن هذا الحشد من العناكب لن يستطيع أن يصل إلى هذا الوادى، اختار مكانًا ليجلس فيه، ومن ثم استغرق فى تفكير عميق وقضى الوقت - كعادته - فى عض مفاصل يده وقرض أظافره. وأفاق من شروده، عندما جاء الرجل مع حصانه الأبيض.

لقد سمع صوتهما قبل أن يراهما، وقع حوافر حصان وخطوات متعثرة وصوت مطمئن. ثم ظهر الرجل القصير، بشكل يثير الشفقة وجسمه مغطى بنسيج العنكبوت الذى أخذ يتطاير من ورائه. اقترب دون أن يلفظ كلمة واحدة أو حتى تحية. كان الرجل القصير مرهقًا وعلى وجهه ترتسم المرارة والقنوط، وتوقف أمام سيده الجالس.

رمش الأخير بعينيه الذابلتين وقال دون أى ادعاء بالسلطة: "حسن؟ هل تخليت عنه؟".

"لقد فر جوادى".

"أعرف، هذا نفس ما حدث لى".

ضحك دون سرور وابتهاج. وقال الرجل الذى كان حصانه ذا لجام فضى: "قلت لك إن حصانى أيضًا فر".

قال الرجل القصير: "كلانا جبان".

عض الرجل مفاصل يده ومرت لحظات من التأمل، بينما كان يرمق مخدومه. وبعد قليل قال:

"لا تدعنى جبانًا".

"أنت جبان مثلى تمامًا".

"ربما.. لكن ثمة حد بعده يجب على كل شخص أن يشعر بالخوف. لقد تعلمت ذلك أخيرًا ولم يعجبنى هذا فى نفسى. وهذا هو الفرق بيننا".

"لم أتصور أبدًا أنك قد تتخلى عنه. إذ إنه أنقذ حياتك قبلها بدقيقتين.. كيف يحدث هذا وأنت سيدنا".

عاد السيد يعض مفاصل يده وكانت ملامح وجهه تعبر عن الكآبة: "لا أحد يدعونى جبانًا. إن سيفًا مكسورًا أفضل من عدم وجود واحد على الإطلاق. وحصان أبيض مصاب بالورم لن يقدر على حمل رجلين فى رحلة تستغرق أربعة أيام. إننى أمقت الخيول

البيضاء، ولكنى كنت مضطرًا. هل بدأت تفهمنى؟ أعتقد أنك تعتزم ـ على ضوء ما شاهدته ـ أن تلوث سمعتى. الرجال من أمثالك يفسدون الأمور. وإلى جانب هذا أنا لم أحبك أبدًا".

قال الرجل القصير: "سيدى!".

قال السيد: "لا. لا".

ووقف فجأة بينما تحرك الرجل القصير. وللحظات واجه كل منهما الآخر. وفوق رأسيهما أخذت كرات العناكب تنساق مع الريح. وكانت ثمة حركة سريعة بين الحصى، وأقدام تركض وصرخة تنم عن اليأس، ولهاث ثم ضربة.

وعند حلول الليل توقفت الريح. وكانت الشمس قد غربت فى سكينة. ومن الوادى الضيق خرج أخيرًا الرجل الذى كان حصانه ذا لجام فضى، عبر منحدر سهل التسلق وأخذ يتلفت حوله فى حذر، عندئذ كان يقود الحصان الأبيض الذى كان ملكًا للرجل القصير فى يوم ما. خطر له أن يعود إلى حصانه النافق لأخذ اللجام الفضى، إلا أنه خاف أن يفاجأ باشتداد الريح فى الوادى الفسيح، بالإضافة إلى أنه كره ـ إلى حد كبير ـ أن يجد جواده وقد غُلِّف بأنسجة العناكب وربما كان قد تآكل تمامًا.

وعلى ذكر أنسجة العناكب وكل الأخطار التى واجهته، والطريقة التى بقى بها على قيد الحياة حتى الآن، وامتدت يده إلى شىء ما معلق حول عنقه، وأمسك به للحظات فى امتنان من القلب. وحينئذ كانت عيناه تجوسان عبر الوادى المتسع: "كنت مشبوب العاطفة. ولكنها لاقت جزاءها. هى والآخر معها".

ولكن انتظر.. ما هذا؟ فهناك على البعد وراء المنحدرات المغطاة بالأشجار عبر الوادى، وفى ضوء الغروب الرائق، شاهد قمة مستدقة صغيرة لدخان يتصاعد، كان جليًا ولا يمكن إنكاره. حينئذ تحول تعبيره المطمئن إلى غضب ممتزج بالتعجب. دخان؟ أدار رأس الحصان الأبيض فى الاتجاه المعاكس ثم تردد. وعندئذ سمع صوت حفيف للهواء. يتخلل العشب حوله. وهناك بعيدًا أخذت نباتات البوص تتمايل وظهرت أجزاء من أنسجة العناكب الرمادية. راح ينظر إلى أنسجة العناكب تارة وإلى الدخان تارة أخرى.

قال أخيرًا: "على أية حال، ربما لم يكونا هما" ولكنه كان يعرف أفضل من هذا.

وبعد أن حدق فى الدخان قليلاً، يحاول سبر غوره، امتطى الحصان الأبيض. وسار بجواده بين مخلفات كتل خيوط العناكب المتشابكة، ولسبب ما، ألفى عددًا هائلاً من العناكب الميتة فوق الأرض على الجانبين، وكانت تتغذى عليها –بوحشية –العناكب التى بقيت على قيد الحياة. وما إن سمعت وقع حوافر جواده، حتى فرت بعيدًا.

لقد انتهى زمنها، إذ بقيت فوق الأرض. ولم تجد ريحًا تحملها إلى ضحايا. إن هذه العناكب ـ على الرغم من سمّيتها ـ فإنها لن تستطيع أن تسبب له أى أذى. وأخذ يبعد بحزامه تلك العناكب التى تصور أنها تقترب منه أكثر من اللازم.

وبعد أن انساق بعيدًا عدد كبير من العناكب إلى مكان قريب، فكر فى أن يترجل ويطأها بحذائه ذى الرقبة، ولكنه تغلب على هذه

الرغبة المفاجئة. ومن وقت لآخر، كان يستدير على سرجه، وينظر إلى الخلف حيث الدخان المتصاعد. ومرارًا وتكرارًا راح يتكلم بصوت غير واضح وبنبرة منخفضة، هامسًا لنفسه: "عناكب! عناكب! حسن.. حسن! يا لها من فكرة! فى المرة القادمة سأنسج شبكة عنكبوت لأقتنص الفتاة فيها!".

الحقيقة عن (بيكرافت)

كان يجلس على مسافة نحو عشرة أمتار من مكانى.. ولو نظرت من فوق كتفى لرأيته.. ولو لفّ نظره ـ وهو ما يحدث عادة ـ فإنه يقابلنى بتعبير غريب.. إنها أساسًا نظرة توسل، ولكن الشك كان فيها.. لكن تبًا لشكّه هذا!

.. فلو كنت أريد أن أشى به لفعلت ذلك منذ وقت طويل.. إننى لم أفش سره.. يمكنه أن يشعر بالارتياح والاطمئنان.. ذلك الكائن الضخم البدين.. ثم من سيصدقنى إذا بلّغت عنه؟

يا (بيكرافت) البائس المسكين!.. إنه كتلة هلامية ضخمة خائفة وقلقة!.. إنه أكثر أعضاء نوادى لندن بدانة.. وهو يجلس إلى إحدى طاولات النادى الصغيرة فى الساحة الواسعة بجوار المدفأة يأكل بنهم.. ترى ما الذى يلتهمه؟ إننى أراقبه بتعقل وأراه يقضم قطعة ساخنة مدهونة بالزبد من كعكة الشاى وعيناه تحملقان فىّ.. تبًا له! بعينيه اللتين تحدقان فىّ!

إن هذا ينهى الأمر يا (بيكرافت)!.. وحيث إنك سوف تكون دنيئًا وستتصرف كما لو لم أكن رجلاً محترمًا، إذن فإننى سوف أكتب كل

شىء هنا أمام ناظريك.. الحقيقة الكاملة عن (بيكرافت).. الرجل الذى ساعدته.. الرجل الذى تسترت عليه.. والذى ردّ لى الجميل بجعل نادىّ لا يُحتمل بالمرة. بسبب مناشدته الدائمة من خلال نظراته التى تحمل رسالة "لا تقل شيئًا".

وبالمناسبة ما الذى يدعوه إلى التهام الطعام بشكل متواصل؟ إننى أعجب لذلك فعلاً.. حسنًا جدًا.. والآن ها هى الحقيقة ولا شىء غير الحقيقة، كاملة بلا نقصان.. لقد تعرفت على (بيكرافت) فى حجرة التدخين هذه بالذات.. كنت وقتها عضوًا جديدًا وشابًا وعصبيًا، وعرف هو ذلك، كنت أجلس بمفردى متمنيًا التعرف على الكثير من الأعضاء.. وفجأة دخل.. كتلة هائلة متحركة من اللحم المترهل ـ خاصة فى منطقتى العنق والبطن ـ تتأرجح تجاهى.. ثم همهم وجلس على مقعد مجاور لى وتنفس بصوت كالحشرجة.. وأفسح مكانًا لنفسه وأشعل سيجارًا بعود ثقاب ثم بدأ يتحدث معى..

نسيت ما قاله لى.. تحدث عن سوء عيدان الثقاب وأنها لا تشتعل جيدًا.. ثم عندما تكلم بعد ذلك، أخذ يوقف النادلين واحدًا وراء الآخر كلما مروا بجواره ويخبرهم عن عيدان الثقاب بصوته الخفيض.. لكننا على أى حال ابتدأنا حديثنا بشكل أو بآخر.. وتكلم عن أشياء كثيرة وتطرّق إلى الألعاب الرياضية.. ثم إلى شكل جسمى ولون بشرتى.. قال "كان يجب أن تكون لاعب كريكيت ممتاز".. وأنا أعتقد أننى نحيف، بل أن بعض الناس يروننى هزيلاً.. كما أننى أرى نفسى أسمر نوعًا ما وما زلت.. ولست أخجل من كون

جـدة أمى من أصـول هـنـديـة.. ولـكل ذلك لا أريـد من أى غـريب عارض أن يدرك حقيقتى بمجرد النظر إليها.. ولذلك فقد اتخذت موقفًا معارضًا لـ (بيكرافت) منذ بداية حديثنا.

غيـر أنه تكلم عنى فقط بغيـة الكلام عن نفسه.. وقـال "أعتقد أنك لا تتدرب مثلما أفعل.. ولعلك تـأكل أكثر منى".. (مثله فى هذا مثل أى بدين بإفراط يتصور دائمًا أنه لا يأكل شيئًا)، "ومع ذلك" ـ وابتسم ابتسامة مراوغة قليلاً ـ فبعضنـا مختلف عن بعض ثم بدأ يتكلم عن بدانته.. وكل ما فعله بهذا الشأن وكل ما ينوى أن يفعله بخصوصها.وكل ما سمعه من النـاس عما فعلوه بشأن بدانتهم.. وقال "أولا ربما يعتقد المرء أن موضوع التغذية يمكن حله بواسطة اتباع نظام للحمية الغذائية (الرجيم).. وموضوع الهضم والتمثيل الغذائى للطعام يمكن حله بالعقاقير".. كان كلامًا سخيفًا ومملاً جعلنى أشعر بالغثيان من سماعه..

ويستطيع المرء أن يتحمل ـ بطريقة ما ـ مثل هـذا الهراء مرة واحدة فى النـادى.. لكن جاء بعد ذلك وقت علىّ تصورت فيه أننى لن أستطيع تحمل المزيد.. ولقد اعتـاد أن يتطفل علىّ ويجلس معى بشكل منـاف للذوق تمامًا.. لم أكن أذهب قط إلى حجرة التدخين، أما هو فكان يتقدم متعثرًا تجاهى.. وأحيانًا يأتى ويلتهم طعامه بجوارى أثناء تناولى وجبة الغداء.. وبدا لى فى بعض الأوقات كما لو كان متعلقًا للغاية بى.. كان إنسانًا مضجرًا، ولكنه ليس مضجرًا بدرجة مخيفة بحيث يقتصر جلوسه معى أنا فقط..

ولاحظت من البداية أن هناك شيئًا غريبًا فى تصرفاته.. كان يكاد يعرف، أو كما لو أنه نفذ إلى حقيقة أننى قد أستطيع مساعدته أو أن هناك فرصة استثنائية ضئيلة لدىّ لا تتوافر لأحد غيرى.. وقال لى "سوف أدفع أى شىء لكى أنقص وزنى.. أى شىء" وحدّق فىّ من فوق خديه الكبيرين وأخذ يلهث.

يا (بيكرافت) العجوز البائس!.. وكان قد قرع الجرس لتوه.. لابد أنه سيطلب كعكة شاى بالزبد أخرى!.. وذات يوم دخل فى لب الموضوع، وقال "إن كل أدويتنا.. أقصد كل أدويتنا الغريبة ليس لها الكلمة الأخيرة فى علم الطب.. أما فى الشرق، فقد قيل لى إن..." وتوقف وحدّق فىّ مليًا.. كما لو أنه كان يحدق فى أسماك موضوعة فى متحف للأحياء المائية.. فجأة انتابنى غضب شديد، وقلت له "أصغ إلىّ جيدًا.. من الذى أخبرك بوصفات جدة أمى؟" فقال متملصًا من الإجابة "حسن!".. قلت "فى كل مرة تقابلنا فيها طوال أسبوع.. ونحن تقابلنا كثيرًا فى الحقيقة.. وأنت تلمّح لى عن هذا السر الصغير الخاص بى".

قال "حسن، لقد انكشف المستور.. سوف أعترف.. نعم.. هذه هى الحقيقة.. لقد عرفت ذلك.. فقلت "من (باتيسون)؟" فقال بما اعتبره منافيًا للصدق "نعم، ولكن بشكل غير مباشر".. قلت (باتيسون) تناول هذه المادة على مسئوليته الخاصة".. فزم فمه وانحنى قليلاً.. فاستطردت ".. إن وصفات جدة أمى الطبيّة من الأشياء الغامضة فى التعامل معها وتداولها.. وكاد والدى أن يجعلنى أتعهد.." فقال "لكنه لم يفعل، أليس كذلك؟".. قلت "نعم.. لكنه

حذّرنى.. هو نفسه استخدمها مرة". فقال "آه!.. لكن هل تعتقد..؟ افترض، افترض أن هناك واحدة.. " فقلت "إن تلك الأشياء عبارة عن وثائق غريبة.. حتى رائحتها.. لا!".

لكن بعد معرفة كل تلك الحقائق أصرّ (بيكرافت) على أن أستمر فى الكلام.. وكنت دائمًا خائفًا إلى حد ما من محاول اختبار مدى صبره، إذ إنه قد يهجم علىّ بغتة ويخنقنى بكتم أنفاسى وأعترف أننى كنت ضعيفًا.. كذلك فقد كنت متضايقًا من (بيكرافت).. وكان إحساسى تجاهه واضحًا لدرجة أننى كنت ميالاً لأن أقول له "تحمل المخاطرة على مسئوليتك!". أما موضوع (باتيسون) الذى لمحت له عن هذا الموضوع فكان أمرًا مختلفًا كلية.. وهذه القصة لا تعنينا الآن ولكننى علمت على أى حال أن الوصفة الخاصة التى استخدمها كانت مأمونة.. أما الباقى فلم أكن أعلم الكثير بشأنه.. وبشكل عام فقد كنت ميالاً للشك فى أنها مأمونة تمامًا!

ومع ذلك فماذا لو كان (بيكرافت) قد تسمم.. ولا بد من الاعتراف أن احتمال تسمم (بيكرافت) هزّنى باعتباره أمرًا خطيرًا. وفى تلك الليلة أخرجت ذلك الصندوق الغريب ذا الرائحة القديمة من خشب الصندل من خزانتى.. وقلّبت الرقائق الجلدية.. فأخذت تحدث حفيفًا.. الشخص الذى كتب الوصفات العلاجية لجدة أمى من الواضح أنه كان يعانى من ولع بالرقائق الجلدية التى تأتى من مصادر مختلفة.. وكانت خطوط كتابته عسيرة القراءة إلى أقصى حد.. ومن ثم لم أتمكن من قراءة بعض تلك المخطوطات على الرغم من أن أسرتى ـ التى تشترك فى جمعيات الخدمات المدنية الهندية

مازالت تحتفظ بمعرفتها للغة الهندستانية(١) وتورّثها من جيل إلى آخر، ولا توجد رقاقة واحد منها سهلة القراءة تمامًا.. لكننى بعد فترة وجيزة وجدت الرقاقة الجلدية التى أعرف أنها هناك. وجلست على الأرض بجوار خزانتى أنظر فيها..

قلت لـ (بيكرافت) فى اليوم التالى "انظر هنا".. خطفت الرقاقة بعيدًا عن قبضته التى تتلهف للإمساك بها.. وقلت "بحسب المعلومات المتوفرة لدىّ، فإن هذه الوصفة الطبية لإنقاص الوزن (وقال (بيكرافت) عندئذ: آه). وأنا لست متأكدًا من الأمر تمامًا، لكننى أعتقد ذلك.. ولو أردت نصيحتى، اترك هذه الوصفة وشأنها.. لأنه كما تعلم سوف أشوه سمعة سلالتى من أجلك يا (بيكرافت) إن أجدادى من الجانب الهندى كانوا، حسبما هو متوافر لدىّ من معلومات، غرباء الأطوار إلى حد كبير.. هل تفهم ذلك؟"..

قال (بيكرافت) بلهفة "دعنى أجربه".. أسندت ظهرى إلى مقعدى.. انطلق خيالى بقوة هائلة.. ثم فشل وارتد إلى.. وسألته "بحق السماء يا (بيكرافت) خبرنى عما تظن أن سيكون عليه شكلك عندما تصبح نحيلاً؟"... وأحجم الرجل عن الإجابة، لأنه لا يتقبل الحقائق والمنطق، وأخذت منه تعهدًا بألا يقول كلمة لى مرة أخرى، عن بدانته المثيرة للاشمئزاز مهما يحدث.. وعندئذ سلمته رقاقة الجلد الصغيرة.. وقلت له "إنها معلومات خطرة".. فأخذها وقال "لا بأس".. وقهقه قائلاً "ولكنها.." فقد اكتشف لتوه أنها ليست باللغة الإنجليزية.. قلت "سوف أترجمها لك فى حدود إمكانياتى".

---

(١) مجموعة من لهجات شمالى الهند (المترجم).

وفعلاً بذلت أقصى جهدى فى ترجمتها له.. وبعد ذلك لم نتكلم طوال أسبوعين.. وكلما كان يقترب منى، كنت أعبس فى وجهه وأشير إليه بالابتعاد.. واحترم هو اتفاقنا.. لكن فى نهاية الأسبوعين كان مازال بدينًا مثل أى وقت مضى.ثم كانت لديه كلمة يريد أن يقولها لى.. قال "يجب أن أتكلم.. إن هذا ليس عدلاً.. هناك خطأ ما.. فالوصفة لم تقدم لى أية فائدة.. إنك لا تنصف جدة أمك هكذا".. فقلت "أين الوصفة؟".. فأخرجها بسرعة من محفظة جيبه.. وقرأت بسرعة كل البنود وقلت له متسائلاً "هل البيض فاسد؟".. فقال "لا.. أكان يجب أن يكون فاسدًا؟".

قلت "هذا أمر بديهى ومفروغ منه فى كل وصفات جدة أمى الفقيرة الغالية..عندما تكون الشروط أو الجودة غير محددة، عليك باتباع الأسوأ.. لقد كانت قاسية أو متطرفة.. وهناك بديل واحد أو اثنان لبعض تلك الأشياء الأخرى.. وهل حصلت على سم طازج من حية ذات جرس؟".. فقال "لقد حصلت على حية ذات جرس من (جمرخ). كلفتنى مبلغًا ....".. فقلت "أنا لا أريد أن أتدخل فى شئونك.. وهذا الصنف الأخير...".. فقال "إننى أعرف رجلاً يمكنه.." فقلت "نعم.. لا بأس.. سوف أكتب لك البدائل.. فطالما أننى أعرف اللغة، فإن هجاء كلمات هذه الوصفة يعتبر رديئًا للغاية.. وبالمناسبة فإن الكلب المذكور هنا ربما يكون معناه كلب الشوارع الذى لا صاحب له".

ظللت أرى (بيكرافت) بعد ذلك لمدة شهر فى النادى باستمرار وكان بدينا ومتوترًا مثلما كان دائمًا.. وحافظ الرجل على عهدنا،

ولكنه فى بعض الأوقات نقض قواعد هذا العهد بهز رأسه فى قنوط واكتئاب.. ثم فى يوم من الأيام قال لى فى حجرة خلع المعاطف والقبعات "إن جدة أمك.." فقلت بسرعة "لا أريد سماع كلمة ضدها".. وحافظ الرجل على وعده..

ثم تصورت أنه توقف عن تنفيذ الوصفة.. فقد رأيته ذات يوم يتحدث إلى ثلاثة أعضاء جدد عن بدانته، كما لو أنه يبحث عن وصفات جديدة ليجربها، ثم وصلتنى رسالته بشكل غير متوقع. فقد أحضر لى خادم صغير برقية وضعها أمام عينى وصاح "مستر (فورمالين)!" فأخذت البرقية وفتحتها على الفور وكانت تحتوى على هذه الكلمات: "ناشدتك بالله أن تحضر.. (بيكرافت)".. قلت "همم!".. والحقيقة أننى كنت مسرورًا لعودة السمعة الطيبة لوصفات جدة أمى التى توحى بها هذه الرسالة، لدرجة أننى تناولت طعام الغداء بشهية مفتوحة.. وحصلت على عنوان (بيكرافت) من بواب النادى.. وكان (بيكرافت) يقيم فى النصف العلوى من أحد المنازل بمنطقة (بلومسبورى) وذهبت إلى هناك بمجرد احتسائى للقهوة والكراميل بالقشدة، ولم أنتظر لكى أفرغ من تدخين سيجارى..

قلت عند الباب الخارجى "مستر (بيكرافت)؟".. وقرعت الجرس عند الباب ذى القضبان المتشابكة فوق منبسط الدرج. وقلت لنفسى "على أية حال كان الأجدر به ألا يجرب تلك الوصفة. فالرجل الذى يأكل كالخنزير يجب أن يبدو مثل الخنزير".. وحضرت امرأة من الواضح أنها ذات شأن.. وجهها عليه علامات القلق وترتدى قبعة

دون عناية وتفحصتنى من خلال شبكة قضبان الباب.. وأعطيتها اسمى وفتحت لى الباب بتردد وارتياب..

قلت بعد أن وقفنا معًا داخل منزل (بيكرافت) "حسنًا؟" .. فقالت "لقد قال لى إن عليك أن تدخل إذا حضرت" .. ثم حدقت فجأة بدون أن تشير إلى أى مكان نتجه إليه.. ثم قالت بثقة "لقد أغلق على نفسه يا سيدى" .. فقلت متعجبًا "أغلق على نفسه؟" فقالت "نعم، يا سيدى أغلق على نفسه باب حجرته أمس ولم يسمح لأحد بالدخول منذ ذلك الوقت.. وما زال يُطلق السباب واللعنات.. أوه، يا إلهى!" ..

حدقت فى باب الحجرة التى تشير إليها ببصرها وقلت "أهو هناك؟" فأجابت "نعم يا سيدى" فقلت "ما الذى حدث بالضبط؟" .. فهزت رأسها فى أسى وقالت "إنه يطلب الطعام باستمرار يا سيدى.. وهو يريد طعامًا كثيرًا وأنا أقدم له ما أستطيعه.. مثل لحم الخنزير وحلوى البودينج والسجق والخبز الطازج.. كل ما يحب أن يأكله.. سوف أتركك خارج الغرفة هنا لو سمحت لى، أما أنا فسأنصرف.. إنه يأكل بشكل مروّع يا سيدى!" .

ثم سمعت صراخًا حادًا من داخل الغرفة "أهذا أنت يا (فورمالين)؟" فصحت "أهذا أنت يا (بيكرافت)؟" .. ثم ذهبت وطرقت على الباب بقوة.. فقال "قل لها أن تنصرف" .. وفعلت مثلما قال.. ثم سمعت طقطقة غريبة على الباب، كما لو أن شخصًا ما يتحسس طريقه فى الظلام بحثًا عن مقبض الباب.. ثم سمعت صوت اللهاث المعتاد لـ (بيكرافت).. فقلت: "لا عليك يا عزيزى..

لقد ذهبت".. لكن الباب ظل مغلقًا، لفترة طويلة.. ثم سمعت المفتاح يدور.. ثم صوت (بيكرافت) وهو يقول "ادخل"..

أدرت المقبض وفتحت الباب.. وبالطبع توقعت أن أرى (بيكرافت).. حسنًا.. الواضح أنه لم يكن هناك!.. لم يحدث لى أن تعرضت لمثل تلك الصدمة من قبل.. وكانت حجرة الجلوس فى حالة شديدة من الفوضى.. والأطباق وأدوات المائدة بين الكتب وأدوات الكتابة.. وكثير من المقاعد مقلوبة.. لكن (بيكرافت)....".

قال "الأمر على ما يرام يا رجل.. أغلق الباب".. وعندئذ اكتشفته. كان هناك بأعلى الغرفة بالقرب من إفريز الركن بجوار الباب، كما لو أن شخصًا ألصقه فى السقف.. وكان وجهه قلقًا وغاضبًا.. أخذ أنفاسًا لاهثة وأومأ برأسه وقال "أغلق الباب.. لو شاهدت المرأة شيئًا".. فأغلقت الباب، وذهبت ووقفت بعيدًا عنه وحدقت فيه ثم قلت له "لو انهار أى شىء لسقطت وانكسر عنقك يا (بيكرافت)" فقال وهو يتنفس بصعوبة ويصدر صوتًا مثل الصفير "أتمنى لو حدث لى ذلك".

قلت "كيف يلجأ رجل فى مثل سنك ووزنك إلى مثل تلك الألاعيب الصبيانية.."... فقال وهو يتعذب "لا تقل.. إن جدة أمك اللعينة.." فحذرته قائلاً "احترس من كلامك".. فقال وهو يومئ برأسه "سوف أقول لك". قاطعته قائلاً "لكن قل لى بربك. كيف تمسك هكذا بالسقف؟". ثم أدركت فجأة أنه لم يكن يمسك بشىء على الإطلاق، بل إنه كان يطفو فى الهواء هناك، تمامًا مثلما يطفو أى بالون ممتلئ بالغاز فى نفس الموضع.. وابتدأ يكافح لكى يقذف

بنفسه بعيدًا عن السقف وينساب على الحائط هابطًا حتى يتمكن من الوصول إلى الأرضية.. وقال وهو يلهث "إنها تلك الوصفة اللعينة.. وصفة جدة أمك.." وصرخت قائلاً "لا تزد".

أمسك بإطار لوحة معلقة على الحائط بدون اكتراث وهو يتكلم، فتحطم هذا الإطارومن ثم وجد الرجل نفسه يطفو من جديد عند السقف.. بينما تحطمت الصورة الموجودة الآن على الأريكة.. أخذ يرتطم بالسقف.. وأدركت وقتئذ السبب فى وجود اللون الأبيض على كل منحنيات وزوايا وخطوط جسمه المتهدلة.. وحاول مرة أخرى بكل حذر.. وبدأ يهبط بمساعدة رف المدفأة.

كان ذلك أعجب مشهد تراءى لعينىّ.. رجل ضخم بدين معرض للإصابة بالسكتة الدماغية.. مقلوب رأسًا على عقب ويحاول الوصول من السقف إلى الأرضية.. وقال "تلك الوصفة نجحت أكثر من اللازم". فسألته "وكيف؟" فأجاب "نقص الوزن كان كاملاً تقريبًا".. فقلت، بعد أن فهمت بالطبع ما يعنيه، "يا إله السماوات!.. أصغ إلى يا (بيكرافت).. ما كنت تريده هو علاج السمنة! لكنك تسميها دائمًا الوزن.. حسنًا فلتسمها الوزن "لكننى ـ بطريقة ما ـ كنت مسرورًا للغاية وعندئذ أجبت (بيكرافت) قائلا له: "دعنى أساعدك!".. وأمسكت يده وجذبته إلى أسفل.. وأخذ يتطوح يمينًا ويسارًا محاولاً الإمساك بأى شىء.. كان الأمر يشبه غرس راية فى الأرض فى يوم عاصف..

قال وهو يشير بيده "تلك الطاولة من خشب (الماهوجنى) الصلب وهى ثقيلة جدًا.. ترى هل يمكنك أن تضعنى تحتها..." وفعلاً قمت

بذلك، وهناك أخذ يتقدم متعثرًا مثل المنطاد المقيد.. بينما وقفت أنا على سجادة أمام مدفأته وتحدثت إليه.. ثم أشعلت سيجارًا وقلت "قل لى ما الذى حدث بالضبط؟".. فأجاب لقد تناولت الوصفة".. وقلت "وما كان طعمها؟".. قال "أوه.. كريه!"..

أعتقد أنهم كلهم قالوا ذلك.. وسواء اهتممت بمكونات الوصفة أو المركب المحتمل لها.. أو النتائج المتوقعة، فإن كل وصفات جدة أمى العلاجية تقريبًا تبدو لى على الأقل غير مستساغة على الإطلاق، ومن جانبى.. فقال "لقد أخذت رشفة صغيرة أولاً".. قلت "ثم ماذا؟".. فقال "بعد أن شعرت أننى أخف وزنًا وأحسن حالاً بعد ساعة واحدة، قررت أن أخوض التجربة إلى النهاية".. فهتفت "لك الله يا (بيكرافت)".. فشرح قائلاً "أمسكت أنفى وشربت الجرعة كلها وأخذت أشعر أننى أخف وأخف وعاجز عن التصرف كما ترى".

وترك عواطفه تنفجر فجأة.. وقال: "ما الذى أستطيع أن أفعله بحق السماء؟" فقلت بسرعة "هناك شىء واحد هام وواضح لا يجب أن تفعله قط.. فإذا خرجت من حجرتك ثم من باب بيتك فسوف ترتفع إلى أعلى وإلى أعلى".. ولوحت بيدى إلى أعلى واستطردت قائلاً: "وعندئذ سوف يضطرون إلى إرسال طائرة (سانتوس دومو)[٢] وراءك لكى تحضرك إلينا من جديد".. فقال "أظن أن مفعول هذه الوصفة سوف يتناقص مع الوقت"..

---

(٢) نوع من الطائرات اكتسبت شهرة كبيرة فى أوائل القرن العشرين، ابتكرها البرازيلى "البرتو سانتوس ـ دومو" (١٨٧٣ ـ ١٩٣٢) المترجم).

فهززت رأسى وقلت "لا أعتقد أنه بوسعك الاعتماد على ذلك".

ثم انفجرت عواطفه مرة أخرى.. وأخذ يصطدم بالمقاعد المجاورة وبأرضية الغرفة.. كان يتصرف بنفس الطريقة التى أتوقعها لرجل ضخم بدين يطلق العنان لأهوائه فى مثل تلك الظروف المروّعة. أقصد بطريقة سيئة للغاية.. فقد كان يتحدث عنى وعن جدة أمى بدون أى لباقة أو فطنة..

قلت له: "إننى لم أطلب منك أبدًا أن تأخذ هذه الوصفة".

وبكرم منى تجاهلت الإهانات التى صبها علىّ، وجلست على كرسيه ذى الذراعين وبدأت أتحدث إليه بصراحة وعلى نحو ودى، موضحًا له أنه هو الذى أوقع نفسه فى هذا المأزق، وأننى أعتبر ما حدث يكاد أن يكون لمحة من العدالة المثالية. فقد التهم طعامًا أكثر مما يجب. وأنكر هو هذا، وبقينا لمدة من الزمن نناقش الأمر.. ثم أصبح ضجاجًا وعنيفًا، ومن ثم توقفت عن الخوض فى الحديث عن هذا الجانب الذى يتعلق بما حدث له. وقلت له: "بالإضافة إلى هذا.. فقد ارتكبت خطيئة استخدام ألفاظ غير دقيقة.. إذ لم تطلق على حالتك زيادة "دهون" ـ وهو ما يطابق الحقيقة والمنطق ـ بل سميتها "وزنًا" وأنت.....".

قاطعنى ليقول لى إنه يدرك الأمر برمته، وتساءل عما يجب أن يفعله الآن. اقترحت عليه أن يوائم نفسه وفق أوضاعه الجديدة، ومن ثم وصلنا إلى الجزء الحساس بالفعل من المشكلة التى يعانى منها، وأبلغته أنه لن يكون صعبًا عليه أن يتعلم المشى فى كل أنحاء السقف مستخدمًا يديه.. و..

قاطعنى بقوله: "إننى لا أستطيع النوم".

ولكن هذه لم تكن مشكلة عسيرة.. فقد أوضحت له أن بإمكانه أن ينام على ألواح خشبية فوق فراش من الأسلاك، وهى مثبتة إلى ما تحتها بواسطة شرائح دعم لاصقة، على أن يغطى السرير ببطانية وملاءة وغطاء، تثبت بواسطة أزرار على جانب. ولكن يجب عليه أن يأتمن مدبرة المنزل على أسراره. وبعد مشادات كلامية حول بعض الأمور التافهة، وافق على اقتراحاتى (وفيما بعد كان من المبهج حقًا، أن مدبرة المنزل الفاضلة تعاملت بواقعية رائعة مع كل هذه الأمور المقلوبة رأسًا على عقب). وأضفت إلى اقتراحاتى له أن يمكنه وضع سلم مكتبة فى حجرته، على أن يتناول كل وجباته وهى موضوعة فوق خزانة كتبه! وتوصلنا إلى إيجاد وسيلة بارعة، يتمكن بها من الهبوط إلى أرضية الحجرة، وقتما يريد، وتتلخص ببساطة فى أن يضع مجلدات "الموسوعة البريطانية" (الطبعة العاشرة) فوق رفوف مكتبته المفتوحة. وإذا أراد الهبوط فإن عليه أن يأخذ مجلدين منها ويمسك بهما وهكذا ينزل إلى الأرضية. واتفقنا أنه لابد من وجود رزّات سلكية[٣] على طول إزار الحائط[٤]، وهكذا يتمكن من التجول فى أرجاء الحجرة على مستوى أكثر انخفاضًا.

وبينما كنا نستمر فى المناقشة، أثار الأمر اهتمامى إلى حد كبير، لهذا فقد قمت بنفسى باستدعاء مدبرة المنزل وأبلغتها بكل شىء، وكنت أنا ـ بصفة أساسية ـ الذى أعددت له فراشه العجيب.

---

(٣) معدات من الحديد بنهايات مدببة تغرز فى مكان ما لتثبيت شىء (المترجم).

(٤) طوق خشبى يلتف حول الجدار الداخلى للحجرة لحمايته (المترجم).

قضيت عدة أيام فى شقة (بيكرافت)، حيث إننى بارع فى أداء أعمال مبتكرة متعددة مستخدمًا يدى ومفك براغى، ومن ثم فقد ابتكرت له كل المعدات المهيأة لتتلاءم مع وضعه الجديد. مددت الأسلاك الكهربائية حتى تصبح أزرار الأجراس فى متناول يده كما قمت بتعديل كل مفاتيح النور الكهربائى بحيث تُفتح لأعلى بدلاً من أسفل وهلم جرا. لقد كان الأمر كله مثيرًا للاهتمام ومشوقًا لحد كبير بالنسبة لى، وكان من البهيج أن أفكر فى (بيكرافت) وكأنه ذبابة ضخمة وبدينة ومنتفخة، تزحف فى أرجاء سقف حجرته وتتسلق بصعوبة الدعامات الأفقية للأبواب من حجرة إلى أخرى.. وأنه لن يعود أبدًا، أبدًا، أبدًا للنادى مرة أخرى!!.

كنت جالسًا بجوار مدفأته أحتسى الويسكى من زجاجة قدمها لى، وكان هو فى ركنه المفضل بقرب حلية معمارية فى السقف، يثبت بمسيميرات[٥] سجادة تركية، حينئذ استحوذت علىّ فكرة ما. قلت له: "ياللعجب! إن كل ما نفعله ليس ضروريًا على الإطلاق يا (بيكرافت)!.

وقبل أن أتمكن من تقدير العواقب الكاملة لفكرتى، تفوهت بها إليه:

"الحل هو أن ترتدى ملابس داخلية من الرصاص!".

وهنا شعر (بيكرافت) أننى ألحقت به الأذى..

وتلقى اقتراحى وهو يكاد أن يذرف الدموع وقال: "حتى تستقيم الأمور من جديد!" أفشيت إليه السر الكامل، دون أن آبه للنتائج:

---

(٥) مسامير قصيرةعريضة الرأس (المترجم).

"اشتر لوحًا من الرصاص وشكل منه أقراصًا وقم بحياكتها فوق كل ملابسك الداخلية حتى يتوفر لك العدد الكافى منها.. ارتد حذاء عاليا ذا نعل من الرصاص واحمل حقيبة من الرصاص الصلب وهكذا يُقضى الأمر! وبدلاً من أن تصبح سجينًا هنا يمكنك أن تغادر المنزل من جديد!.. يا (بيكرافت)، بل يمكنك أيضًا السفر إلى الخارج".

وجاءت إلىّ فكرة ثاقبة أكثر توفيقًا: ".. إنك لن تخشى أبدًا إذا غرقت بك سفينة.. إذ يمكنك أن تخلع بعض أو كل ملابسك الداخلية!.. وخذ معك القدر المناسب من الأمتعة فى يدك.. وحلّق طافيًا فى الهواء...".

وأثار كلامى مشاعره حتى أنه أسقط مطرقة المسيميرات على قيد شعرة من رأسى، صاح: "يا إلهى! سوف أتمكن من العودة إلى النادى من جديد!".

وجعلتنى عبارته أتوقف عن الكلام بغتةً،ثم قلت بوهن: "أجل.. دون شك..سوف تستطيع ذلك".

وذهب بالفعل إلى النادى.. واستمر فى التردد عليه.. وها هو يجلس خلفى الآن، يحشو فمه بالطعام بشكل مستمر، القطعة الثالثة على التوالى من كعكة شاى بالزبدة. ولا أحد فى العالم برمته يعرف –ما عداى ومدبرة منزله– أنه من الناحية العملية، لا يزن شيئًا، وهو لا يعدو أن يكون مجرد كتلة مضجرة ثقيلة على النفس من التمثيل الغذائى، محض سحب مرتدية ثيابًا..أكثر الرجال تفاهة!.. هاهو يجلس هناك يتطلع إلىّ بإمعان، حتى انتهى من

كتابتى، وحينئذ ـ إذا استطاع ـ فسوف يتربص بى ويأتى إلىّ كموجة عارمة.. وسيخبرنى من جديد بالقصة بحذافيرها، ما الذى أحس به من تغيرات، وما الذى لم يحس به، وكيف أنه يأمل أحيانًا أن تزول الأعراض ولو قليلاً.

ودائمًا فى خضم حديثه المستفيض، يقول لى: "سوف تحتفظ بالسر.. أليس كذلك؟" إذا وقف شخص ما على حقيقة هذا الأمر لشعرت بالمهانة الشديدة. وكما تعلم، فإن الشخص يبدو أحمق، عندما يزحف على أرجاء السقف وما إلى ذلك..

والآن حان الوقت المناسب للإفلات من (بيكرافت)، الذى يحتل ـ كعادته ـ موقعًا رائعًا خطط له جيدًا، بين مكان جلوسى والباب..

السيد (سكيلمر سديل) فى أرض الجنيّات

قال الطبيب "يوجد رجل فى هذا المتجر، كان من قبل فى أرض الجنيات..فقلت وأنا أحدق مرة أخرى فى المتجر "مجرد هراء". كان ذلك متجرًا معتادًا للقرية يشمل: مكتب البريد والبرقيات التلغرافية. وعلى حافته.. أحواض من الزنك وفرشات وبالخارج، أحذية برقبة طويلة وأقمشة قمصان ولحوم معلبة فى نافذة العرض.. وقلت بعد فترة تريث "أخبرنى عن هذا الأمر"..فقال الطبيب "لا أعرف الكثير. انه شخص أخرق عادى.. واسمه (سكيلمر سديل) لكن كل الناس هنا يصدقون قصته.. كما لو كانت من الحقائق المثبتة بالإنجيل".

حينئذ رجعت إلى الموضوع وقال الطبيب "لا أعرف شيئًا عن ذلك.. ولا أريد أن أعرف لقد عالجته عندما كُسر أصبعه، وهو متزوج غير رياضى فقد لعب مباراة كريكيت واحدة..ثم فوجئت بهذا الهراء عن أرض الجنيّات.. هذا كل ما فى الأمر.. بيد أن ذلك يبين لك طبيعة الموضوع الذى علىّ أن أتعامل معه.. على أية حال إنه شىء لطيف أن تدخل فى أذهان الناس أفكار صحية نظيفة وعصرية".

قلت بلهجة مؤيدة إلى حد ما "تمامًا". وبدأ الرجل يحدثنى عن موضوع مصرف المياه فى (بونهام).. وقد لاحظت أن أشياء من ذلك النوع يحتمل أن تعنى الكثير بالنسبة لموظفى الشئون الطبية والصحية.. وكنت أعبر له عن اقتناعى بالطريقة التى أعرفها.. وعندما سمى سكان (بونهام) بـ "الأغبياء"، قلت له إنهم "أغبياء للغاية".. لكن حتى ذلك لم يفد فى تهدئة غضبه..

وبعد مدة من الزمن وفى أواخر الصيف أدت رغبتى الطارئة فى أن أخلو بنفسى فى مكان منعزل، أثناء إنهاء فصل فى كتابى الأخير عن "علم الأمراض الروحية"(1) ـ وهو بلا شك موضوع يسهل عليك قراءته، ولكن من الصعب جدًا عليك كتابته ـ إلى الذهاب إلى "بجنور".. وأقمت هناك بمنزل ريفى.. وآنذاك وجدت نفسى خارج ذلك المتجر العمومى من جديد بحثًا عن سجائر. وقلت لنفسى عندما رأيته: هل هذا "سكيلمر سديل"؟! ودلفت إليه.قدم لخدمتى شاب قصير حسن المظهر ذو بشرة ناعمة شقراء.. وأسنانه صغيرة وسليمة.. عيناه زرقاوان.. لكنه كسول.. نوعًا ما.

تفحصت الرجل بفضول ووجدت، بخلاف ما يشبه الاكتئاب فى تعبيراته، أنه لا يختلف عن أى رجل عادى.وكان مرتديًا القميص والسروال، ومشمرًا كمى مئزر العمل الخارجى.. ويضع قلمًا رصاصًا وراء أذنه بشكل غير منفر.. وعبر صداره الأسود، تمتد سلسلة ذهبية يتدلى منها جنيه إنجليزى محنى..

---

(1) العلم الذى يعالج الجسم والروح معًا (المترجم).

سألنى الرجل "هل تريد شيئًا آخر اليوم يا سيدى؟" .. ومال إلى الأمام أثناء كتابة فاتورتى. وهو يتحدث سألته "هل أنت السيد (سكيلمر سديل)؟" .وقال بدون أن ينظر إلى أعلى "نعم يا سيدى" .. فقلت "هل صحيح أنك ذهبت إلى أرض الجنيّات؟" .. رفع الرجل بصره إلىّ للحظة وهو مقطب الجبين، وعلى وجهه مسحة من الحزن والغضب وقال "أوه! لا أريد التحدث عن هذا الموضوع" .. ونظر فى عينى. وبعد لحظة من الجفاء المغلف بالعداء قال وهو يضيف أرقامًا إلى فاتورتى" ٤، ٦ ونصف .. ثم تريث برهة وقال "شكرًا يا سيدى". وبهذه الطريقة التى لا تبشر بخير، بدأت معرفتى بالسيد (سكيلمر سديل). حسنًا، لقد تمكنت من اكتساب ثقته بعد سلسلة من الجهود الشاقة.. والتقيت به مرة ثانية فى نادى القرية، حيث ذهبت فى إحدى الليالى لكى ألعب البلياردو بعد تناول العشاء، لكى أخفف من إحساسى بالعزلة الشديدة، التى كانت مفيدة للغاية للعمل أثناء النهار..

وخططت لكى أشاركه فى اللعب أولاً ثم بعد ذلك أتجاذب معه أطراف الحديث ووجدت أن الموضوع الوحيد الذى يجب تجنبه معه هو أرض الجنيّات.. لكن فيما عدا ذلك كان الرجل متفتح الفكر وودى المناقشة بشكل عادى جدًا. .لكن فى هذا الموضوع بالذات كان قلقًا ومتوترًا.. من الواضح أنه كان يعتبره فى قائمة المحرمات.. وفقط مرة واحدة فى النادى سمعت إشارة بالكاد إلى خبراته أثناء حضوره.. وكان ذلك من قبل مزارع فظ خسر أمامه فى اللعب.. وكان (سكيلمر سديل) قد حصل على وقت مستقطع بين رقمين مزدوجين[٢]، مما كان يعتبر فى عرف نادى (بجنور) لعبًا رائعًا وغير عادى بالمرة..

(٢) إحدى قواعد لعبة البلياردو (المترجم).

وقال خصمه "اثبت مكانك!.. إنها رمية من رمياتك الشيطانية! من أرض الجنيّات!".

حدّق (سكيلمر سديل) فيه للحظة ـ وهو ممسك بعصا البلياردو الطويلة ـ ثم رماها على الأرض واندفع خارجًا من الغرفة.. قال رجل كبير محترم يستمتع بمتابعة اللعبة "لِمَ لا تتركه وشأنه يا رجل".وفى خِضمٍّ لغط الاستنكار الذى ساد بالمكان، تلاشت ابتسامة المكر من على وجه الفتى الريفى.. وأسرعت بانتهاز فرصتى وقلت "ما هى تلك النكتة يا سادة بخصوص أرض الجنيّات؟".

قال العجوز المحترم وهو يشرب "لا توجد أى نكتة بشأن أرض الجنيّات، ولا بخصوص الشاب (سكيلمر سديل)".

وقال رجل قصير وردى الخدّين يبدو أنه أكثر انفتاحًا على الناس "إنهم يقولون يا سيدى إنهم أخذوه إلى هضبة (الدنجتون). وأبقوه هناك ثلاثة أسابيع".. وسرعان ما بدأ الناس يحتشدون.. وكلما تكلم أحدهم، تشجع آخر وتابع الحديث.. وخلال وقت قصير كان لدىّ على الأقل الإطار الخارجى لموضوع (سكيلمر سديل)، سابقًا قبل أن يأتى إلى (بجنور) كان يعمل بمتجر صغير جدًا، بناصية شارع (الدنجتون) وهناك حدث ما حدث.. وخلاصة القصة أنه ظل على الهضبة حتى وقت متأخر فى إحدى الليالى، ثم اختفى تمامًا عن الأنظار لمدة ثلاثة أسابيع لم يره فيها أحد!.. بعدها عاد وملابسه نظيفة مثلما غادر بها بالضبط.. بينما امتلأت جيوبه بالغبار والرماد..عاد فى حالة من البؤس والكآبة زالت عنه بعد ذلك

ببطء. وطوال أيام كثيرة لم يقدم أى تفسير عن حقيقة ما حدث والمكان الذى اختفى فيه.

الفتاة التى كانت مخطوبة له وهى من منطقة (كلابتون هيل) حاولت انتزاع ذلك السر منه.. وهجرته جزئيًا بسبب رفضه للكلام وجزئيًا ـ حسب قولها ـ أنه "نبذها".. وبعد وقت قصير أفشى إلى شخص ما بلا مبالاة أنه كان فى أرض الجنيّات ثم شاء العودة. وعندما انتشر هذا الخبر، وذاع أمره فى الريف أراد التخلص من هذا الموقف نهائيًا فجاء إلى (بجنور) هربًا من الجلبة التى لا داعى لها. لكن لا أحد من أولئك الناس يعرف ما حدث فى أرض الجنيّات..

وهناك انتهى التجمع فى نادى القرية إلى لا شىء، فأحدهم يقول شيئًا وآخر يناقضه كان أسلوبهم فى معالجة هذه الأعجوبة يبدو انتقاديًا ونزاعًا إلى الشك، لكننى استطعت رؤية قدر من الاعتقاد بصحتها من خلال تحليلاتهم الحذرة.. ثم قررت أن أتخذ خطًا ذكيًا قد يهم الجميع، متسمًا بشك معقول فى القصة بأكملها وقلت "إذا كانت أرض الجنيّات داخل هضبة (الدنجتون) فلماذا لا تبحثون عنها بأنفسكم؟" فقال المزارع الشاب "هذا ما أقوله بالضبط"، ثم قال العجوز المحترم بهدوء ووقار: "لقد حاول الكثيرون الكشف عنها فى هضبة (الدنجتون). لكن لا يعرف الناس حتى الآن ما توصلوا إليه بعد عمليات الحفر والاستكشاف التى قاموا بها".

كان إجماع الرأى على هذا الاعتقاد الغامض ـ فى كل مكان حولى ـ مثيرًا ومحيرًا فى نفس الوقت.. وأحسست أن ثمة شيئًا فى

أعماق هذا الاعتقاد.. والحقيقة أنه تملكنى فضول غريب وشديد لمعرفة الحقائق الفعلية لتلك القضية.

وإذا كانت تلك الحقائق سيتم الحصول عليها من شخص ما، فإن هذا الشخص هو (سكيلمر سديل) نفسه.. ولذلك بدأت أجهز نفسى بعناية كبيرة، لكى أزيل الأثر الأول السيئ الذى تركته لديه، ثم اكتسب ثقته إلى الدرجة التى تجعله يتكلم معى بإرادته الخاصة وبارتياح.. وفى هذا المجال كنت متمتعًا بميزة اجتماعية معينة.. فقد كنت شخصًا دمثًا لا يبدو على أننى أعمل فى وظيفة ما، كما أننى أرتدى ملابس من قماش التويد وسروالاً قصيرًا واسعًا.. بحيث يسهل على المرء أن يعتقد أننى رسام من (بجنور).. ومن خلال النظام الاجتماعى الرائع السائد فى (بجنور) فإن الرسام يصنف فى مرتبة أعلى بكثير من تلك التى للبائع فى محل للخضر والفاكهة..!

و(سكيلمر سديل) مثل الكثيرين ممن هم فى نفس مستواه الاجتماعى، شخص ماكر ومنافق.. فقد قال لى "لا أريد أن أتحدث عن هذا الموضوع" عند إغضابه وإثارته فجأة وأنا متأكد أنه ندم فيما بعد.. كما أننى أعرف أنه كان سعيدًا جدًا بعد ذلك إذ يراه الناس يسير معى فى أرجاء القرية.وبعد فترة من الوقت تقبل منى تبغًا لحشو غليونه، وكأسًا من الويسكى فى شقتى بسرور واضح.. وهناك أحسست بحاستى السادسة أن الثقة تولد الثقة، ومن ثم عملت على زيادة فضوله واهتمامه وفكره من واقع سردى لخبراتى السابقة الحقيقية وأيضًا المزعومة.

بعد قدح الويسكى الثالث فى زيارته الثالثة لى على هذا النحو، إذا كنت أتذكر جيدًا، فبمناسبة بعض التوسع الساذج فى موضوع بسيط أثارنى وفاجأنى، فقد بدأ أخيرًا بكامل إرادته الحرة ورغبته فى أن يتقرب مصادقًا لى وقال "حدث مثل هذا معى هناك فى (الدنجتون) كان ذلك غريبًا حقًا.. فى البداية لم أهتم قط وكانت هى كل شىء وبعد ذلك عندما فات الأوان، لو جاز التعبير، كنت أنا كل شىء".

أبديت عدم الاهتمام بذلك التلميح، مما دفعه الآن إلى طرح تلميح آخر.. فبعد هنيهة بدأ يوضح تمامًا أن الشىء الوحيد الذى يريد الحديث عنه هو مغامرته فى أرض الجنيّات التى أحجم عن الكلام عنها طوال هذه المدة.

وكما ترى نجحت حيلتى معه.. وبعد أن كنت غريبًا ظريفًا ومجرد شخص نصف شكاك، أصبحت بفضل دهائى أمين أسراره والمؤتمن عليها.. وشعرت أن لديه رغبة عارمة فى أن يبين لى أنه عاش حياة حافلة وصادفه الكثير من الأشياء الهامة.. وبدا الرجل متحمسًا ومنفعلاً للغاية.

المؤكد أنه كان يلمح فقط بارتباك فى البداية.. ولم يكن يعادل أو يسيطر على اهتمامى بتسهيل الأمر عليه بطرح بضعة أسئلة دقيقة ومحددة، سوى تلهفى على عدم الدخول فى هذا الموضوع بسرعة.. لكن فى اجتماع آخر كانت الثقة أصبحت تامة لدرجة أننى أعتقد أننى حصلت ـ من البداية إلى النهاية ـ على أكثر التفاصيل والجوانب الهامة فى القضية.. فى الحقيقة حصلت على ما يزيد

بكثير عما يستطيع (سكيلمر سديل)، بقدراته المحدودة على الرواية، أن يقوله لأى شخص.

وهكذا توفر لى أن أعرف قصة مغامرته، وأن أجمع أجزاءها بعضها بجوار بعض.. وسواء وقعت هذه القصة بالفعل أو أنه تخيلها أو تراءت له كحلم أو عثر عليها مصادفة فى إحدى هلاوسه العجيبة، فهذا ما لا أستطيع تقريره.. أما كونه قد اختلقها فهذا ما لا أستطيع أن أفكر فيه للحظة واحدة.. فالرجل ببساطة وأمانة يعتقد أن كل هذا الأمر حدث بالفعل كما يقوله تمامًا.. وهو غير قادر على الكذب الصريح المتقن والمقنع.. ومن منظور العقول البسيطة ـ ولكن الثاقبة للناس المحيطين به ـ فإننى أرى ذلك دليلاً قويًا على صحة حكايته وصدقها.

فالرجل مؤمن بذلك. ولا يستطيع أن يقدم دليلاً إيجابيًا مقنعًا واحدًا على كذب روايته.. وبالنسبة إلىّ، فمع كل ثقتى وتصديقى لها، فإننى أنقل قصته هنا.. وأنا الآن رجل مُسِن وليس لدى طاقة لكى أشرح أو أبرر أى أحداث أو تفاصيل ترد بها.

يقول (سكيلمر سديل) إنه ذهب لينام على هضبة (الدنجتون) حوالى الساعة العاشرة فى إحدى الليالى.والراجح لدىّ أنها إحدى ليالى منتصف الصيف، رغم أنه لم يفكر قط فى تاريخها، بل إنه لا يستطيع أن يؤكد أى أسبوع كانت به.. المهم أنها كانت ليلة جميلة جوها صفو خال من الريح والقمر يصعد فى السماء.. ولقد تجشمت مشقة السفر إلى هذه الهضبة ثلاث مرات منذ أن اقتنعت بقصته هذه.. وذات مرة ذهبت إلى هناك فى ضوء شروق القمر فى

الصيف فى ليلة لعلها تشبه تلك الليلة التى وقعت فيها مغامرته.. وكان كوكب المشترى رائعًا وجليلاً وهو قابع فى مكانه فوق القمر. وفى الشمال والشمال الغربى كانت السماء خضراء وساطعة بضوء زاه فوق الشمس الآفلة.. وتنتصب هذه الهضبة هناك، فهى هضبة جرداء منعزلة وكئيبة تحت السماء الواسعة.ولكن تحيط بها على مسافة صغيرة أدغال كثيفة معتمة.

بينما كنت أصعد تجاه الهضبة، كانت ثمة أشباح ضخمة تعدو هناك وهناك، لعلها لبعض الأرانب البرية الخفيّة.. وفوق قمة الهضبة مباشرة، وليس فى أى مكان آخر، كان هناك عدد هائل من الذباب الصغير الطنان.وأعتقد أن تلك الهضبة عبارة عن تل أو رابية اصطناعية، لعلها من تراب ردم لقبور بعض كبار شيوخ القبائل فى عصور ما قبل التاريخ.. وبالتأكيد لم يختر أى إنسان مكانًا فسيحًا وساكنًا أكثر من هذا المكان لإقامة مثل ذلك القبر أو الضريح..

فى اتجاه الشرق يمكنك أن ترى بامتداد التلال إلى (هيث)، ومن هناك عبر القناة (المانش) على مسافة نحو خمسين كيلو مترًا تضىء وتومض الأنوار البيضاء العظمى فى رأس (جرنييه) وميناء (بولون) الفرنسى.. وفى اتجاه الغرب يمتد كل وادى (ويلد) المتقلب.. ويمكن رؤيته حتى (هيندهيد) و(ليث هيل)..كما يمتد وادى (ستور) من (داونز) فى الشمال إلى التلال اللامتناهية خلف (واى).. وكل مستنقعات (رومنى) تمتد جنوبًا تحت قدميك.. وفى منتصف المسافة تجد كلا من كنيسة (ديم) و(رومنى) و(ليد)

و(هيستينجز) وتلّها.. بينما تتزايد أعداد التلال بشكل غريب خلف المكان الذى تلتف من خلفه (إيستبورن) إلى (بيتشى هيد).

فوق كل هذا المكان تجول (سكيلمر سديل) وكان قد تعرض للآلام ولاقى المصاعب فى حبه السابق.. وعلى حد قوله هو "لم أكن أعبأ أين أسير".. وهناك جلس مقطب الجبين ليتفكر فى أمره.. وفى ظل غمه وحزنه، غلبه النعاس.. ومن هنا وقع فى قبضة الجنيّات!

الصراع الذى كان يقضّ مضجعه كان أمرًا تافهًا بينه وبين الفتاة فى (كلابتون هيل) التى كانت خطيبته. كانت ابنة أحد المزارعين، وكما يقول (سكيلمر سديل) "ومحترمة للغاية".. وبلا شك كانت كفؤًا له.. بيد أنه والفتاة كانا يافعين.. وكل منهما يغار على الآخر إلى درجة النقد الحاد الذى لا يحتمل.. كل منهما يتوق إلى الكمال الرائع بشكل غير عقلانى. بحيث بدت لهما الحياة وحكمتها كئيبة ومملة.. غير أننى لا أعرف بالضبط تفاصيل هذا الصراع.. فمثلاً لعلها قالت له إنها تحب الرجال الذين يلبسون "الجيتر"[٣] فى الوقت الذى لم يكن لديه أىّ واحدٍ منه أو لعله قال إنه يحبها أكثر لو ارتدت قبعة معينة..على أى حال لقد دب الخلاف بينهما.. ومر هذا الصراع بسلسلة من الأحداث المريرة والغبية وكثير من الدموع. وبلا شك أنها أصبحت كثيرة الحزن والبكاء مما أحدث أثرًا سيئًا على وجهها.. أما هو فقد أصبح أغبر الشكل زائغ النظرات مكتئب الفؤاد.. وبعد ذلك هجرته بعد عقد مقارنات مثيرة للاستياء وبعد

(٣) حذاء خفيف نصفى مطاط الجانبين (المترجم).

شكوك قوية حول ما إذا كانت قد أحبته بالفعل واهتمت به، وإصرار ويقين على أنها لن تهتم بأمره بعدئذ على الإطلاق.. وبينما كانت كل هذه الأمور تتراءى فى مخيلته.. جاء إلى هضبة (الدنجتون) حزينًا مهمومًا آنذاك وبعد فترة من الوقت لا نستطيع أن نعرفها استسلم للنوم.

استيقظ لكى يجد نفسه ممددًا على أعشاب رقيقة ناعمة لم ينم على مثلها أبدًا من قبل، تحت ظل شجرة ضخمة داكنة تحجب السماء عنه تمامًا.ويبدو لى أنه فى أراضى الجنيّات تكون السماء دائمًا مخفيّة! وباستثناء ليلة واحدة كانت الجنيّات ترقص فيها،فإن السيد (سكيلمر سديل) طوال الوقت الذى قضاه معهن لم ير نجمًا واحدًا!. وبالنسبة لتلك الليلة فإننى أشك فيما إذا كان موجودًا بالفعل فى أرض الجنيّات، أو فى مكان ما خارجها. حيث توجد تلك المروج الخضراء المنخفضة القريبة من خط السكة الحديدية لبلدة (سميث).

كانت ثمة إضاءة تحت تلك الأشجار وعلى الأوراق وبين الأعشاب يضىء عدد هائل من "الحباحب"[٤] بنور جميل ساطع.. لذلك كان أول انطباع لدى السيد (سكيلمر سديل) أنه صغير الحجم.. والانطباع الثانى أن عددًا كبيرًا من الناس الأصغر حجمًا منه يحيطون به.. وعلى حد قوله أنه لسبب ما لم يكن مندهشًا ولم يكن خائفًا.. وإنما انتصب جالسًا عن قصد وحك عينيه لكى يبعد

---

(٤) الذباب المضىء الذى يطلق عليه أيضًا "سراج الليل" (المترجم).

النعاس عنهما.. وفى كل مكان حوله وقفت الجنيّات المبتسمات اللاتى أمسكن به نائمًا فى ممتلكاتهن وفوق أرضهن..

لم أتمكن من أن أعرف منه شكل تلك الجنيّات.. فقد كان كلماته غامضة وغير مفهومة.. وبدا غير ملتفت بالمرة إلى التفاصيل الصغيرة.. وكن يرتدين ملابس رقيقة بالغة الجمال، لم تكن صوفية ولا حريرية. ولم تكن من أوراق الشجر أو تويجات الأزهار، ووقفن كلهن حوله بينما هو جالس ومستيقظ.. وعلى الفور جاءت من الغابة تجاهه، من طريق متألق بالضياء وتحفّه الأشجار من الجانبين وأمامها نجم، أميرة الجنيّات التى تعتبر الشخصية الرئيسية والمحورية فى ذاكرته وقصته.

لم أستطع معرفة أى شىء عنها.. وكانت ترتدى غلالات خضراء رقيقة شفافة، وتتمنطق حزامًا فضياً عريضًا حول خصرها الدقيق.. وشعرها يتماوج إلى الخلف من جبهتها إلى كلا الجانبين.. وفى شعرها خصلات ليست صلبة تمامًا ولكن تنساب هنا وهناك.. وعلى حاجبها عصابة صغيرة جميلة مرصّعة بنجمة واحدة.. وكماها مفتوحان بحيث يكشفان أجزاء من ذراعيها الرقيقين.. وأعتقد أن حلقها كان مكشوفًا إلى حد ما، لأنه أخذ يتحدث عن جمال عنقها وذقنها. وحول عنقها الأبيض قلادة من المرجان.. وعلى صدرها زهرة بلون المرجان. وفى ذقنها وخديها وعنقها خطوط رقيقة كطفل صغير وفهمت منه أن عينيها كانتا متقدتين ومثيرتين ولونهما بنى وتتسمان بالرقة والعذوبة والصراحة تحت حاجبين مستويين. ومن تلك الأوصاف تستطيع أن تعرف كيف بدت

تلك الأميرة فى صورة رائعة.. ومبالغ فيها لعينى السيد (سكيلمر سديل) وثمة أشياء أخرى، وحاول أن يعبر عنها ولكنه لم ينجح فى ذلك، فمثلاً قال أكثر من مرة "الطريقة التى كانت تتحرك وتمشى بها".. ولذلك فإننى أتخيل نوعًا ما من البهجة الرزينة أو الفرحة الوقور تشع من تلك الأميرة الساحرة.

شرع السيد (سكيلمر سديل)، بصحبة هذه الأميرة الساحرة أو كضيف مرموق لها ورفيقها المختار، فى تجربة العلاقات الحميمة المتاحة فى أرض الجنيّات،ولقد رحبت به بسعادة وبعض الدفء والحرارة.. أعتقد أنه لم يتجاوز ضغط يده بكلتا يديها وتهلل وجهها وهى ترنو إليه.. وعمومًا فلعل (سكيلمر سديل) منذ عشر سنوات كان شابًا وسيمًا وجذابًا. وبمجرد أن أمسكت بذراعه وتأبطتها، اعتقد أنها قادته على الفور من يده على طول الساحة الواسعة التى تضيئها حشرات الحباحب المتألقة.

غير أنه من الأوصاف غير المترابطة التى أبداها السيد (سكيلمر سديل) لا يمكننا معرفة كيف وقعت أو تتابعت الأحداث.. إنه يعطى لمحات قليلة غير كافية وغير مرضية لأعمال غريبة وأوصاف للأماكن التى تجمعت فيها جنيّات كثيرة و"الأشياء التى تشبه الفطر المظلى الشكل الذى يتوهج بضياء وردى". التى تأكلها الجنيّات والتى لم يقل عنها شيئًا سوى أن: "يجب عليك أن تتذوقها!".. وكذلك موسيقى الجنيّات التى يقول عنها: "مثل صندوق الموسيقى"[(٥)] والتى كانت تنطلق من بين الزهور المتمايلة.

---

(٥) صندوق به اسطوانة تدور وتصدر موسيقى بمجرد فتح الغطاء (المترجم).

وكانت هناك مساحة واسعة مكشوفة تركب فيها الجنيّات "أشياء" ويتسابق بعضهن مع بعض.. لكننا لا نستطيع فهم ما يعنيه السيد (سكيلمر سديل) عندما يقول "تلك الأشياء التى أراهن يركبنها".. لعلها يرقات أو صراصير الحقل النطاطة أو الخنافس الصغيرة التى تراوغنا بأعداد كثيرة.. وثمة مكان تتناثر فيه المياه بالترشيش وتنمو فيه نباتات الحَوْذان[٦] العملاقة، حيث تستحم الجنيّات معًا فى الأوقات شديدة الحرارة.

كما أن هناك ألعابًا يحلو للجنيّات ممارستها وكذلك الرقص وأيضًا تقوم بالكثير من المغازلات والعلاقات الجنسية وأعتقد أن ذلك يتم بين أدغال الطحالب الكثيفة.. وليس ثمة أدنى شك فى أن الجنيّة مارست الحب مع السيد (سكيلمر سديل).. وليس هناك شك أيضًا فى أن هذا الشاب قاومها قدر استطاعته.ثم حان وقت جلست فيه على مقعد خشبى بجانبه، فى مكان منعزل هادئ يفوح منه عبير أزهار البنفسج. وتكلمت معه عن الحب!

وقال السيد (سكيلمر سديل): "عندما خفضت صوتها وهمست لى.. ووضعت رأسها على كتفى واقتربت منى بلمسة من الود والدفء الحميم.. لم أستطع تمالك نفسى".

ويبدو أنه حافظ على رباطة جأشه إلى قدر محدود غير مناسب.. ويقول إنه رأى "الرياح وهى تهب".. وبينما يجلس السيد (سكيلمر سديل) فى مكان يفوح بعبير أزهار البنفسج ويحس بلمسة

---

(٦) عشب ذو زهر أصفر (المترجم).

حنان من تلك الجنية الفاتنة التى تجلس ملاصقة له، إذ به يعترف لها بهدوء أنه مخطوب!.

كانت قد قالت له إنها تحبه بشغف، وإنه - فى رأيها - فتى بشرى لطيف، وأن كل ما يطلبه منها سوف يحصل عليه.. حتى رغبات قلبه وكل ما يتمناه.. وأظن أن السيد (سكيلمر سديل) حاول جاهدًا أن يتجنب النظر إلى شفتيها الصغيرتين، وهما تنفرجان ثم تلتقيان من جديد، وأن ذلك قاده إلى سؤال أكثر خصوصية، أن أخبرها بأنه يرغب فى رأس مال معقول لكى يبدأ به مشروعًا تجاريًا فى متجر صغير.. وأوضح لها أنه يحب أن يشعر أن لديه مالاً يكفى للقيام بذلك".

وأتصور بعض الدهشة فى تلك العينين العسليتين اللتين تحدث عنهما. غير أنها بدت متعاطفة معه ومتفهمة لما يفكر فيه، وألقت عليه أسئلة كثيرة عن هذا المتجر الصغير، وهى تضحك "ضحكات ساحرة".. ومن ثم فقد حدثها بكل شىء عن خطوبته وعن خطيبته (ميللى).

قالت له "هل هذا كل شىء؟" فأجابها السيد (سكيلمر سديل) "نعم كل شىء". من هى وأين تعيش وكل شئ عنها.. إننى فقط شعرت أن علىّ أن أخبرك بالحقيقة".. قالت الجنية "كل ما تريده سوف يتحقق.. كل شىء سوف يكون على ما يرام.. وسوف تشعر أن لديك النقود بمجرد أن تتمنى ذلك.. والآن أنت تعرف أن عليك أن تقبِّلنى". تظاهر السيد (سكيلمر سديل) بأنه لم يسمع آخر كلماتها، وقال إنها رقيقة وطيبة للغاية.. وأنه لم يكن يستحق أن تكون طيبة معه إلى هذا الحد..

فجأة التصقت به الجنية وهمست قائلة: "قبِّلنى الآن!". ويقول السيد (سكيلمر سديل) "وأنا مثل الأحمق تمامًا قبَّلتها كما أرادت". وبالطبع فإن القبلات تقود إلى قبلات، كما قيل لى!، ولا بد أن هذه كانت من علامات اهتمام (ميللى) الفائق بالأحداث!.. لكن كان هناك بالقطع شىء سحرى فى تلك القبلة، لأنها بالتأكيد كانت نقطة تحوّل. وعلى أى حال فإن هذه إحدى الفقرات التى كان يرى السيد (سكيلمر سديل) أنها فى غاية الأهمية لوصف كل شىء بالتفصيل. ولقد حاولت أن أفهم الموضوع على وجهه الصحيح.. وحاولت أن أفصله عن الإشارات والتلميحات والإيماءات التى وصلت إلىّ من خلالها.. لكننى ليس لدىّ أى شك أنه كله مختلف عن روايتى وأكثر رقة وعذوبة منها.. وسط تلك الأضواء الحالمة والسكون المثير عميق الدلالة المنتشرة فى أرجاء ساحة الجنيات.

ألقت الجنية المزيد من الأسئلة عن (ميللى)، وهل كانت جميلة وبالغة الرقة وهلُم جرّا، مرارًا وتكرارًا.. وفيما يتعلق بجمال ورقة (ميللى) فإننى أتصور أنه أجاب بأنها "على ما يرام" وعندئذ، أو فى مثل تلك المناسبة، أخبرته الجنية بأنها وقعت فى حبه وهو نائم فى ضوء القمر.. وهكذا تم إحضاره إلى أرض الجنيات.. وظنت - عندما كانت لا تعرف شيئًا عن (ميللى) -أنه ربما يبادلها هذا الحب.

وقالت له: "لكنك تعرف الآن أنه ليس بمقدورك ذلك. وبالتالى عليك أن تتوقف عما تفعله لبعض الوقت.. وعندئذ يجب أن تعود إلى (ميللى)"... وقالت له هذا، وأنت تعرف أن (سكيلمر سديل) كان

يحبها بالفعل، لكن تبلد ذهنه جعله يتصرف على هذا النحو.،، وأتصور أننى أراه جالسًا وهو مذهول تقريبًا بين كل تلك الأشياء والمخلوقات الرائعة المضيئة.. ويجيب على أسئلة عن خطيبته (ميللى) والمتجر الصغير الذى يحلم به واحتياجه إلى حصان وعربة.. ولابد أن تلك الحالة المنافية للعقل استمرت لأيام وأيام.

إننى أرى بعين عقلى الأميرة الصغيرة وهى تحوم حوله وتحاول أن تسعده.. وأرى ولعها وشغفها قويًا لدرجة لا تمكنها من فهم تعقد مشاعره.. وأراها رقيقة ولطيفة لدرجة أنها لا تريده أن يذهب.. بيد أنه كما تعلم كان منومًا مغنطيسيًا بسبب موقفه وظروفه الأرضية.. ولذلك سلك معها طريقًا ساذجًا، وهو يجهل كل شىء عن أرض الجنيات، فيما عدا تلك الألفة والحميمية التى أحدقت به.. والحقيقة أنه من الصعب بل من المستحيل، أن نعبر بالكلمات المطبوعة عن تأثير جمالها الأخاذ وعذوبتها الساحرة وهى تتألق فى أرجاء "غابة" (سكيلمر سديل) البائس وكلماته المبتورة وبالنسبة لى على الأقل فإن ضياءها الواضح وسط تعقيدات تلك القصة تشبه حشرة الحباحب وسط غابة من الأحراش الكثيفة.

ولا شك أن تلك الأحداث استمرت لأيام كثيرة.. وأقول إنهما رقصا مرة واحدة تحت ضوء القمر فى حلقات الجنيات التى تنتشر فى أرجاء المروج القريبة من (سميث).. لكن أخيرًا انتهى كل شئ إذ قادته إلى مكان يشبه كهف واسع يضيئه "شىء يشبه سراجًا ليليًا أحمر" حيث توجد أكوام من الصناديق بعضها فوق بعض. وأقداح وصناديق ذهبية.. وكوم كبير بدا للسيد (سكيلمر سديل) أنه من

قطع ذهبية مسكوكة.. ويقبع بين تلك الكنوز أقزام لحراستها.. لم يلبثوا أن حيوها.. وهى مقبلة عليهم ثم اصطفوا جانبًا.. وفجأة استدارت تجاهه وحدقت فيه بعينيها اللامعتين الساطعتين وقالت له: "والآن يا عزيزى.. لقد كنت طيبًا ودمثًا للغاية بحيث بقيت معى كل ذلك الوقت.. وها قد حان الوقت الذى سوف أتركك لكى تذهب إلى حياتك التى تحبها.. نعم، يجب أن تعود إلى (ميللى) حبيبة قلبك.. إذ ليس لدىّ شك الآن أنك تريدها هى وليس أنا.. وهنا سوف أفى بالوعد الذى قطعته على نفسى لك.. هؤلاء سوف يعطونك كل ما تريده من ذهب".

قال السيد (سكيلمر سديل) بكلمات متقطعة "لقد اختفت مثل.. عند هذا كان لدىّ شعور" (ولمس عظام صدره) وأردف: "أحسست بأننى أفقد الوعى.. شعرت بالضعف والرجفة.. وحتى فى ذلك الوقت لم أجد شيئًا لكى أقوله".. وتريثت قليلاً.. فقلت "وبعد".. كان المشهد أعجب من أن يوصف.. ولكننى أعرف أنها قبلته، قبلة الوداع.

تساءلت "وهل قلت أنت لها أى شىء بعدما قبلّتك؟".. قال: "لا شىء. فقط انتصبت كتمثال.. ونظرت إلىّ من جديد ثم وقفت تبتسم وتبكى.. إذ رأيت تألق عينيها وقتئذ.. ثم انصرفت.. وعلى الفور احتشد حولى أولئك الرفاق وحشوا كل يدىّ وجيوبى ومؤخرة ياقتى وكل مكان ممكن بالذهب".

فى الوقت الذى اختفت فيه الجنية بدأ السيد (سكيلمر سديل) يفهم ويدرك الحقيقة.. وفجأة أخذ يلقى الذهب الذى يتناثر فوقه..

وصرخ فيهم لكى يتوقفوا عن إغداق المزيد عليه "لا أريد ذهبكم.. إننى لم أنته بعد من هذا.. إننى لن أذهب.. أريد أن أتكلم مع الجنية مرة أخرى.. وبدأت أتحرك فى الاتجاه الذى ذهبت معه، لكنهم أمسكوا بى ومنعونى من اللحاق بها.. أجل.. وضعوا أيديهم الصغيرة حول وسطى ودفعونى إلى الخلف.. واستمروا يدفعون بالمزيد من الذهب حتى أخذ يتساقط فى سروالى على ساقى.. ويسقط من جيوبى ويدى.. وقلت لهم.. إننى لا أريد هذا الذهب.. فقط أريد أن أتكلم مع الجنية مرة أخرى".

عدت أتساءل: "هل تحدثت معها؟" أجابنى يقول : "لقد دخلنا فى مشادة".. قلت: "قبل أن تراها؟".. قالِ: "إننى لم أرها عندما تمكنت من الإفلات منهم لم تكن موجودة فى أى مكان يمكننى أن أرها فيه".

وعلى ذلك فقد ركض بحثًا عنها بعيدًا عن هذا الكهف المضاء بالنور الأحمر. فى مغارة طويلة.. حتى وصل إلى مكان منعزل واسع جانبى يعج بسرب من الحباحب الطائرة هنا وهناك.. ومن حوله الجنيات الصغيرة ترقص فى سخرية.. وخرج الأقزام من الكهف فى إثره وهم يحملون الذهب فى أيديهم ويلقون به عليه وارتفعت صيحاتهم: "حب الجنية وذهب الجنية! حب الجنية وذهب الجنية".

وعندما سمع تلك الكلمات.. أحس بخوف شديد من أن يكون كل شىء قد انتهى بينهما.. ورفع صوته وأخذ ينادى عليها باسمها.. وفجأة ترك نفسه يركض من فتحة الكهف وعبر المنحدر واخترق منطقة من الأشواك والورود البرية.. وأخذ ينادى عليها بصوت عال مرات ومرات.. غير أن الجنيات الصغيرة أخذن يرقصن من حوله

دون اهتمام.. وأخذن يقرصنه وينخسنه.. وأحاطت به الحباحب المضيئة وأخذت تصطدم بوجهه.. وفى نفس الوقت طارده الأقزام الصغار وهم يصيحون ويضربونه بذهب الجنيات.

أخذ يركض ومن حوله كل تلك الحشود الغريبة والجلبة التى شتت تفكيره.. ولم يلبث أن وجد نفسه يخوض فى مستنقع حتى عمق ركبتيه.. وفجأة وجد نفسه وسط جذور نباتات سميكة ملتوية.. وانحشرت قدمه فى واحد من تلك الجذور القوية. وانقلب ساقطًا لتوه.. وأخذ يتدحرج.. وفى تلك اللحظة وجد نفسه ممددًا على الأرض بمنطقة (الدنجتون) وحيدًا تحت نجوم السماء.

هب واقفًا على الفور، على حد قوله، ووجد جسده متصلبًا وباردًا وملابسه مبتلة بالندى.. وشعر بقرب بزوغ أول أنوار الفجر وبرياح قارصة البرودة فى نفس الوقت.. وكان يمكنه أن يعتقد أن كل شىء كان مجرد حلم عنيف غريب حتى وضع يده فى جيبه الجانبى ووجده محشوًا بالرماد.. وعندئذ أدرك بالقطع أنه ذهب الجنيات الذى أعطينه إياه.. وتذكر كل نخسهن وقرصهن له، وعلى الرغم من أن جسده كان يخلو من أى كدمات.. وبهذه الطريقة وبتلك المفاجأة عاد السيد (سكيلمر سديل) من أرض الجنيات إلى عالم البشر من جديد.. آنذاك كان يتصور أن الأمر مجرد حلم، حتى عاد إلى المتجر بمنطقة (الدنجتون كوز) واكتشف بين دهشة كل الموجودين أنه تغيب عنهم لمدة ثلاث أسابيع.

تساءلت مندهشًا "يا إلهى!... هل تجشمت كل هذا العناء!".. أجابنى قائلاً "سأشرح لك" ولو أننى أظن أننى لم أر شيئًا كهذا من

قبل حتى يمكن شرحه".. ثم أسهب لبعض الوقت فى تفسير سلوك هذا أو ذاك من الناس.. وتجنب ذكر اسم معين لفترة طويلة من الوقت.. وقلت أخيرًا "وماذا بشأن (ميللى)؟" فقال "لا أشعر بأننى متلهف إلى رؤيتها".. "أعتقد أنها تغيرت.. أليس كذلك؟.

كل الناس تغيروا.. إلى الأحسن.. كل الناس يبدون بغير ما يضمرون وتبدو أصواتهم عالية، لكن لماذا عندما ارتفعت الشمس فى الصباح بدا كل شىء جميلاً لعينى؟".. "ولكن (ميللى)؟" "إننى لم أرد رؤيتها".. "وعندما رأيتها ماذا حدث؟".

"قابلتها بمحض الصدفة يوم الأحد عقب خروجى من الكنيسة.. وسألتنى "أين كنت؟".. وشعرت أن شجارًا بيننا يلوح فى الأفق، ولم أبال بحدوثه.. وشعرت بأننى نسيتها، حتى وهى تتحدث إلىّ.. لم يعد لها أى قيمة بالنسبة إلىّ لم أعرف ماذا كنت أرى فيها أو ما الذى يمكن أن يراه المرء فيها..أحيانًا عندما تكون قريبة منى، كنت أعيش قليلاً فى الذكريات الماضية ولكن ليس وهى بعيدة عنى.. ثم دائمًا كان ذلك الرجل الآخر يأتى ويعنفها بشدة.. على أى حال لم يحطم ذاك قلبها.

سألته "هل تزوجت؟" فقال السيد (سكيلمر سديل) "تزوجت ابن عمها".. ثم سرح مع فكره، وهو يحدق فى الشكل المرسوم على مشمع المائدة لبعض الوقت.

عندما تحدث مرة أخرى كان واضحًا أن حبيبته السابقة تلاشت تمامًا من ذهنه.. ولم يلبث الحديث أن أعاد إلى قلبه نشوة ذكريات أرض الجنيات.. وأخذ يتحدث عنها،وسرعان ما كشف عن أشياء

غريبة وأسرار الحب العجيبة التى يعتبر تكرارها خيانة للحبيب.. والحقيقة أننى أعتقد أن هذا أغرب شىء فى القصة بأكملها.. أن تسمع هذا البقال الشاب بعد أن انتهت قصته، وهو يضع كأسًا من الويسكى بجواره ويمسك بسيجار بين أصابعه. وهو يشهد بحزن تحول الآن إلى معاناة زادت مع الوقت لهفة وولع هذا القلب التى اشتدت عليه الآن.. وقال "لم أستطع أن آكل... ولا أن أنام.. وأخطأت فى طلبيات البضاعة وبدأت أخطئ فى حساب الصرافة.. كانت ماثلة أمامى ليلاً ونهارًا تشدنى إليها أكثر فأكثر"..

"يا إلهى! لقد تمنيتها بكل قواى.. كم اشتقت إليها وأردتها بجوارى!.. كنت أقبع هناك أكثر الليالى. نعم كنت أجلس على هضبة (الدنجتون) حتى أثناء هطول المطر.. واعتدت أن أسير حول هذا المكان مناديًا على "الجنيات" للسماح لى بالدخول إلى عالمهن.. كنت أصرخ وأحيانًا أبكى وأنتحب.. كنت أبدو للناس كشخص معتوه وبائس ومحطم.. ولم أفتأ أن أقول إن الأمر كله كان خطأ منى".

"إننى أذهب إلى هناك عصر كل يوم أحد.. وأنا فى قمة أناقتى.. رغم أننى أعرف مثلك تمامًا أن الجو هناك ليس جيدًا بالنهار.. كما أننى حاولت النوم أحيانًا فى ذلك المكان".. وتوقف فجأة وقرر أن يحتسى بعضًا من الويسكى الذى أمامه.. ثم قال "صدقنى لقد ذهبت أحيانًا لكى أنام هناك".وأستطيع أن أؤكد أن شفتيه ارتعشتا.. ثم واصل ".. بل إن عدد المرات التى ذهبت لأنام فيها فوق الهضبة أخذ يزداد.. وكما تعرف يا سيدى فإننى لم

أستطع قط.. لكننى فكرت أننى لو ذهبت ليلاً للنوم هناك فلعل شيئا ما يحدث.. غير أننى جلست متعبًا ثم تمددت.. ولم أستطع أن.. لكننى لم أتوقف عن التفكير فيها والشوق إليها.. إنه الشوق واللوعة.. لقد حاولت...".

تنهد ثم احتسى بقية ما معه من ويسكى بتشنج.. ووقف بغتة وربط أزرار سترته، وأخذ يحدق بشكل غريب وبانتباه شديد فى اللوحة الزيتية الرخيصة الموضوعة بجوار رف المدفأة.. وبرزت من جيب سترته مفكرته السوداء الصغيرة التى يسجل فيها يومياته.. وعندما انتهى من ربط أزرار سترته، ربت على صدره واستدار فجأة إلى ناحيتى وقال "حسن... معذرة.. إننى لابد أن أذهب الآن".

كان فى عينيه بريق غامض وفى تصرفاته شىء ما يصعب عليه شرحه، وقال أخيرًا عندما بلغ الباب "إن المرء لا يفعل شيئًا سوى الكلام".. وابتسم ابتسامة واضحة ثم غاب عن بصرى.. إن هذه هى قصة السيد (سكيلمر سديل) فى أرض الجنيّات كما حكاها لى بنفسه.

الشبح قليل الخبرة

المشهد الذى من خلاله روى (كلايتون) قصته الأخيرة يتراءى مفعم بالحيوية فى مخيلتى.. فهنا يجلس أكثر الوقت فى ركن المقعد الخشبى الأصلى بجوار نيران المدفأة المفتوحة الواسعة.. وبجواره يجلس (ساندرسون) يدخن تبغ (بروسلى) الذى يحمل اسمه.. وكان هناك (إيفانز) وهو أعجوبة بين الممثلين و(ويش) وهو أيضًا رجل متواضع.. وجميعنا حضرنا إلى نادى (حورية الماء) صباح ذلك السبت باستثناء (كلايتون) الذى نام هناك طوال الليل، مما مكنه من بداية سرد تلك القصة..

لعبنا جميعًا الجولف حتى أصبحت الرؤية متعذرة.. وتناولنا طعام العشاء.. وكنا فى حالة من الرقة والود وهدوء الأعصاب تساعدنا على سماع أى قصة.. وعندما بدأ (كلايتون) يروى إحدى القصص، تصورنا بالطبع أنه يكذب. ولعله كان يكذب فعلاً.. والحقيقة أن القارئ سوف يستطيع أن يحكم على ذلك بسرعة مثلى أنا.. وبالفعل بدأ يروى القصة كما لو أنها قصة حقيقية.. غير أننا اعتقدنا فقط أن هذه هى براعة الرجل التى يتميز بها دائمًا..

قال، بعد أن تأمل طويلاً سيل الشرارات المنطلقة إلى أعلى من أخشاب المدفأة (ساندرسون)، "أنتم تعرفون بالطبع أننى كنت وحيداً هنا ليلة أمس؟".. فقال (ويش) "فيما عدا الخدم" فرد (كلايتون) "الذين ينامون فى الجناح الآخر.. نعم، حسنًا".. وسحب نفسًا من سيجارة لبعض الوقت، كما لو كان مترددًا فى ثقته بنفسه.. ثم قال بهدوء فجأة "لقد قبضت على شبح!"..

قال (ساندرسون) "أنت قبضت على شبح؟ وأين هو إذن؟".. أما (إيفانز) الذى يعجب كثيرًا بـ (كلايتون) وقضى أربعة أسابيع فى أمريكا فصاح "قبضت على شبح؟ هل هذا صحيح يا (كلايتون)؟.. إننى سعيد جدًا بذلك!.. بالله عليك أخبرنا بكل شىء حالاً الآن".. وأعرب له (كلايتون) عن رغبته فى ذلك خلال دقيقة واحدة، وطلب منه غلق الباب.

نظر إلى فى اعتذار وقال "بالطبع لا يتنصت علينا أحد.. لكننا لا نريد أن نقلق أو نخيف طاقم الخدمة الممتاز هنا بأى شائعات عن وجود أشباح فى المكان.. فهناك الكثير من الظلال وألواح خشب البلوط التى تكسى بها الحوائط ومن ثم لا يجب أن نسخر من هذا الموضوع.. وكما أن هذا بالطبع ليس شبحًا يأتى بصفة منتظمة.. بعبارة أخرى أنا أعتقد أنه لن يظهر مطلقًا مرة أخرى هنا".

قال (ساندرسون): "هل تعنى أنك لم تمسك به وتحبسه؟".. فقال (كلايتون): "لم أجد الشجاعة الكافية لذلك".. وقال (ساندرسون) إنه مندهش لذلك.. وضحكنا جميعًا.. لكن (كلايتون) بدا مغمومًا، وقال وعلى وجهه ما يشبه الابتسامة "أعرف ذلك.. ولكن الحقيقة

أنه كان بالفعل شبحًا.. وأنا متأكد من ذلك مثلما أنا متأكد أننى أتحدث معكم الآن.. إننى لا أهزل.. أنا أعنى ما أقوله".

سحب (ساندرسون) نفسًا عميقًا من سيجاره، وإحدى عينيه المائلتين إلى الحمرة تحدق فى (كلايتون)، ثم أطلق سحابة رقيقة من الدخان تعبر بأكثر من أى كلمات مهما كثرت.. وتجاهل (كلايتون) تلك الملاحظة وقال "إن هذا أغرب شىء حدث لى فى حياتى كلها.. وأنتم تعرفون أننى لم أؤمن يومًا بالأشباح أو بأى شىء من هذا القبيل.. ثم فجأة أمسك بواحد منها فى الركن، ويصبح الموضوع بأكمله بين يدى هاتين".

أخذ يفكر بعمق شديد.. ثم أخرج سيجارًا ثانيًا وبدأ يثقبه بشوكة يستخدمها لذلك.. وسأله (ويش) "وهل تحدثت معه".. فأجابه "نعم، لفترة ربما تصل إلى ساعة".. وعندها قلت منضمًا إلى حزب المتشككين: "هراء!".

قال (كلايتون) وهو ينحنى على طرف سيجارة كمن لم يتأثر بأى انتقاد أو تأنيب.. وسأله شخص ما "وهل كان يبكى ويتشنج؟".. فتنهد (كلايتون) تنهيدة حقيقية وأجاب "يا إلهى!.. نعم.. يا للمسكين!.. نعم".. وسأله (إيفانز) بلكنته الأمريكية الجميلة "وأين هجمت عليه؟".. فقال (كلايتون) متجاهلاً إياه "لم أدرك قط الحالة التعسة البائسة التى يمكن أن يكون عليها أى شبح".. وعلقنا مرة أخرى بينما أخذ يبحث عن عيدان ثقاب فى جيبه ثم أشعل سيجاره وسحب نفسًا منه وقال أخيرًا "ثم استفدت شيئًا هامًا"..

لم نكن فى عجلة من أمرنا.. وواصل حديثه "الشخصية تظل هى نفسها طالما أنها متحررة عن الجسد.. وهذا شىء ننساه دائمًا.. فالناس الذين لديهم قدرة معينة أو هدف ثابت قد يكون لديهم أشباح ذوو قدرة خاصة وهدف محدد.. فكما تعرفون إن معظم الأشباح التى تطارد البشر أو تلازمهم يجب أن يركزوا فى فكرة واحدة مثل المرضى بالمس الأحادى، وأن يكونوا عنيدين كالبغال، حتى يمكنهم أن يحضروا مرارًا و تكرارًا.. غير أن هذا المخلوق البائس لم يكن كذلك".. ونظر فجأة بشكل غريب وتحركت عينه فى محيط الغرفة.. ثم استطرد "يمكننى القول بكل ود أن هذه هى الحقيقة الكاملة.. رغم أنه للوهلة الأولى بدا لى ضعيفًا".

تريث لحظة سحب فيها نفسًا من سيجاره ثم واصل "لقد اقتربت منه كما تعلمون فى الممر الطويل.. كان ظهره تجاهى ورأيته أنا أولاً.. وفى الحال أدركت أنه شبح أو روح.. كان شفافًا وضاربًا إلى البياض.. ومن خلال صدره أمكننى رؤية وميض النافذة الصغيرة فى نهاية الممر.. وأدركت أن كلا بنيته المادية ووضع جسمه ضعيفين.. وبدا لى كما لو أنه لا يدرى ماذا يريد بالضبط.. إحدى يديه كانت على ألواح كساء الجدران ويده الأخرى ترفرف أو ترتعش وهى تتجه إلى فمه.. إن ذلك يشبه...!".

قال (ساندرسون) " صف لنا بنيته الجسدية".. فقال "إنه نحيل أو رقيق البدن.. أنتم تعرفون شكل عنق أى شاب يثبت بظهره حليتين زخرفيتين هنا وهنا.. هكذا!.. ورأسه صغير أو متوسط وشعره قصير وأذناه شكلهما قبيح.. كتفاه غريبان وأرفع من ردفيه..

وياقته مطولة لأسفل.. وسترته جاهزة وقصيرة.. سرواله فضفاض ومنسل قليلاً من كعبيه.. هذا هو الشكل الذى رأيته عليه".

"صعدت على الدرج بهدوء شديد.. لم يكن معى أى ضوء كما تعرفون - فالشمع موضوع على منضدة منبسط الدرج وكذلك المصباح - وكنت مرتديًا خفىّ.. ورأيته وأنا أصعد.. وقفت جامدًا فى مكانى بمجرد رؤيته.. لكننى لم أشعر بأدنى خوف!.. وأعتقد أنه فى أكثر تلك الحالات لا يكونَ المرء خائفًا أو مثارًا كما قد يتخيل البعض.. وكنت مندهشًا وفى نفس الوقت مهتمًا جدًا.. وقلت لنفسى يا إله السماوات!.. إنه شبح أخيرًا!.. علمًا بأننى طوال السنوات الخمس والعشرين الماضية لم أؤمن قط بالأشباح والأرواح".

قال (ويش) "أوه.. أكمل يا عزيزى".. فقال "أظن أننى لم أظل على منبسط الدرج إلا وقتًا قصيرًا جدًا، قبل أن يعرف أننى موجود.. استدار تجاهى بسرعة.. ورأيت وجه شاب فى سن صغير غير ناضج.. أنف واهن وشارب قصير وذقن ضعيف.. ووقفنا هكذا للحظة وهو ينظر إلى من فوق كتفه وأنا أنظر إليه!.. ثم يبدو أنه تذكر قدراته الخارقة.. فاستدار ناحيتى وانتصب فى وقفته وأبرز وجهه ورفع ذراعيه وفتح يديه بنفس النمط المعتاد لأى شبح.. ثم أقبل تجاهى..

"بمجرد أن فعل ذلك سقط فكه قليلاً وزعق بكلمة تشبه "بووه".. ولكنه لم يكن مخيفًا ولا مروعًا.. كنت قد تناولت عشائى.. واحتسيت زجاجة من الشمبانيا.. ولأننى كنت وحيدًا، فقد شربت

كأسين أو ثلاث كئوس، وربما أربع أو خمس كئوس من الويسكى.. لذلك كنت فى صلابة الصخر.. ولم أكن أخاف بأكثر مما يشعر به المرء عندما يهجم عليه أحد الضفادع!.. وقلت له "بووه!.. ما هذا الهراء.. أنت لا تنتمى إلى هذا المكان.. ما الذى تفعله هنا يا هذا؟" .. وأستطيع القول إنه جفل وقال من جديد "بووه ـ بووه؟!".

قلت له "بووه؟.. اللعنة يا رجل!.. هل أنت أحد أعضاء النادى؟" .. ولكى أظهر أننى لا أعبأ به قدر شعرة، اقتربت منه كثيرًا وأشعلت شمعتى ونظرت إليه جانبيًا وقلت مكررًا "هل أنت عضو بهذا النادى؟" .. فتحرك قليلاً بحيث ابتعد عنى.. وبدا عليه الاكتئاب.. وقال إجابة عن سؤالى الملح "لا.. لست عضوًا فى هذا النادى.. وإنما أنا شبح" ..

قلت له "حسنًا.. إن ذلك لا يعطيك الحق فى دخول نادى (حورية الماء).. هل هناك شخص ما تحب رؤيته أو شىء من هذا القبيل؟" .. واحتفظت بشمعتى مشتعلة وأمسكتها بثبات خشية أن يعتقد خطأ أن اللامبالاة أو الغياب عن الوعى الذى يسببه الويسكى يبدد الإحساس بالخوف تمامًا.. ثم واجهته وأنا ممسك بالشمعة وقلت له "ما الذى تفعله هنا بالضبط؟" .

أنزل يديه إلى أسفل وتوقف عن ترديد كلمة (بووه).. ووقف هناك خجلاً ومرتبكًا.. إنه شبح شاب ضعيف أحمق لا هدف له.. ثم قال "إننى ألازم هذا المكان.. فقلت بصوت واثق "لكن لا توجد أى مصلحة لأن تسكن هذا المكان.. هذا ناد خاص محترم.. والناس كثيرًا ما يحضرون إلى هنا ومعهم أطفالهم ومربياتهم ويتحركون فى

كل مكان على راحتهم كما تفعل أنت.. ولعل بعض الحشرات أو الحيوانات تصطدم بك وتصاب بفزع هائل.. أعتقد أنك لم تفكر فى كل ذلك".

قال "لا يا سيدى.. لم أفكر فى ذلك".. فقلت "كان يجب أن تفكر فى ذلك.. وليس لك أى حق فى الوجود فى هذا المكان، أليس كذلك؟".. ثم هل قتلت يا هذا هنا أو أى شىء من هذا القبيل؟" فأجاب "لا يا سيدى ولكننى اعتقدت أنه مكان متهالك ومكسو بألواح أخشاب البلوط".. فقلت وأنا أحدق فيه بقوة "هذا ليس عذرًا إن وجودك هنا خطأ".. وقلت ذلك بلهجة ودية لكن واثقة.. وتصنعت أننى أبحث عن عيدان ثقاب.. ثم رفعت بصرى إليه بشكل صريح وقلت "لو كنت مكانك لما انتظرت وقت الفجر وإنما أختفى فى الحال".

بدا مرتبكًا وبدأ يقول "الحقيقة هى أن.... الواقع يا سيدى......" فقلت مستعجلاً إياه "اختف يا هذا!".. فقال "الحقيقة يا سيدى.. لقد نسيت أن أقول لكم شيئًا هامًا.. إننى عالق هنا منذ منتصف ليلة أمس مختفيًا فى دواليب حجرات النوم الخالية وما شابه ذلك.. إننى مضطرب للغاية.. لم أنزل فى مكان ما من قبل، ويبدو أن قدراتى اختلت".

قلت "قدراتك اختلت؟".. فقال "نعم يا سيدى.. لقد حاولت ذلك عدة مرات ولم أنجح.. هناك شىء بسيط ضاع منى ولا أستطيع استعادته.. وهذا ما أربكنى للغاية".. وحدق فىّ بشكل ذليل لدرجة أننى واصلت أسلوبى المتغطرس الذى لم أنجح فى تصنعه طوال

حياتى وقلت ـ وأنا أشعر بحركة شخص ما فى الطابق السفلى ـ "هذا تخريف.. تعال إلى حجرتى وحدثنى عن ذلك بالتفصيل.. إننى لم أستطع حتى الآن فهم ما قلته".

حاولت أن أضع ذراعى فى ذراعه، ولكن هيهات أن يمكن للمرء الإمساك بنفخة من الدخان!.. وأعتقد أننى نسيت رقم غرفتى.. وعلى أية حال فقد دخلنا مخادع كثيرة.. ومن حسن حظى أننى كنت الشخص الوحيد فى الجناح بأكمله.. حتى رأيت أغراضى وأمتعتى الشخصية.. فقلت "ها قد وصلنا".. ثم جلست فى كرسى بمسندين.. وقلت له "اجلس وأخبرنى بكل شىء.. يبدو لى أيها الشاب أنك وضعت نفسك فى موقف محرج جدًا".

حسنًا، لقد قال إنه لن يجلس وأنه يفضل أن يرفرف بجناحيه فى الغرفة ما لم يكن لدىّ مانع من ذلك.. وفعلاً فعل ذلك وسرعان ما انخرطنا نحن الاثنان فى حديث جدىّ طويل.. والآن كما تعرفون تبخر تمامًا من ذهنى كل كؤوس الويسكى بالصودا التى تناولتها.. وبدأت أدرك قليلاً غرابة وخطورة الموقف الذى أنا فيه.. فهاهو هناك.. شبح أو طيف نصف شفاف وبلا صوت، باستثناء كلامه، يخفق بجناحيه هنا وهناك فى مخدعى القديم الأنيق النظيف.. وتستطيع أن ترى ضياء الشمعدان النحاسى من خلال جسمه.. وكذا أضواء سياج المدفأة النحاسى وأركان الصور ذات الإطارات المعلقة على الجدران.. وهاهو هناك يخبرنى بكل شىء عن حياته القصيرة التعسة التى انتهت حاليًا على الأرض.. وللحقيقة فإن وجهه لا ينم عن الصدق تمامًا.. ولكن حقيقة كونه شفاف الجسم تجعل من المتعذر عليه اللجوء إلى الأكاذيب..".

قال (ويش) فجأة وهو يعتدل جالسًا فى مقعده "إيه.. وماذا بعد؟" فقال (كلايتون) "ماذا تقصد؟".. قال (ويش) "كونك شفافًا ولا تستطيع تجنب قول الحقيقة... هذا شىء لا أفهمه".. فقال (كلايتون) بثقة وحزم "ولا حتى أنا أفهمه.. ولكنه مع ذلك صحيح، وأنا أؤكد لكم ذلك".. وأعتقد أنه لا يحيد أنملة عن الحقائق الواردة بالإنجيل.. وأخبرنى كيف قُتل.. فقد نزل فى بدروم أحد المنازل بلندن ومعه شمعة للبحث عن مكان تسرب الغاز.. ووصف نفسه بأنه مدرس أول اللغة الإنجليزية بإحدى المدارس الخاصة بلندن.. عندما حدث هذا الخلاص.. وقلت "يا للبائس التعس!".. وهذا هو ما ظننت.. وكلما تحدث أكثر كلما ازددت اقتناعًا بذلك.. والآن هاهو الرجل الذى لم يكن له هدف فى حياته.. أصبح ليس له هدف بعد موته!..

حدثنى عن أبيه وأمه وأستاذه فى المدرسة.. وكل من كانوا يعنون له شيئًا فى حياته الدنيوية "كان حساسًا للغاية وعصبيًا جدًا، ولم يُقَدِّر أحد قيمته الحقيقية أو يفهمه جيدًا.. لم يكن له صديق واحد حقيقى فى حياته.. وأعتقد أنه لم ينجح فى أى شىء كلف به.. كان يتهرب من الألعاب ويفشل فى الامتحانات.. وقال لى "وحدث نفس ذلك مع الناس.. فكلما دخلت غرفة الامتحان أو أى مكان آخر، كان كل شىء يبتعد عنى..".

وكان مخطوبًا، يستعد للزواج بالطبع، لإنسانة أخرى حساسة للغاية على ما أعتقد.. عندما أنهت عدم فطنته بكيفية معالجة تسرب الغاز هذه العلاقة.. وسألته "وأين أنت الآن.. ليس فى ....؟".. فقال إنه ليس متأكدًا تمامًا من هذه النقطة.. الانطباع

الذى أعطاه لى هو حالة وسيطة غامضة.. ملجأ خاص بالأرواح غير الموجودة بالنسبة لأى شىء حقيقى أو يقينى.. مثل الرذيلة أو الفضيلة.. لا أعرف بالضبط.. وكان أنانيًا وغير ملتزم بإعطائى أى فكرة واضحة عن طبيعة هذا المكان.. فى الجانب الآخر من الحياة.. وعمومًا فأينما كان فمن الواضح أنه يقيم مع مجموعة من الأرواح ذات الطبيعة الواحدة.. أى أرواح لشباب لندنى ضعيف لهم علاقة بالأسماء المسيحية.. ومن ضمن أولئك هناك بالطبع قدر كبير من الكلام حول "النزول أو السكن فى أماكن معينة" وما شابه ذلك. نعم السكن أو الإقامة!.. ويبدو أنهم يعتقدون أن "السكن" فى مكان ما هو مغامرة.. وأكثرهم يخشى ذلك طول الوقت.. والآن نستطيع أن نفهم أكثر من أين أتى".

قال (ويش) وهو يحدّث النيران فى المدفأة "هل كل هذا حقيقى؟".. وقال (كلايتون) ببساطة "على أية حال، هذا هو الانطباع الذى أعطاه لى.. ومن المحتمل بالطبع أننى كنت فى حالة من عدم التميز أو التدقيق.. غير أن هذه كانت الخلفية العامة التى أعطاها لنفسه.. وطفق يرفرف بجناحيه إلى أعلى وإلى أسفل.. وصوته الثاقب يتكلم عن نفسه البائسة.. وكل ذلك بدون كلمة واضحة أو جملة كاملة محددة المعنى من البداية إلى النهاية.. كان أكثر وهنًا وحمقًا وتشتتًا مما لو كان حقيقيًا وحيًا.. غير أنه لو كان حيًا وحقيقيًا، لما كان بالطبع موجودًا معى فى مخدعى هنا، كما أننى كنت سأطرده من هنا".

قال (إيفانز): "بالطبع.. هناك فانون بائسون مثله".. وأضفت أنا: "وهناك أيضًا فرصة أمامهم ليصبحوا أشباحًا مثل بقيتنا".. والذى

كان يعتبر نوعًا من الأمل له هو حقيقة أنه على وشك أن يجد نفسه مرة أخرى.. وكل الجلبة التى أحدثها فى السكن مع البشر أصابته بإحباط شديد.. وقد قيل له إنه سوف يصبح "بلبلاً سعيدًا".. ولذلك جاء إلى هنا منتظرًا أن يصبح هذا البلبل السعيد.. بيد أنه لم يلبث أن لاقى هنا فشلاً جديدًا يضاف إلى سجله القديم الممتلئ بمختلف أنواع الفشل.. ولذلك أعلن عن نفسه باعتباره نموذجًا أعلى للفشل!..

قال، وأنا أصدق ما قاله، إنه لم يحاول شيئًا طوال حياته ونجح فيه.. وأنه حتى أبد الآبدين سوف يفشل فى كل عمل أو مهمة يوكل بها.. ولكن لو كان وجد تعاطفًا وتفهمًا.... ثم توقف ووقف وهو يحدق فىّ.. وقال شيئًا بدا لى قريبًا للغاية هو أنه لم يجد تعاطفًا وتفهمًا من أى إنسان فى أى موقف مثلما أفعل معه الآن.. وأدركت فى الحال ما يريده وقررت أن أوقفه عند حده فورًا.. ولعلنى أكون قاسيًا جدًا، ولكن كما تعرفون فإن إدراك المرء بأنه الصديق الحقيقى الوحيد والذى يحوز على ثقة إحدى تلك الشخصيات الضعيفة الأنانية، وتحديدًا الأشباح أو الأرواح، أكثر بكثير من قدرتى على التحمل.. لذلك قمت بسرعة وقلت له "لا تفض فى الحديث عن تلك الأشياء كثيرًا هكذا.. والشىء المطلوب منك الآن هو الخروج من هذا المأزق.. وعليك الخروج منه بسرعة.. والآن جمّع كل قواك وحاول".

قال بانكسار "لا أستطيع".. فقلت "بل تستطيع".. وقال (ساندرسون): "حاول" فقال "وكيف؟" قال (كلايتون) "بالتعزيمات"..

فقال "بالتعزيمات؟" فقال (كلايتون) "إنها سلسلة من الحركات والإيماءات والإشارات تتم باليدين.. وهذه هى الطريقة التى جاء بها إلى هنا، وسوف يخرج بها من هنا مرة أخرى.. يا إلهى! ما أصعب هذا!".. فقلت "ولكن كيف يمكن لأى سلسلة من التعزيمات أن ....".. فقال (كلايتون) وهو يواجهنى بتحد ويركز على بعض كلماته: "يا عزيزى.. إنك تريد أن يكون كل شىء واضحًا.. ولا أعرف كيف.. وكل ما أعرفه أنك.. أنه فعل ذلك على أى حال.. وبعد فترة من الخوف والترقب، نجحت تعزيماته واختفى فجأة من الوجود"..

قال (ساندرسون) ببطء "لكن هل لاحظت تلك التعزيمات؟".. فقال (كلايتون) وهو يفكر "نعم.. كان ذلك غريبًا للغاية.. فقد كنت أنا وهذا الشبح الرقيق فى الغرفة الساكنة فى ذلك الفندق الخالى الساكن فى ليلة الجمعة فى تلك الغرفة الصغيرة الهادئة.. لم يكن هناك أى صوت باستثناء صوتينا وصوت لهاث خافت صدر منه وهو يهتز ويدور.. وهناك شمعة المخدع وشمعة واحدة على طاولة الزينة مشتعلة، وكان هذا كل شىء.. وأحيانًا إحداهما تتوهج مصدرة لهبًا طويلاً رقيقًا غريبًا لفترة من الوقت.. وحدثت بعض الأشياء العجيبة.. وقال "لا أستطيع.. لن يمكننى قط...!".

وفجأة جلس على مقعد صغير بجوار السرير وبدأ يبكى وينتحب.. يا إلهى! كم كان يبدو ملتاعًا ومتألمًا!.. وربت على ظهره وقلت له "اهدأ وتمالك نفسك".. غير أن يدى المرتبكة مرت خلاله!.. وحتى ذلك الوقت، كما تعلم، فإننى لم أكن ضخمًا كما كنت على بسطة السلم.. وأدركت مدى غرابة الموقف.. وأتذكر أننى

جذبت يدى إلى الخلف لكى أخرجها منه، وهى ترتعش قليلاً.. ثم خطوت مسرعًا إلى طاولة الزينة.. وقلت له "عليك أن تسيطر على انفعالاتك وأن تحاول".. ولكى أشجعه وأساعده فقد حاولت ذلك أنا بنفسى.

قال (ساندرسون) "ماذا!.. تعزيمات اليدين؟" "نعم، تعزيمات اليدين" فقلت "ولكن..." وتأثرت بفكرة معينة جعلتنى أجفل لفترة.. وقال (ساندرسون) وهو يضع أصبعه فى الجزء المجوف من غليونه "هذا مثير فعلاً.. تريد أن تقول إن هذا الشبح الذى تزعم أنك رأيته انهار واستسلم للحزن.." فقلت "تقصد هل هوت منزلته بحيث تخلى عن الحاجز اللعين كلية؟ نعم".

قال ويش "لا إنه لم يفعل.. إنه لم يستطع.. وإلا لكنت مضطرًا أنت أيضًا لكى تذهب إلى هناك" فقلت بعد أن وجدت فكرتى العجيبة يصوغها غيرى فى كلمات "هذا ما قصدته بالضبط.. وقال (كلايتون) وعيناه مركزتان على النار فى تفكير عميق "نعم هذه هى النقطة بالضبط".. ثم ساد السكون لبرهة من الوقت.. فقال (ساندرسون) "أخيرًا فعلها؟".

أخيرًا فعلها.. لقد اضطررت لأن أضغط عليه لكى يحافظ على ذلك.. لكنه فعلها أخيرًا.. بشكل مفاجئ تقريبًا.. ثم شعر باليأس، وانفعل كل منا على الآخر.. ثم نهض فجأة وطلب منى أن أؤدى عرضًا كاملاً وبطيئًا لما حدث بحيث يرى بنفسه.. وقال "أعتقد أننى لو رأيت ذلك لأمكننى تحديد موقع الخطأ فى الحال"، وقد فعل ذلك فعلاً.وقال "أنا لا أعرف" فقلت "نعرف ماذا؟" فكرر كلامه

"إننى أعرف".. ثم أردف بتذمر "لا أستطيع أن أفعل ذلك، لو نظرت إلىّ جيدًا.. لا أستطيع أبدًا.. وهذا هو الحال طول الوقت.. إننى امرؤ عصبى وأنت أزعجتنى".

حسنا، لقد تجادلنا قليلاً.. ومن الطبيعى أننى أردت أن أرى.. لكنه كان عنيدًا كالبغل.. وفجأة أحسست أننى متعب للغاية ككلب يلهث من الإجهاد.. لقد أنهكنى الرجل للغاية.. وقلت "حسنًا، إننى لن أنظر إليك". واستدرت مواجهًا للمرآة الموضوعة على خزانة الثياب بجوار السرير.

"أبعد نظره عنى بسرعة".. وحاولت متابعته بالنظر فى المرآة لأرى ماذا يفعل.. ثم استدارت ذراعاه ويداه بشكل أو بآخر.. ثم اندفع إلى آخر حركة أو إيماءة.. قف منتصبًا وافتح ذراعيك.. نعم هكذا وقف الرجل.. ثم فجأة لم يقف!.. لم يقف.. لم يكن واقفًا!.. واستدرت عن المرآة وواجهته.. لم يكن هناك أحد!.. كنت واقفًا بمفردى أنا والشمعات المتقدة وذهنى المتشتت..

"لكن ماذا حدث؟ هل حدث شىء ما؟ هل كنت أحلم؟.. وفى تلك اللحظة وبشكل حاسم دقت ساعة الحائط المعلقة فوق البسطة إثر اكتشافها أن الوقت قد حان لكى تدق دقة واحدة.. وهكذا سمعت بينج!.. وكنت فى الحقيقة رزينًا وجادًا كقاضٍ.. وكل الشمبانيا والويسكى التى تناولتها ذهبت إلى صفاء تام.. وشعرت بالغرابة والارتباك.. شعرت بالهوس.. يا إلهى!".

حدق فى رماد سيجارته للحظة ثم قال "هذا كل ما حدث".. وسأله (إيفانز) "وبعد ذلك ذهبت إلى مخدعك؟" "وماذا عساى أفعل

غير ذلك؟".. ونظرت إلى (ويش) فى عينيه.. كنا نريد أن نضحك أو نسخر مما يحدث، لكن شيئًا ما، لعله فى صوت أو أسلوب (كلايتون)، حال دون تحقيق رغبتنا هذه.

قال (ساندرسون) "وماذا بشأن تلك الحركات أو التعزيمات؟".. "أظن أننى أستطيع عملها الآن".. وقال (ساندرسون) "أوه!"، وأخرج يديه وشرع فى نبش التبغ المتصلب فى تجويف غليونه.. وأردف وهو يقفل مديته بطقطقة سريعة "ولماذا لا تقل ذلك الآن؟".. فقال (إيفانز) "إنها لن تنجح".. قلت مقترحًا "ولكنها لو نجحت...". قال (ويش) وهو يمد ساقيه "كما تعرف فإننى أفضل ألا تفعل".. وسأل (إيفانز) "لماذا؟" فقال (ويش) "أفضل ألا يفعل". وقال (ساندرسون) "لكنه لم يحصل عليها حتى الآن" وأضاف الكثير من التبغ إلى غليونه.. وقال (ويش) "ومع ذلك فإننى أفضل أيضًا ألا يكون فعل ذلك".

تجادلنا مع "ويش".. وقال إن أداء (كلايتون) لتلك الحركات والإيماءات كان أشبه بالسخرية من أمر جدى.. وقلت "لكنك لا تعتقد أن...؟". ونظر (ويش) إلى (كلايتون) كان يحدق فى النار ويقلب أمرًا ما فى ذهنه.. ثم قال (ويش): "كلا.. إننى مقتنع الآن بنسبة تزيد على ٥٠٪ بشكل عام.. نعم، أنا مقتنع".

قلت أنا "(كلايتون).. إنك بالنسبة إلينا كاذب عظيم.. معظم ما حدث كان لا بأس به.. لكن الاختفاء كان مقنعًا فعلاً.. قل لنا إنها قصة الديك والثور". وقف دون أن يعيرنى انتباهًا.. ووقف فى منتصف بساط المدفأة مواجهًا لى.. وللحظة حدق فى قدميه بتفكير عميق.. ثم أخذ بعد ذلك يحدق طوال الوقت فى الحائط

المقابل وعلى وجهه تعبير مركز.. ورفع يديه ببطء إلى مستوى عينيه وهكذا أبدًا..

والآن فإن (ساندرسون) رجل ماسونى وعضو فى محفل الملوك الأربعة الماسونى الذى يكرس جهوده لدراسة وشرح كافة أسرار الماسونية القديمة والحالية، وبلا شك فإن (ساندرسون) ليس أقل الدارسين فى هذا المحفل أهمية.. وتتبع الرجل باهتمام حركات (كلايتون) وكان ذلك الاهتمام واضحًا فى عينه الضاربة إلى الحمرة.. وبعد انتهاء (كلايتون) قال "هذا ليس سيئًا.. إنك تعرف حقًا يا (كلايتون) كيف تضع بعض الأشياء بجوار بعضها بشكل مدهش للغاية.. لكن هناك أمر واحد غاب عنك".

قال (كلايتون) أعرف ذلك.. وأعتقد أنه بوسعى اخبارك به.. "حسنا، فما هو؟".. فقال (كلايتون) "هذا" ثم التوى وتلوى بطريقة غريبة رافعًا يديه إلى الأمام.. "نعم هذا هو.. هذا ـ كما تعلم ـ هو ما لم يستطع أن يفعله بطريقه صحيحة.. ولكن كيف أمكنك أن؟".

قال (ساندرسون) "إننى لا أفهم أكثر هذه العملية، وخصوصًا كيف تمكنت من اختلاقها.. لكننى أفهم هذه المرحلة بالذات".. وتريث قليلاً وهو يفكر وأردف "إن هذه سلسلة من الحركات والإيماءات، ترتبط بفرع معين من الماسونية الخفية.. ولعلك تعرف ذلك.. وإلا.. فكيف؟".. وأخذ يفكر أكثر من ذى قبل وأردف "لا أظن أننى سأسبب ضررًا لك بإخبارك ما هو الالتواء الصحيح.. وعلى أية حال إذا كنت تعرف فأنت تعرف، أما إذا كنت لا تعرف إذن فأنت لا تعرف".

قال (كلايتون) "أنا لا أعرف شيئًا سوى ما بدر فى الليلة الأخيرة من ذلك الشيطان التعس" فقال (ساندرسون) "حسنًا، لا بأس".. ثم وضع غليونه الخزفى بعناية على الرف فوق المدفأة.. ثم أشار بسرعة بيديه.. وقال (كلايتون) مكررًا "إذن؟".. فقال (ساندرسون) "إذن".. وتناول غليونه بيده مرة أخرى.. وعندئذ قال (كلايتون) "آه.. الآن.. أعتقد أننى أستطيع عمل كل شىء بالطريقة الصحيحة".

وقف الرجل أمام النيران المتضائلة وابتسم لنا جميعًا.. بيد أننى أعتقد أن نوعًا من التردد ظهر فى ابتسامته هذه.. وقال "إذا بدأت..." فقال (ويش) "إننى لن أبدأ".. وقال (إيفانز) "لا بأس يا رفاق.. فالمادة لا يمكن فناؤها.. وأنتم لا تظنون أن أى خداع أو احتيال من هذا النوع سوف يطيح بـ (كلايتون) إلى عالم النسيان.. لا، ليس هذا!.. والآن حاول يا (كلايتون) حتى تسقط ذراعاك من المعصمين.. وهذا هو كل ما يهمنى".

قال (ويش) "إننى لا أعتقد أن"، ثم وقف وربت بذراعه على كتف (كلايتون) وأردف "لقد جعلتنى نصف مؤمن بتلك القصة نوعًا ما.. ولا أريد أن أرى هذا الشىء يتم أمامى".. وعندئذ صحت "يا إلهى!.. هاهو (ويش) يصاب بالرعب!".. فقال (ويش) بشدة حقيقية أو مصطنعة بشكل رائع "أعتقد أنه لو أدى تلك الحركات والإيماءات بشكل صحيح فسوف يختفى".

صحت قائلاً "إنه لن يفعل قط شيئًا من هذا النوع.. إن هناك طريقة واحدة لمغادرة البشر لهذا العالم. و(كلايتون) أمامه ثلاثين عامًا لكى يصل إلى هذه النهاية.. كما أن.. مثل هذا الشبح!.. هل

تظن أن..؟" وفى تلك اللحظة قاطعنى (ويش) بحركته.. إذ خرج من مجموعة مقاعدنا ووقف بجوار الطاولة وقال "هل تعرف يا (كلايتون).. إنك أحمق ومغفل".

ابتسم (كلايتون) وبدا فى عينيه بريق الدعابة والهزل وقال "(ويش) على حق، وجميعكم على خطأ.. إننى سوف أختفى.. فعندما أصل إلى نهاية تلك الحركات والتعزيمات، وعندما تجلجل الصفارات الأخيرة فى الهواء.. عندئذ سوف تجدون بساط المدفأة خاليًا.. وسوف يصاب كل من بالغرفة بدهشة شديدة.. كما أن شابًا يرتدى ملابسًا محترمة ويزن حوالى سبعين كيلو جرامًا سوف يختفى وسط عالم الظلال.. هذا مؤكد.. وهذا ما سترونه وسوف أتوقف عن الجدال الآن.. ولنقم بتجربة الموضوع برمته".

قال (ويش) "لا".. وخطا بسرعة ثم توقف.. ورفع (كلايتون) يديه مرة أخرى لكى يكرر تعزيمة الروح.. وفى ذلك الوقت كنا بالطبع جميعًا فى حالة من التوتر والقلق.. وذلك أساسًا بسبب تصرف (ويش).. وجلسنا جميعًا وعيوننا على (كلايتون).. وأحسست أنا على الأقل بأن جسمى تصلب وتخشب.. كما لو أن جسدى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى تحول إلى حديد صلب.. وأمامنا أخذ (كلايتون) بمهابة ووقار ينحنى ويتمايل ويموج يديه وذراعيه أمامنا.

وعندما اقترب من النهاية شعرت بأعصابى تتوتر وبوخز فى أسنانى.. وكما قلت كانت آخر حركة هى فتح الذراعين فى الجانبين مع رفع الوجه لأعلى.. وعندما التوى ليؤدى الحركة الأخيرة كادت أنفاسى تتوقف.. كان الموضوع فى الحقيقة سخيفًا ومدعاة

للسخرية.. لكنك تعرف ما هو شعور المرء إزاء قصص الأشباح.. وكان ذلك كله بعد العشاء، وفى منزل غريب متهالك تكتنفه الظلال هنا وهناك.. لكن ترى هل يمكن، على أية حال، أن يحدث له...؟

كان ثمة شخص يقف فى لحظة عجيبة اشرأبت فيها الأعناق وتلاحقت فيها الأنفاس.. وانفتحت ذراعاه ووجهه شاخص إلى أعلى وعليه سمات الثقة والفتنة والصفاء.. والمصباح المعلق يلقى بنوره على الجميع.. ووقفنا جميعنا فى تلك اللحظة كأن على رؤوسنا الطير.. كما لو أن تلك اللحظة دهر بأكمله.. وفجأة بدر منا جميعًا شىء أشبه بنصف تنهيدة من الارتياح والطمأنينة "لا!".. إذ كان واضحًا أنه لن يختفى.. كان الأمر كله هراء وسخف.. لقد قص علينا رواية تافهة ونفذها بشكل كدنا أن نقتنع بها.. هذا هو كل ما فى الموضوع!.. لكن فى تلك اللحظة تغير وجه (كلايتون)..

نعم تغيرت ملامحه.. تغيرت مثلما يتغير فجأة منظر منزل مضاء عندما تنطفئ أنواره فجأة.. عيناه تحجرتا فى محجريهما وثبتت نظرتهما إلى الأمام.. ابتسامته تجمدت على شفتيه ووقف جامدًا كالتمثال! لكنه وقف هناك يتمايل وينثنى بهدوء شديد..

مرت تلك اللحظة علينا أيضًا كدهر.. ولم تلبث المقاعد أن أخذت تصر وتحك بالأرض والأشياء تسقط من أيدينا، ثم تحركنا جميعًا.. بدأت ركبتاه تخوران وسقط إلى الأمام ووقف (إيفانز) وأسرع بمسكه من ذراعيه..

كنا جميعًا مذهولين.. وللحظة لم أعتقد أن أحدًا قال شيئًا له معنى.. لقد صدقنا ما شاهدناه، لكننا لم نصدق ما حدث!..

وتنبهت وسط حالة الذهول والارتباك التى ألمت بى لكى أجد نفسى راكعًا بجواره.. وسترته وقميصه ممزقان.. ويد (ساندرسون) فوق قلبه لمعرفة حالته.

حسنًا. تلك الحقيقة البسيطة التى أمامنا يمكنها أن تنتظر فرصة أخرى مناسبة لنا.. إذ لا مبرر هنا للعجلة فى فهمها وتفسيرها.. لقد بقيت هناك لمدة ساعة كاملة.. وهى واضحة تمامًا فى مخيلتى. بكل ما فيها من ظلام وشؤم ودهشة حتى يومنا هذا.

(كلايتون) رحل بالفعل إلى العالم القريب جدًا والبعيد جدًا عن عالمنا، وقد ذهب إلى هناك بالطريقة الوحيدة أو لنقل خلال الطريق الوحيد الذى يسلكه البشر الفانون.. ولكن سواء كان ذهب إلى هناك بتعزيمات الأرواح البائسة أو أصيب فجأة بسكتة دماغية وسط حكاية تافهة وسخيفة ـ وهذا بالطبع ما سوف يحاول محلفو المحكمة اقناعنا به ـ فهذا أمر لا يهمنى كثيرًا.. إن ذلك فقط واحد من تلك الألغاز الغامضة التى لا يوجد تفسير لها والتى يجب أن تظل هكذا حتى يحين وقت الكشف النهائى عن كل الأشياء التى فى الكون.. غير أننى أعرف جيدًا أنه فى تلك اللحظة.. أقصد فى نفس اللحظة التى أنهى فيها حركاته وتعزيماته تغير شكله وترنح وسقط أمامنا... ميتًا!

منظار (جيمى) وإله الأساطير

قال الرجل الأسمر الذى لفحته الشمس "ليس كل إنسان قادرًا على أن يصبح أحد آلهة الأساطير!.. لكن هذا حدث لى ضمن أشياء أخرى!".

وعبَّرت عن إحساسى تجاه هذا التواضع منه!.. وأردف الرجل الأسمر "إن ذلك لا يترك الكثير للطموح.. أليس كذلك؟".

لقد كنت أحد أولئك الناس الذين تم إنقاذهم من السفينة (أوشن بيونير).. ياللعجب!.. انظر كيف يمضى الزمن بسرعة!! لقد مضى الآن عشرون عامًا.. إننى أشك أنك تتذكر أى شىء عن (أوشن بيونير)؟".

كان الاسم مألوفًا لى، وحاولت أن أتذكر أين ومتى قرأته (أوشن بيونير)؟.. وقلت بشكل بالغ الغموض "شىء ما عن الذهب". فقال.. "نعم، هذا هو.. لم يكن للسفينة أى فرصة لمراوغة القراصنة فى تلك القناة الصغيرة القذرة.. وكان ذلك قبل أن يتم عرقلة النشاط التجارى والقضاء على آماله فى تلك المنطقة وكانت هناك براكين أو

ما شابه ذلك.. كما أن كل الصخور كانت فى أماكن خاطئة!.. وهناك أماكن حول (سونا) حيث عليكم أن تتابعوا الصخور بحذر لكى تعرفوا اتجاهها بعد ذلك.. وغرقت السفينة حتى غاصت إلى عمق ٢٠ قامة[1].. وعلى متنها حمولة من الذهب تقدر بمبلغ خمسين ألف جنيه كما قيل..".

قلت "والناجون؟". قال "ثلاثة".. فقلت "إننى أتذكر هذه القضية الآن.. كان هناك شىء بخصوص إنقاذ....". مال الرجل تجاهى وقال "لقد كنت فى هذه العملية.. حاولت أن أجعل من نفسى رجلاً ثريًا.. ولكن بدلاً من ذلك أصبحت أحد آلهة الأساطير.. وعمومًا فكونك إلهًا أسطوريًا لا يعنى أى مشكلة!" وتحدّث الرجل مستخدمًا تلك البديهيات البليغة من وقت لآخر.. وأخيرًا عاد إلى مواصلة قصته..

قال الرجل المسفوع بحرارة الشمس "كنت أنا ومعى بحار يدعى (جيكوبس) وهو زميل دائم لى فى (أوشن بيونير).. ومن خلاله حدث كل شىء. إننى أتذكره الآن، وهو فى القارب الملحق بالسفينة، يبلغنا بكل شىء بجملة واحدة.." كان يوجد أربعون ألف جنيه على السفينة ثم سقطت فى المياه عندما غرقت السفينة.. وأنا الوحيد الذى أعرف مكانها".. ولم يكن الأمر محتاجًا لذكاء خارق للتنبه إلى ذلك.. ومن ثم فقد كان قائدنا من البداية إلى النهاية.. وتمكن من السيطرة على الأخوين (ساندرس) وسفينتهما الشراعية التى تسمى (فخر "بانيا").. وأحضر ثياب الغوص.. وكانت قديمة ومعها جهاز

---

(١) مقياس عمق المياه ويعادل ١,٨٢ متر (المترجم).

للهواء المضغوط بدلاً من ضخ الهواء.. وكان سيغوص بنفسه لولا أن الغوص يسبب له الغثيان.. وكان رجال الإنقاذ يضيعون الوقت عبثًا ومعهم خارطة تمكنوا من تخطيطها بمعرفتهم.. بقرية (ستارريس) على مسافة نحو ٢٠٠ كم.

"أستطيع أن أقول لكم إننا كنا سعداء حقًا على متن السفينة الشراعية.. وكنا نقضى وقتنا فى الضحك والشرب والتشبث بالآمال العريضة طوال الوقت.. بدا كل شىء جميلاً ومنظمًا وحقيقيًا.. وظن الشباب منا أن النجاح سيكون حليفنا بالتأكيد. وأخذنا نفكر فيما عسى أن نفعله، إن مجموعة رجال الإنقاذ، الذين شرعوا فى تنفيذ مهمة البحث عن السفينة (أوشن بيونير) منذ يومين، حتى تعبنا من كثرة التفكير تكدسنا كلنا فى مقصورة السفينة (ساندرس).. وكان طاقمًا غريبًا.. الكل من الضباط ولا يوجد بحارة.. وقُدمت لنا ثياب الغوص فى انتظار الفارس الذى سيلبسها.. وكان (ساندرس) الشاب رجلاً ظريفًا.. وبالتأكيد كان هناك شىء مضحك فى رأسه الضخم السمين ونظارته وكان يلفت نظرنا دائمًا إليها.. وكان يسميها منظار "جيمى" بل ويتحدث إليها وكأنها إنسان عاقل!

"وسألناه عما إذا كان متزوجًا، ومن هى زوجته وهل له أطفال صغار.. وهو يضحك حتى الثمالة إلى أن تقع على قفاك.. وفى كل يوم كنا نشرب فى صحة (جيمى) ومنظاره من شراب الروم.. ثم نفتح فمه ونصبّ فيه كأسًا من الروم، حتى تصبح رائحته من الداخل جميلة مثل برميل الروم بدلاً من الرائحة النتنة لمعطفه

الواقى من المطر.. لقد عشنا فى تلك الأيام الخوالى أجمل الأوقات. ما أبأس وأتعس هؤلاء الشباب!.. لم يكونوا يعرفون، غيبهم المنتظر القريب"..

"لم نكن لنضيع فرصنا بسبب أى تسرع لعين.. وقضينا يومًا كاملاً نحدد طريقنا الذى ذهبت منه (أوشن بيونير) ما بين كتلتين من الصخور الرمادية اللزجة، وهى غالبًا صخور من حمم البراكين تبرز قليلاً إلى خارج الماء.. وكان علينا أن نتوقف بعد حوالى ثلاثة أرباع كيلو متر لتوفير مرسى مأمون للسفينة.. وكان ثمة شجار عنيف على سطح السفينة لابد أن يتوقف...".

اندثرت السفينة فى المكان الذى غرقت فيه.. ويمكنك أن ترى قمم صواريها التى لا تزال منتصبة واضحة تمامًا.. وانتهى الشجار وحضر الجميع فى القارب.. وفى صباح الجمعة التالى كان اليوم مشرقًا فلبست ثياب الغوص، وغطست إلى السفينة الراقدة فى سكون تام. ويا لها كانت من مفاجأة!. إننى أراها كلها الآن بوضوح.. كان المكان غريبًا نوعًا ما والضوء نافذًا إلى تحت الماء..

كل الناس هنا يعتقدون أن أى مكان فى المناطق الاستوائية عبارة عن شاطئ منبسط وأشجار نخيل وأمواج تتكسر على الشاطئ. إنها اللعنة!.. إن هذا المكان مثلاً يختلف تمامًا عن ذلك.. فالصخور هنا ليست مألوفة وقد أضعفتها الأمواج.. وإنما هى صفوف ضخمة منحنية مثل أكوام من خبث(٢) المشغولات الحديدية..

---

(٢) مخلفات عمليات تصنيع الحديد (المترجم).

وتحتها مادة خضراء لزجة ونباتات شوكية وبعض الأشياء المتماوجة عليها هنا وهناك.. والمياه كالزجاج الساكن الصافى الذى يشع ضياءً داكنًا.. حيث تنتشر فى سكون أعشاب بحرية سمراء تبهر البصر.. وحيث تمخر عباب الماء أشياء زاحفة ببطء وأخرى بسرعة كبيرة.

"وهناك بعيدًا وراء الخنادق والبرك والمستنقعات والأكوام تمتد إحدى الغابات على جوانب الجبل.. لا بد أنها نمت مرة أخرى بعد اندلاع النيران وتطاير الرماد بعد آخر ثورة بركانية.. وفى الطريق الآخر غابة أيضًا، وبرز من كل منهما الجمرات المطفأة والمتَّقدة.. وفى وسطهما يمتد ما يشبه الخليج البحرى.. وكاد الفجر أن ينبلج.. ولم تكتسب الأجسام ألوانها بعد.. ولا يوجد أى إنسان سوانا يمكن رؤيته فى القناة.. لم يكن هناك سوى (فخر "بانيا").. قابعة خلف بعض الصخور تجاه خط الأفق..".

"لا يوجد إنسان فى مدى الرؤية".. ثم توقف برهة. ولا أدرى من أين جاءوا.. وكنا نشعر بالأمان لدرجة أننا نفرح لغناء الشاب (ساندرس) البائس. وكنت مرتديًا (منظار جيمى) باستثناء الخوذة. وأقول دائمًا "إنه أمر هيّن.. ها هو الصارى".. وبعد أن ألقيت نظرة على الحافة العليا لجانب السفينة، أمسكت بالحافة وكدت أنقلب فى الوقت الذى أحضر فيه (ساندرس) القارب عندى.. وعندما تم فتح النوافذ لولبيًا وأصبح كل شىء جاهزًا، أقفلت صمام الهواء لمساعدتى على الهبوط.. وقفزت من على سطح السفينة، ورجلاى أمامى.. إذ لم يكن لدينا سُلم متنقل بالسفينة.

"تركت القارب وهو يتمايل، والجميع يحدقون فى الماء بعدى.. حيث غاصت رأسى فى الأعشاب والظلام يكتنف الصارى.. وأراهن أن أى إنسان، حتى لو كان أذكى الشباب وأكثرهم حذرًا، سوف يتجشم مشقة إلقاء نظرة على هذا المكان المهجور.. إذ إن رائحته نتنة من فرط العزلة والهَجْر.. "بالطبع يجب أن تفهم أننى كنت قليل الخبرة فى الغطس.. بل لم يكن أى منا غطَّاسًا.. وكان علينا أن نتريث لبعض الوقت حتى نحدد أفضل أسلوب للعمل.. وكانت هذه أول مرة لى أعمل فيها تحت هذا العمق.. إن المرء فى مثل تلك الظروف يشعر بإحساس رهيب.. عيناك سوف تؤلمانك بشدة.. وإننى أتساءل "هل سبق أن آذيت نفسك بالتثاؤب أو العطس.. إن الأمر هنا يشبه ذلك، ولكن أسوأ عشر مرات.. وهنا ألمٌ فوق الحاجبين يكاد يفلق الرأس وشعور فى أعضاء الجسم يشبه الإصابة بالإنفلونزا.. والنزول لأسفل يشبه استقلال مصعد.. لكنه لا يتوقف!.. وأنت لا تستطيع أن تدير رأسك لترى ما فوقك.. ولا تتمكن من أن ترى ما يحدث لقدميك بدون أن تنثنى لأسفل مما يسبب ألمًا شديدًا.. والغطس فى الأعماق يعنى أنك فى الظلام، ناهيك عن سواد الجمرات والرماد والطين الذى يشكل القاع.. إن الأمر كان يشبه الخروج من الفجر والرجوع إلى الليل.. إذا جاز هذا التعبير!.. فهو إلى ظلام.

"ظهر الصارى كشبح وسط الظلام. ثم مجموعة كبيرة من الأسماك.. ثم الكثير من الأعشاب البحرية الخفّاقة ثم بدفعة واحدة اصطدمت بظهر (أوشن بيونير) وبمجموعة الأسماك التى كانت تتغذى على الورود الميتة فى كل مكان حولى، مثل سرب من

الذباب يَطِنُّ فوق مخلفات ملقاة بالطريق فى أحد أيام الصيف.. وشغلت الهواء المضغوط من جديد ـ فقد كان لباس الغوص سميكًا نوعًا ما مطاطيًا، وتريثت لأستعيد رباطة جأشى حيث كانت المياه باردة هناك.. وساعدنى ذلك على التخلص من ضيق التنفس قليلاً.

"عندما بدأت أشعر بالارتياح، بدأت أبحث فيما حولى.. كان المشهد رائعًا بشكل غير عادى.. حتى الضوء كان فريدًا.. نوع من الشفق المائل إلى الحُمرة بسبب الضياء المنعكس من الأعشاب البحرية التى تطفو على كلا جانبى السفينة.. وبأعلى يوجد لون أزرق داكن مضاء بنور القمر.. وكان ظهر السفينة الغارقة فيما عدا الميمنة، مستويًا ومظلمًا وتنتشر فوقه الأعشاب البحرية.. وخاليًا باستثناء الصوارى المحطمة عندما انقلبت السفينة ثم اختفت وسط ظلام الليل تجاه أعلى مقدمة السفينة".

"لم يكن هناك أى موتى على ظهر السفينة، وإنما كان معظمهم وسط الأعشاب البحرية على ما أعتقد.. لكن فيما بعد وجدت هيكلين عظميين ممددين فى مقصورة الركاب، حيث وصل ملك الموت إليهما!.. كان غريبًا أن أقف هناك على ظهر السفينة وأتعرف على كل شىء تدريجيًا.. فى مكان أمام السياج حيث كنت أولع دائمًا بتدخين سجائرى تحت ضوء النجوم.. وذلك الركن حيث كان أحد الشباب من (سيدنى) قد اعتاد مغازلة إحدى الأرامل على متن السفينة.. كانا ثنائيًا رائعًا منذ شهر واحد مضى.. والآن لم يتبق من لحم أحدهما ما يكفى لوجبة واحدة لسرطان بحرىّ صغير!..

"لطالما تمتعت بنظرة فلسفية للأمور.. وأستطيع هنا أن أقول إننى قضيت نحو ثلاث أو أربع دقائق تنتابنى تلك الأفكار قبل أن أهبط إلى أسفل للبحث عن مخزون المسحوق الذهبىّ الكريم.. كانت العملية تتم ببطء بحثًا عن الكنز الثمين وسط الظلام الدامس، رغم انبعاث وهج أزرق خافت من على درج السفينة.. ووجدت أشياء تتحرك من حولى.. ولم ألبث أن أحسست بربتة خفيفة على نظارتى، ثم بقرصة فى ساقى.. أعتقد أنها السرطانات.. وركلت الكثير من تلك الكائنات اللعينة التى ضايقتنى.. وانحنيت مرة أخرى، وأمسكت بشىء عبارة عن فقرات ونتوءات. هل تعرف ما كان ذلك إنه جزء من عمود فقرى!.. لكن من حسن الحظ أن أعصابى لا ترتاع لمنظر العظام!..

"كنا قد تكلمنا وتناقشنا كثيرًا فى كل التفاصيل التى ربما تواجهنا.. ودائمًا أستطيع أن أجد مكان تخزين المادة الثمينة المنشودة وسُرعان ما نجحت فى مغامرتى تلك.. ورفعت أحد طرفى الصندوق نحو سنتيمترين أو ثلاثة".

توقف الرجل عن الرواية لبرهة ثم قال "لقد رفعت الصندوق لنحو تلك المسافة!.. وبه حمولة من الذهب تساوى أربعين ألف جنيه!.. يا إلهى!.. لقد صرخت داخل خوذتى مأخوذًا بفرحة النصر حتى صمت أذنىّ.. وفى ذلك الوقت شعرت بالإجهاد وضيق النفس..لابد أننى قضيت تحت الماء نحو خمسة وعشرين دقيقة أو أكثر وشعرت أن ما قمت به جيد للغاية.

"صعدت إلى درج السفينة مرة أخرى.. وعندما أصبحت عيناىّ بمحاذاة منسوب ظهر السفينة.. قفز سرطان ضخم قفزة هائلة من أمامى ثم عرج جانبيًا بسرعة هائلة.. ما أسوأ هذه من بداية مروّعة!.. ثم وقفت على ظهر السفينة، وأغلقت صمام مؤخرة الخوذة، لكى يتجمع الهواء ليحملنى إلى أعلى من جديد.. ولاحظت نوعًا من الاضطراب العنيف بأعلى، كما لو كانوا يضربون الماء بمجداف أو ما شابه ذلك.. لكننى لم أنظر إلى أعلى.. وأظن أنهم كانوا يحاولون بث إشارة لكى أصعد إلى أعلى..

"وعندئذ انقض شىء ما بجوارى.. شىء ما ثقيل يبدو كلوح مهتز من ألواح السفينة.. نظرت مليًا ووجدت هناك سكينًا طويلاً كنت قد رأيت (ساندرس) يستخدمها من قبل.. أعتقد أنه ألقاها.. وكنت مازلت أدعوه بالغبىّ، إذ لعلها آذتنى أو سببت لى ضررًا بالغًا.. عندما بدأت أرتفع وأصعد تجاه ضوء النهار.. وعند ارتفاع يعادل تقريبًا قمم صوارى (أوشن بيونير).. وعندما أخرجت رأسى من الماء اصطدمت بشىء ما يغطس عند مقدمة خوذتى.. ثم بشىء آخر يصارع بعنف!..

كان ذلك عبارة عن ثقل كبير فوقى، أيًا كان، يتحرك ويتقلب ويدور.. واعتقدت أنه إخطبوط ضخم أو أى كائن بحرى من هذا القبيل.. ما لم يكن بالطبع حذاء برقبة طويلة.. غير أن الأخطبوطات لا ترتدى أحذية برقبة!.. كما أن ذلك حدث بسرعة فى لحظة واحدة.. وشعرت بنفسى أغطس مرة أخرى.. وطوّحت ذراعىّ إلى الأمام لكى أحافظ على توازنى.. وسقط كل شىء بعيدًا

عنى إلى أسفل بينما أنا أحدّق إلى أعلى..". ثم توقف برهة وواصل حديثه:

"رأيت وجه (ساندرس) من فوق كتف أسود عار، وحربة نافذة تمامًا من عنقه. ويخرج من فمه وعنقه ما يشبه تدفقات من دخان أحمر وردى فى الماء.. وهبطا إلى أسفل وهما قابضان على بعضهما .. وكلاهما يبدو أنه لا يريد ترك الآخر قط.. وبعد ثانية أخرى اصطدمت خوذتى صدمة هائلة بزورق للزنوج مما أدى إلى تحطمها.. نعم كانوا مجموعة من الزنوج.. زورقان ممتلئان بالزنوج!.

"إننى أقول لكم إن هذه كانت أوقاتًا ممتلئة بالإثارة والتوتر!.. فمن سطح السفينة جاء زميلى (أولوز) وفى جسده ثلاث حراب.. وهناك سيقان ثلاثة أو أربعة شباب سُود حولى فى الماء.. لم أستطع رؤية الكثير، لكننى رأيت بنظرة واحدة أن الأحداث تجرى فوقى بسرعة فائقة.. ولففت صمامى لفة كبيرة وهبطت إلى أسفل - وراء (أولوز) - وسط فقاعات كثيرة فى حالة من الفزع الشديد والدهشة الفائقة أكثر مما يمكنك أن تتصوره - ومررت بـ (ساندرس) الشاب والزنجى وهما يصعدان إلى أعلى مرة أخرى ومازالا يتقاتلان.. وبعد لحظة أخرى كنت أقف فى الظلام الحالك من جديد فوق ظهر السفينة الغارقة (أوشن بيونير)..

"وقلت لنفسى: "إنها ورطة مميتة.. الزنوج؟" .. وفى البداية لم أستطع رؤية شىء لأننى إذا غطست أكثر فسوف أختنق، وإذا صعدت إلى أعلى فسوف ينتهى أمرى بطعنة سكين!.. ولم تكن لدىّ فكرة عن مقدار ما لدى من هواء، ولا عن مدة بقائى فى الماء..

لكننى لم أشعر أنه بمقدورى تحمل المزيد هناك فى الأعماق.. وكنت متوترًا بشكل مخيف بسبب الظرف الرهيب الذى كنت فيه.. ونحن لم نحسب حسابًا لأولئك الزنوج المتوحشين أول، أو بالأحرى "الوحوش السوداء القذرة".. ولم يكن هناك أى خير فى صعودى إلى الماء.. لكن كان علىّ بالطبع أن أفعل شيئًا ما.. ومن وحى اللحظة تسلقت جانب السفينة الشراعية وهبطت بين الأعشاب البحرية، ثم أخذت أركض وسط الظلام بأقصى ما يمكننى من سرعة..

"توقفت مرة واحدة وركعت ولففت رأسى إلى الخلف وألقيت نظرة إلى أعلى.. كان المنظر فوقى أخضر ضاربًا إلى الزرقة بشكل ساطع للغاية.. وبدا لى الزورقان والقارب الطافى على الماء هناك صغيرًا جدًا، واتخذ شكلاً يشبه حرف (H) قليلاً.. وجعلنى ذلك أشعر بالغثيان من فكرة النظر إلى أعلى تجاه ذلك المشهد.. وأخذت أفكر فى معنى تمايل وتأرجح الثلاثة..

كانت تلك أكثر عشر دقائق ـ رعبًا ـ مررت بها فى حياتى كلها.. وأنا أتخبط هنا وهناك وسط الظلام الحالك.. كان ضغط الماء علىّ مروّعًا، مثلما يكون المرء مدفونًا فى الرمال، وصدرى يؤلمنى بشدة ويكاد الذعر يصيبنى بالغثيان.. ولم أشعر أننى أتنفس شيئًا سوى رائحة الروم والمعطف المطاطى المقاوم للمطر.. اللعنة!.. ثم بعد فترة وجدت نفسى أصعد إلى أعلى منحدر ما.. وألقيت نظرة سريعة أخرى لكى أرى ما إذا كان ثمة أى أثر للزورقين والقوارب.. ثم واصلت تحركى..

توقفت ورأسى على مسافة نحو ثلاثين سنتيمترًا من سطح الماء، وحاولت أن أعرف أين أنا.. لكننى لم أستطع رؤية شىء سوى

انعكاس القاع.. ثم اندفعت خارجًا من الماء بقوة، كمن يصدم رأسه بمرآة.. وبسرعة أخرجت عينىّ من الماء ووجدت أننى وصلت إلى ما يشبه شاطئًا بجوار غابة.. ونظرت حولى فى كل مكان، لكن الأهالى والسفينة الشراعية الصغيرة كانوا كلهم مختفين وراء أكوام هائلة من الحمم البركانية.. ودعانى تفكيرى الغبىّ إلى أن أركض باتجاه أشجار الغابة.. لكننى لمْ أخلع الخوذة.. وإنما فتحت قليلاً أحد شقوقها.. وأخذت ألتقط أنفاسى لبعض الوقت.. وأنت لا يمكنك أن تتصور مدى نظافة ورقة الهواء الذى استنشقته فى هذا الوقت.. بعد أن خرجت من الماء..

وبالطبع لو كنت مثلى فى عقبى حذائك ذى الرقبة الطويلة عشرة سنتيمترات من الرصاص، ورأسك موجودة داخل خوذة نحاسية فى حجم كرة القدم.. وقضيت ثلاثين دقيقة تحت الماء.. فإنك لن تستطيع تحطيم أى رقم قياسى فى العدو، لذلك فقد ركضت مثل غلام ريفى يذهب إلى عمله!. وفى منتصف المسافة إلى الأشجار رأيت اثنى عشر زنجيًا أو أكثر قادمين بشكل مذهل لملاقاتى وهم يحدّقون فىّ فاغرين أفواههم..

توقفت فى الحال وأنا ألعن نفسى لقيامى بهذه الأعمال الغبية التى تمت فى لندن.. وكانت فرصتى فى العودة فجأة إلى الماء كفرصة سلحفاة مقلوبة على ظهرها!.. وببساطة أغلقت فتحة خوذتى لكى أحرر يدىّ ولم يكن بوسعى عمل شىء سوى انتظارهم لكنهم لم يقتربوا كثيرًا.. وبدأت أشك لماذا؟.. وأقول "نظارة جيمى.. إنها ميزتك.. افعل ذلك".. وكنت ميالاً إلى التصرف بطيش، مع كل

تلك الأخطار المحدقة بى والتغيير فى ضغط الهواء اللعين.. وقلت كما لو أن المتوحشين يسمعوننى "من الذى تحدقون فيه؟.. من تظنوننى؟ لتلحقنى اللعنة لو لم أترك لكم شيئًا لتحدقون فيه.. ثم أغلقت صمام الإفلات وفتحت صمام دخول الهواء المضغوط من الحزام، حتى انتفخ جسمى مثل ضفدع نافخ أوداجه!

"لا بد أن ذلك كان مؤثرًا جدًا.. لم يتحركوا خطوة واحدة تجاهى. بل ركعوا جميعًا واحدًا وراء الآخر على أيديهم وركبهم! لم يستطيعوا معرفة سبب وجودى.. وكانوا يتصرفون بأدب جم، ودل ذلك على حكمتهم وحسن تصرفهم.. وفكرت فى أن أتقهقر باتجاه البحر ثم ألوذ بالفرار، لأن الموقف بدا لى ميئوسًا منه.. ولو تحركت خطوة واحدة إلى الوراء لطاردونى جميعًا".

"وتحت وطأة اليأس التام بدأت أتحرك باتجاههم بمحاذاة الشاطئ. بخطوات بطيئة وثقيلة.. محركًا ذراعىّ المجهدتين بطريقة مهيبة.. وفى داخلى كنت أغنى مثل طائر القرقف"(٣).

"ولكن لا يوجد شىء يمكن أن يساعد المرء على تخطى مشاكله مثل المظهر الأخاذ المثير.. وقد اكتشفت ذلك من قبل مرارًا.. فأمثالنا من الناس الذين يرتدون ملابس الغوص منذ سن السابعة، يكادون لا يتصورون تأثير أحدهم على القوم البدائيين ساذجى التفكير.. ولم يلبث واحد أو اثنان من أولئك الزنوج أن فرا، بينما

---

(٣) طائر صغير رأسه كبير أسود، وبطنه أبيض طوله نحو ١٣ سنتيمترًا، يتميز بصوته الجميل (المترجم).

طفق الآخرون بسرعة يصدمون رؤوسهم بالأرض.. وواصلت السير ـ فى بطء ووقار وغباء ومكر ـ مثل سمكرىّ جوّال"!.

"ثم وثب أحدهم عاليًا وبدأ يشير إلىّ، ويأتى بحركات وإيماءات بيديه وجسمه.. وسرعان ما شاركه الآخرون فى اهتمامه بى، وبين شىء ما هناك فى البحر.. وتساءلت "ما الذى يحدث الآن؟".. واستندت ببطء فى كبرياء وعزة نفس.. وهناك رأيت (فخر بانيا) القديمة المتهالكة تستدير عند نقطة ما، ويجرها زورقان صغيران.. وكاد ذلك يصيبنى بالغثيان.. لكنهم بالتأكيد كانوا يتوقعون إقرارًا ما منى، ولذلك لوحت بذراعى بشكل لافت للنظر ولكن لا يعبر عن معنى محدد لما يجول فى أنفسهم".

"ثم استدرت وبدأت أمشى متشامخًا باتجاه الأشجار مرة أخرى.. وفى ذلك الوقت كنت أبتهل إلى الله من كل قلبى.. وأخذت أكرر ما أقوله مرة تلو أخرى (يا إلهى.. ساعدنى فى موقفى هذا.. ووفقنى لاختيار الأفضل).

"إن أولئك الزنوج لم يكونوا ليسمحوا لى بالحركة كما أشاء مبتعدًا عنهم.. وشرعوا فى أداء رقصة ما ينحنون فيها من حولى.. وأجبرونى بطريقة ما على السير فى ممر ممتد بين الأشجار.. وكان واضحًا لى أنهم لا يدركون أننى مواطن إنجليزى.. مهما كانت وجهة نظرهم عنى.. ومن ناحيتى، فلم أكن أقل تلهفًا أو قلقًا تجاه الاعتراف منهم بوجود (أوروبا)!.".

"ربما تجد صعوبة فى تصديق ذلك، ما لم يكن البدائيون والهمجيون مألوفين لك.. لكن ما حدث فعلاً أن تلك المخلوقات

الجاهلة تحركها دوافع تعسة متهالكة أخذونى مباشرة إلى مكان لعله مقدس لديهم ليقدمونى إلى وثن أسود يعبدونه ويقدسونه.. وفى ذلك الوقت بدأت أدرك نوعًا ـ ما ـ مدى جهلهم الشديد. وفى الحال ركزت عينىّ على هذا الصنم.. وبدأت ألعب دورى المرسوم".

"بدأت أنبح بصوت عالٍ (هاو ـ هاو ـ هاو) لمدة طويلة بنفس النغمة، وأحرك ذراعى حولى كثيرًا.. ثم ببطء شديد وبشكل رسمى قلبت صنمهم على جانبه وجلست عليه.. وأردت أن أجلس عليه بشكل سيئ، إن أن ملابس الغطس ليست لباسًا معتادًا فى المناطق الاستوائية.. أو بتعبير آخر كانت تثير الكثير من السخرية".

"أمكننى أن أرى أنهم يحبسون أنفاسهم من فرط الإثارة والغيظ.. وخصوصًا عند جلوسى فوق وثنهم الذى يقدسونه.. ولكن فى أقل من دقيقة واحدة عقدوا العزم على أمر ما، ألا وهو عبادتى كأحد آلهة الأساطير.. واعترف أننى شعرت بقليل من الارتياح عندما بدأت الأمور حولى تصبح على ما يرام.. بالرغم من الحمل الجاثم على كتفى وقدمى".

"لكن ما كان يقلقنى هو ما الذى سيعتقده الرجال الذين يركبون الزورقين عندما يعودون إلى هنا.. وإذا كانوا رأونى فى القارب قبل أن أهبط فى الماء، وبدون خوذة على رأسى ـ فلعلهم يختبئون فى مكان ما ويتجسسون علىّ طوال الليل ـ فالأرجح أنه سوف يتكون لديهم انطباع مختلف عن الآخرين.. ويبدو لى أننى بقيت فى حالة من القلق الشديد لعدة ساعات، حتى بدأ الهياج المصاحب لوصولهم".

"لقد تقبلوا الموقف كما هو.. وكذلك كل سكان القرية وفى مقابل الجلوس متصلبًا متجهمًا مثل تلك التماثيل المصرية القديمة الجالسة التى يراها المرء فى المعابد الفرعونية - لمدة اثنتى عشرة ساعة تقريبًا.. فسوف يمكننى - كما أتوقع - أن أنتهى من تلك الورطة.. ولا أظن أن أحدًا منهم كان يتخيل وجود رجل داخل الصنم.. لم أكن بالنسبة إليهم سوى وثن مطاطى ضخم ومدهش خرج فجأة من الماء!".

"لكننى تحملت كل هذا التعب!.. وكل هذه الحرارة!.. وكل هذا القرب الشديد من تلك المخلوقات الوحشية!.. وكل هذا الصخب والشراب والجلبة والضوضاء!.. ثم أشعلوا نارًا كريهة الرائحة مأخوذة من نوع من المقذوفات البركانية الجاثمة أمامى.. ثم أحضروا الكثير من القاذورات الملطخة بالدماء - وهى أسوأ أجزاء من أجساد الوحوش التى كانوا يلتهمونها بالخارج - وأحرقوها كلها على شرفى وتكريمًا لى".

"بدأت أشعر بالجوع.. لكننى أعرف أن آلهة الأساطير تتمكن من البقاء بدون طعام.. حتى لو فاحت من حولها روائح القرابين المحترقة.. ثم أحضروا الكثير من الأشياء التى حصلوا عليها من القارب الشراعى.. وارتحت كثيرًا عندما رأيت بين هذه الأشياء مضخة هوائية تستخدم فى أجهزة ضغط الهواء.. وحضرت مجموعة من الفتيان والفتيات وأدوا رقصة خليعة من حولى.. والحقيقة أن هناك طرقًا عجيبة يعبر بها مختلف الناس عن الاحترام الشديد!.. ولو كان هناك فأس أو بلطة بجوارى لأمسكت

بها وهجمت عليهم.. نعم لقد نجحوا فى إثارة وتزكية هذا الشعور الجنونى فى داخلى".

"طوال ذلك الوقت جثمت متخشبًا لا أدرى ما الذى يمكننى أن أفعله؟.. وأخيرًا عندما أقبل الليل، أصبح هذا الكوخ أو مقر عبادة الصنم موحشًا بالنسبة إليهم. إذ إن تلك الوحوش البدائية تخاف للغاية من الظلام، وبدأت أصدر نوعًا من العواء (موووو) وعندها أضرموا نارًا ضخمة فى العراء بالخارج وتركونى وحيدًا فى سلام وسط الظلام الحالك بالكوخ، وحرًا فى تحريك أعضائى التى كادت تتيبس.. وفى التفكير فى موقفى الفريد هذا.. وعندها شعرت بالأسى الشديد لسوء حالى وابتهلت قائلاً (يا إلهى! كم أنا متعب وحزين)"..

"كنت ضعيفًا وجائعًا.. وأخذ عقلى يعمل بسرعة مثل خنفساء تسير فوق دبوس.. تبذل جهدًا مضنيًا ولكنها لا تحقق أى تقدم بل تبقى فى مكانها! وكانت صورة الرعب والحزن على وجوه الشبان الآخرين الثملين إلى درجة الهياج ولكنهم بالطبع لا يستحقون هذا المصير.. وصورة ذلك الشاب الذى اخترقت الحربة عنقه. لا يفارق مخيلتى.. وهناك الكنز فى الأعماق داخل (أوشن بيونير).. والمرء يتساءل كيف يمكنه الحصول على هذا الكنز ثم إخفاؤه فى مكان ما آمن، وعندما تصبح الظروف مناسبة يمكنه العودة إليه".

"وهناك أيضًا مشكلة الحصول على أى طعام.. والحقيقة أننى كنت مشتت الفكر.. وكنت أخشى من السؤال عن الطعام بالإشارات خوفًا من أن يبدو تصرفى هذا كتصرف البشر!.. وعلى ذلك فقد

جثمت فى مكانى أتضور جوعًا حتى قرب انبلاج الفجر.. وعندئذ ساد فى القرية سكون نسبى.. ووجدت أنه لا يمكننى الاحتمال أكثر من ذلك.. فخرجت وأحضرت بعض الخرشوف فى إناء وبعض اللبن الحامض.. وألقيت ما تبقى من ذلك بين القرابين الأخرى".

"وفى الصباح أقبلوا للعبادة.. ووجدونى جالسًا منتصبًا ومتصلبًا ومهيبًا أكثر من "إلههم" الأسود السابق. على نفس الحالة التى تركونى بها فى الليلة السابقة.. وكنت ساندًا ظهرى على العمود الأوسط للكوخ.. ومن الوجهة العملية كنت نائمًا.. وبهذه الطريقة أصبحت إلهًا أسطوريًا بين أولئك الوثنيين.. إله زائف ـ بلا شك ـ لكن المرء لا تتوفر له أحيانًا الفرصة لكى يختار، بل يجد نفسه مُسيّرًا لا حول له ولا قوة".

"الآن لا أريد أن أطّرى نفسى كإله أساطير أستحقه.. لكن علىّ أن أعترف أنه بينما كنت إلهًا أسطوريًا لهؤلاء الناس، كانوا ناجحين تمامًا وفى أحسن حال.. ولكننى لا أقول إنه ليس هناك أمر جلل فى ذلك يستحق الذكر، فقد انتصروا فى معركة لهم مع قبيلة أخرى، وحصلت على قرابين كثيرة لم أكن أريدها.. وتمكنوا من صيد الكثير من الأسماك.. كما أن محصولهم من الحبوب كان وافرًا جدًا.. كذلك اعتبروا أن حصولهم على القارب الشراعى من ضمن المزايا التى استفادوها بفضل "بركاتى"!.

"يجب أن أقول إن إنجازات ذلك الإله الجديد لم تكن سيئة جدًا.. ورغم أنك لن تقدّر ذلك حق قدره، فإننى ظللت إلهًا لتلك القبيلة من المتوحشين طوال أربعة أشهر تقريبًا.. وماذا كان بمقدورى أن أفعل

غير ذلك؟.. غير أنى لم أرتد ملابس الغوص طوال الوقت.. إنما تركتهم يعتبروننى قدس الأقداس.. ومرّ علىّ وقت عصيب لكى أتمكن من جعلهم يفهمون ما الذى أريد منهم أن يفعلوه.. وكانت هذه بالفعل أكبر صعوبة، أى جعلهم يفهمون ما الذى أقصده؟!

"لم أستطع أن أخذل نفسى بأن أتحدث بلغتهم والاندماج معهم على نحو سيئ.. حتى لو كنت قادرًا أصلاً على الكلام.. وكذلك لم أتمكن من أن أجاريهم بتقليد حركاتهم وإشاراتهم.. وإنما قمت برسم صور على الرمال، وجلست بجوارها معبرًا عن وضع الساعة الواحدة.. وأحيانًا كانوا يفعلون الأشياء التى أريدها بالضبط، وأحيانًا كانوا يفعلونها بشكل خاطئ تمامًا.. لكنهم كانوا دائمًا يهتمون بما أريد.. ولكننى كنت دائم التفكير فى الورطة التى وجدت نفسى فيها وكيف يمكننى أن أخرج منها سليمًا صحيحًا".

"كل ليلة قبل الفجر كنت أسير حاملاً كل ملابسى ومتاعى، وأذهب إلى مكان يمكننى أن أرى منه القناة التى ترقد فى أعماقها السفينة (أوشن بيونير).. ومرة واحدة فى إحدى الليالى القمرية حاولت أن أسير إلى تلك القناة، ولكن حالت الأعشاب والصخور والظلام الحالك دون تحقيق رغبتى هذه.. ولم أتمكن من العودة قبل انفلاق النهار.. ولدهشتى وجدت كل أولئك الزنوج البائسين محتشدين على الشاطئ يبتهلون ويدعون لكى يعود إليهم مرة أخرى إلههم الأسطورى البحرى!".

"كنت وقتئذ متضايقًا ومرتبكًا ومجهدًا.. وكنت أترنح يمنة ويسرة وأسقط ثم أنهض.. وعندما رأونى أخذوا يبتهجون ويتهللون.. وكان

بمقدورى إزاحة رؤوسهم الغبية فى أى اتجاه.. ولتحل علىَّ اللعنة لو كنت أحب تلك الطقوس.. ثم أقبل المُبَشِّر.. ويا له من مُبَشِّر، كان الوقت عصرًا، وكنت جالسًا فى نعش مكشوف بمعبدى الخارجى، جالسًا فوق الوثن الأسود الضخم الذى عبدوه قبل مجيئى".

"سمعت شجارًا بالخارج ولغطًا.. ثم صوته وهو يتحدث إلى مترجم "إنهم يعبدون الحيوانات والحجارة".. وعلى الفور أدركت ما يحدث.. وكنت فتحت إحدى نوافذى لزيادة راحتى.. ومن وحى اللحظة أخذت أغنى بصوت عال (الحيوانات والحجارة).. ثم أضفت (هيا ادخلوا هنا، وسوف أحطم رؤوسكم اللعينة).. وساد سكون من نوع ما بينما زاد اللغط والهمهمة فى الخارج..".

"وأخيرًا دلف المبشر إلى الداخل.. ممسكًا بالإنجيل فى يده.. بنفس طريقتهم.. شاب قصير شاحب الوجه يرتدى ملابس رثة وخوذة من لب الخشب.. وشعرت بالفخر من جلوسى هكذا فى الظلال برأسى النحاسية وعويناتى الضخمة مما أصابه بدهشة شديدة فى البداية.. وقلت له "حسنًا". هل أخبرتنى يا هذا عن الأحوال التجارية فى (كاليكو)؟.. حيث إننى لا أثق قط فى أولئك المبشرين"!.

"أخذت أمزح مع هذا المبشر.. إذ كان رجلاً بسيطًا قليل الخبرة، أدنى بكثير من أن يقارن نفسه برجل مثلى.. وكان يتحرق تلهفًا على معرفة من أكون، فقلت له أن يقرأ الكلمات المحفورة تحت قدمى إذا أراد أن يعرف من أنا.. وانحنى الرجل لكى يقرأ، أما مترجمه الذى كان بالطبع مؤمنًا بالخرافات مثلهم فقد ظن أن المبشر ينحنى

لعبادتى فسقط إلى أسفل مثل الرصاصة.. وزمجر كل قومى فى نفس واحد وأشاروا بعلامة النصر.. وبعد تلك الواقعة لم تجر أى أحداث فى قريتى هذه على الأقل ليس بواسطة من هم على شاكلة المبشر".

"لكن فى الحقيقة كنت أحمق عندما تخلصت منه وكبحت نشاطه هكذا.. لو كان لدىّ عقل لأخبرته مباشرة بأمر الكنز وأخذته معى لإحضاره.. ليس لدى شك فى أنه كان سيقبل.. أى طفل لو فكر قليلاً، لتوصل إلى العلاقة بين ملابس الغوص التى معى وفقد السفينة (أوشن بيونير). وبعد أسبوع من مغادرته صرخت ذات صباح ورأيت (موذرهوود) سفينة الإنقاذ القادمة من (ستارريس) وهى تنساب فى القناة حيث يُسمع هديرها.. إن كل اللعبة اللعينة انتهت الآن وكذلك كل متاعبى ومشاكلى.. عجبًا!.. كم كنت أشعر بالحماسة والنشاط!.. بعد أن جثمت هنا مرتديًا تلك الملابس الغبية النتنة.. وأرثى لأولئك الوحوش من البشر طوال أربعة شهور..".

هنا انتهت قصة الرجل الذى لوّحت الشمس بشرته.. وقال "فكر فى ذلك" وقد عادت إليه قدرته اللغوية على الكلام من جديد وأردف "إنها تساوى أربعين ألف جنيه ذهبًا".. فقلت له "لكن هل عاد ذلك المبشر مرة أخرى؟".

"آه نعم!.. ليباركك الرب!. وبنى سمعته على أن هناك رجلاً داخل الإله الأسطورى.. وبدأ يعرف الكثير من خلال ممارسة طقوس عديدة.. ولطالما كرهت المشاهد والتفسيرات.. وقبل أن

يحضر بوقت طويل كنت قد ابتعدت تمامًا عن ذلك المكان اللعين.. ذهبت إلى أهلى فى (بانيا) عن طريق الشاطئ.. وكنت أختبئ فى الأحراش نهارًا وأسرق الطعام من القرى ليلاً.. وليس معى سلاح سوى حربة.. وبدون ملابس أو نقود.. بدون أى شىء.. كانت ثروتى هى حياتى كما يقول المثل القديم.. وصرة بها ثمانية آلاف جنيه من الذهب ـ خُمس الثروة.. إلا أن الأهالى، من حسن الحظ، مزقوا هذا المبشر قذر الثياب إربًا لأنهم اعتقدوا أنه أبعد الحظ السعيد عنهم!".

المعجِّل الجديد

بالطبع لو تخيلنا أن هناك رجلاً وجد جنيهًا إنجليزيًا عندما كان يبحث عن دبوس، إذن فهذا الرجل هو صديقى الأستاذ الجامعى (جيبرن).. ومن قبل سمعت عن باحثين تجاوزوا الحد، لكن ليس إلى هذا المدى كما فعل هو. لقد عثر الرجل، على أى حال وبدون أى مبالغة فى التعبير، على شىء يحدث ثورة فى حياة الإنسان!.. وحدث ذلك عندما كان ببساطة يبحث عن منبّه عصبى متعدد التأثيرات لإكساب الضعاف والمنهارين القدرة على مواجهة ضغوط الحياة الصعبة فى أيامنا هذه. وقد تعاطيت هذه المادة بنفسى عدة مرات، وأفضل ما يمكننى تقديمه هو وصف تأثير هذا العقار علىّ.. وسوف يتضح بشكل كاف لكل من يبحث عن الأحداث والممارسات المذهلة والأخبار المثيرة أن هناك الكثير منها فى قصتنا هذه.

والدكتور (جيبرن) كما يعلم الكثيرون هو جارى فى "فوكستون".. وما لم تخنى ذاكرتى فقد ظهرت صورته فى مختلف الأعمار فى مجلة "ذا ستراند" تقريبًا فى أواخر عام ١٨٩٩، لكننى غير قادر

على النظر إليها الآن لأننى أقرضت هذا العدد إلى بعضهم بيد أنه لم يعده لى قط حتى الآن!

ولعل القارئ يتذكر جبهته العالية بحاجبيه الطويلين الأسودين التى تعطى لوجهه مسحة شيطانية لعينة. وهو يقطن فى أحد تلك المنازل الجميلة المنفصلة ذات النمط المختلط التى تشكل الجانب الغربى من طريق "ساندجيت العلوى" والتى تضفى عليه الإثارة.. ومنزله هو الوحيد ذو الجملونات[1] الفلمنكية والرواق المغربى.. وهو يعمل فى الغرفة ذات النافذة البارزة المنقسمة إلى نصفين عندما يكون موجودًا هنا والتى فيها طالما تحدثنا ودخنا سجائرنا. وهو رجل يحب المزاح، وعلاوة على ذلك يحب أن يحدثنى عن عمله.. فهو أحد أولئك الناس الذين يحمسهم الحديث.. ومن هنا أصبح قادرًا على فهم ومتابعة فكرة "المعجِّل الجديد" منذ بدايتها الأولى. وبالطبع فإن الجزء الأكبر من هذا العمل التجريبى لم يتم فى (فوكستون) ولكن فى شارع "جوير" فى المختبر الجديد الرائع للمستشفى والذى كان أول من استخدمه.

وكما يعرف الجميع، أو على الأقل كما يعرف الأذكياء والمتندرون، فإن التخصص الذى اكتسب فيه (جيبرن) شهرة مستحقة وسمعة مدوية بين كل علماء وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) هو تأثير العقاقير على الجهاز العصبى. وقد قيل لى إنه لا نظير له بين كل الباحثين فى المنومات والمهدئات والمخدرات. كما أنه كيميائى لا يشق له غبار.. وأعتقد أنه وسط غابة معقدة وغامضة من الأحاجى

---

(١) قمم مثلثة الشكل للزينة فوق باب أو نافذة (المترجم).

والألغاز المتمركزة حول الخلية العقدية[٢] وليفة المحور[٣] هناك القليل من الأماكن التى سبر غورها وأماط اللثام عن أسرارها والتى حتى ينشر نتائجها لم يتمكن مخلوق آخر من التوصل إليها، وفى السنوات القليلة الماضية كان مواظبًا للغاية فى بحث موضوع المنبِّهات العصبية وكان ناجحًا جدًا معها قبل اكتشافه للمعجل الجديد. ويحق لعلم الطب أن يثنى عليه لقاء ثلاثة اكتشافات محددة ومأمونة للغاية وذات قيمة لا تقدر بثمن للأطباء والممارسين للمهنة. فعلى سبيل المثال فى مجال الإعياء التام فإن المستحضر المعروف باسم (شراب ب لجيبيرن)، على ما أعتقد أنقذ حياة أعداد من البشر تفوق تلك التى أنقذتها قوارب النجاة بكل شواطئ الدنيا!

لكنه قال لى منذ حوالى عام: "كل هذه الأشياء لم تعد ترضينى الآن.. فهى إما أن تزيد الطاقة المركزية بدون التأثير على الأعصاب.. وإما أنها ببساطة تزيد من الطاقة المتاحة من خلال تقليل الاتصالات العصبية.. وكل تلك الأشياء مختلفة وتأثيرها موضعى فقط.. فأحدها يوقظ القلب والأحشاء ويترك الدماغ مذهولاً.. وأحدها يهدئ الدماغ ولا يقدم أى فائدة للضفيرة الشمسية.. والذى أريده فعلاً - ويا ليته يتيسر للإنسان ليحققه فعلاً على الأرض - هو منبه ينبه كل جزء فى الجسم.. بمعنى أنه ينشط كل جزء فى جسمك لفترة من الوقت من قمة رأسك إلى اخمص قدميك.. وعندئذ يتوفر لك من النشاط ما يعادل ضعف

(٢) خلية عصبية موجودة خارج الدماغ أو الحبل الشوكى (المترجم).

(٣) أحد الألياف الموجودة فى الجسم.

أو ثلاثة أضعاف نشاط أى إنسان آخر.. إيه؟.. هذا ما أسعى وراءه".

قلت له "لكن ذلك سوف يجهد المرء.. أليس كذلك؟".

" لا شك فى ذلك.. وسوف تأكل الضعف أو ثلاثة أضعاف ـ وكل ذلك.. لكن فقط فكر فيما يعنيه ذلك الشىء.. تخيل نفسك معك قارورة مثل هذه" ـ وأمسك زجاجة خضراء ووضع عليها علامات ـ وفى هذه القارورة الثمينة توجد الطاقة التى تمكنك من التفكير بضعف سرعتك العادية والتحرك بضعف سرعتك العادية وأداء ضعف العمل الذى يمكنك عمله فى الظروف العادية خلال فترة زمنية معينة".

"لكننى لا أدرى هل مثل هذا الشىء ممكن من الناحية العملية؟".

"أعتقد ذلك.. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإننى أضعت وقتى لسنوات.. فمثلاً تلك المستحضرات المختلفة من "الهيبوفوسفيتات"(٤) الضعيفة تبدى شيئًا من هذا القبيل.. حتى لو كانت فقط مرة ونصف سرعتها العادية".

"ولكن ما فائدة ذلك يا دكتور؟".

"لو كنت سياسيًا ووجدت نفسك فى موقف عصيب.. مثلاً الوقت يمر ضدك.. لابد إذن أن تفعل شيئًا وبسرعة.. أليس ذلك معقولاً؟".

---

(٤) شبكة كبيرة من الأعصاب تقع فى تجويف خلف المعدة (المترجم).

قلت له "يمكنه أن يعطى جرعة لسكرتيره الخاص".

"إذن مرة أخرى يضاعف الوقت.. وفكر مثلاً فى أنك مؤلف وتريد إنهاء كتابك".

قلت "عادة أتمنى ألا أبدًا فى ذلك".

"أو طبيب يساق إلى الموت ويريد أن يجلس ويفكر فى إحدى الحالات.. أو محام.. أو رجل يحشد دماغه بالمعلومات استعدادًا للامتحان"، فقلت "إن النقطة الواحدة تساوى جنيهًا أو ربما أكثر.. لرجال مثل أولئك".

قال (جيبرن) "وفى المبارزة بالمسدسات.. حيث يتوقف كل شىء على سرعة جذب الزناد" فقلت "أو فى المبارزة بالسيف".

قال (جيبرن) "كما ترى لو جعلته شيئًا ذا تأثير شامل، فلن يضرك قط.. رغم أنه سيقربك من الهرم بدرجة طفيفة جدًا.. سوف تعيش بالضبط ضعف الزمن الذى يعيشه الآخرون".. وفكرت بإمعان وقلت "أعتقد أنه فى المبارزة سيكون كل شىء عادلاً؟".. فقال (جيبرن) "هذه مسألة ثوان لا أكثر".

عدت إلى النقطة السابقة وكررت قولى "هل تعتقد حقًا أن ذلك شىء ممكن؟" فقال (جيبرن) "نعم ممكن".. ثم حدق فى شئ ما يخفق بجدار النافذة وقال "مثل أى باص لنقل الركاب.. الحقيقة أن..." وتوقف وابتسم لى بعمق ونقر ببطء على حافة مكتبه بالقارورة الخضراء وأردف "إننى أعتقد أننى أعرف المادة المطلوبة.. بالفعل سوف أحصل عليها" ونمت ابتسامته العصبية وقتئذ عن

خطورة الفكرة المسيطرة عليه. نادرًا ما كان يتحدث عن أعماله التجريبية ما لم تكن الأشياء قاربت تمامًا على نهايتها.." وربما.. نعم ربما.. ويجب ألا نندهش لذلك، يتم الشىء بسرعة أكبر من الضعف".. وجازفت بالقول "سوف يكون ذلك شيئًا غير عادى".

"نعم أعتقد أنه سيكون شيئًا غير عادى بالمرة".. لكننى أظن أنه لم يعرف بالضبط حجم هذا الشىء غير العادى.

أتذكر أننا تحدثنا مرات كثيرة عن تلك المادة.. أسماها "المعجِّل الجديد".. وازدادت لهجته عنها ثقة فى كل مناسبة بعد ذلك. وأحيانًا كان يتحدث بعصبية عن نتائج فسيولوجية غير متوقعة لاستخدامه.. ثم يشعر ببعض الضيق والقلق.. وفى أحيان أخرى يكون بصراحة طماعًا، ونتناقش طويلاً وباهتمام عن كيفية تجهيزه للاستخدام التجارى.. وقال (جيبرن): "إنه شىء جيد جدًا.. شىء رائع.. كنت أعرف أننى سأقدم للعالم شيئًا مفيدًا.. والمعقول أن نتوقع أن يدفع العالم ثمنًا معقولاً له.. إن كرامة العلم شىء لا يُعلى عليه.. لكننى أعتقد على نحو ما أننى يجب أن أحتكر ذلك الجهاز.. مثلاً لمدة عشر سنوات.. أنا لا أرى سببًا مقنعًا لذهاب كل متع الحياة إلى تجار لحوم الخنازير".

لم يضعف بمرور الوقت اهتمامى الخاص بالعقار القادم.. ولطالما كان هناك اهتمام شديد بعقلى تجاه الخوارق وما وراء الطبيعة.. ودائمًا كنت أهتم بالألغاز والمتناقضات بشأن الزمان والمكان.. وبدا لى أن (جيبرن) يجهز بالفعل لشىء لا يقل عن التعجيل المطلق للحياة! والآن لنفرض أن إنسانًا نام بعد أن تعاطى

هذا العقار، فإنه سوف يعيش حياته ويسجلها بالفعل.. لكنه سيكون بالغًا فى سن الحادية عشرة.. وسيبلغ مرحلة منتصف العمر فى الخامسة والعشرين.. وقبيل بلوغ سن الثلاثين سوف يكون قد قطع شوطًا كبيرًا على طريق الشيخوخة والهرم.

بدا لى أنه حتى الآن فإن (جيبرن) يفعل فقط لكل إنسان يتعاطى عقاره ما فعلته بالضبط الطبيعة لليهود والشرقيين الذين يصبحون رجالاً وقت مراهقتهم ويهرمون فى سن الخمسين.. وتجدهم دائمًا أسرع تفكيرًا منا فى جميع الأوقات. ومنذ صغرى وأنا مفتون بأعاجيب الأدوية والعقاقير وذهنى منبهر بها.. فأنت يمكنك أن تحيل عاقلاً إلى مجنون، وأن تهدئ من ثورة أو قلق أى إنسان.. وأن تجعله قويًا وواعيًا تمامًا أو أن تجعله خائرًا أو عاجزًا.. أن تقوى وتسرع من عواطفه وشهواته أو أن تهدئها وتضعفها.. كل ذلك بواسطة العقاقير.. وها هنا معجزة جديدة سوف تضاف إلى كل تلك الذخيرة الغريبة من الزجاجات والعبوات والكبسولات التى يستخدمها الأطباء!.. بيد أن (جيبرن) كان متحمسًا جدًا فى أفكاره وتصوراته الفنية بحيث يدخل بتلهف فى دائرة هذا الموضوع الهام الذى نحن بصدده.

وفى يوم ٧ أو ٨ أغسطس أخبرنى أن عملية التقطير التى ستحدد نجاح أو فشل اختراعه كانت تجرى بالفعل ونحن نتحدث.. وفى يوم ١٠ أغسطس أخبرنى أن ما كان يفكر فيه تحقق بالفعل وأصبح حقيقة واقعة وأن (المعجّل الجديد) لم يعد خيالاً.. قابلته وأنا فى طريقى صاعدًا على تل (ساندجيت) متوجهًا إلى

(فوكستون).. وأظن أننى كنت ذاهبًا لقص شعرى.. بينما هرع تجاهى ليقابلنى.. أعتقد أنه كان قادمًا إلى منزلى لكى يقول لى باختصار إنه نجح.. وأتذكر أن عيناه لمعتا ببريق غير عادى، كما اصطبغ وجهه بحمرة شديدة، بل إننى لاحظت سرعة ورشاقة خطواته.

صاح وهو يقبض بقوة على يدى ويتحدث بسرعة "لقد انتهى كل شىء.. بل أكثر من ذلك.. تعال إلى منزلى وسوف ترى كل شىء بنفسك".. فقلت "أحقًا ما تقول؟". فصرخ "حقًا!.. إنه شىء لا يصدق!.. تعال وانظر بنفسك".

"وهل تأثيره مضاعف؟!".. فقال "إنه يفعل أكثر من ذلك.. أكثر بكثير.. إنه يخيفنى.. تعال وانظر إلى تلك المادة وتذوقها!.. إنها أعجب مادة على ظهر الأرض".

قبض بقوة على يدى وأخذ يصرخ ونحن نصعد التل معًا.. والتفت ناحيتنا مجموعة كبيرة من الناس وأخذوا يحدقون فينا بنفس الفضول الذى أبداه ركاب الحافلة التى مرت بجوارنا.. كان اليوم أحد تلك الأيام الصافية التى تكثر عادة فى (فوكستون).. كل الألوان زاهية وجميلة.. وكل الأشكال المحيطة جافة وجامدة.. وبالطبع هبت نسمة رقيقة.. لكن ليس كثيرًا بحيث يحتفظ المرء بجفافه وهدوئه فى مثل تلك الظروف.. ثم أخذت ألهث طالبًا الرحمة.. إلا أن (جيبرن) قال "إننى لا أسير بسرعة.. أليس كذلك؟".. غير أنه أبطأ من الهرولة قليلاً إلى المشى السريع فقط!

قلت وأنا أنفخ بسبب تقطع أنفاسى "هل تعاطيت بعضًا من هذا العقار العجيب؟".. فقال "لا.. لكن على الأكثر نقطة ماء بقيت فى الكأس الذى غسلت منه كل آثار المادة.. وأخذت القليل منه ليلة البارحة.. كما تعلم.. لكن هذا تاريخ قديم جدًا الآن!".. قلت "وهى تعطى الضعف؟".. وكنا نقترب من مدخل منزله.. وشعرت بارتياح هائل وانا أتصبب عرقًا.

"إنها تعطى آلاف المرات.. عدة آلاف من المرات!".. وكان (جيبرن) يكاد يصرخ وهو يتحدث بأسلوب مثير فعلاً.. ثم فتح بوابة منزله المصنعة من خشب البلوط المنقوش.. ثم تبعته بهدوء إلى الباب.. ولم يلبث أن قال "إنه يلقى كل أنواع الضوء على فسيولوجيا الأعصاب.. إنه يشكل نظرية الرؤية فى شكل جديد تمامًا!.. السماء فقط تعرف كم آلاف المرات.. سوف نجرب كل ذلك بعد... المهم أن نجرب ذلك الشى الآن".. فقلت بينما نسير فى الممر: "نجرب ذلك الشىء؟ ما الذى تعنيه بحق السماء؟".. فقال (جيبرن) وهو يستدير تجاهى فى حجرة مكتبه: "نعم.. ذلك الشىء الموجود فى تلك الزجاجة الخضراء الصغيرة!.. هذا بالطبع ما لم تكن خائفًا وأسنانك تصطك ببعضها!".

أنا بطبيعتى رجل حذر.. ولا أعتبر مغامرًا إلا من الناحية النظرية فقط!.. نعم كنت خائفًا.. لكن من جهة أخرى فهناك كرامة وكبرياء المرء.. فقلت محاولاً إضاعة الوقت "حسنًا.. أنت جربتها كما تقول.. أليس كذلك؟". فقال "نعم جربتها.. ولا أظن أنه يبدو على أى أذى.. أليس كذلك؟.. بل إننى حتى لا أبدو كمن يشعر بضيق أو توعك.. وأنا أشعر....".

جلست وقلت له "أعطنى جرعة الدواء.. ولو حدث أسوأ شىء لى، فإننى سأوفر ثمن حلق شعر رأسى. وأعتقد أن هذا أسوأ واجبات الرجل المتحضر.. لكن كيف تتعاطى هذا الشىء يا رجل؟".. قال (جيبرن) وهو يرج قنينة زجاجية "بالماء". ثم وقف أمام مكتبه ونظر إلىّ من مقعده المريح.. وبدا أن أسلوبه تأثر قليلاً بلمسة من لمسات خبراء شارع (هارلى)[٥].. وقال "إنها كالخمر كما تعرف"، وأشرت إشارة ما بيدى وقال لى: "على أن أحذرك أولاً قبل كل شىء أنه بمجرد البدء فى شربها، أغلق عينيك ثم افتحهما بحذر بعد دقيقة أو نحو ذلك.. المرء لا يزال يرى.. إحساس الرؤية هو مجرد طول ذبذبة. وليس كثرة التعرض للضوء.. لكن هناك نوع من الصدمة لشبكية العين.. اضطراب أشبه بدوار كريه يحدث فى الوقت الذى تكون فيه عيناك مفتوحتين.. عليك بقفلهما كما قلت لك"..

قلت "قفلهما.. حسنًا، لا بأس!".. ثم واصل حديثه "الشىء التالى أن تحتفظ بهدوءك ورباطة جأشك.. لا تبدأ فى الاصطدام بما حولك.. فلعلك تمسك بشىء ما أو تدفعه بقوة فتحطمه!.. وتذكر أنك ستكون أسرع عدة آلاف المرات عما كنت عليه من قبل.. قلبك ورئتاك وعضلاتك ودماغك وكل شىء فيك.. وعندما تصدم جسدًا ما فإنك لن تدرى قط مدى قوة تلك الصدمة.. سوف تشعر فقط كما تشعر الآن.. فقط سوف ترى أن كل شىء فى العالم يسير ببطء آلاف المرات عما كان عليه من قبل.. وهذا ما يجعل الأمر محفوفًا بمخاطر جمة".

---

(٥) شارع فى لندن يشتهر بكثرة عيادات الأطباء (المترجم).

"ياللهول!.. أنت تقصد بالطبع أن....." .. فقال "سوف ترى" .. وقاس مقدارًا صغيرًا ونظر إلى المادة السحرية على مكتبه وقال "هذه زجاجات وماء.. كل شيء هنا.. لكن لا تشرب كثيرًا فى أول تجربة لك".

القنينة الصغيرة كانت توحى بمحتوياتها الثمينة.. وأردف وهو يصب المقدار الذى قدره فى كأس بنفس الطريقة التى يتبعها النادل الإيطالى وهو يصب الويسكى: "لا تنس ما قلته لك.. اجلس مغمضًا عينيك فى سكون تام لمدة دقيقتين.. ثم سوف تسمعنى أتكلم" .. ثم أضاف بوصة أو نحو ذلك من الماء إلى الجرعة فى كل كأس.. ثم أردف: "وعلى فكرة، لا تضع كأسك الفارغة على الطاولة.. احتفظ بها فى يدك وضع يدك على ركبتك.. نعم.. والآن....".

ورفع الكأس.. فقلت "المعجل الجديد" .. فقال مرددًا "المعجل الجديد" .. ثم لامسنا كأسينا ببعضهما بعضًا وشربنا.. وعلى الفور أغمضت عينى.. وأنت تعلم بالطبع ذلك الغياب التام عن الوجود الذى يعانى منه المرء عندما يتناول مخدرًا.. لفترة لا أعرفها بالضبط كان الحال كذلك فعلاً.. ثم سمعت (جيبرن) يطلب منى أن أستيقظ.. وتحركت قليلاً وفتحت عينى.. كان واقفًا فى نفس مكانه وكأسه لازال فى يده.. لكنه كان فارغًا، وهذا هو كل الفرق الذى لاحظته. قلت "حسنًا؟!" .. فقال "لا شيء غير معتاد حتى الآن".

قلت "نعم لا شيء.. فقط لعلنى أشعر بإحساس قليل بالابتهاج.. ولا شيء أكثر من ذلك" .. فقال "يبدو لى ذلك". قلت "لكن ما معنى

ذلك؟.. إن كل شىء ساكن تمامًا.. يا إله السماوات!.. لا أحس بحركة شىء باستثناء دق خافت مثل وقع المطر على أسطح مختلفة.. ترى ما هذا؟".. أعتقد أنه قال "أصوات متتابعة"، لكننى لست متأكدًا من ذلك. ثم نظر إلى النافذة وسألنى "هل رأيت من قبل ستارة أمام نافذة مثبتة هكذا؟".. فتابعت عينيه.. وكان هناك نهاية الستارة متجمدة إلى حد ما وركنها مرتفع كما لو كان يرفرف بقوة فى الهواء. فقلت "لا.. هذا غريب فعلاً".

قال "وهنا..." وفتح يده التى تمسك بالكأس.. وبالطبع طرفت بعينى متوقعًا أن يتحطم الكأس.. لكنها لم تتحطم.. بل إنها لم تتحرك من مكانها وظلت طائرة فى الهواء ساكنة تمامًا.. وقال (جيبرن) "يمكننى القول إن أى جسم فى هذا الارتفاع يسقط لمسافة ١٦ قدمًا فى الثانية الأولى.. إن هذا الكأس يسقط الآن بسرعة ١٦ قدم / ث.. وكما ترى فإنه لم يسقط حتى الآن لجزء من مائة من الثانية.. إن هذا يعطيك فكرة واضحة عن سرعة معجلى السحرى".. وحرك يده جانبًا مرة وأخرى فوق وتحت الكأس الساقط ببطء غريب.. وأخيرًا أمسك بقاع الكأس وقلبه ووضعه بحذر على الطاولة وقال لى وهو يضحك "إيه! أرجو أن يكون سرّك ما رأيت يا صديقى".

قلت "هذا يبدو لى حسنًا جدًا".. ثم بدأت أرفع نفسى بحرص من مقعدى.. أحسست بأن كل شىء على ما يرام. وأحسست بأننى خفيف جدًا ومرتاح وواثق تمامًا من نفسى.. كان كل شىء فىّ يتحرك بسرعة فائقة.. مثلاً قلبى كان يدق ألف مرة فى الثانية الواحدة.. لكن ذلك لم يسبب لى أدنى مضايقة أو إزعاج. ونظرت

من النافذة إلى الخارج.. ورأيت راكبًا دراجة ثابتًا فى مكانه ورأسه أسفل وخلف عجلة قيادته سحابة من الغبار المتجمد.. واندفع راكب الدراجة لكى يلحق بحافلة مسرعة لا تتحرك هى الأخرى.. ففغرت فاهى فى دهشة من هذا المشهد المذهل وهتفت "قل لى بالله يا (جيبرن).. إلى متى يستمر مفعول هذا العقار اللعين؟".

أجابنى بقوله "الله وحده يعرف!.. آخر مرة تناولته فيها.. ذهبت إلى فراشى وأنا متأثر به حتى أصحو وأنا فائق منه.. وأصدقك القول لقد كنت خائفًا.. لابد أنه استمر بضع دقائق.. ويبدو لى أنه استمر لساعات.. لكن بعد فترة يضعف مفعوله.. نعم أظن ذلك".. ويحق لى أن أفخر بأننى لم أشعر بخوف.. ولعل ذلك لأنه لم يكن هناك غيرنا نحن الاثنين.. وسألته "لماذا لا نخرج؟" فقال "ولم لا؟" قلت ""سوف يروننا".. فقال "ليس هم.. يا إله السماوات.. لا! إننا سنتحرك أسرع آلاف المرات من أسرع وسيلة مواصلات صنعها الإنسان.. هيا معى!.. من أى طريق سنذهب؟.. النافذة أم الباب؟".. واخترنا النافذة مخرجًا لنا.

وبالتأكيد من بين جميع الخبرات والممارسات التى عهدتها فى حياتى أو تصورتها أو قرأت عن آخرين جربوها أو تصوروها، فإن الغارة الصغيرة التى نفذتها أنا و(جيبرن) فى (فوكستون ليز) تحت تأثير المعجِّل الجديد كانت أغربها وأكثرها حمقًا وجنونًا.. فقد ذهبنا من بوابة منزله إلى الطريق، وهناك قمنا بفحص دقيق للمرور العابر به.. وكانت قمم العجلات وبعض أرجل الجياد لتلك العربة السياحية وطرف السير المشدود إلى السوط والفك السفلى

للمحصّل الذى بدأ يتثاءب لتوه كلها تتحرك بوضوح.. لكن بقية وسيلة التنقل المتكدسة بدت ساكنة..

كان السكون سائدًا باستثناء قعقعة خافتة صادرة من حلق رجل ما!.. وكجزء من هذا الصرح المتجمد كان هناك سائق ومحصل وأحد عشر شخصًا! وعندما تحركنا حول هذا الشىء بدأنا نشعر بالغرابة الشديدة ثم انتهى بنا الأمر إلى الشعور بالضيق.. وكان هناك أناس مثلنا وفى نفس الوقت ليسوا مثلنا تمامًا!.. فقد كانوا متجمدين فى أوضاع لا مبالية وهم يومئون أو يتحركون.. فتاة ورجل يبتسمان إلى بعضهما، ابتسامة خبيثة تهدد بأن تستمر كثيرًا فيما بعد.. وامرأة ترتدى وشاحًا بياقة عريضة وتضع يدها على السياج وتنظر إلى منزل (جيبورن) نظرة ثابتة لا تتغير.. ورجل يربت على شاربه كتمثال من الشمع.. ورجل آخر يمد يدًا خشنة متعبة وأصابعه ممتدة تجاه قبعته السائبة..

حدقنا فيهم وضحكنا عليهم وسخرنا منهم.. ثم بدأنا نشعر بالاشمئزاز منهم.. وعندما استدرنا وانصرفنا أمام راكب الدراجة متجهين إلى (ليز).. وفجأة صاح (جيبرن): "يا إلهى!.. انظر هناك!".. وأشار بطرف إصبعه إلى شىء يطير فى الهواء ويخفق بجناحيه ويصدر أزيزًا وهو منطلق بسرعة حلزون واحد وضعيف للغاية.. إنه نحلة!.. وهكذا وصلنا إلى (ليز).. وهناك بدا ذلك الشىء أكثر جنونًا عن ذى قبل.. كانت الفرقة الموسيقية تعزف بالمنصة العلوية.. رغم أن كل ما سمعناه منها كان بعض القعقعة أو الأزيز الجهورى.. بما يشبه تنهيدة طويلة تتحول فى بعض الأوقات إلى دقات بطيئة مكتومة لساعة حائط عملاقة..

وقف الناس المتجمدون منتصبين.. كما لو كانوا دُمى غريبة صامتة وخجولة.. ومعروضين بشكل غير مستقر فى أثناء رفع أقدامهم وهم يتنزهون على النجيل.. ومررت بالقرب من كلب (بوول) كثيف الشعر وهو متجمد فى حالة قفز.. ولاحظت الحركة البطيئة لرجليه وهما يغوصان فى الأرض.. وصاح (جيبرن): "يا إله السماوات!.. انظر هنا!".. وتوقفنا للحظة أمام شخص رائع يرتدى ملابس مخططة بخطوط بيضاء وحذاء أبيض وقبعة قش خفيفة استدار إلى لكى يغمز بعينه لسيدتين ترتديان ملابس بهيجة مر بجوارهما.. وبالطبع فإن الغمزة المتعمدة كما رأينا تعتبر أمرًا غير لائق.. وهى تفتقر إلى أى صفة من صفات المرح الدمث.. كما أن المرء يلاحظ أن العينين الغمازتين لا تنقفلان تمامًا وأنه تحت الجفن الهابط تبدو الحافة السفلى لمقلة العين وخطًا أبيض. وقلت "إن السماء أنعمت على بالذاكرة القوية.. ولذلك لن أغمز بعينى مرة أخرى".

قال (جيبرن) وعينه على أسنان السيدة وهى فاتحة فمها لتجيب "أو ابتسم".. فقلت "إن الجو حار للغاية.. دعنا نسر ببطء أكثر".. فقال "أوه، هيا يا رجل!".. وشققنا طريقنا وسط كراسى المرضى فى الممر.. بدا كثير من الناس الجالسين على المقاعد طبيعيين تقريبًا فى أوضاعهم السلبية.. غير أن اللون القرمزى لأفراد الفرقة الموسيقية لم يكن مريحًا لكى تنظر إليه.. وكان هناك رجل ذو وجه أرجوانى متجمدًا وسط مقاومة عنيفة لكى يعيد فرد جريدته ضد الريح.. وكان هناك دلائل كثيرة على أن هؤلاء الناس أثناء حركاتهم الضعيفة البطيئة يتعرضون لنسمة هواء قوية.. وهى نسمة هواء غير موجودة فى حدود إدراكنا واحساسنا..

خرجنا وابتعدنا قليلاً عن الزحام، ثم عدنا لكى نتفحص الأمر.. وكان رائعًا بل ومستحيلاً أن ترى كل ذلك الحشد يتغير إلى صورة قاسية للابتلاء، إذا جاز التعبير، إلى شبه شمع حقيقى.. وبالطبع كان ذلك حماقة، ولكنه ملأنى بإحساس بهيج لا عقلانى بالتفوق والتميز الواضحين.. ما أعجب هذا!.. كل ما قلته وفكرت فيه وفعلته منذ بدأت المادة تؤتى أثرها فى عروقى حدث بالفعل.. على النحو الذى يحدث فعلاً لأولئك الناس وعلى النحو الذى يحدث بصفة عامة فى العالم.. وفى لمح البصر.. وبدأت أقول "المعجل الجديد..."، إلا أن (جيبرن) قاطعنى بقوله "ما زالت هناك تلك المرأة العجوزاللعينة!".. فقلت "من تلك المرأة العجوز؟".. فقال "إنها تسكن فى الشقة المجاورة لى مباشرة.. ولديها كلب صغير دائم النباح.. يا إلهى!.. إن الإغراء قوى جدًا!".

وبالمناسبة هناك شىء طفولى ومتهور فى (جيبرن) فى بعض الأحيان.. وقبل أن أجادله أو أعترض عليه، اندفع بسرعة إلى الأمام.. وخطف الحيوان البائس من صاحبته وركض بعنف معه تجاه صخور شاطئ (ليز).. كان ذلك غريبًا وغير متوقع بالمرة.. أما الحيوان الصغير فلم ينبح أو يحاول التخلص من قبضة (جيبرن) أو يفعل أى شىء يدل على وجود حيوية أو حياة فيه.. وإنما قبع كتمثال أو كشىء مخدّر مستسلم.. وأمسكه (جيبرن) من عنقه بحيث تدلى جسمه إلى أسفل.. كان أشبه بشخص يركض وهو ممسك بكلب من خشب! صحت "(جيبرن).. ضع الكلب!".. ثم قلت شيئًا آخر بصوت عال "إذا عدوت مثل ذلك يا (جيبرن)، فسوف تشعل النار فى ملابسك.. إن سروالك الكتانى أصبح بنيًا الآن!".. فوضع يده على

فخذه ووقف مترددًا يوشك أن يقول شيئًا. وصرخت وأنا أقترب منه "اترك الكلب".. هذا الانفعال شديد جدًا.. إن علينا أن نجرى أيضًا!.. بسرعة ثلاثة أو أربعة كيلو مترات فى الثانية الواحدة!.. ولا تنس احتكاك الهواء".. فقال وهو يحدق فى الكلب "ماذا تقول؟" صحت قائلاً "احتكاك الهواء.. بسبب السرعة الشديدة.. مثل الأحجار النيزكية وما شابهها.. إن الجو حار جدًا.. (جيبرن).. إننى أشعر بوخز فى جسمى كله وبعرق شديد.. يمكنك أن ترى الناس يتحركون بنشاط قليل.. أعتقد أن المادة بدأت تعمل ويظهر تأثيرها!.. انزل هذا الكلب إلى الأرض".. فقال "إيه؟" قلت مكررًا كلامى "لقد بدأ يظهر مفعوله.. إننا نشطين للغاية والمادة بدأ تأثيرها يظهر!.. إن العرق يبللنى تمامًا".

حدق فىّ للحظة ثم فى الفرقة الموسيقية والتى كان أزيزها وقعقعتها يزداد سرعة بكل تأكيد.. ثم طوّح ذراعه وألقى بالكلب بعيدًا عنه.. وارتفع الكلب وهو يدور إلى أعلى.. لكنه مازال بدون حراك.. إذ جثم عالقًا فوق مجموعة من المظلات لمجموعة من الناس يتبادلون الحديث فيما بينهم.. وأمسك (جيبرن) بمرفقى وصاح قائلاً "يا إله السماوات!.. أظن أن هذا هو ما يحدث لى!.. نوع من الوخز الساخن فى جسمى وعينى.. وهذا الرجل يحرك منديل جيبه!.. نعم إننى أحس بذلك بقدر كبير.. لابد أن نخرج من هذه الورطة".

لكننا لم نكن لنستطيع الخروج من هذه الورطة.. ولعل ذلك من حسن حظنا!.. إذ كان يمكننا أن نجرى، وإذا جرينا لكنا على ما

أعتقد تحولنا إلى كتلة من النيران!.. نعم، كان من المؤكد تقريبًا أن تشب فينا النيران!.. وكما تعرفون، لم يفكر أحد منا فى ذلك.. ولكن قبل أن نتمكن حتى من الجرى، توقف مفعول الدواء.. وتم ذلك فى جزء يسير من الثانية الواحدة.. وهكذا تبدد تأثير "المعجّل الجديد"..

سمعت صوت (جيبرن) ينذرنى "اجلس".. ومن ثم جلست متهالكًا فى الحال على العشب.. وهو يلسعنى وأنا أجلس عليه.. فهناك مازالت رقعة من الأعشاب المحترقة فى المكان الذى جلست فيه..

كل الركود بدا أنه يستيقظ ويستعيد نشاطه مثلما فعلت أنا، وانطلقت الاهتزازات المتفككة للفرقة الموسيقية لتصبح هبة قوية من الموسيقى.. ووضع المتنزهون أقدامهم على الأرض وبدأوا يسيرون بشكل طبيعى.. وبدأت الأوراق والرايات تخفق وتطير.. وتحولت الابتسامات إلى كلمات.. وأنهى الغامز غمزته ومضى إلى حال سبيله وهو راض.. وكل الناس الجالسون تحركوا وتكلم بعضهم مع بعض..

دبت الحياة مرة أخرى فى العالم بأسره.. وبدأ كل شىء يحدث بنفس سرعتنا.. أو بالأحرى لم نعد نحن أسرع من بقية العالم!.. إن ذلك أشبه بتناقص سرعة المرء عندما يقترب من محطة السكة الحديدية.. كل شىء بدا لى يدور لثانية أو ثانيتين.. وانتابنى شعور عابر بالغثيان، لكن هذا هو كل شىء.. والكلب الصغير الذى بدا لنا معلقًا فى الهواء للحظة عندما قذفته ذراع (جيبرن) بقوة سقط الآن

بتأثير عجلة الجاذبية السريعة فوق مظلة إحدى السيدات.. تمامًا!..

هكذا تمت نجاتنا.. وكان هناك رجل عجوز بدين فى مقعد متحرك، أخذ يتابعنا، ثم تابعنا بعد ذلك على فترات منفصلة بعين مرتابة بشكل خفى، وأخيرًا أعتقد أنه قال شيئًا ما لممرضته عنا، فإننى أشك فى أن أى إنسان منفرد قد لاحظ ظهورنا المفاجئ بينهم.. هوب!.. لا بد أننا ظهرنا فجأة.. وتوقفنا لإخماد الدخان فى الحال، رغم أن العشب أسفل منى كان ساخنًا للغاية..

وبدا أن الجميع ـ بما فيهم الفرقة الموسيقية التى وللمرة الأولى فى تاريخها تعزف نغمات نشاز ـ قد التفت إلى تلك الحقيقة المدهشة.. وكل ما يستحق الدهشة أكثر من ذلك وخصوصًا اللغط والثرثرة اللذين نجما عن تلك الحقيقة وهى أن كلبًا صغيرًا سمينًا محترمًا ينام فى هدوء شرق منصة الفرقة الموسيقية يجب أن يسقط فجأة بين ظلال مظلة إحدى السيدات فى الغرب فى حالة من الشياط بسبب سرعة حركته الفائقة فى الهواء.. وفى تلك الأيام الحمقاء، فإننا جميعًا نحاول أن نصبح خارقين للطبيعة وساذجين ومؤمنين بالخرافات بقدر الإمكان!

استيقظ الناس وأخذ بعضهم يطأ البعض الآخر.. وانقلبت الكراسى رأسًا على عقب.. وركض شرطيو (ليز).. والحقيقة أننى لا أعرف كيف استقرت الأمور.. فقد كنا متوترين وقلقين للغاية لتخليص أنفسنا من هذا الموضوع، والابتعاد عن متابعة ورقابة عين السيد العجوز الجالس فى كرسى متحرك بهدف التقصى الدقيق لما يحدث..

وبمجرد أن هدأنا واسترحنا بما يكفى وتعافينا من الدوار والغثيان واضطراب الذهن، وقفنا وشققنا طريقنا بعيدًا عن الزحام وبدأنا نعود فى الطريق أسفل (متروبول) متجهين إلى منزل (جيبرن). ولكن وسط الجلبة سمعت بوضوح تام السيد الجالس بجوار السيدة التى تمزقت مظلتها يلقى بتهديدات لا مبرر لها ويتكلم بلغة فظة مع أحد الخدم الذين يحركون كراسى المرضى والمكتوب على قبعاتهم "مشرف" قائلاً له "لو لم ترم بهذا الكلب اللعين، إذن من الذى رماه هكذا؟".

العودة المفاجئة للحركة والضوضاء المألوفة، علاوة على قلقنا الطبيعى على أنفسنا (فمثلاً ملابسنا كانت لا تزال ساخنة للغاية، ومقدمة أفخاذ سروال (جيبرن) الأبيض كانت مسفوعة بلون بنى أسمر) حالا دون قيامى بالملاحظات الدقيقة التى كنت أحب أخذها لتلك الأشياء.. والحقيقة أننى لم أجر أى ملاحظات ذات قيمة علمية عن عودتى هذه.. والنحلة ذهبت بالطبع.. وبحثت عن راكب الدراجة لكنه كان قد اختفى عن نظرى عندما دخلنا فى طريق (ساندجيت) العلوى أو اختبأ منا خلف العربات المارة.. بيد أن العربة السياحية بكل ركابها الذين عادوا الآن إلى الحياة والنشاط والحركة كانت تصدر جلبة، بمعدل عال بمحاذاة الكنيسة القريبة..

غير أننا لاحظنا أن عتبة النافذة التى خطونا عليها وتمكنا من مغادرة المنزل كانت مسفوعة قليلاً، وكذلك أن آثار أقدامنا على حصى الممر كانت عميقة بشكل غير عادى.

هكذا كانت أول تجربة لى مع المسرِّع الجديد.. ومن الوجهة العملية كنا نتحرك ونجرى هنا وهناك ونقول ونفعل الكثير من الأشياء خلال مدة ثانية واحدة أو نحو ذلك! بل إننا عشنا نصف ساعة بينما عزفت الفرقة الموسيقية فاصلين موسيقيين فقط! وكان تأثيره علينا هو أن العالم بأسره توقف بحيث يمكننا أن نتفقده بكل ارتياح..

ولو أخذنا كل النقاط فى الاعتبار، والتركيز بشكل خاص على اندفاعنا فى الخروج من المنزل، لوجدنا أن تلك التجربة كانت ستكون أكثر ملاءمة لنا مما كانت عليه. وأظهرت التجربة بلا شك أن (جيبرن) أمامه الكثير لكى يتعلمه قبل أن يصبح مستحضره هذا مفيدًا ويسهل تعاطيه.. إلا أن قابلية الاستخدام المعملى له أصبحت واضحة بشكل لا يقبل الجدل العقيم.

ومنذ تلك المغامرة وهو يتقدم حثيثًا فى السيطرة على مستحضره، وقد تناولت بنفسى جرعات محددة منه طبقًا لتعليماته، فى كثير من المرات، ولم تحدث لى أى نتائج سيئة.. رغم أننى يجب أن أعترف أننى لم أجرؤ على الخروج مرة ثانية وأنا تحت تأثير المستحضر.

وأعلن هنا على سبيل المثال أننى كتبت هذه القصة فى جلسة واحدة وبدون أى مقاطعة، باستثناء قرض قطعة من الشيكولاتة بين وقت وآخر.. وقد بدأت الساعة ٦,٢٥ وساعتى الآن تشير إلى حوالى دقيقة واحدة بعد مرور نصف ساعة. وبالطبع ليس هناك مبالغة فى القول بأن العمل لفترة طويلة فى منتصف النهار بدون أى معوقات يسبب راحة كبيرة للمرء.

ويعكف (جيبرن) الآن على التحديد الكمى لمستحضره، مع التركيز بوجه خاص على تأثيراته المميزة على مختلف أنواع الناس. وهو يأمل أن يتوصل إلى مُبطئ أو معوّق لتقليل أو تلطيف شدته الحالية المفرطة. وبالطبع سوف يكون للمبطئ عكس تأثير المسرع. ولو استخدم بمفرده فإنه يمكّن المريض من نشر بضع ثوانى على امتداد ساعات كثيرة من الوقت العادى، مما يساعد على الحفاظ على نوع من الخمود المتسم بالفتور واللامبالاة.. أو غياب جليدى للخفة والنشاط.. بين أكثر الأشياء المجاورة نشاطًا وإثارة.

هذان الشيئان معًا يجب أن يحققا بالضرورة منتجًا يعتبر ثورة كاملة فى حضارتنا المعاصرة. إن هذه سوف تكون بداية هروبنا من "عباءة الزمن" التى يتحدث عنها (كارلايل)(٦). وبينما سيمكننا هذا المسرع من تركيز كل قوانا الهائلة فى أى لحظة أو مناسبة تتطلب أقصى اهتمام منا، فإن المبطئ يمكننا من أن نعبر فى هدوء وسكون المصاعب وأوقات الملل التى لا نهاية لها فى حياتنا.

ولعلنى متفائل قليلاً بشأن المعوق أو المبطئ الذى لم يتم اكتشافه بعد، أما بالنسبة للمسرع فلا يوجد فيه حقيقة أى نوع من الشك المقبول. ذلك أن ظهوره فى الأسواق بشكل مناسب يتقبله الجسم ويمكن السيطرة عليه أصبح وشيكًا فى غضون بضعة أشهر من الآن.. وعندئذ يصبح بمقدور الناس الحصول عليه من الصيدليات ومخازن الأدوية، فى زجاجات خضراء صغيرة بسعر مرتفع ولكنه ليس كثيرًا لو وضعنا فى اعتبارنا خصائصه الفذة وغير العادية.

---

(٦) توماس كارلايل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) كاتب اسكتلندى ناقد ساخر ومؤرخ (المترجم).

وسيسمى هذا المستحضر "المسرع العصبى لجيبرن"، وهو يأمل فى أن يتمكن من إنتاجه فى ثلاثة تركيزات: على ١ إلى إلى ٢٠٠، ١ : ٩٠٠، ١: ٢٠٠٠ مع تمييزها بشرائط صفراء وحمراء وبيضاء على الترتيب.

وبلا شك فإن استخدام هذا المستحضر سوف يتيح عددًا كبيرًا من الأشياء الخارقة للعادة، لعل أكثرها أهمية أن الإجراءات القضائية أو الجنائية سوف تتأثر بإفلات المجرمين من العقوبة عن طريق مراوغتهم فى الفجوات أو الثغرات الحادثة فى الزمن. ومثل كل المستحضرات الصيدلية الفعالة، فإنها عرضة لإساءة استخدامها. غير أننا تناولنا هذا الجانب من الموضوع بإسهاب وتفصيل.. وتوصلنا إلى أن هذا الأمر يخضع لموافقة السلطات الطبية، أى أنه خارج تمامًا عن مجالنا هنا. فنحن سوف نصنع المسرع ونبيعه.. أما بالنسبة إلى النتائج المحتملة له، فما علينا إلا أن ننظر ونرى.

أجازة السيد لدبتر

صديقى السيد (لدبتر) رجل قصير مستدير الوجه.. والوداعة الطبيعية فى عينيه تتعاظم بشكل هائل عندما تلتقط الشعاع الخارج من نظارته.. كما أن صوته الخفيض الهادئ يضايق الناس الذين يتوترون بسهولة. وجاء معه إلى مقره الحالى كقسيس، من أيام دراسته، وضوح متقن فى النطق والتعبير.. يشوبه بعض الإصرار العصبى على ضرورة الدقة والوضوح فى كل القضايا الهامة وغير الهامة على السواء! وهو رجل كهنوتى ولاعب شطرنج ويشك كثيرون فى أنه يقوم بممارسات سرية فى الرياضيات العالية.. وكلها أشياء رائعة لكنها سقيمة وغير مثيرة. وتراه غزير العلم فى حديثه، غير أنه لا يفتأ يردد الكثير من التفاصيل التى لا داعى لها بالمرة.

الكثيرون يرون بالفعل أن علاقاته وتعاملاته غير مفضلة لهم.. وبصراحة يرونها "مملة ومضجرة". ودفعنى ذلك لكى أسأل نفسى عن سبب تشجيعى وتأييدى له. ولكن من جهة أخرى هناك طائفة كبيرة من الناس يتعجبون من تعاملاته مثل معارفه المشوشين غير

مهندمى المظهر وغير الموثوق بهم مثلى أنا وقليل من الناس ينظرون إلى صداقتى له باتزان وموضوعية.. لكن الحقيقة أنهم لا يدرون شيئًا عن العلاقة التى تربطنى به.. تلك العلاقة الودية اللطيفة التى ربطتنى - أثناء وجودنا معًا فى (جامايكا) - بماضى السيد (لدبتر) والرجل يبدى تواضعًا بغيضًا فيما يتعلق بماضيه هذا ويقول: "أنا لا أعرف ما الذى ينبغى علىّ عمله عندما أصبح مشهورًا!". ثم يكرر بشكل يؤثر إلى حد كبير "لا أعرف ما الذى ينبغى على عمله". والحقيقة أننى أشك فيما إذا كان بمقدوره أن يفعل شيئًا ما سوى احمرار أذنيه.. غير أن ذلك سوف يتضح فيما بعد.

لم أذكر هنا أول مقابلة لنا، حيث إنه كقاعدة عامة - رغم أننى معتاد على كسرها - يجب أن تأتى نهاية أى قصة بعد، وليس قبل، بدايتها. و بداية هذه القصة ترجع إلى وقت طويل مضى.. وبالفعل مضى الآن حوالى عشرين عامًا منذ أن أوقع القدر، من خلال سلسلة من التدابير المعقدة والمدهشة، السيد (لدبتر) فى يدى، إذا جاز هذا التعبير. فى تلك الأيام كنت أعيش فى (جامايكا)، وكان السيد (لدبتر) ناظرًا بإحدى المدارس بإنجلترا.. وكان قسًا مرسومًا.. وكان قسيسًا معروفًا بالفعل وقتئذ مثلما نعرفه اليوم بالضبط من حيث المظهر.. نفس استدارة الوجه.. نفس النظارة تقريبًا.. نفس المسحة الخفيفة من الدهشة فى تعبير وجهه الهادئ.. وبالطبع كان أشعث المظهر عندما رأيته.. وياقة قميصه ليست ياقة بقدر ما هى ضمادة مبتلة!.ولعل ذلك ساعد فى تخطى الحاجز الطبيعى بيننا.. ولو أننى سوف أتحدث عن ذلك لاحقًا وليس الآن.

بدأ الأمر على شاطئ مدينة (هيذرجيت) فى الوقت الذى كان السيد (لدبتر) يقضى فيه أجازته هناك، ولقد ذهب إلى هذه المدينة الساحلية لأنه كان بحاجة ماسة إلى أخذ أجازة ليستريح فيها.. مرتديًا معطفًا بنى اللون مكتوبًا عليه الحروف "ف.و.ل".. ويضع على رأسه قبعة جديدة من القش ذات لونين أبيض وأسود.. ولابسًا سروالاً من الصوف الأبيض الفانيلا[1]. كان مبتهجًا جدًا لتخلصه من المدرسة، فهو لم يكن يميل كثيرًا للأولاد الذين يعلمهم.

بعد تناول طعام العشاء، انخرط فى مناقشة مع شخص ثرثار مقيم بنزل رخيص، كان قد لجأ إليه نزولاً على نصيحة عمته. وهذا الرجل الثرثار كان النزيل الثانى الوحيد بالنزل معه. وتطرقت مناقشاتهما إلى الاختفاء المحزن للمغامرة والمخاطرة والغرائب فى تلك الأيام.. وانتشار السفريات حول العالم.. وتقلص المسافات بين البلاد بعد انتشار الكهرباء والقطارات البخارية.. سوقية وفظاظة الإعلانات.. وتدنى وفساد الإنسان بسبب الحضارة وما شابه ذِلك. وكان هذا الرجل الثرثار مفوهًا فى الحديث عن تهاوى شجاعة الإنسان من خلال أنظمة الأمن، وهو موضوع أثار شهية السيد (لدبتر) للانضمام إليه بدون تحفظ لاستعراض أبعاده.

ولعل السيد (لدبتر) فى ضوء بهجة التحرر من "واجباته المملة" وتلهفه على إثبات سمعته فى الأنس والمرح شارك بأكثر من المعقول كثيرًا فى احتساء الويسكى الرائع الذى أحضره الشخص الثرثار.. لكنه فى الحقيقة لم يثمل، أو على الأقل هو يصر على ذلك.. كل ما

---

(١) نسيج ناعم من الصوف أو خليط من الصوف والقطن (المترجم).

فى الأمر أنه كان فصيحًا وبليغًا بأكثر من اتزانه المعتاد.. ولم تلبث قوته اللغوية أن تبددت وتهاوت فطنته وأفكاره.. وبعد هذا الحديث الطويل عن الأيام الخالية النبيلة التى ذهبت بدون رجعة، خرج بمفرده فى ضوء القمر وصعد على الطريق الصخرى الذى تنتشر حوله مجموعة من القرى الصغيرة.

كان منذ قليل يندب حاله، والآن، هو يصعد الطريق الساكن وهو مازال ينتحب ويرثى لحاله أو قدره الذى دعاه إلى تلك الحياة الرتيبة المملة كمدرس.. يا لها من حياة سقيمة جامدة ليس لها طعم ولا لون!.. كل شىء مضبوط ومنظم عامًا بعد آخر.. فما هو مكان النبل والشجاعة فى كل هذا؟.. وفكر بحسد فى أيام العصور الوسطى الجميلة.. القريبة والبعيدة فى نفس الوقت.. الزاخرة بالمغامرات والتجسس والمرتزقة وكثير من عمليات المبارزة الخطرة.. وفجأة انتابه شك ما.. شك غريب منبثق من فكرة مفاجئة عن عمليات التعذيب وهى تقوّض تمامًا الموقف الذى اتخذه هذا المساء.

ترى هل كان ـ السيد (لدبتر) ـ شجاعًا حقًا كما ادعى؟.. وهل سيسعده حقًا أن يرى كل تلك القطارات ورجال الشرطة وأنظمة الأمن تختفى تمامًا من على الأرض؟ إن الرجل الثرثار تحدث بحسد عن الجريمة وقال "إن لص المساكن هو المغامر الوحيد الموجود على الأرض.. فكر فى قتاله بمفرده ضد كل العالم المتمدن!".. وهنا قلده السيد (لدبتر) فى حسده أو إعجابه قائلا "إنه يستمتع بحياته فعلاً.. ولعله الوحيد الذى يفعل ذلك.. فكر فقط فى شعورك عندما تحوّط مرجًا عشبيًا بالأسلاك!".. وعندئذ

ضحك بشكل غريب. أما الآن ففى حميميته الصادقة أثناء حديثه الداخلى وجد نفسه يعقد مقارنة بين ما يملكه من شجاعة والشجاعة التى يتميز بها المجرم عادة.. حاول أن يرد على تلك الأسئلة الماكرة بالتأكيد الأجوف. قال السيد (لدبتر) "أستطيع أن أفعل كل ذلك.. إننى أتوق لكى أفعل كل ذلك.. فقط أنا لا أستسلم لنوازعى الإجرامية.. شجاعتى الأدبية تمنعنى من ذلك".. غير أنه كان يشك فى الأمر حتى وهو يخبر نفسه بكل تلك الأمور!

مر السيد (لدبتر) بفيللا ضخمة قائمة بمفردها.. وفوق شرفة هادئة قريبة توجد نافذة سوداء مفتوحة على مصراعيها.. وفى الوقت الذى لمحها فيه ثبتت صورتها فى ذهنه وسبحت مع أفكاره.. تخيل نفسه يتسلق الجدار حتى الشرفة.. ويجثم قليلاً فى مكانه ثم يقذف بنفسه إلى داخل الحجرة المظلمة الغامضة.. وقالت روح الشك: "عجبًا!.. كيف تجرؤ على هذا". ورد عليها الاحترام الذاتى للسيد (لدبتر): "إن واجبى تجاه مواطنىّ يمنعنى من ذلك".

كانت الساعة حوالى الحادية عشرة والبلدة الصغيرة المجاورة للبحر فى سكون تام.. كل العالم هاجع الآن تحت ضوء القمر الوادع.. فقط مستطيل دافئ بمصراع النافذة بامتداد الطريق يدل على وجود إنسان مستيقظ.. استدار وعاد أدراجه ببطء إلى الفيللا ذات النافذة المفتوحة. وقف لبعض الوقت خارج البوابة.. ولم يلبث أن دار داخله صراع بين الدوافع والنوايا. قال الشك: "دعنا أولاً نختبر الأشياء. ولكى ترضى تلك الشكوك التى لا تطاق، أثبت أن لديك الجرأة لكى تقتحم هذا المنزل.. إنها مجرد عملية سطو صغيرة.. وهذه ليست جريمة بأى حال من الأحوال".

بسرعة فتح البوابة وانسل إلى الداخل مستترًا بظل الشجيرات هناك، وأغلق البوابة وراءه. وقال ضمير السيد (لدبتر) محذرًا: "هذه حماقة".. وقال الشك: "لقد توقعت ذلك".. ودق قلبه بسرعة لكنه لم يكن خائفًا.. نعم.. لم يكن خائفًا بالمرة.. وظل قابعًا فى الظل لفترة كافية من الوقت لكى يطمئن تمامًا.

من الواضح أن ارتقاء الشرفة كان يجب أن يتم بسرعة، لأنه كان فى ضوء القمر الساطع وبدا واضحًا من بوابة الطريق المُشجّر. ومما سهل عملية الارتقاء أنه كانت هناك تعريشة من الأزهار العطرية المتسلقة مما جعل الصعود هينًا. وهناك فى ذلك الظل الداكن من الزهرية الحجرية كان يمكن أن يقبع الشخص وينظر عن قرب إلى الثغرة المتسعة فى عقر الدار، وهى الشباك المفتوح. وللحظة كان السيد (لدبتر) ساكنًا كالليل، ثم فجأة قلب ذلك الويسكى الغادر الميزان، فاندفع إلى الأمام، وصعد أعلى التعريشة بحركة سريعة متشنجة، واعتلى حاجز الشرفة، وبدأ يلهث فى الظلال كمن كان عازمًا على ذلك. وكان يرتعش بشدة لاهثًا، متقطع الأنفاس، وأخذ قلبه يدق بصوت عال، ولكنه كان مبتهجًا. وكان بإمكانه الصياح ليُبيّن أنه غير خائف أو يكاد.

وخطر بباله، وهو جالس فى مكانه، شيئًا تعلمه من (مفستوفيليس)[٢]. وهمس فى نفسه: "إننى أشعر وكأننى قط على القرميد.." وكان أجمل مما توقع هذا الانتعاش الكبير، فكان آسفًا

(٢) الشيطان الذى باع له (فاوست) روحه فى الرواية الشهيرة للكاتب الألمانى (جوته) (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) ويظهر (مفستوفيليس) غالبًا فى هيئة راهب (المترجم).

لكل الفقراء الذين لم يعرفوا السرقة، فلم يحدث شىء، وكان آمنًا تمامًا، وكان يتصرف بكل شجاعة.

والآن إلى النافذة لإنهاء السرقة! أينبغى عليه أن يظهر التحدى لإنجاز المهمة؟ إن موقع النافذة فوق الباب الأمامى حددها كبسطة أو ممر، ولم يكن هناك مرايا أو أية علامات توحى بوجود حجرة نوم أو أى نافذة أخرى فى الطابق الأول يشير إلى إمكانية وجود شخص نائم فى الداخل. فأخذ ينصت لحظة تحت السقف، ثم رفع عينيه أعلى العتبة ونظر إلى الداخل وكان قريبًا من قاعدة تمثال بالحجم البشرى من البرونز يشير بيديه، فانحنى ثم نظر ثانية. وكانت هناك بالخلف بسطة تلمع لمعانًا خافتًا، ونسيج رقيق من ستائر بخرز أسود وحاد أمام نافذة أبعد، وسلم عريض منغمس فى فجوة من الظلام تحته ودرجات أخرى صاعدة للطابق الثانى. ونظر خلفه ولكن صمت الليل لم يقطعه شىء. وهمس فى نفسه: "جريمة"، "جريمة". وتسلل بخفة وسرعة على عتبة الباب إلى داخل المنزل، فهبطت قدماه على حصيرة من الجلد دون أن يصدر أى صوت، فقد كان لصًا فعلاً!

وقبع فترة وكله آذان مصغية وعينان متفرستان. وكان فى الخارج صخب وضجيج، وللحظة ندم على مغامرته. كان ثمة مواء قصير، وبصق، واندفاع فى السكون، تأكد له أنها لقطط. وزادت شجاعته فوقف. وكان الكل نائمًا كما يبدو، وبذلك كان الجو مهيئًا لأن يرتكب سرقة، إذ كان مصممًا. وكان سعيدًا أن يختبر ذلك، فأصر أن يفوز بتذكار بسيط فقط ليثبت أنه مجرد من أى خوف حقير من القانون، ويرجع من حيث أتى.

حدق فيما حوله، فهبت فيه فجأة الروح الناقدة ثانية، فاللصوص يقومون بأشياء أكثر من الاقتحام البدائى، فيدخلون الحجرات ويكسرون الخزائن. حسن، لم يكن خائفًا، فهو لم يكن يعرف كسر الخزائن، لأن هذا يعتبر رغبة غبية فى أن يضع مضيفه فى الاعتبار.

ولكن سيدخل الغرف وسيصعد السلالم. وأكثر من ذلك قال فى نفسه إنه آمن تمامًا، فالمنزل الخالى يكون أكثر أمانًا. وكان عليه أن يطبق أصابعه بإحكام، ويستجمع كل عزيمته قبل أن يصعد بهدوء السلم المعتم، ويتوقف لبضع ثوان كل درجة. وكان أعلى السلم بسطة مربعة أمامها باب مفتوح وأبواب أخرى مغلقة، وكان البيت كله غارقًا فى السكون. وللحظة وقف يتساءل عما سيحدث لو استيقظ أحد وخرج فجأة. وقد أظهر الباب المفتوح حجرة نوم يضيئها القمر، بمفرش للسرير أبيض اللون لم يتغط به أحد. فزحف إلى هذه الغرفة لثلاث دقائق طوال، وأخذ قطعة صابون نهبًا على سبيل التذكار. وبدأ ينزل بهدوء أكثر مما صعد، فكان الأمر سهلاً مثل... صه! لقد سمع بغتة!

وقع أقدام! على الحصى خارج المنزل، ثم ضوضاء مفتاح السقاطة، ثم تثاؤب وصفق الباب، وصوت إشعال عود كبريت فى الصالة بأسفل. وتوقف السيد (لدبتر) متحجرًا فى مكانه نتيجة اكتشافه المفاجئ للحماقة التى جعلته يأتى إلى هنا وقال فى نفسه: "كيف لى أن أخرج من هذا؟".

أضاء الصالة لهب شمعة، واصطدم شىء ثقيل بقائم المظلة، فى حين سمع صوت أقدام تصعد السلم. وفى التو أدرك السيد (لدبتر)

أن تراجعه قد انتهى، فوقف للحظة مثل شخص يثير الشفقة فى ارتباك النادم وأخذ يهمس لنفسه: "يا إلهى! كم كنت أحمق!" ثم انسل بسرعة تجاه البسطة المظلمة إلى حجرة النوم الخالية التى كان قد أتى منها وقف مصغيًا ومرتعشًا، فقد وصل وقع الأقدام بسطة الدور الأول.

استبدت به أفكار مروعة! لعلها غرفة الشخص الذى أتى أخيرًا! وكان عليه ألا يضيع لحظة، فانحنى السيد (لدبتر) بجوار السرير وشكر الله على الستارة التى اتجه نحوها خلال عشر ثوان ليحتمى بها. وركع على يديه وركبتيه دون حراك، وقد بدا ضوء الشمعة القادم من خلال غرز النسيج الضيق للنسيج وهامت الظلال ثم تجمدت وأخذت تتأرجح بعنف، ثم ثبتت. عندما وضعت الشمعة أرضًا.

"يا إلهى، يا له من يوم!" قال الشخص الذى أتى وهو ينفخ بصوت عال، ويبدو أنه ألقى حملاً ثقيلاً فوق شىء أدرك السيد (لدبتر) بقدميه أنه مكتب. وذهب الخفىّ إلى الباب وأغلقه بالمفتاح، وفحص مغاليق النوافذ بعناية وأسدل الستائر ثم رجع وجلس على السرير بملل مخيف.

قال: "يا إلهى، يا له من يوم!" ونفخ ثانية، وكان السيد (لدبتر) يميل إلى الاعتقاد أن الشخص يمسح وجهه وكان حذاؤه ذو الرقبة كبيرًا، وكان ظل رجليه على الستارة يوحى بكبر الحجم. وبعد فترة خلع الشخص الذى أتى بعضًا من ملابسه العلوية - معطفًا وصديريًا كما استنتج السيد (لدبتر) - وألقاها على شباك السرير،

وظل يتنفس بصوت منخفض، وكما بدا أنه برّد من حرارة معقولة. وكان يتمتم لنفسه على فترات، ثم ضحك مرة برقة. وتمتم السيد (لدبتر) لنفسه، دون أن يضحك قائلا: "من بين كل حماقات العالم، ماذا علىّ أن أعمل الآن؟".

وكانت نظرته بالضرورة محدودة، وكانت الفتحة الصغيرة بين غرز نسيج الستارة تسمح بمرور قدر محدود من الضوء، ولكنها لم تسمح باختلاس النظر، وكانت الظلال على هذه الستارة باستثناء تلك الأرجل الممددة، مبهمة تمامًا ومختلطة بغير وضوح مع النمط المزخرف على القماش القطنى. وتحت حافة الستارة كان يبدو شريط من سجادة، وحدق السيد (لدبتر) بحرص فوجد أن هذا الشريط كان يزداد عرضًا حتى رأى الأرضية كاملة. وكانت السجادة من النوع الفاخر، وكانت الحجرة واسعة وأحسن تجهيزها كما تدل على ذلك الأقمشة التى تغطى قطع الأثاث والأثاث نفسه.

كان من الصعب أن يتخيل ما يجب عليه عمله، فانتظار هذا الشخص حتى يأوى إلى فراشه، ثم بعد أن ينام يزحف نحو الباب ويفتحه، ثم يندفع إلى الشرفة كان الشىء الوحيد الذى يمكن عمله. وهل من الممكن القفز من الشرفة؟ ما مدى خطورته؟ وعندما فكر فى الفرصة المعاكسة له، بدأ ييأس. وكان على وشك أن يدفع رأسه بجوار ساقى الرجل، ويسعل إذا اقتضى الأمر للفت نظره، ثم يبتسم ويعتذر ويشرح تدخله سيئ الحظ بجمل مختارة بعناية فائقة. ولكنه وجد صعوبة فى اختيار هذه العبارات، وكل ما استطاع أن يفكر فيه هو: "لا شك، يا سيدى، أن ظهورى غريب" أو "إذ إننى أثق يا سيدى، فى أنك ستغفر لى ظهورى الغامض من تحتك".

وقد فرضت الإمكانيات القاتمة نفسها على انتباهه، فلو لم يصدقوه فماذا سيفعلون به؟ ألن تجدى شخصيته النقية فى شىء؟ فمن الناحية العملية هو لص دون منازع. وباتباع سلسلة أفكاره، أخذ يؤلف اعتذارًا واضحًا عن "تلك الجريمة الفنية التى ارتكبتها" ليقوله قبل الحكم عليه فى قفص الاتهام، وعندئذ نهض الرجل السمين وبدأ السير فى الحجرة. وقام بغلق وفتح أدراج. وكان لدى السيد (لدبتر) أمل عابر فى أن يقوم بخلع ملابسه، ولكن لا، لقد جلس إلى مكتبه وبدأ يكتب، ثم مزق أوراقًا. وفى الحال بدأت رائحة الورق المحترق المختلطة برائحة السيجار تتسرب إلى فتحتى أنف السيد (لدبتر).

وهمس السيد (لدبتر): "إن الموقف الذى افترضته "عندما أخبرنى بتلك الأشياء" كان سيئًا وكان ثمة قضيب مستعرض تحت الفراش ضغط رأسى، وألقى بقسم غير متناسب من وزنى على يدى، وبعد بعض الوقت أحسست بما يسمى تشنجًا فى الرقبة حسب ما أعتقد. وكان ضغط يدى على السجادة الخشنة أصبح مؤلمًا، كذلك آلمتنى ركبتى من ثنى البنطلون عليها. وكنت فى ذلك الوقت أرتدى ياقة مرتفعة أكثر مما أرتديه الآن، بنحو بوصتين ونصف البوصة فى الحقيقة. وقد اكتشفت ما لم ألحظه مسبقًا، كان ألمًا فى ثنايا وجهى لم أستطع التغلب عليه إلا بكرمشة شديدة لجبهتى وحاولت رفع رأسى ولكن حفيف الكم أزعجنى.

وبعد بعض الوقت تخليت عن هذا لأنه لحسن حظى أنى اكتشفت أن التواء الوجه يغير من وضع النظارة فوق أنفى وسقوطها

كان سيجعلها فى وضع منحرف وهذا لم يؤد إلى اتزانها علاوة على أنى كنت مصابًا بالبرد ورغبة متقطعة فى العطس وهذا لم يشعرنى بالراحة وفى الحقيقة أنه بخلاف القلق الداخلى من موقفى كانت آلامى الجسدية بعد فترة قصيرة كثيرة ولكننى كنت مضطرًا أن أظل بدون حراك.

وبعد وقت طويل ممل بدأ صوت صلصلة يعمق حتى أصبح إيقاعًا: صلصلة، صلصلة، صلصلة ـ خمس وعشرون صلصلة ـ دقة على المكتب ونخرة من الرجل صاحب الساقين القويتين. وقد عرف السيد (لدبتر) أن هذه الصلصلة هى صلصلة الذهب، مما جعل الفضول يتملكه مع استمرار الصلصلة. فإذا كان هذا هو الحال، فإن هذا الرجل العجيب يكون قد عدّ بضع مئات من الجنيهات. وأخيرًا لم يستطع السيد (لدبتر) المقاومة أكثر من ذلك، فبدأ باحتراس فى عقد ساعديه وخفض رأسه حتى مستوى الأرضية على أمل أن يسترق النظر من تحت الستارة. وحرك قدميه فأحدثت إحدى رجليه حكة على الأرضية. وفجأة توقفت الصلصلة، فجمد السيد (لدبتر)، وبعد لحظة عادت الصلصلة، ثم توقفت ثانية، وساد السكون، ما عدا قلب السيد (لدبتر) –هذا العضو العضلى الذى بدا له وكأنه يدق مثل الطبل.

استمر الصمت، وكان رأس السيد (لدبتر) على الأرضية، واستطاع رؤية الرجلين السمينتين حتى القصبة. وكانتا ساكنتين، وكانت القدمان مستندتين على أطراف الأصابع ومتجهتين إلى الخلف تحت مقعد صاحبهما. وكان كل شىء ساكنًا، واستمر ساكنًا.

وتملّك السيد (لدبتر) أمل جارف بأن الشخص المجهول كان فى نوبة أو مات فجأة ورأسه على المكتب.

واستمر السكون. ماذا حدث؟ لقد أصبحت الرغبة فى استراق النظر لا تقاوم. وبكل حرص مد السيد (لدبتر) يده إلى الأمام وأبرز إصبعه وبدأ يرفع الستارة بجوار عينه. ولم يحطم السكون شىء. ورأى عندئذ ركبتى الغريب، ورأى ما وراء المكتب، وعندئذ أخذ يحملق فى ماسورة مسدس ثقيل مصوب من فوق المكتب إلى رأسه.

قال الرجل الضخم بنغمة من التركيز الهادئ: "اخرج أيها الوغد.. اخرج إلى هذا الجانب. والآن تحرك، ولا تأت بأى حيلة. تعال على الفور".

وخرج السيد (لدبتر) كارهًا دون أى حيل وفى الحال كما قيل له.

قال الرجل السمين: "اركع وارفع يديك". ونزلت الستارة ثانية خلف السيد (لدبتر)، ووقف رافعًا يديه. وقال الرجل السمين: "إنك تلبس زى كاهن، لقد حصلت البركة، أيها الوغد، يا من تقمصه الشيطان حتى أتى إلى هنا هذه الليلة! لماذا تقمصك الشيطان لتأتى وتتسلل تحت سريرى؟!".

ولم يبد أنه احتاج ردًا، وإنما تقدم فى الحال بملاحظات اعتراضية على مظهر السيد (لدبتر) الشخصى. ولم يكن رجلاً ضخم الحجم، ولكنه بدا قويًا للسيد (لدبتر). كان بدينًا مثل بدانة رجليه، وكانت ملامحه صغيرة واضحة كالمنحوتة بإزميل موزعة على مساحة كبيرة من وجه أبيض وعدد من الذقون. وكان بصوته نغمة هامسة خفيضة.

"أى شيطان ساقك تحت سريرى؟!".

ابتسم السيد (لدبتر) ابتسامة باهتة استعطافية، ثم سعل وقال: "إننى أستطيع أن أفهم..".

"لماذا! بالله عليك..؟ إنه الصابون! لا! أيها الوغد! لا تحرك تلك اليد".

قال السيد (لدبتر): "نعم، إنه الصابون من حوض الغسيل. لا شك إذا...".

رد الرجل البدين: "لا تتكلم، إننى أرى أنه الصابون، من بين كل الأشياء غير المعقولة".

"إذا كان لى أن أوضح..".

"لا تشرح. إنها كذبة بكل تأكيد، ولا يوجد وقت للشرح، فماذا كنت أريد أن أسألك؟ آه! هل لك رفاق آخرون؟".

"فى دقائق قليلة، إذا كنت..".

"هل لك رفاق آخرون؟ عليك اللعنة! إذا بدأت الجدل أو الخداع سأطلق عليك الرصاص. هل لك رفاق آخرون؟!".

أجاب السيد (لدبتر): "لا".

"إننى أفترض أنك تكذب". واستمر الرجل البدين قائلاً: "ولكنك ستدفع ثمن ذلك إذا كان ما تقوله صحيحًا. لماذا دفعك الشيطان للرقاد على الأرضية عندما صعدت أنا؟ لن تكون لديك فرصة بعد الآن على أى حال. تخيل وجودك تحت السرير! أعتقد أنها سرقة واضحة لا فكاك منها".

قال السيد (لدبتر): "أنا لا أعرف كيف أثبت أنى لم أكن موجودًا فى مكان السرقة". محاولاً أن يبين من خلال حديثه أنه رجل متعلم. وكانت هناك لحظة صمت. وأدرك السيد (لدبتر) أنه يوجد على كرسى بجوار آسره حقيبة على كومة من الورق المجعد، كما كان يوجد ورق ممزق وبقايا ورق محترق على المكتب. وأمام هذه الأشياء على الحافة كانت هناك صفوف وصفوف مرتبة من نقود ذهبية صفراء ملفوفة يفوق عددها ما قد رآه السيد (لدبتر) طوال حياته بمئات المرات، وقد سقط عليها ضوء شمعتين من شمعدانين فضيين. استمر الصمت. قال السيد (لدبتر) بابتسامة استنكارية: "من المتعب أن أرفع يدى بهذه الطريقة؟".

قال الرجل البدين: "بل إن هذا مناسب، ولكننى لا أعرف بالضبط ماذا أفعل بك".

"أنا أعلم أن موقفى غامض".

قال الرجل البدين: "يا إلهى! غامض! ويستمر فى كذبه مرتديًا ياقة كهنوتية عظيمة! إنك لص حقير، إذا كان هناك لص حقير!".

قال السيد (لدبتر): "لكى أكون أكثر دقة". وفجأة انزلقت نظارته واصطكت بأزرار صدريته.

وغير الرجل البدين من ملامحه، ومر شعاع من التصميم على وجهه، وقد وقعت عيناه على النظارة الأنفية الساقطة.

وصدر صوت طقطقة من المسدس ووضع الرجل البدين يده الأخرى على المسدس ونظر للسيد (لدبتر) وإلى نظارته الساقطة.

وقال الرجل البدين بعد فترة صمت وبدأ يلتقط أنفاسه: "إنك زعيم عصابة دون شك، ولكنى أقول لك إنك لم تقترب من الموت من قبل، كما أنت الآن. يا إلهى! أنا تقريبًا مسرور لأن المسدس لم يكن فى وضع الإطلاق، وإلا كنت الآن راقدًا ميتًا".

لم يقل السيد (لدبتر) شيئًا، ولكنه أحس بأن الحجرة تميد من حوله.

وصاح البدين بصوت عال: "إذا أخطأ الرامى فليست العبرة بالبعد عن المرمى. ومن حسن الحظ لكلينا أنه لم يكن. يا إلهى! ولا حاجة بك لأن يشحب لونك لسبب تافه مثل هذا".

أجاب السيد (لدبتر) بمشقة: "أستطيع أن أؤكد لك، يا سيدى...".

فقال الرجل البدين "يوجد شىء واحد علىّ علمه فلو استدعيت الشرطة سيقبض على أما إذا ربطتك وتركتك سيعرف هذا فى اليوم التالى وغدًا يوم أحد ويوم الاثنين هو إجازة البنوك فأنا اعتمدت على ثلاثة أيام - فقتلك بالرصاص هو جريمة عقابها الشنق!

فسأل السيد (لدبتر) "هل تسمح لى".

فقال الرجل البدين "إنك تتكلم كما لو كنت كاهنًا حقيقيًا! لا تستمر فى هذا الجدال الطائش وإلا أطلقت عليك الرصاص فى بطنك فهل فهمت؟ ولكنى أعلم الآن! ماذا علينا أن نفعل أولاً وهو أن أفتشك بحثًا عن أى أسلحة مخبأة! عندما أطلب منك عَمل شىء ما فلا تبدأ فى الثرثرة وإنما افعله بكل سرعة".

وأوقف الرجل البدين السيد (لدبتر) أمامه وبحث عن الأسلحة متخذًا الكثير من الاحتياطات ودائمًا مصوبًا مسدسه إلى رأسه.

"لماذا أنت لص! فأنت هاو تمامًا فليس لديك جيب لمسدس خلف بنطلونك لا ليس لديك واحد! والآن، اخرس".

وبمجرد أن قرر ذلك أمر الرجل البدين مستر (لدبتر) أن يخلع جاكته ويطوى أكمام قميصه وصوب مسدسه إلى إحدى أذنيه وتقدم بالتعبئة فمن وجهة نظر الرجل البدين كان هذا هو الترتيب الوحيد الممكن لأنه لو حزم الذهب كان عليه أن يترك المسدس وعندئذ يستطيع السيد (لدبتر) أن يتناول الذهب من على المنضدة. فكانت فكرة الرجل البدين واضحة أن يوزع وزن الذهب ـ دون أن يلفت الأنظار ـ بين أمتعته، وكان وزنًا معقولاً وكان كما قال السيد (لدبتر) تقريبًا ١٨,٠٠٠ ألف جنيه من الذهب فى الحقيبة السوداء على المكتب كذلك كانت هناك لفافات من العملة الورقية فئة الخمسة جنيهات كل لفة ٢٥ جنيها لفها السيد (لدبتر) فى ورق ثم وضعت هذه اللفات بنظام فى صناديق السيجار ووزعت على سحارة (صندوق) سفر وشنطة ماركة "جلادستون" وصندوق قبعات فى حين وضعت حوالى ٦٠٠ جنيه فى علبة طباق فى شنطة ملابس، وعشرة جنيهات ذهب وعملات ورقية فئة 5جنيهات وضعها الرجل البدين فى جيبه وكان يوبخ السيد (لدبتر) من وقت لآخر لعدم حنكته وحثه على الإسراع، ولف السيد (لدبتر) الشريط حول الصندوق وأعاد المفاتيح للرجل البدين وكان الوقت آنذاك: الحادية عشرة وخمسين دقيقة وحتى دقت الساعة منتصف الليل، جعل

الرجل البدين السيد (لدبتر) يجلس على الحقيبة بينما جلس هو على مسافة آمنة على الصندوق ممسكًا بالمسدس فى يده ومنتظرًا وكان سلوكه أقل عدوانية وبعد مراقبته للسيد (لدبتر) لبعض الوقت قام بإبداء بعض الملاحظات.

قال الرجل البدين "من لهجتك أحكم أنك رجل متعلم نوعًا ما" قالها وأشعل سيجارًا وقال: "لا تبدأ فى الشرح فأنا أعلم من ملامح وجهك أنه سيطول وأنا رجل كذاب قديم فلا أهتم بكذب الآخرين فأنا أقول إنك شخص متعلم وأنت تفعل جيدًا عندما تلبس مثلى بالفعل حتى بين المتعلمين سيظنونك كاهنًا".

"أنا كاهن حقًا أو على الأقل..".

"أنت تحاول أن تكون، فأنا أعلم ذلك، ولكن يجب عليك ألا تسطو فأنت لست من يسطو فأنت إن جاز لى التعبير قد حدد لك الأمر من قبل - جبان".

قال السيد (لدبتر): "هل تعرف؟" محاولاً أن يجد مدخلاً: "إنه هو نفس السؤال..".

فأشار إليه الرجل البدين بالسكوتِ وقال "أنت تضيع تعليمك بالسطو، فعليك عمل شىء من اثنين إما ان تزوّر وإما أن تختلس فأنا أختلس نعم أنا أختلس - ماذا تظن أن يفعل الإنسان بكل هذا الذهب إلا الاختلاس؟ آه - استمع - عند منتصف الليل العاشرة - الحادية عشرة - الثانية عشرة يوجد شىء مؤثر لى فى الدقات البطيئة للساعة - الوقت - الفراغ - يا له من غموض وأسرار! آن الوقت أن نتحرك - قف!".

وبحزم وشفقة أقنع السيد (لدبتر) أن يضع الحقيبة على ظهره وربطها بحبل رفيع حول جسمه ورفع الصندوق على كتفه وتنفس وأخذ الحقيبة (الجلادستون) فى يده الفارغة وكافح السيد (لدبتر) نازلاً وقد تبعه الرجل البدين بمعطفه وصندوق القبعات والمسدس معطيًا ملحوظة باحتقار عن قوة السيد (لدبتر) ومساعدًا له عند منحنيات السلم.

وأعطى الرجل البدين تعليماته: "الباب الخلفى" وترنح السيد (لدبتر) خلال صوبة[٣] تاركًا أثره بين أصص الأزهار المحطمة خلفه "لا تهتم بأصص الزهور" هكذا قال الرجل البدين "إنها معدة لتباع سننتظر هنا حتى الثانية عشرة والربع يمكنك إنزال الحقيبة! هيا!".

وانهار السيد (لدبتر) لاهثًا على الصندوق وقال "الليلة الماضية كنت نائمًا فى حجرتى الصغيرة ولم أحلم...".

"ليس لك حاجة أن تُجَرِّم نفسك" قالها الرجل البدين ناظرًا إلى قفل المسدس وبدأ يتمتم وحاول السيد (لدبتر) الكلام وفكر جيدًا فى الأمر.

ثم أتى فى الحال صوت جرس وأخذ السيد (لدبتر) إلى الباب الخلفى وأعطاه تعليمات أن يفتحه. فدخل رجل ذو شعر فاتح اللون مرتديًا ملابس بحارة وعندما رأى السيد (لدبتر) انتابه ذعر مفاجئ ثم رأى الرجل البدين فصرخ: "بنجهام! من هذا؟".

---

(٣) مستنبت نباتى للزراعة فى ظروف يمكن التحكم فيها من حيث الحرارة (المترجم).

"عمل من أعمال محبة البشر أقوم به ـ لص أحاول إصلاحه ـ أمسكته تحت سريرى ولكنه بخير فهو أحمق وجبان وسيفيدنا فى حمل بعض أشيائنا".

وكان الشخص الوافد يبدو مستاء من حضور السيد (لدبتر) ولكن الرجل البدين طمأنه: "إنه بمفرده ولا توجد عصابة فى العالم تمتلك شخصًا مثله ـ لا ـ ! لا تبدأ فى الكلام؛ لأجل ربنا".

وخرجوا فى الظلام فى الحديقة ولا يزال الصندوق فوق كتفى السيد (لدبتر) وتقدم الرجل الذى يرتدى ملابس البحارة ومعه حقيبة "الجلادستون" ومسدس ثم تبعه السيد (لدبتر) مثل "أطلس" ثم السيد (بنجهام) ومعه صندوق القبعات والمعطف والمسدس وكان المنزل واحدًا من تلك المنازل التى لها حديقة على الصخور وكان على الصخور سلم منحدر خشبى نازل إلى بحيرة تكاد لا ترى على الشاطئ وكان أسفلها قارب متوقف ورجل صامت ذو وجه أسمر واقفًا بجواره فقال السيد (لدبتر): "أرجو أن أشرح لك الأمر، يمكن أن أؤكد لك". فرفسه شخص ما فلم ينطق بكلمة بعدها.

وجعلوه يخوض الماء إلى المركب حاملاً الصندوق ثم جذبوه من كتفه وشعره إلى السفينة ولم يعطوه اسما إلا كلمة "وغد" و"لص" طوال الليل وكانوا يتكلمون بصوت خفيض وأوقفوه على سطح اليخت وعليه رجال شرقيون غير متعاطفين وغرباء وكانوا يدفعونه وكان يقع فى الممر فى مكان مظلم كريه الرائحة حيث كان عليه البقاء عدة أيام ـ كم عددها؟ لم يعرف لأنه فقد الإحساس بالعدد كما فقد الإحساس بأشياء أخرى لأنه كان يعانى دوار البحر وكانوا

يطعمونه بسكوتا ويتحدثون إليه بكلمات غير مفهومة وأعطوه ماء للشرب مختلطًا بشراب "الروم" غير المرغوب فى شربه كما كانت توجد حشرات "صراصير" حيث كان ليل نهار كمًا كانت الفئران تجول بالليل وقام الشرقيون بتفريغ جيوبه كما أخذوا ساعته وقد أخذها السيد (بنجهام) لنفسه كما حاول البحارة الخمسة ـ إذا كانوا بحارة ـ والرجل الصينى والزنجى الذين كانوا بحارة اليخت وأرهقوه ثم أخذوه إلى "بنجهام" وصديقه ليلعبوا ألعاب الورق والجوكر وألعابًا أخرى وليسمع قصصهم وتباهيهم بطريقة ممتعة ثم يتحدث الرؤساء الثلاثة له كما يتحدث الرجال الذين عاشوا حياة الجريمة ولا يسمحون بأى تفسير أو شرح رغم أنهم أوضحوا كثيرًا له أنه لص سكير حقير لم يروا مثله وقالوا الكثير والكثير مرارًا وتكرارًا وكان الرجل يميل إلى قلة الكلام ولكن السيد (بنجهام) أظهر مسحة من الفلسفة المعتدلة وقد ضخم سر المكان والزمان واقتبس مقولات "كانت"(٤) و"هيجل"(٥) أو على الأقل هذا ما قاله وفى مرات عديدة حاول السيد (لدبتر) قول: "مكانى تحت سريرك كما تعلم.." ولكنه دائمًا ما كان يتوقف أو يمرر "الويسكى" أو يعمل أى عمل اعتراضى وبعد فشله الثالث بدأ الرجل الأشقر ينتظر هذا الاستهلال وكلما بدأ به السيد (لدبتر) بعد ذلك كان يزأر ضاحكًا ويضربه بعنف على ظهره "نفس البداية القديمة ـ قصة قديمة، أيها اللص الطيب!" هذا ما قاله الرجل الأشقر.

(٤) عمانوئيل كنت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) أحد أعظم الفلاسفة الألمان (المترجم).

(٥) جورج ولهلم هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) فيلسوف ألمانى (المترجم).

وهكذا عانى السيد (لدبتر) لعدة أيام ربما بلغت العشرين يومًا وذات مساء أخذوه مع بعض المواد المعلبة إلى الشاطئ على جزيرة صخرية بها ينبوع ماء وجاء السيد (بنجهام) فى القارب بجانبه وكان ينصحه طوال الوقت ويحاول أن يشرح له على انفراد.

قال السيد (لدبتر): "أنا لست لصا"، رد عليه السيد (بنجهام) قائلاً: "وأنت لن تكون أبدًا فأنت لا تصلح أن تكون لصًا. وأنا مسرور أنك بدأت ترى ذلك فعند اختيار مهنة لابد للإنسان أن يدرس الحالة المزاجية فإذا لم تدرس فإنك حتمًا ستفشل قارن شخصى مثلاً فأنا قضيت طيلة حياتى فى البنوك أبليت بلاء حسنًا فى البنوك وقد وصلت إلى مدير بنك ولكن هل كنت سعيدًا؟ أبدًا - إذن لماذا لم أكن سعيدا؟ لأن هذا لم يناسب حالتى المزاجية فأنا أميل إلى المغامرة الكثيرة فأنا متعدد الجوانب وعمليًا أنا تركت هذه المهنة وأعتقد أننى لن أعمل مدير بنك ثانية وإن كانوا يريدون أن يستخدمونى لإدارة بنك ولكنى لن أقبل فقد تعلمت الدرس الخاص بالحالة المزاجية أخيرًا..

"لا! أنا لن أدير بنكًا مرة ثانية والآن حالتك المزاجية لن تؤهلك لارتكاب جريمة كما أن حالتى المزاجية لن تسمح لى بالاحترام فأنا أعرفك أكثر الآن ولا أوصى بالتزوير فعد إلى طرقك المحترمة فإن شخصيتك محبة للبشر، فكر فى ذلك جيدًا. من الواضح أن الجزيرة التى نقصدها ليس لها اسم على الأقل على هذه الخارطة ففكر فى اسم لها وأنت هناك ففيها مياه صالحة للشرب فهى إحدى الجزر المواجهة للريح هى جزيرة الرمان وهناك الظلام

والزرقة فى الجزر الأخرى من جزر الرمان وتوجد كميات كبيرة من الرمان ولكن الغالبية تبعد عن البصر وقد تعجب كثيرًا من أهمية هذه الجزر والآن كما ترى أنا الآن أعقل وأحكم فهذه الواحدة هى لك فإن عاجلاً أو آجلاً سيأتى بعض الوطنيين ويطردونك فقل ما يحلو لك عنا، أسئ لنا إذا أردت ذلك فنحن لا نهتم بأى جزيرة وها ما قيمته ٢/١ جنيه من الفضة فلا تضيع هذا فى ملذاتك عندما تعود للحضارة فإذا استخدمته بعقل يمكن أن تكون بداية موفقة لك.

" لا تفسد أو تضيع الوحدة القيمة أمامك فى أفكار حمقاء فلو استخدمت هذه النقود بحكمة يمكن أن تكون نقطة تحول فى مستقبلك ـ لا تضيّع النقود أو الوقت وستموت غنيًا ـ أنا آسف ولكنى أسألك أن تحمل حقيبتك إلى اليابسة فى يديك ـ إن المياه ليست عميقة ـ العن شرحك أو تفسيرك! لا يوجد وقت ـ لا ـ لا! أنا لا أسمع، اذهب إلى السطح!".

وعندما حل الليل وجد السيد (لدبتر) والذى كان اشتكى من هذه المغامرة راقدًا بجوار معلبات الطعام وذقنه مستندًا على ركبتيه ناظرًا من خلال نظارته فى اعتدال ورعب إلى هذا البحر الفارغ اللامع.

وقد التقطه بعد ثلاثة أيام صياد زنجى وأخذه إلى سانت (فنسنت) ومن هناك بتكاليف نقوده الباقية إلى (كنجستون) فى (جامايكا) وهناك لم يكن لديه أية فكرةعما يجب عليه عمله والشىء الوحيد الذى قام به هو زيارة كل كهنة الدين الذين وجدهم

فى المكان حتى يقرضوه رحلة العودة ولكنه كان قذرًا ومشوشًا وقصته لم يصدقوها وقد قابلته صدفة عند غروب الشمس وكنت أتمشى بعد قيلولة الظهر فى طريقى إلى "دنزبترى" كنت متضايقًا ـ لحسن حظه وكان يمشى بتثاقل نحو المدينة وكان وجهه المكروب وملابسه القذرة والمبقعة بالتراب جذبا حاستى الفكاهية ـ تقابلت أعيننا.. تردد ثم قال وقد التقط أنفاسه: "هل يمكنك أن تعطينى بضع دقائق لتسمع قصة على ما يبدو لى ستبدو لك غير معقولة؟". فقلت: "غير معقولة!" فأجاب: "إلى حد كبير لا يصدقها أحد رغم أنى غيرت فيها ولكنى أؤكد لك ـ سيدى..".

وتوقف بيأس وقد هزتنى لهجة الرجل فكان يبدو شخصية غريبة "أنا أحب سيئ الحظ فى العالم أجمع".

"بين أشياء أخرى إنك لم تتناول غداء؟" قلت هذا وقد خطرت لى فكرة. "أنا لم أذق الطعام لعدة أيام". قالها بوقار: "ستقولها أحسن بعد ذلك". قلت هذا ودون أى لغط قدت الطريق إلى مكان رخيص لا يُحتمل أن يغضبوا من ملابسه وهناك ـ ببعض الحذف والذى أضافه فيما بعد ـ علمت قصته. وقد كنت أولاً غير مصدق ولكن عندما سرت الحرارة فى جسمه من تناول النبيذ واقتراح باهت بالخنوع والذى زادت منه مآسيه اختفى كل هذا فبدأت أصدق وأخيرًا اقتنعت بإخلاصه لدرجة أننى ضيفته تلك الليلة، وفى اليوم التالى تحققت من مرجعية صديقى من بنك جامايكا وبعد ما فعلت ذلك أخذته لبعض المشتريات (ملابس داخلية وما شابه ذلك ليكون "سيدًا مهذبًا") وفى الحال أتى المرجع الذى حقق

الكلام فقد كانت قصته المدهشة حقيقية وأنا لن أضخم من المقدمات فقد بدأ الرحيل إلى إنجلترا فى ثلاثة أيام.

"لا أعرف كيف أشكرك" هذه كانت بداية الخطاب الذى أرسله من إنجلترا "على كل ما عملت معى كرجل غريب تمامًا" واستمر لفترة بنفس اللهجة "فلو لم تكن مساعدتك الكريمة لى لم أكن أرجع فى الوقت المناسب لاستئناف واجباتى الدراسية ولكانت لحظات استهتارى وحماقتى قد دمرتنى أما الحال كما هو الآن فأنا واقع فى نسيج من الكذب والهروب من أشدها تعقيدًا لأفسر مظهرى والذى لوحته الشمس وأماكن وجودى فأنا قد حكيت قصتين أو ثلاث قصص مختلفة غير مدرك المتاعب التى يسببها ذلك فى النهاية، فالحقيقة لا أجرؤ أن أقولها فأنا استثمرت عددًا من كتب القانون فى المتحف البريطانى ولا يوجد أدنى شك أننى تسترت على جريمة وحرضت وساعدت مجرمًا فهذا الوغد (بنجهام) كان مدير بنك (هيثروجيت) هو حسب ما وجدت أكبر مختلس. فمن فضلك، أحرق هذه الرسالة عندما تنتهى من قراءتها فأنا أثق فيك. إن عمتى كانت تدير هذا المنزل "بيت الغرباء" الذى كنت مقيمًا به ربما لا تصدق أن مثل هذه المغامرة ممكن حدوثها، وتقول عمتى إنها تسامحنى إذا قلت لها كل شىء وأنا قلت لها كل شىء وأكثر. ولكنها ليست قانعة ولن تقنع حتى تعرف الحقيقة كاملة، ومازلت أتساءل لماذا أخذونى فى اليخت معهم فأنا لا أعرف فهل يمكنك أن تقترح أى سبب؟ فأنا لا أستطيع التفكير فى شىء فإذا كتبت فاكتب فى صفحتين حتى يمكننى أن أريها واحدة وفى هذه إذا أمكنك أنه تبين بوضوح أننى كنت فى (جامايكا) هذا الصيف وأننى أتيت إلى هناك بعدما نقلونى

من السفينة فستكون هذه خدمة كبيرة لى وسيضيف إلى شكرى الجزيل لك أخشى أننى لن أستطيع رد جمائلك ومع أن الاعتراف بالجميل.." وما شابه ذلك. وفى النهاية كرر طلبه بإحراق هذه الرسالة.

وهكذا فإن القصة الشهيرة لإجازة السيد (لدبتر) تنتهى وهذا الجفاء مع عمته لم يدم طويلاً فقد سامحته السيدة العجوز قبل موتها.

الجثة المسروقة

كان السيد (بيسل) الشريك الأكبر فى شركة (بيسل وهارث وبراون).. الكائنة بفناء كنيسة سانت بولس.. وطوال سنوات كثيرة كان الأكثر شهرة بين أولئك المهتمين بالأبحاث الفيزيائية كباحث حر الفكر وذى ضمير حى.

كان رجلاً غير متزوج،وبدلاً من أن يعيش فى الضواحى مثل عادة طبقته الاجتماعية، كان يستأجر شقة له فى (ألبانى) قريبًا من (بيكاديلى). وكان مهتمًا بوجه خاص بموضوع انتقال أو تحويل الأفكار وأشباح الأحياء. وفى نوفمبر عام ١٨٩٦ ابتدأ سلسلة من التجارب متعلقة بالسيد (فينسىِ) من فندق (ستيبل) بغية اختبار صحة الزعم بالقدرة على إظهار شبح أو طيف للمرء بقوة الإرادة فى الفضاء الذى نعيش فيه.

تم إجراء تجاربهما بالطريقة التالية: فى ساعة متفق عليها مسبقًا، أغلق السيد (بيسل) باب إحدى حجرات شقته بألبانى على نفسه، بينما جلس السيد (فينسى) على مقعده بفندق ستيبل، وركز كل منهما ذهنه تمامًا على الآخر. السيد (بيسل) كان يجيد فن

التنويم المغنطيسى الذاتى.. ولذلك حاول بقدر إمكانه أن ينوّم نفسه مغنطيسيًا.. ثم يفرض نفسه كشبح لإنسان حى عبر الفضاء الفاصل بينهما هو و(فينسى) لمسافة حوالى ثلاثة كيلو مترات. وتم تكرار المحاولة فى ليال كثيرة بدون الحصول على أى نتيجة مرضية.. لكن فى المرة الخامسة أو السادسة رأى السيد (فينسى) أو توهم أنه رأى خيال السيد (بيسل) واقفًا فى حجرة نومه. وقال إنه رغم قصر مدة ظهور الشبح، فإنه كان واضحًا جدًا وحقيقيًا.. ولاحظ كذلك أن وجه السيد (بيسل) كان شاحبًا ويبدو عليه التوتر.. كما أن شعره كان غير مهندم بالمرة. وللحظة وبالرغم من حالة الترقب التى انتابت السيد (فينسى) فإنه كان مندهشًا للغاية لدرجة أنه لم يستطع التحدث أو الحركة.. وفى تلك اللحظة بدا له أن الشخص الذى أمامه نظر من فوق كتفه وفى الحال اختفى من أمام ناظريه.

وكان المتفق عليه بينهما أن يصور أى منهما الشبح الذى يراه.. لكن السيد (فينسى) لم يستطع أن يجمّع ذهنه ويمسك بالكاميرا التى يضعها دائمًا على الطاولة بجواره.. وعندما فعل ذلك، كان الوقت قد فات. ومع ذلك فقد شعر بالزهو من هذا النجاح المحدود وسجل الوقت بالضبط، وعلى الفور استقل عربة أجرة إلى (ألبانى) ليخبر السيد (بيسل) بهذه النتيجة العظيمة.

أدهشه أن يجد الباب الخارجى لمسكن (بيسل) مفتوحًا على مصراعيه فى الليل، والشقة من الداخل مضاءة وفى حالة غريبة من الفوضى.. وهناك زجاجة جعة فارغة محطمة على الأرض ويبدو أن عنقها تحطمت على دواية الحبر الموجودة على المكتب

ورقدت بجوارها.. وهناك طاولة مستطيلة تحمل تمثالاً برونزيًا وبضعة كتب مختارة مقلوبة بشكل أخرق.. وأسفل ورق الحائط المزدان بالزهور انطبعت صورة أصابع مبتلة بالحبر.. كما يبدو لمجرد تشويه منظر الحائط. وإحدى الستائر القماشية الرائعة ممزقة بعنف من حلقاتها العلوية وألقيت على النار حتى إن رائحة شياطها ملأت الحجرة. الحقيقة أن المكان بأكمله كان يتسم بالفوضى على أشدها.

لبضع لحظات لم يستطع السيد (فينسى)، الذى دخل وهو متأكد من أنه سوف يعثر على السيد (بيسل) جالسًا على مقعده المريح فى انتظاره، أن يصدق عينيه ووقف يحدق فى بلاهة فى تلك الأشياء التى لم تخطر له على بال.

وتحت تأثير تلك الكارثة فكر فى البواب القابع أسفل المبنى وذهب إليه وسأله "أين السيد (بيسل)؟.. هل تعرف أن كل الأثاث تحطم فى غرفته؟".. لم يقل البواب شيئًا.. لكنه أطاع أحاسيسه وجاء على الفور إلى شقة السيد (بيسل) ليرى الموقف بعينيه.. ثم قال وهو يتفحص الاضطراب الجنونى "لا أعرف يا سيدى شيئًا عن هذا.. لقد اختفى السيد (بيسل).. إنه مجنون!".

ثم قال للسيد (فينسى) إنه منذ نحو نصف ساعة خلت، أى تقريبًا فى نفس الوقت الذى ظهر فيه طيف السيد (بيسل) فى شقة السيد (فينسى).. اندفع الرجل المفقود من شارع (ألبانى) إلى شارع (فيجو) بدون غطاء رأس وبشعر أشعث ولم يلبث أن اختفى باتجاه شارع (بوند).. و"عندما مر بجوارى.. ضحك ضحكة لاهثة وفمه

مفتوح وعيناه تتقدان.. إننى أقول لك يا سيدى.. لقد أخافنى فعلاً.. فقد ضحك هكذا!". وطبقًا لتمثيله للضحكة فقد كانت شيئًا غير سار بالمرة.ثم أردف "ثم لوح بيده وكل أصابعه ملتوية كالمخالب ـ هكذا. ثم قال بصوت هامس عنيف "الحياة".. نعم هذه الكلمة فقط "الحياة!".

قال السيد (فينسى) "عزيزى.. تبًا.. تبًا.. لك الله!". لم يستطع أن يفكر فى أى شىء آخر ليقوله.. وبالطبع كان مندهشًا جدًا.. استدار من الغرفة إلى البواب ومن البواب إلى الغرفة وهو فى حيرة تامة.. وبخلاف اقتراحه بأن السيد (بيسل) سوف يعود على الأرجح قريبًا ليشرح لهما ما حدث، فإن مناقشتهما لم تكن لتستمر كثيرًا وقال البواب: "لعله ألم أسنان فظيع مفاجئ انقض عليه فجأة ودفعه إلى الهياج بهذا الشكل.. لقد مرت بى هذه الحالة من قبل وحطمت بعض الأشياء.. لكننى أعجب لماذا قال لى "الحياة" وهو يمرق بجوارى؟".

لم يعرف السيد (فينسى) الإجابة.. لكن السيد (بيسل) لم يرجع.. وأخيرًا ألقى نظرة جائرة حوله وكتب مذكرة استفسار قصيرة ووضعها فى مكان واضح على المكتب.. ثم عاد فى حيرة كاملة أدراجه إلى مسكنه بفندق (ستيبل). إن تلك الأحداث صدمته بقوة.. ولم يستطع أن يفسر تصرف السيد (بيسل) بناء على أى افتراض معقول.. حاول أن يقرأ لكنه فشل فى ذلك. فخرج محاولاً أن يسير قليلاً.. لكن الأفكار الغريبة طاردته فلم يجد حلاً إلا باستدعاء سيارة أجرة عند قمة شارع (شانسرى).. وأخيرًا دلف إلى فراشه ساعة كاملة قبل الوقت المعتاد لذلك.

ظل يقظًا لا يستطيع أن ينام لفترة طويلة بسبب تذكره للفوضى الصامتة بشقة السيد (بيسل).. ولما تمكن فى نهاية الأمر من النعاس لم يلبث أن رأى صورة واضحة ومؤلمة للسيد (بيسل)؟ رأى فى حلمه أن السيد (بيسل) يومئ بعصبية ووجهه شاحب وملتو.. وكانت حركاته توحى، جنبًا إلى جنب مع مظهره الذى لا يمكن تفسيره، بأنه فى حالة خوف رهيب.. حيث ينبغى عمل شىء. بل إنه حتى يعتقدأنه سمع صوت زميله فى البحث العلمى يستغيث به، برغم أنه اعتبر ذلك فى هذا الوقت وهمًا. وظل هذا الانطباع الواضح مستمرًا حتى بعدما استيقظ السيد (فينسى).

ظل مستلقيًا بعد استيقاظه لفترة من الوقت وهو يرتعد وسط الظلام.. ويطارده خوف غامض لا يمكن تفسيره بحدوث احتمالات معينة منبثقة من الأحلام حتى لأشجع الرجال. وفى النهاية سيطر على نفسه واستدار فى فراشه وخلد إلى النوم مرة أخرى.. لكن لم يلبث نفس الحلم أن عاوده وبوضوح أقوى من ذى قبل.

استيقظ ولديه اعتقاد قوى بأن السيد (بيسل) فى كرب شديد ويحتاج إلى المساعدة فورًا لدرجة أنه لم يستطع النوم من جديد.. كان مقتنعًا أن صديقه اندفع إلى فاجعة رهيبة.. وظل راقدًا لفترة وهو يفكر عبثًا ضد هذه الفكرة.. لكن فى النهاية استسلم لها.. واستيقظ، ولكن بخلاف أى منطق معقول فقد أشعل سيجارًا وارتدى ملابسه وطفق يجوب الشوارع المهجورة ـ التى هجرها الناس، بخلاف شرطى يسير فى صمت وعربات الصحف اليدوية المبكرة ـ باتجاه شارع (فيجو) ليسأل عما إذا كان السيد (بيسل) قد عاد.

لكنه لم يعد قط. وبينما هو يسير فى شارع (لونج إيكر) أبعده دافع لا يستطيع فهمه جانبًا بعيدًا عن هذا الشارع باتجاه حدائق (كوفنت) التى أوشكت أن تزدهر أنشطتها الليلية.. ورأى السوق أمامه.. وأحس بشعور غريب من تلك الأضواء الصفراء المتألقة والأشكال السوداء النشطة. ثم سمع صراخًا وأدرك أن هناك إنسانًا يدور فى الركن حول الفندق ويستدير بسرعة تجاهه.. وعلى الفور أدرك أن هذا الشخص هو السيد (بيسل).. لكنه كان ذا منظر مغاير تمامًا له.. كان بدون غطاء رأس، أشعث الشعر، ياقته ممزقة وممسكًا بعصا سير ذات مقبض عظمى بالقرب من حلقتها المعدنية الطرفية، وفمه منحرف إلى الجانب.. وأخذ يعدو سريعًا بخطوات رشيقة.. وعندما تقابلا هتف (فينسى) "(بيسل)!". لم يبد على الشخص الذى يعدو أى علامة على تعرفه على السيد (فينسى) ولا على اسمه هو نفسه.. وبدلاً من ذلك مر من جانبه بقوة وضربه بعصاه فى وجهه على مسافة بوصة واحدة من عينه. وأذهلت المفاجأة السيد (فينسى) وحيرته تمامًا وترنح إلى الوراء وفقد السيطرة على نفسه وسقط بقوة على الرصيف. وبدا له أن السيد (بيسل) قفز من فوقه وهو يسقط.. وعندما نظر مرة أخرى كان السيد (بيسل) قد اختفى.. ورأى بعض بوابى الحديقة ورجل شرطة وبائعين يركضون بسرعة فى طريق (لونج إيكر) فى مطاردة حامية لهذا الرجل المجنون.

وبمساعدة بعض المارة ـ حيث كان الشارع بأكمله مزدحمًا جدًا بالمارة النشطين ـ تمكن السيد (فينسى) من الوقوف على قدميه مرة أخرى.. وعلى الفور أصبح محور اهتمام المارة الذين حدا بهم

الفضول إلى رؤية إصابته.. وسمع أصواتًا كثيرة تطمئنه إلى سلامته وتخبره عن سلوك الرجل المجنون وهم يتابعونه بنظراتهم. كان قد ظهر فجأة فى وسط السوق وهو يصرخ "الحياة! الحياة!" وهو يضرب يمنة ويسرة بعصا السير الملطخة بالدماء.. وهو يرقص ويصرخ مع الضحك عند كل ضربة ناجحة!.. وكان هناك صبى وامرأتان شجت رؤوسهم كما كسر معصم رجل مر بجواره.. وارتمى طفل على الأرض وهو فاقد الوعى.. ولفترة من الوقت كان قد دفع كل الناس أمامه.. وكان يبدو هياجه التام وتصميمه على إلحاق الأذى بكل من يقترب منه.

ثم اقتحم كشكًا للقهوة.. وألقى مشعل (البارافين) من نافذة مكتب البريد.. ثم لاذ بالفرار وهو يضحك. بعد أن صعق أول شرطيين لحقا به وكانت لديهما الشجاعة لكى يهجما عليه.

بالطبع كان أول رد فعل للسيد (فينسى) هو الانضمام إلى المجموعة التى تطارد صديقه، على الأقل لإنقاذه من العنف الذى يمكن أن يصبه عليه الحشد الغاضب من المطاردين.. غير أن حركته كانت بطيئة فالضربة التى تلقاها هدت من قواه وأذهلته إلى حد ما.. وبينما هو فى هذا الموقف صاح بعضهم من وسط الزحام معلنًا أن السيد (بيسل) تمكن من الهرب من مطاردته.. فى البداية لم يصدق السيد (فينسى) ذلك.. لكن الإجماع على هذا الخبر جنبًا إلى جنب مع رجوع رجلى شرطة يائسين أقنعاه بذلك.

وبعد بعض الاستقصاءات التى لا جدوى منها، عاد باتجاه فندق (ستابل) وهو يحوّط بمنديله أنفه التى تؤلمه بشدة.. كان غاضبًا

ومندهشًا ومتحيرًا.. وبدا له مما لا شك فيه أن السيد (بيسل) فقد عقله تمامًا وسط تجاربه فى نقل الأفكار.. لكن لماذا يجعله ذلك يبدو بوجه شاحب حزين فى أحلام السيد (فينسى)، فهذا لغز لا يجد له أحد تفسيرًا.. وقدح زناد فكره بدون فائدة.. وبدا له أخيرًا أنه ليس فقط السيد (بيسل) هو المجنون وإنما لابد أن منظومة الأشياء كلها مجنونة كذلك!.

بيد أنه لم يجد شيئًا يستطيع أن يفعله.. وأغلق على نفسه باب حجرته، وأوقد نيران مدفأته، وهى مدفأة تعمل بالغاز ومبطنة بطوب (الأسبستوس)، وخشية أن تطارده أحلام جديدة لو نام، ظل يغسل ويضمد وجهه المصاب ويمسك بالكتب فى محاولة مستميتة لقراءتها حتى انبلج الفجر.. وطوال كل هذه الليلة كان لديه اقتناع غريب بأن السيد (بيسل) كان يحاول التحدث إليه، لكنه لم يكن ليسمح له بأن يُعنى بهذا الاعتقاد.

وحوالى الفجر عبّر تعبه الجسمانى عن نفسه، وذهب إلى السرير لينام ونام أخيرًا بالرغم من الحلم.. ونهض من نومه متأخرًا وهو مجهد ومتوتر،وعلى وجهه علامات الألم الشديد.. ولم تشر الجرائد الصباحية إلى أخبار الاضطراب الذى يعانى منه السيد (بيسل).. فقد وصل ذلك إليهم متأخرًا جدًا.. وفى النهاية أصبحت ارتباكات السيد (فينسى) ـ التى زادت حمى رضوضه وكدماته من إثارتها ـ لا يمكن تحملها.. وبعد زيارة غير مثمرة إلى ألبانى، ذهب إلى كنيسة سانت بول لمقابلة السيد (هارت)، شريك السيد (بيسل)، وطبقًا لما يعرفه السيد (فينسى) فهو أقرب أصدقائه،

وأدهشه أن يعرف أن السيد (هارت) رغم أنه لا يعرف شيئًا عن هذا الهيجان المفاجئ، قد أقلقته رؤيا.هي نفس الرؤيا التى رآها السيد (فينسى).. وفيها رأى السيد (بيسل) شاحبًا وغير مهندم وتعبّر ملامحه عن استغاثته طلبًا للمساعدة.. وكان ذلك انطباعه عن معنى إشاراته هذه وقال السيد (هارت): "كنت على وشك زيارته فى (ألبانى) عندما وصلت أنت..كنت متأكدًا أن هناك خطأ ما بالنسبة له".

وبعد أن تشاور السيدان المحترمان معًا، قررا أن يسألا فى (سكوتلانديارد) عن أخبار صديقهما المفقود.. وقال السيد (هارت) الأرجح أنه سوف يتم إيداعه السجن.. فهو لا يستطيع أن يستمر بهذه الحالة لفترة طويلة".. ولكن الشرطة لم تعتقل السيد (بيسل).. وأكدت ما قام به السيد (فينسى) طوال الليل، كما أضافت ظروفًا وحقائق جديدة، بعضها أكثر خطورة مما يعرف بالفعل، وهى قائمة بزجاج محطم بامتداد النصف الأعلى من طريق محكمة (توتنهام) وهجوم على شرطى فى طريق (هامبستيد) وهجوم وحشى على إحدى السيدات.. وتم ارتكاب كل تلك الأعمال المنكرة ما بين الثانية عشرة والنصف والثانية إلا ربع صباحًا، وبين هاتين الساعتين.. وفى الحقيقة من أول لحظة لاندفاع السيد (بيسل) من غرفته فى التاسعة والنصف مساء، أمكنهم تتبع أحداث العنف الشديد التى صاحبت أبحاثه الخيالية.. وفى الساعة الأخيرة ـ على الأقل من قبل الواحدة حتى الثانية إلا ربعًا ـ فقد اجتاح شوارع لندن وهو فى حالة جنونية وعدوانية.. وهرب برشاقة عجيبة من كل جهد بُذل لإيقافه أو إلقاء القبض عليه..

لكن بعد الثانية والربع صباحًا اختفى ولم يعثر له أحد على أثر.. وحتى تلك الساعة كان هناك شهود كثيرون.. فقد رآه عشرات من الناس أو طاردوه أو فروا منه.. ثم فجأة وصلت الأحداث إلى نهايتها.. ففى الساعة الثانية والربع شوهد وهو يركض فى شارع (إيستون) متجهًا إلى شارع (باكر).. حيث لوّح بعلبة من زيت (السَّلجم) الحارق وأخذ يقذف رشاشًا من اللهب على نوافذ المنازل التى مر بجوارها.. لكن لم يره أحد من رجال شرطة طريق (إيستون) خلف معرض (واكسوورك) ولا الشوارع الجانبية التى لابد أنه مر منها بعد أن ترك شارع (إيستون).. ثم فجأة اختفى.. وبعد ذلك لم يعرف أحد أيًا من تصرفاته اللاحقة بالرغم من متابعته الشديدة..

وهنا ظهر أمر جديد دعا إلى دهشة السيد (فينسى).. فقد ارتاح كثيرًا لاعتقاد السيد (هارت) فى أنه "الأرجح أنه سوف يتم إيداعه السجن، فهو لا يستطيع أن يستمر بهذه الحالة لفترة طويلة".. ومن منطلق هذا التأكيد، أصبح بمقدوره إيقاف التفكير فى كل ما يحيّر ذهنه.. غير أن أى تطورات جديدة بدا أنها ستضيف استحالات جديدة إلى الكومة الكبيرة التى تتجاوز بكثير قدراته على قبولها.. ووجد نفسه يشك فى ما إذا كانت ذاكرته قد خدعته، وأن أى من تلك الأشياء لم يكن ممكنًا أن يحدث.. وفى فترة ما بعد الظهر ذهب إلى السيد (هارت) مرة أخرى ليشاركه فى هذا الحمل الهائل على عقله.. غير أنه وجد السيد (هارت) مشغولاً فى حديث مع مخبر سرى شهير.. ولكن نظرًا لأن هذا السيد لم يحقق شيئًا بهذه المناسبة، فعلينا ألا نبالغ فى نتائج تحرياته..

طوال ذلك اليوم وتلك الليلة تعرضت منطقة جوار السيد (بيسل) لتحريات مكثفة متواصلة... وطوال ذلك النهار كان عقل السيد (فينسى) مقتنعًا بأن السيد (بيسل) يسعى لجذب انتباهه.. وطوال تلك الليلة طارده السيد (بيسل) بوجه مبلل بالدموع وفى غاية الضيق والكرب فى أحلامه.. وكلما رأى السيد (بيسل) فى أحلامه رأى معه عددًا من الوجوه الغامضة والمؤذية التى بدا له أنها تطارد السيد (بيسل)..

وفى اليوم التالى، الأحد، تذكر السيد (فينسى) بعض القصص الرائعة للسيدة (بولوك) الوسيطة الروحية التى بدأت فى ذلك الوقت تجذب الانتباه إليها فى (لندن) للمرة الأولى.. وقرر استشارتها.. وكانت تقيم بمنزل المخبر الشهير (د. ويلسون باجيت). والسيد (فينسى) - برغم أنه لم يقابل هذا السيد قط من قبل - قد أخبره برغبته فى طلب مساعدته.. ولكن بمجرد أن ذكر اسم (بيسل)، قاطعه الدكتور (باجيت) قائلاً "فى الليلة الماضية.. وتحديدًا فى نهايتها تحدثنا طويلاً معًا".

انصرف من الغرفة وعاد ومعه لوحة إردواز عليها بضع كلمات مكتوبة بخط اليد.. لم تكن الكلمات واضحة تمامًا، بل كانت مرتعشة.. لكن من المؤكد أنها مكتوبة بخط السيد (بيسل)!.. وقال السيد (فينسى) "كيف حصلت على هذه؟ وهل تعنى أن....؟".. فقال الدكتور (باجيت) "لقد حصلنا عليها ليلة البارحة". ورغم المقاطعات الكثيرة من السيد (فينسى)، فقد واصل شرح كيفية الحصول على تلك الكتابة.. ويبدو أن السيدة (بولوك) أثناء جلساتها لتحضير

الأرواح تدخل فى حالة من النشوة أو الغيبوبة.. إذ تتحرك عيناها بطريقة غريبة تحت جفنيها، كما أن جسدها يتخشب.. ثم تبدأ فى الكلام بسرعة فائقة وعادة بأصوات تختلف عن صوتها نفسه.. وفى نفس الوقت ربما تتحرك إحدى أو كلتا يديها.. ولو توفر أمامها ألواح الإردواز وأقلام رصاص فإنها تكتب رسائل فى نفس وقت تحدثها، والغريب أن تلك الرسائل تختلف تمامًا عن الكلام الذى تتحدث به!..

ويرى البعض أنها وسيط روحانى أكثر قدرة وشفافية عن الوسيطة الروحانية الشهيرة السيدة (بيبر).. وإحدى تلك الرسائل، وهى رسالة كتبتها بيدها اليسرى، موجودة الآن أمام السيد (فينسى).. وهى تتكون من ثمانى كلماته مكتوبة منفصلة عن بعضها البعض هكذا: "(جورج بيسل).... استخراج تجريبى.... شارع بيكر.... النجدة... مجاعة".. والغريب حقًا أن الدكتور (باجيت) والمحققين الآخرين الحاضرين لم يسمع أى منهم عن اختفاء السيد (بيسل).. إذ إن تلك الأخبار لم تظهر إلا فى صحف صباح السبت.. كما أنهم وضعوا جانبًا تلك الرسالة مع كثير من الأشياء الأخرى الغامضة والعجيبة وغير المفهومة التى تقوم بها السيدة (بولوك) من وقت لآخر..

وعندما سمع الدكتور (باجيت) قصة السيد (فينسى)، كرس نفسه على الفور لبذل كل طاقته فى متابعة هذا الخيط، لإكتشاف مكان السيد (بيسل).. ولن يفيدنا هنا الإفاضة فى وصف الاستقصاءات التى قام بها هو والسيد (فينسى) ولكن يكفينا القول

إن هذا الخيط كان جوهريًا فعلاً وأنه من خلاله تم اكتشاف مكان السيد (بيسل)..

تم العثور عليه فى قاع حفرة عميقة منفصلة تم حفرها ولم تستخدم عند بدء أعمال إنشاء السكة الحديدية الكهربائية بالقرب من محطة شارع (بيكر).. وإحدى ذراعيه وإحدى ساقيه واثنان من ضلوعه مكسورة.. وهذه الحفرة محمية بواسطة سور خشبى يبلغ ارتفاعه حوالى ستة أمتار.. ولابد أن السيد (بيسل)، وهو رجل بدين متوسط العمر فعل شيئًا يصعب تصديقه وهو أنه تسلق هذا السور ثم سقط فى الحفرة..

كان الرجل مشبعًا بزيت السَّلجم، وعلبة الزيت المحطمة ملقاة بجانبه، لكن من حسن حظه أن اللهب انطفأ بمجرد سقوطه.وحالة الجنون التى أصابته تبددت تمامًا.. لكنه بالطبع كان ضعيفًا للغاية.. وبمجرد أن رأى الفريق الذى هرع لإنقاذه، انخرط فى حالة من البكاء الهستيرى..

ونظرًا للحالة المزرية لشقته، نُقل إلى منزل الدكتور (هاتون) فى أول شارع (بيكر).. وهناك تم علاجه بالمسكنات.. والحيلولة دون وجود أى شىء يمكن أن يذكّره بالأوقات العنيفة والعصبية التى مر بها.. ومع ذلك ففى اليوم الثانى تطوع بالكلام وشرح ما حدث.. ومنذ ذلك الوقت والسيد (بيسل) يكرر هذا الكلام.. ولى شخصيًا ضمن كل الآخرين.. مع تغيير بعض التفاصيل مثلما يفعل أى قصاص لأحداث حقيقية حدثت.. لكنه لم يخالف أويناقض نفسه فى أى رواية منها.. وفيما يلى خلاصة مضمون أقواله..

ولكن لكى نفهم تلك الأقوال بطريقة صحيحة، من الضرورى أن نعود للأحداث التى وقعت له مع السيد (فينسى) قبل هجومه الغريب عليه.. وكما يتذكر القارئ فإن محاولات السيد (بيسل) الأولى للإسقاط الذاتى فيما يتعلق بتجاربه مع السيد (فينسى) كانت فاشلة.. ولكنه كان فى كل التجارب يركز على قدراته.. ويقول إنه بشأن الخروج من الجسد.... "يريد ذلك بكل طاقته وقوته".. وأخيرًا وبخلاف التوقعات تقريبًا تحقق النجاح.. ويؤكد السيد (بيسل) أنه وهو حىّ فعل ذلك بجهد إرادته وغادر جسده إلى مكان معين أو تقمصته حالة معينة خارج هذا العالم الذى يعيش فيه..

وكان التحرر كما يؤكد لحظيًا.. ويقول "فى لحظة معينة كنت جالسًا فى مقعدى وعيناى مقفلتان بقوة ويداى تمسكان ذراعى المقيد بقوة.. وأفعل كل ما بوسعى لتركيز ذهنى على (فينسى).. ثم أحسست بنفسى خارج جسدى.. ورأيت فعلاً جسدى بجانبى ولكن بعد أن غادرته روحى.. ويدىّ مرتخيتين ورأسى ساقطة إلى الأمام على صدرى".

لا شىء يمكن أن يزعزع ثقته فى تحرير روحه عن جسده.. وهو يصف بأسلوب هادئ وواضح وعملى الإحساس الجديد الذى شعر به.. أحس أنه أصبح غير محسوس.. وقد توقع ذلك إلى حد كبير.. لكنه لم يتوقع أن يجد نفسه ضخمًا بهذا الشكل.. ولذلك فقد بدا أنه أصبح كما يقول: "سحابة ضخمة ـ إذا جاز هذا التعبير ـ مثبتة بجسدى.. وبدا لى لأول وهلة أننى اكتشفت ذاتًا أو روحًا ضخمة لم يكن عقلى أو كيانى الواعى سوى جزء صغير منها.. ورأيت (ألبانى)

و(بيكاديللى) وشارع (ريجنت) وكل الغرف والأماكن المختلفة فى المنازل.. كلها صغيرة جدًا ومضيئة جدًا وواضحة تمامًا.. منتشرة تحتى كمدينة صغيرة أراها من بالون مرتفع فى الهواء.. ومن وقت لآخر تعمل أشكال مبهمة، مثل تجمعات متحركة من الدخان، على إضعاف أو انعدام الرؤية.. لكننى فى البداية لم أهتم كثيرًا بها.

"أكثر شىء أدهشنى ومازال يدهشنى أننى رأيت بوضوح فائق كل ما هو موجود داخل المنازل وأيضًا الشوارع.. ورجالاً ونساء يتناولون طعام العشاء ويتحدثون فى منازلهم الخاصة.. وكذلك رجالاً ونساء يتناولون طعام العشاء ويلعبون البلياردو ويحتسون المشروبات فى المطاعم والفنادق.. وكثيرًا من أماكن التسلية واللهو المكتظة بالناس.. فى الحقيقة كنت كمن يلاحظ كل ما يحدث فى خلية نحل زجاجية".

كانت هذه كلمات السيد (بيسل) بالضبط حسبما سجلتها له عندما أخبرنى بالقصة.. ونسى تمامًا السيد (فينسى) وظل لفترة معينة يلاحظ تلك الأشياء.. ويقول إنه بدافع الفضول حنى ظهره وفى وجود ذراعه الوهمية وجد فكرة معينة تطارده، وهى محاولة لمس رجل يسير فى شارع (فيجو).. لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك، رغم أن أصبعه مر من خلال الرجل.. شىء ما منعه من أن يفعل ذلك، لكنه لا يعرف ولا يستطيع وصف كنه هذا الشىء.. وهو يقارن هذه العقبة بلوح من الزجاج!..

قال: "أحسست بما تحس به القطيطة.. عندما تذهب لأول مرة لكى تربت على صورتها فى المرآة".. وسمعته بعد ذلك مرارًا وتكرارًا

يروى قصته، وفى كل مرة يعود السيد (بيسل) إلى تلك المقارنة بلوح زجاج المرآة.. بيد أن تلك المقارنة لم تكن دقيقة تمامًا، لأنه حسبما سيرى القارئ قريبًا جدًا، فقد كانت هناك توقفات لتلك المقاومة غير المنفذة عادة، بمعنى النفاذ خلال الحاجز إلى العالم المادى مرة أخرى.. ولكن من الطبيعى أن هناك صعوبة بالغة فى التعبير عن تلك الانطباعات غير المسبوقة بلغة حياتنا اليومية..

والشىء الذى أثر فيه كثيرًا وكان شديد الوطأة عليه طوال تجربته الغريبة هذه، كان سلوك هذا المكان.. بمعنى أنه كان فى عالم من الصمت والسكون لا تسمع فيه أى صوت من أى نوع.. وفى البداية كانت الحالة الذهنية للسيد (بيسل) عبارة عن دهشة رصينة غير انفعالية. حيث ركّز تفكيره أساسًا فى المكان المفروض تواجده به.. كان خارج جسمه، أى بدون بدنه المادى، لكن ذلك لم يكن كل شىء.. فهو يعتقد ـ وأنا معه فى ذلك ـ أنه كان خارج حدود المكان الذى نعرفه كلنا تمامًا..! وبمجهود خارق تمكّن من مفارقة جسده وذهب إلى عالم آخر غير عالمنا هذا.. عالم لم يحلم به إنسان قط.. ومع ذلك فهذا العالم الآخر قريب جدًا من عالمنا وموجود بالنسبة إليه بشكل غريب حقًا بحيث يمكن رؤية كل الأشياء على أرضنا هذه بوضوح تام من خارج ومن داخل هذا العالم الآخر المحدق بنا. وبدا له لوقت طويل أن هذه الفكرة شغلت ذهنه بحيث لم يهتم بأى شىء آخر. ثم تذكر الالتزام تجاه السيد (فينسى) الذى لم تكن تلك التجربة المدهشة أكثر من مقدمة له على وجه العموم..

الآن حوّل ذهنه إلى الحركة الموجودة فى جسده الجديد الذى وجد نفسه بداخله.. ولكن ظل لبعض الوقت غير قادر على الارتباط ببدنه الأرضى.. وظل جسمه الغامض الغريب يتأرجح ويتقلص ويتمدد ويتلوى ويلتف حول نفسه لبعض الوقت، إبان محاولاته لتخليص نفسه منه.. ثم فجأة انقطع الاتصال الذى يربطه.. وللحظة بدا له أن كل شىء يختفى وراء كرات دوارة من بخار قاتم.. ثم رأى من خلال ثغرة لحظية جسده المنحنى أو المتدلى يتقوض ويترهل.. ورأى رأسه الفاقد للحياة يهبط جانبيًا.. ووجد أنه ينطلق كسحابة ضخمة فى مكان غريب تكثر به السحب الظليلة التى تنتشر بها الإضاءة المعقدة للندن مثل نمط نموذجىّ بأسفل..

غير أنه أدرك الآن أن البخار المتردد من حوله كان شيئًا أكبر من البخار.. ومن ثم دهشته المتهورة لتجربته الأولى هذه كانت تتسم بالخوف.. إذ إنه تصور فى البداية على نحو غامض ثم بعد ذلك فجأة بوضوح تام أنه كان محاطًا بمجموعة من الأوجه!.. أن كل لفة من المادة الضبابية التى حوله وجه من الوجوه!.. ويالها من وجوه!.. وجوه من أشباح رفيعة، وجوه من غازات رقيقة.. وجوه مثل تلك الوجوه التى تتألق بغرابة شديدة على النائم فى الساعات السيئة من أحلامه.. عيون شريرة حاقدة ممتلئة بفضول اشتهاء ما لدى الغير.. وجوه ذات جبين مقطب وشفاه مزمومة مبتسمة.. أيديهم الغامضة تحاول التشبث بالسيد (بيسل) وهو يمر بجوارها.. وبقية أجسادهم عبارة عن خط محيِّر من ظلام متدلٍ على الأرض.. لا ينطق أحدهم بكلمة واحدة ولا تصدر أفواههم صوتًا وإنما يبدو أنها تبرير بأشياء مفهومة..

فى كل مكان حوله ضغطوا عليه فى هذا السكون الغامض، ومروا بحرية من خلال الضبابية المعتمة التى هى جسمه.. وأخذ عددهم يتزايد من حوله.. والآن ينطلق السيد (بيسل) الغامض، بعد أن أصابه الخوف فجأة، من خلال حشد نشط وصامت من العيون والأيدى التى تحاول التشبث به.. وكانت تلك الوجوه غير بشرية وذات نظرات خبيثة مؤذية وغامضة وذات إيماءات مخيفة ببراءتها لدرجة أنه لم يخطر ببال السيد (بيسل) أن يتصل بتلك المخلوقات المنساقة فى كل مكان. وبدت له كأشباح أو أطفال لرغبات عقيمة أو كائنات لم تولد وحُرمت من نعمة الوجود. ولا تدل تعبيراتها وإيماءاتها إلا على الحسد وَتَمنِّى الحياة التى هى صلتهم الوحيدة بالوجود.

ووسط السحابة الكثيفة من تلك الأرواح الشريرة الصامتة، كان مازال يفكر فى السيد (فينسى).. وبذل جهدًا هائلاً من إرادته ووجد نفسه - ولا يدرى كيف - ينطلق تجاه فندق (ستابل) ورأى (فينسى) هناك جالسًا منتبهًا ويقظًا فى مقعده ذى المسندين بجوار المدفأة.. وتحلق حوله، مثلما تحوم حول أى كائن حى يتنفس، حشد آخر من تلك الأشباح الصامتة العقيمة التى تتوق وتبحث عن منفذ أو مهرب إلى الحياة..

ظل السيد (بيسل) لفترة من الوقت يحاول بدون جدوى جذب انتباه أصدقائه إليه. حاول أن يصل إلى مكان أمام عينيه وأن يحرك الأشياء فى غرفته وأن يلمسه.. غير أن السيد (فينسى) ظل لا يتأثر وجاهلاً تمامًا بهذا الكائن القريب جدًا منه.. إن هذا هو

الشىء الغريب الذى قارنه السيد (بيسل) بلوح زجاجى يفصل بينهما ولا سبيل إلى اختراقه.. وأخيرًا قام السيد (بيسل) بعمل يائس.. وكما قلت فإنه يستطيع بطريقة عجيبة أن يرى ليس فقط الجانب المقطوع من جسد أى إنسان، وإنما ما بداخله أيضًا.. ومد يده الغامضة، ودفع أصابعه الداكنة المبهمة كما بدا له خلال الدماغ الغافل عنه..

ثم فجأة بدأ السيد (فينسى) يتصرف كرجل يستجمع أفكاره المشتتة.. وبدا للسيد (بيسل) أن جسمًا أحمر داكنًا صغيرًا موجود وسط دماغ السيد (فينسى) ينتفخ ويتوهج بضياء غريب.. ومنذ تجربته هذه، عرض عليه الأطباء أشكالاً تشريحية للدماغ، وهو يعرف الآن أن هذا الجزء عديم القيمة يسميه الأطباء "الغدة الصنوبرية".. وهذا الجزء الذى يبدو غريبًا للكثيرين يوجد فى أعماق دماغنا، حيث لا يمكنه أن يرى أو يشعر بأى ضوء أرضى..الغدة الصنوبرية!.. وفى ذلك الوقت كان ذلك وبقية التشريح الداخلى للدماغ جديد تمامًا عليه.. ولكن عندما رأى مظهرها يتغير، دفع أصبعه إلى الأمام ولمس هذه البقعة الصغيرة وهو خائف إلى حد ما من النتائج.. وفجأة بدأ السيد (فينسى) يتحرك، وأدرك السيد (بيسل) أنه قد رآه.

فى تلك اللحظة خطر على بال السيد (بيسل) أن شرًا حدث لجسده! وانتظر ريحًا عاتية تهب على كل عالم الظلال وتمزقه إربًا.. وكان ذلك الاقتناع قويًا جدًا لديه لدرجة أنه لم يعد يفكر فى السيد (فينسى).. وإنما تحوّل فى الحال، وعادت معه كل الوجوه

الكثيرة مثل أوراق الشجر فى عاصفة.. غير أنه عاد بعد فوات الأوان.. وفى لحظة رأى الجسد الذى تركه هامدًا ومتقوضًا ـ ممددًا بالفعل مثل جسد رجل مات لتوه ـ قد قام بفضل قوة وإرادة خفية تتعدى قدراته.. نعم، وقف الجسد وعيناه تحدقان وأخذ يحرك ويفرد أطرافه بشكل مريب.

راقبه للحظة فى فزع شديد.. ثم بعد ذلك انحنى تجاهه.. إلا أن اللوح الزجاجى أحدق به مرة أخرى وأصيب بالإحباط.. وضرب نفسه بقوة فى اللوح الزجاجى.. ومن حوله كل الأرواح الشريرة تبتسم وتشير إليه وتسخر منه.. واستسلم لغضب شديد، وقارن نفسه بطائر دخل صدفة فى غرفة وطفق يضرب بجناحيه اللوح الزجاجى الذى يحول بينه وبين الحرية.

انظرا.. الجسد الصغير الذى كان ذات مرة جسده هو يرقص الآن جذلاً وطربًا.. إنه يراه يصيح رغم أنه لا يستطيع سماع صياحه.. ويرى حركاته تزداد قوة وعُنفاً.. والآن يراقبه وهو يطيح بأثاثه العزيز عليه هنا وهناك فى خضم طربه المجنون بظهوره فى الوجود وأخذ يمزق كتبه إربًا ويحطم الزجاجات ويشرب بدون تعقل من القطرات الملتصقة بقطع الزجاجات المكسورة ويقفز فى مرح ويكيل الضربات لما حوله من شدة عواطفه المنبهرة بوجوده فى الحياة.

لاحظ تلك الأعمال وهو فى دهشة أقرب إلى الشلل.. ثم مرة أخرى اندفع ليصطدم بهذا الحاجز الذى لا يمكن المرور منه.. ثم وسط كل تلك المجموعة من الأشباح المستهزئة به من حوله عاد

مسرعًا إلى (فينسى) وهو فى أشد حالات الارتباك لكى يخبره بالانتهاك الفظيع الذى وقع له.

لكن عقل (فينسى) كان الآن مقفلاً ضد الأشباح والخيالات.. ومطاردته للروح المتحررة من جسد السيد (بيسل) بدون جدوى، وهو يهرع إلى (هولبورن) لكى يستدعى سيارة أجرة.. وتحت تأثير الإحباط والرعب سحب السيد (بيسل) نفسه مرة أخرى ليجد جسده المنتهكة حرمته ينطلق هادرًا فى حالة من الجنون المؤقت عبر الممر المقنطر (بورلينجتون آركيد).

الآن لا بد أن القارئ اللبيب المنتبه بدأ يفهم تفسير السيد (بيسل) للجزء الأول من هذه القصة العجيبة.. فالكائن الذى اندفع هائجًا فى شوارع لندن وسبّب كل هذا الذعر والضرر والكوارث كان فعلاً جسد السيد (بيسل) لكنه لم يكن السيد (بيسل) نفسه!.. إنه روح شريرة جاءت من عالم غريب عن عالمنا هذا وما حدث أن السيد (بيسل) غامر بالدخول فيه.. وطوال عشرين ساعة ظلت تلك الروح مسيطرة عليه، وطوال تلك الساعات العشرين ظل جسد السيد (بيسل) المغتصب الذى تسكنه الروح الشريرة ينطلق هنا وهناك فى ذلك العالم الوسيط الغامض الذى لم يسمع عنه أحد من الأشباح التى تطلب المساعدة بدون جدوى.

قضى ساعات عديدة يقرع فى ذهنى السيد (فينسى) وصديقه السيد (هارت).. وكان قد أيقظ كلاهما ـ كما نعرف ـ بجهوده الخاصة.. غير أنه لم يكن يعرف اللغة التى يمكنه أن ينقل بها موقفه إلى هذين المساعدين عبر الهوة التى تفصل بينهم.. وأخذت

أصابعه تتحسس طريقها بضعف ودون جدوى فى دماغيهما.. والحقيقة أنه تمكن مرة واحدة من تحويل السيد (فينسى) عن مساره.. بحيث قابل الجسد المسروق وهو ينطلق ويتحرك.. لكنه لم يستطع أن يفهم حقيقة ما حدث.. ومن ثم لم يستطع الحصول على أى مساعدة من تلك المقابلة.

وطوال تلك الساعات كان الاقتناع مسيطرًا تمامًا على ذهن السيد (بيسل) لدرجة أن جسده الآن قد يُقتل من جراء تصرفات ساكنه المخبول.. وعليه أن يبقى فى "أرض الظل" هذه لفترة أخرى قادمة.. وخلال تلك الساعات تزايد إحساسه بالذعر وأصابه الكرب منه.. وكلما أسرع هنا أو هناك خلال ثورته غير المجدية، تجمهرت حوله أرواح لا حصر لها من ذلك العالم وضايقته وأربكت ذهنه.. ولم يحدث أن طارد مثل هذا العدد من المصفقين الحاسدين حول رفيقهم الناجح مثلما حدث فى تلك التمثيلية الرائعة.

وربما يبدو من قصتنا هذه أن حياة تلك الكائنات غير المادية التى ليس لها أجساد من هذا العالم الذى هو ظل لعالمنا قد تكون هكذا.. إنهم يراقبوننا باستمرار ويتوقون إلى أى طريقة تمكنهم من الدخول فى أى جسم فانٍ حتى يمكنهم أن يهبطوا فيه كأرواح منتقمة أو مجنونة.. كشهوات عنيفة مسعورة ودوافع وبواعث غريبة تمرح وتطرب داخل الجسد الذى استولوا عليه. والسيد (بيسل) لم يكن هو الروح البشرية الوحيدة التى حدث لها هذا.. لاحظ حقيقة أنه قابل أولاً واحدًا ثم بعد ذلك أشباحًا كثيرة لرجال مثله تمامًا كما يبدو من الذين فقدوا أجسادهم.. حتى لو كان فقد جسده

وتجول بيأس فى هذا العالم المفقود الذى ليس فيه حياة ولا موت.. ولم يتمكن أحد منهم من الكلام لأن هذا العالم ساكن تمامًا.. إلا أنه عرف أنهم بشر من أجسامهم البشرية الباهتة ومن علامات الحزن والألم البادية على وجوههم.

لكنه لم يعرف كيفية دخولهم فى هذا العالم، ولا مكان وجود أجسامهم التى فقدوها.. سواء كانوا يهيمون حول الأرض أو حبسهم حاجز الموت إلى الأبد ومنعهم من العودة إلى الأرض.. أما أن هؤلاء كانوا أهم أرواح الموتى من البشر فلا هو ولا أنا نعتقد بصحة ذلك.. أما الدكتور (ويلسون باجيت) فإنه يعتقد أنهم أرواح عاقلة لرجال فقدوا عقولهم بالجنون على الأرض.

وأخيرًا عثر السيد (بيسل) بالصدفة على مكان احتشد به عدد قليل من تلك المخلوقات الصامتة المتحررة من أجسادها.. ولما اندفع وسطهم رأى بأسفل حجرة ذات ضوء باهر وأربعة سادة وسيدات أو خمسة ساكنين وامرأة بدينة ترتدى ملابس سوداء للحداد وتجلس بصعوبة فى أحد المقاعد ورأسها مائل إلى الخلف.. ومن شكلها الجانبى عرف أنها السيدة (بولوك) الوسيط الروحى.

وعلى الفور أدرك أن مناطق وأجزاء دماغها تشع وتتأجج.. مثلما رأى الغدة الصنوبرية فى دماغ السيد (فينسى) تتألق وتتوهج.. وكان الضوء متقطعًا ومتغيرًا.. أحيانًا ينطلق وميض قوى.. وأحيانًا مجرد نور خافت كنور الشفق.. وينتقل هذا الضوء ببطء فى كل مناطق دماغها. واستمرت السيدة تتكلم وتكتب بيد واحدة.. ورأى السيد (بيسل) أن الأشباح المزدحمة للأشخاص الواقفين من حوله وعدد

كبير من الأرواح الشبحية الموجودة بأرض الأشباح هذه يتدافعون ويتزاحمون لكى يلمسوا المناطق المضيئة من دماغها.

وعندما لمس أحدهم دماغها أو اندفع آخر جانبًا، تغير صوتها وخط يدها التى تكتب بها.. ولذلك فإن ما قالته كان أكثره مشتتًا ومختلطًا.. الآن جزء بسيط من رسالة أحد الأرواح.. ثم جزء بسيط من رسالة روح ثانية.. وأخذت تهذى بكلام غير مفهوم من أوهام وهلاوس مخبولة لأرواح يائسة من تحقيق رغبتهم.. ولم يلبث السيد (بيسل) أن أدرك أنها تتحدث عن الروح التى لمستها.. وعندئذ شرع فى التدافع الحماسى تجاهها.. لكنه كان خارج المجموعة المحتشدة حولها.. وفى ذلك الوقت لم يستطع أن يلمسها.. وأخيرًا وبعد أن ازداد توتره، ابتعد عنها ليعرف ما حدث فى ذلك الوقت لجسده.

أخذ يبحث لفترة طويلة عنه هنا وهناك، خوفًا من أن يكون قد قُتل، ولكن بدون جدوى.. ثم وجده فى قاع حفرة عميقة بشارع (بيكر). .,وهو يتلوى فى هياج ويصرخ من الألم.. وكُسر أحد ساقيه وإحدى ذراعيه وضلعان من صدره من جراء سقوطه فى هذا البئر.. كما أن الروح الشريرة كانت غاضبة جدًا لانتهاء وقتها بسرعة هكذا وبسبب الألم الذى حل بها.. مما جعل الجسد يتحرك بعنف ويتطوح فى كل اتجاه.

عندئذ قفل السيد (بيسل) عائدًا إلى حجرته، وقد ازداد جدية وتصميمًا، حيث تنعقد جلسات تحضير الأرواح.. وبمجرد أن أصبح على مرأى من هذا المكان.. رأى أحد الرجال الذين وقفوا حول الوسيطة الروحية ينظر إلى ساعته كما لو أنه يقصد أن جلسة

تحضير الأرواح يجب أن تنتهى فورًا. وعندئذ بدأ عدد كبير من الأشباح الذين كانوا يتدافعون يستدير وينصرف وعلامات اليأس بادية عليهم.

غير أن فكرة انتهاء جلسة تحضير الأرواح زادت من حماس وجدية السيد (بيسل).. وقاوم بكل إرادته ضد الآخرين.. حتى تمكّن الآن من الوصول إلى دماغ المرأة.. وتصادف أنه فى تلك اللحظة كان يتألق بإشراق شديد.. وآنذاك كتب الرسالة التى حفظها الدكتور (ويلسون باجيت).. وعندئذ تجمع الأشباح الآخرون وحشد الأرواح الشريرة من حوله وأبعدوا السيد (بيسل) عن المرأة.. وطوال بقية جلسة تحضير الأرواح لم يتمكن قط من استعادتها من جديد.

لذلك عاد أدراجه إلى البئر وظل طوال ساعات طويلة يحدق فى قاعه حيث قبعت الروح الشريرة داخل الجسد المسروق الذى شوهته، وهى تتلوى وتصرخ من الألم وتبكى وتتأوه وتئن وتتعلم درسًا عن مدى الإحساس بالألم. وقرب الفجر حدث الشىء الذى كان يترقبه.. إذ توهج دماغ المرأة بشدة وخرجت الروح الشريرة من جسد السيد (بيسل) وعندئذ دخل الرجل جسده الذى كان يخشى من عدم تمكنه من دخوله مرة أخرى.

لكن عندما فعل ذلك، فإن السكون القاتل انتهى.. وسمع جلبة المرور وأصوات الناس وهى تتكلم من حوله.. أما العالم العجيب الذى هو طيف لعالمنا هذا.. أو بعبارة أخرى الأشباح الصامتة ذات الرغبات غير المجدية التى لم تتحقق قط، وأشباح الناس المفقودين.. فقد اختفى تمامًا.

قبع هناك فى تلك الحفرة حوالى ثلاث ساعات حتى تم العثور عليه.. وعلى الرغم مما شعر به من معاناة وآلام من جروحه، ومن المكان الرطب المظلم الذى جثم فيه لبعض الوقت، وبالرغم من الدموع التى انسابت على وجنتيه من فرط إجهاده البدنى والكرب الذى ألمّ به.. فإن قلبه كان ممتلئًا بالرضا والسعادة إذ عرف أنه بعد كل ما حدث له، عاد مرة أخرى إلى عالم البشر الطيبين

كنز السيد (بريشر)

قال السيد (بريشر) شاردًا ممررًا راحة يده الغليظة على شاربه الجعد الذى يخفى نقيصة ذقنه: "لا تستطيع أن تكون فى غاية الحرص بشأن من تتزوج". فعلقت قائلاً "إذن ذلك هو السبب وراء..." فأجاب السيد (بريشر) قائلاً "نعم". وعندها بلغتُ عيناه الزرقاوان المائلتان للخضرة محركًا رأسه زافرًا أنفاسًا مليئة برائحة الخمر فى وجهى. وتفرست فى وجهه المتورد خجلاً وقسماته الاستوائية وإهماله فى مظهره وأطلقت زفرة عندما اعتقدت أنه من خلال منطلق عدم جدارة النساء فلابد أنه يريد أن يكون الأخير من نوعه.

وقال السيد (بريشر) "لقد كنت شابًا وسيمًا عندما كنت صغيرًا وحدث أنى فُصِلت من العمل ولكنى كنت حريصًا غاية الحرص واجتزت هذه المحنة". ثم اتكأ على مائدة البار وأخذ يفكر بشكل واضح فى مسألة جدارتى وشعرت بالارتياح أخيرًا بكسب ثقته وأخيرًا قال "لقد تزوجت ذات مرة" ثم نظر إلىّ".. أو شىء من هذا القبيل. واقع الأمر أن..." ونظر حوله واقترب منى خافضًا صوته

وانعزل عن عالم غير متعاطف وأضاف قائلاً: "إذا لم تكن قد ماتت أو تزوجت شخصًا آخر أو شيئًا من هذا القبيل فأكون لا أزال متزوجًا حتى الآن" وأكد على ذلك بحركات رأسه وإيماءات وجهه. ثم أضاف "ما أزال" منهيًا حواره المصحوب بالإيماءات وأخذته نوبة من الضحك بسبب دهشتى ثم فسر قائلاً "لقد هربت" ولكن لم يكن هذا كل شىء ولكنك لن تصدق ما سأقول فلقد وجدت كنزًا. وجدت كنزًا دائمًا". وتخيلت أنها سخرية ولم أقابل ذلك بدهشة ثم قال "نعم لقد عثرت على كنز. تعال للمنزل فأنا أخبرك أنه يمكننى أن أدهشك بأشياء حدثت لى" وأخذ يردد لبعض الوقت أنه عثر على كنز وتركة. ولم أبدِ اهتمامًا بسماع قصة أخرى ولكنى أصبحت فطنًا للحاجات الجسدية لـ (بريشر) وأعدته مجددًا لقصة السيدة الهاربة . فقال "لقد كانت فتاة لطيفة ومحترفة" ورفع حواجبه وضم فمه للتعبير عن الاحترام الشديد، أكثر من أمثالنا من الرجال العجائز".

"تعود القصة إلى مكان بعيد جدًا عن هنا إلى مدينة (إسكس) بالقرب من كلوتشيستر كان ذلك عندما نشأت فى لندن فى مجال مقاولات البناء. فلقد كنت شابًا وسيمًا وكنت أرتدى أفضل الثياب فلقد كنت أرتدى قبعة حريرية. ورفع (بريشر) يده إلى أعلى ليشير إلى طول قبعته الحريرية. "وشمسية. شمسية لطيفة ذات مقبض صلب. لقد كنت حريصًا للغاية". وظل شاردًا لبرهة يفكر - حيث إننا لابد أن تأتى علينا لحظة نقف فيها ونفكر - تأتى هذه اللحظة إن آجلاً أو عاجلاً - فى عنفوان الشباب المنصرم - ولكنه تخلى عن الوقار كما يفعل الجميع على مائدة البار. ومضى قائلاً: "لقد

تعرفت عليها من خلال رجل كان متزوجًا شقيقتها فلقد كانت تقيم فى لندن لفترة قصيرة مع خالة لها كانت تمتلك متجرًا للحوم الأبقار والخنازير. لقد كانت خالة مميزة ـ لقد كانوا جميعهم أناسًا مميزين.جميعهم كانوا كذلك ـ وما كانت لتدع شقيقتها ترحل مع ذلك الشخص الذى يسكن شمال لندن إلا إذا ذهبت معهما شقيقتها الأخرى، فتاتى.

لذلك فلقد أحضرنى معه للتخفيف من حدة الازدحام واعتدنا على الذهاب للتمشية فى متنزه باترسى مساء الأحد مرتديًا أبهى ثيابى وهو فى أفخر ثيابه وكانت الفتاتان فى قمة الأناقة. ولم يكن فى متنزه باترسى كثيرون فى مثل حالتنا. فهى لم تكن ما يمكن أن تسميها جميلة بل أجمل فتاة قابلتها على الإطلاق. فلقد أحببتها منذ البداية وكذلك هى أحبتنى. وتعرف كيف يكون الأمر فلن أفصح أكثر؟" وتظاهرت بأننى أعرف. "وعندما تزوج هذا الرجل بشقيقتها ـ ولقد كنا صديقين مقربين أنا وهو ـ لم يسعه سوى أن يبقينى قريبًا من (كلوتشيستر)، حيث أكون بالقرب من المكان الذى تقيم فيه وتعرفت على عائلتها وبعد وقت قصير جدًا تم ارتباطنا" وكرر قوله "ارتبطنا" . "وأقامت فى منزل والدها ووالدتها ـ تلك السيدة الجميلة ـ فى منزل صغير جميل يطل على حديقة وكم كانوا أناسًا محترمين. ويمكنك أن تصفهم بالأغنياء. فلقد كانوا يملكون منزلاً خاصًا بهم ـ حصلوا عليه من مشروع "بناء المجتمع" ـ ورخيصًا لأن الشاب الذى كان يملكه قبلهم كان لصًا وهو يقضى عقوبة السجن ـ ولديهم أيضًا قطعة أرض كانوا قد حصلوا عليها مجانًا فى القديم ولديهم بعض الأكواخ والأموال التى يستثمرونها وكل ذلك جميل

ومقبول، حيث يمكنك وصفهم بأنهم ميسورون. وسأخبرك عن الأثاث أيضًا. فلقد كانوا يملكون بيانو اعتادت (جين) - فلقد كان اسم فتاتى (جين) - أن تعزف عليه كل أحد وكانت تعزف عليه بإتقان ولم يكن هناك لحن لم تستطع عزفه. والتقينا فى كثير من الأمسيات وقمنا بالترتيل معًا أنا وهى وأسرتها. فلقد كان والدها عضوًا بارزًا فى الكنيسة حيث تراه كل يوم أحد يقاطع القسيس وينشد الترانيم. وأذكر أنه كان يرتدى نظارة ذهبية اعتاد أن ينظر إلىَّ من فوقها أثناء أدائه للترانيم - فلقد كان دائمًا عظيمًا عندما يرنم بقلبه إلى الله - وعندما كان يشدو بالترنيمة كان أغلب الناس ينشدون خلفه. فلقد كان من ذلك النوع من الرجال. ويجعلك السير خلفه مرتديًا ثيابه السوداء الأنيقة - وقبعته الرائعة - فخورًا دومًا بأنك مرتبط بابنة ذلك الرجل. وعندما كان يحل الصيف كنت أذهب إلى هناك وأمكث أسبوعين. وقال (بريشر) "والآن تعرف أن هناك نوعًا من التلهف فلقد أردنا أن نتزوج أنا و(جين) ولقد فعلنا وقمنا بتسوية الأمور ولكن والدها أشار أنه يتعين علىّ أولاً أن أجد وظيفة مناسبة ولذلك كان هناك نوع من التسرع فعندما ذهبت إلى هناك كنت مهتمًا بأن أظهر أننى شاب يمكنه فعل أى شىء بإتقان".

وأصدرت صوتًا يدل على التفاعل مع رواية (بريشر). "وفى أطراف حديقتهم كانت هناك قطعة أرض غير مزروعة لذلك قلت له لماذا لا نقيم أرجوحة هنا؟ فستبدو جميلة ولكنه قال إن ذلك سيكون مكلفًا للغاية. ولكنى أجبت: إن ذلك لن يكلفك شيئًا فأنا بارع فى مسألة إقامة الأرجوحات فسوف أصنع لك واحدة فلقد ساعدت شقيقى فى إقامة أرجوحة فى الحديقة الجرداء خلف

مضخته لذلك فأنا أعرف كيف تُصنع فسأصنع لك واحدة فبالرغم من أنى فى اجازة فأنا ذلك النوع من الشباب الذى لا يفضل ألا يفعل شيئًا". "وكان ذلك طريق وصولى إلى الكنز". فسألته "أى كنز؟" فأجاب (بريشر) "ماذا: الكنز الذى أخبرتك بشأنه وهو سبب عدم زواجى". "ماذا! ـ كنز ـ أحفر؟".

"نعم ـ ثروة مدفونة ـ كنز من النفائس يخرج من الأرض. ما ظللت أسميه "كنز دائم" ثم نظر إلىّ نظرة غير معتادة تنم عن الازدراء. "لم يكن يبعد عن باطن الأرض أكثر من عمق قدم" وقلت له "أكمل فأنا لم أفهم شيئًا". فقال (بريشر) "عندما صدمت الصندوق علمت أنه كنز وأخبرنى صوت ما. صوت بدا أنه يصرخ داخلى قائلاً "الآن فرصتك. فلتصمت وتتكتم الأمر، فمن حسن الحظ أننى كنت أعلم قوانين العثور على كنز وإلا لكنت أخبرت الجميع، فأنت تعلم القوانين...؟" فأجبته "نعم يحصل الملك على الكنز ويترك لك ١٪ فقط وماذا بعد أخبرنى ماذا فعلت". فأشار (بريشر) قائلا "قمت بفتح الصندوق فلم يكن هناك أى شخص فى الحديقة فلقد كانت (جين) تساعد والدتها فى تنظيف وترتيب المنزل. فلقد حاولت فتح القفل ثم قمت بالطرق على المفصلات فانفتح الصندوق فوجدته مليئًا بالعملات الفضية المتلألئة وشعرت برعدة تسرى فى جسدى عندما شاهدتها. وحينئذ شعرت بأننى محظوظ لأن جامع القمامة لم يقترب من فناء المنزل. وعندما أفكر فى مدى حماقتى إذا كنت أظهرت هذا الكنز يصيبنى ذلك بشبه أزمة قلبية. ثم سمعت بعد ذلك صوت الشاب الذى يسكن المنزل المجاور فلقد كان يقضى أجازة هو أيضًا ، وسمعته يروى أعواد

الفاصوليا فى حديقته فإذا به ينظر فجأة من فوق السور!". و"ماذا فعلت؟" "ركلت غطاء الصندوق وأغلقته ثم غطيته بسرعة ورحت أحفر على بعد ياردة منه ـ مثل المجنون. فلقد كنت فى خوف دائم على حظى. وساعتها فكرت أنه يجب أن يظل مخفيًا على مقربة وذلك كل شىء فكرت فيه. وهمست لنفسى قائلاً: "الكنز الذى أحتفظ به. كنز ومئات الجنيهات بل مئات مئات الجنيهات. وظللت أهمس لنفسى وأنا أحفر. وبدا لى أن الصندوق كان دائم الظهور والوضوح برغم التغطية ـ مثل أرجلك تحت الغطاء فى السرير ـ ثم رحت أضع كل الطين الذى رفعته من حفرتى التى صنعتها للأرجوحة فوق الصندوق. فلقد كنت أفعل ذلك فى عجالة وفى هذه الأثناء حضر والدها نازلاً الدرج ولم يقل لى شيئًا بل وقف خلفى وأخذ يحملق ولكن (جين) أخبرتنى بعد ذلك عندما دلف إلى الداخل انه قردك يا (جين)" فدائمًا ما كان يدعونى قردًا! "فهو يعرف كيف يجلس على هذه الأرجوحة، فهو يبدو معجبًا بها".

ثم سألته فجأة "كم كان طول الصندوق؟". فأجاب (بريشر) قائلاً: "كم طوله؟". "نعم ـ طوله" فأجاب "هذا الطول" مشيرًا بيديه إلى طول معتدل. فقلت له "ملىء بالفضة" فأجاب "ملىء بالعملات الفضية" فقلت له "إن ذلك يعنى مئات الجنيهات" فأجاب (بريشر) "بل آلافًا فلقد حسبته" "ولكن كيف وصلت إلى هناك؟". "كل ما أعرفه هو ما وجدته وما اعتقدته وقتها كان يتمثل فى أن الشاب الذى كان يملك هذا البيت قبل والد (جين) كان لصًا محترفًا أى ما يمكنك أن تسميه "مجرمًا محترفًا رفيع المكانة" اعتاد أن يركب عربة تجرها الخيول". وبذلك يكون (بريشر) يخفف من حدة كونه

راويًا فقط باستغراقه فى محاولة توفير تفسيراته وافتراضاته. "ولا أعرف ما إذا كنت قد أخبرتك من قبل أنه كان منزل لص قبل أن يكون منزل والد فتاتى. وأعرف أنه قام بمهاجمة قطار بريد ذات مرة فأنا أعلم ذلك. ويبدو الأمر لى أنه....". فقلت له "إن ذلك مرجح جدًا لكن ماذا فعلت" فأجاب (بريشر) "كنت أتصبب عرقًا طيلة ذلك الصباح فلقد كنت أتظاهر أنى أقيم تلك الأرجوحة وأتساءل ماذا علىّ أن أفعل. فإذا ما أخبرت والدها فإنى أشك فى أمانته فلقد كنت أخشى أنه ربما يبعدنى عن الكنز ويسلمه للسلطات إضافة إلى أنه نظرًا لأنى متزوج أحد بنات هذه العائلة فإنه سيكون من الأفضل أن يأتى الإعلان عن هذا الخبر من جانبى فإن ذلك يضعنى فى موقف أفضل إذا بادرت بإخبارهم. حسنًا فإن لدىّ ثلاثة أيام قبل أن تنتهى أجازتى وأغادر المنزل. إذن فلا حاجة للتسرع. لذلك فقد قمت بإخفاء الصندوق وأخذت فى الحفر وحاولت التفكير فى كيفية التأكد من ذلك الأمر وأضاف (بريشر) قائلاً "فأخذت أفكر وأفكر ثم بدأت أشك فيما إذا كنت قد رأيت ذلك الكنز بالفعل أم لا ثم ذهبت إليه وفتحته ثانية وعندئذ جاءت والدتها لتنشر قطعة من الملابس التى كانت تقوم بغسلها. ولكنها لم تشاهدنى. عندئذ جاءت (جين) لتخبرنى أن العشاء معد وقالت لى "إن كل ما تريده هو رؤية الحفرة التى قمت بحفرها طيلة الوقت".

"لقد كنت شاردًا طيلة العشاء وأتساءل عما إذا كان الشاب الذى يسكن المنزل المجاور لم يتجاوز السور ويملأ جيوبه من كنزى ولكن فى المساء بدأ قلقى يهدأ ـ فلقد بدا الأمر لى أن الكنز كان هناك لفترة طويلة ومن المؤكد أنه يمكن أن يظل هناك لفترة أطول. ثم

حاولت فتح مناقشة مع الرجل المسن ـ والد الفتاة ـ لأتعرف على رأيه بشأن العثور على كنز. فلقد كان الرجل المسن حانيًا، حانيًا دائمًا. فقلت له "ماذا؟ هل...؟" فأجاب (بريشر) محاولة تهدئة روعي قائلاً "لقد كنت على وشك ذلك ولكني كنت أحاول أن أستنتج رد فعله لذلك أخبرته بقصة شاب تظاهرت أنى أعرفه عثر على عملة ذهبية فى معطف كان قد اقترضه وأخبرته أنه احتفظ بها ولكنى أخبرته أننى لست متأكدًا من أن ذلك صواب أو خطأ. ثم بدأ الرجل المسن يتحدث: "يا إلهى فلقد جعلنى أستنتج رد فعله" فلقد قال إن ذلك هو نوع الأصدقاء الذى ينتظر منى مرافقتهم حيث أشار أنه توقع ذلك من صديق لعاطل متسكع خرج مع بنات أشخاص آخرين وهنا لا أستطيع إخبارك بما قاله. ومضى فى حديثه الغاضب. فلقد أثرت ذلك الموضوع لأستنتج رد فعله فقط فقلت له "أما كنت ستحتفظ بعملة ذهبية إذا ما عثرت عليها فى الشارع؟" فقال لى "بالطبع لا. ما كنت لأحتفظ بها"، "ماذا؟ لا؟ حتى إذا ما عثرت عليها ككنز؟" فقال الرجل المسن مستشهدًا بالكتاب المقدس: "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

لقد حاول (بريشر) ـ من خلال تعبيرات وجهه الغامضة ـ أن يجعلنى أعتقد أنه حصل على ما يريد من هذه المناقشة.. ولكنى علمت أكثر من ذلك.

"ثم خرجت من هذه المناقشة غاضبًا أخيرًا ولكن ليس قبل أن أتأكد تمامًا من أنه يتعين علىّ إخراج هذا الكنز بنفسى. وكان الشيء الوحيد الذى حال بينى وبين ذلك كان التفكير فى كيفية

الخروج من المنزل بعد حصولى على الكنز". ثم صمت لبرهة. ثم أكمل قائلاً "والآن ربما لا تصدق الأمر ولكن خلال الأيام الثلاثة المتبقية لم تسنح لى فرصة للحصول على الكنز الثمين ولم أحصل منه ولو على عملة واحدة - فدائمًا كان يحدث شىء يعيقنى. فالشىء الذى يثير الدهشة هو تفكيرى فى أن العثور على كنز ليس فى مثل صعوبة الحصول عليه ولا أذكر أننى هنأت بالنوم خلال تلك الليالى حيث كنت دائم التفكير فى مسألة إلى أين سأخذ هذا الكنز وماذا أفعل به وكيف أفسر حصولى عليه. فلقد جعلنى هذا الأمر سقيمًا دائمًا. ومرور الأيام وأنا على حالى ذلك جعل (جين) تغضب حيث قالت لى "إنك لم تعد ذلك الشاب الذى قابلته فى لندن". وحاولت إلقاء اللوم فى ذلك على والدها ولكنها كانت تعرف أفضل ولم تقتنع فما كانت لتفكر فى شىء سوى أننى منشغل بالتفكير فى فتاة أخرى. وأخبرتها أن ذلك ليس صحيحًا ودارت بيننا مشادة ولكنى كنت أفكر بالكنز لذلك لم أبد مهتمًا بما قالته. وأخيرًا راودتنى خطة فدائمًا ما كنت أجيد التخطيط إلا أن التنفيذ لم يكن يناسبنى كثيرًا. فلقد قمت بالتفكير فى كل شىء وانتهيت إلى خطة مناسبة. فبداية كنت سأملأ جيوبى بهذه العملات الفضية - ثم بعد ذلك - كما سأخبرك.

"ووصلت إلى هذه الحالة حيث إننى لم أستطع التفكير فى الذهاب إلى موضع الكنز مرة أخرى فى ضوء النهار لذلك انتظرت حتى حلول الظلام ثم عندما وجدت الجميع ناموا نهضت وتسللت نحو الباب الخلفى آملاً ملء جيوبى.. ولكن ما عساى أن أفعل فى حجرة غسيل الأطباق سوى أن أتعثر فى دلو؟ فيستيقظ والدها

حاملاً بندقية - فلقد كان شخصًا كثير الشكوك خفيف النوم - فوجدنى هناك لذلك كان علىَّ تفسير الأمر حيث أخبرته أننى نزلت إلى مضخة المياه للشرب لأن زجاجة المياه كانت فارغة. ولم يتركنى آخذ عملة أو اثنتين من ذلك الكنز". فقاطعته قائلاً "تقصد أن تقول...." فأجاب (بريشر) قائلا "انتظر لحظة سأخبرك. لقد ذهبت للانتهاء من إقامة الأرجوحة فى اليوم التالى وتصرفت كما لو لم يكن يوجد كنز ووضعت الأسمنت فوق الحجارة وقمت بطلائها باللون الأخضر وأتممت كل شىء ووضعت صبغة خضراء للتعرف على مكان الكنز وجاء الجميع ليروا الأرجوحة وقالوا كم كانت جميلة وحتى والد فتاتى أصبح ألطف معى عندما رآها وكل ما قاله كان "يا للأسف لأنك لا يمكنك أن تعمل دائمًا وتجدَّ فى عملك هكذا. فربما تجد عملا معينا تقوم به". فأجبت "نعم، لقد بذلت جهدًا كبيرًا فى صنع هذه الأرجوحة". وأكمل (بريشر) قائلاً "فرغم كل شىء انتهى كل ذلك. كان علىّ التوجه إلى لندن. نعم التوجه إلى لندن.." صمت لبرهة ثم استطرد (بريشر) بحركة مفاجئة مقربًا وجهه لوجهى قائلاً "لكنى ما كنت لأذهب إلى لندن. لا تقلق! ماذا تعتقد؟" فلم أذهب إلى أبعد من (كلوتشيستر) - ولو بياردة واحدة. فلقد تركت الجاروف فى مكان حيث يمكننى العثور عليه. وخططت لكل شىء ثم قمت باستئجار عربة صغيرة فى (كلوتشيستر) وتظاهرت بأننى أريد الذهاب إلى السويتش والبقاء هناك لليلة والعودة فى اليوم التالى ولقد جعلنى الشاب الذى استأجرت منه العربة أترك عملتين فضيتين ثم رحلت. "ولم أذهب إلى السويتش أيضًا وتقدم الحصان والعربة نحو الطريق الذى يؤدى للكوخ حيث

كان يعيش والد الفتاة ولم يتبق على الوصول للبيت سوى ٦٠ ياردة فلقد كانت هذه الليلة التى تناسب مثل هذه اللعبة حيث كان هناك عاصفة رعدية ثم بدأ المطر يتساقط وواصلت المسير ولم أكن لأحلم أن يستطيع الرجل المسن سماعى وأيضًا لم أبال باستخدام الجاروف بهدوء حيث كان صوت الرعد والبرق والمطر يغطى على صوت الحفر بل لم أندهش عندما وجدت نفسى أغنى. وبدأت أحفر بجد حيث نسيت الرعد والحصان والعربة ثم بعد فترة قصيرة بدأ الصندوق يظهر وبدأت أرفعه.. فقاطعته قائلا "أكان ثقيلا؟" فأجاب "لم أتمكن من رفعه فلقد أصابنى إعياء ولم أفكر فى ذلك مطلقا فلقد أصبحت دائم التوتر ولعلنى أخبرك بأنه قد أصابتنى لعنة. فلقد أصبحت غاضبًا ولم أفكر ولو للحظة فى تقسيمه وحتى وقتها لم أتمكن من أخذ المال بدون صندوق فى عربة فقمت برفع أحد جوانب الصندوق وعند خروج الصندوق كله صدرت ضوضاء عالية وبريق للفضة ثم بعد ذلك صدر وميض البرق كضوء النهار وانفتح الباب الخلفى وكان الرجل المسن مقبلاً إلى الحديقة وفى يده بندقية قديمة ولم يكن يبعد أكثر من ١٠٠ ياردة. "وأخبرتك أننى كنت منزعجًا للغاية حتى أننى لم أكن أفكر فيما أفعل. ولم أتوقف مطلقًا حتى ولو لملء جيوبى. فلقد تسلقت السور بسرعة وركضت إلى العربة أشتم وألعن —فلقد كنت فى حالة.....

"فهل تصدقنى عندما أخبرك أنه عندما وصلت إلى المكان الذى تركت فيه الحصان والعربة وجدتهما قد ذهبا وعندما رأيت ذلك لم يتبق لى سباب أقوله فى هذا الأمر. بل رقصت على العشب وعندما

رقصت بما يكفى فكرت فى التوجه إلى لندن... فلقد انتهيت" وكان (بريشر) شاردًا لبرهة وكرر بمرارة قائلا "لقد انتهيت". ثم قاطعته "حسنا؟" فأجاب (بريشر) "هذا كل شىء، يكفى. إضافة إلى أننى لم أعرف ماذا حدث للشباب الذين حاولوا الاستيلاء على كنز نفيس ثم توجهت إلى لندن...." فسألته "ألم تعد مطلقا؟" فأجاب "مطلقا".

فسألته "ولكن ماذا عن (جين)؟ هل كتبت لها؟".

فأجاب "لقد كتبت لها ثلاث مرات ولكن بلا رد فلقد انفصلنا فى ثنايا مشاجرة بدت أنها بسبب كونها غيورًا لذلك لم أستطع أن أعلم ماذا أفعل وحتى لم أعلم ما إذا كان والدها ـ الرجل المسن ـ قد علم أننى كنت أنا ذلك الشخص فى الحديقة فبقيت متابعًا الصحف لأرى إن كان قد سلم الكنز للملك. حيث لم يخالجنى شك فى أنه سيأخذ فى اعتباره قدر احترامه لدى الناس. فسألته "وهل قام بتسليمه؟" فضم (بريشر) فمه وحرك رأسه ببطء قائلا "ليس هو" وأضاف "لقد كانت (جين) فتاة جميلة. فتاة غاية فى الجمال حتى وإن كانت غيورًا ولم يعرفوا أننى من غير المحتمل أن أعود إليها بعد ذلك ففكرت أنه إذا لم يسلم الكنز فربما كانت تلك فرصة للضغط عليه.. حسنًا فذات يوم خرجت أتجول كالمعتاد فى مدينة (كلوتشيستر) وهناك رأيت اسمه. تعتقد لماذا؟

ولم أستطع التخمين لذلك. فاختنق صوت (بريشر) وبدا هامسًا وتحدث لمرة أخرى من خلف يده وفجأة تحول أسلوبه إلى سعادة غامرة قائلا "لقد كان اسمه مقترنا بإصدار عملات مزيفة. عملات مزيفة!" فقاطته "هل تقصد أن تقول....؟" فأجاب "نعم. هى كذلك

مزيفة. فلقد جعلوا من تلك المسألة قضية مطولة ولكنهم أوقعوا بهم أخيرًا بالرغم من أنه راوغ كثيرًا. وتم تعقب مصدر أمواله ووجدوا نحو اثنتى عشرة من العملات المزيفة" فقاطعته "ولم...؟" فأجاب "لا تقلق. فلم يفده أن يقول إنه كان كنزًا مدفونًا".

قلب الآنسة (ونشيلسيا)

تأهبت الآنسة (ونشيلسيا) للسفر إلى روما، إذ إن تلك الفكرة استحوذت على عقلها طوال شهر أو أكثر وطغت بوضوح على أحاديثها لدرجة أن عدداً غير قليل من الأشخاص الذين لم تخطر ببالهم فكرة السفر إلى روما والذين لم يكن من المحتمل أن يسافروا إليها أبدوا استياءهم من تلك الفكرة.. وبالفعل حاول بعضهم - بدون جدوى - إقناعها بأن روما لم تكن في الحقيقة مكانًا رائعًا مثلما أشيع عنها.. وذهب آخرون إلى أكثر من ذلك وتغامزوا من وراء ظهرها مدعين أنها "تتباهى" بفكرة أن "روما هي حلمها"!

وقالت الصغيرة (ليلى هارد هيرست) لصديقها السيد (بنز) إنه حسبما تعرف فإن الآنسة (ونشيلسيا) سوف تذهب إلى روما القديمة وتمكث هناك، وفي هذه الحالة فإنها "أي الآنسة (ليلى هارد هيرست)" لن تشعر بالحزن والاستياء. والحقيقة أن الطريقة التي اتبعتها الآنسة (ونشيلسيا) لتصنع الرقة واللطف مع (هوراس) و(بنفنيتو سيليني) و(رافائيل) و(شيلي) و(كيتس) - ولو كانت هي

أرملة (شيلى) لما كان بمقدورها أن تبدى اهتمامًا أكبر بقبره ـ كانت موضع دهشة من الجميع.

كان ثوبها بمثابة انتصار للذوق والأناقة.. مناسب ولكنه ليس بسيطًا أو رخيصًا بأى حال ـ ذلك أن الآنسة (ونشيلسيا) كانت تهاب للغاية الملابس العملية البسيطة التى يفضلها السائحون ـ كما أن دليلها السياحى كانت تحمله فى غلاف رمادى لإخفاء لونه الفاقع. ولم تلبث أن ظهرت فى صورة متزمتة ومحبوبة وضئيلة الحجم على رصيف محطة السكة الحديد فى "تشارينج كروس" بلندن، بالرغم من كبريائها الزائد، عندما بزغ فجر اليوم الكبير وأصبح بمقدورها بدء السفر إلى روما.

كان ذلك اليوم مشرقًا والقنال الإنجليزى يبدو أنه سيكون ممتعًا.. وكل الدلائل والمؤشرات كانت توحى بأن كل شىء سيكون على ما يرام.. وكانت تشعر بأحاسيس المغامرة الجميلة فى هذه الرحلة الذى لا مثيل لها!

وكانت تخطط للسفر مع صديقتين لها.. كانتا زميلتيها فى دار المعلمين وحافظت على صداقتهما معها طوال تلك السنين.. وهما صديقتان رقيقتان مخلصتان، ولو أنهما ليستا ممتازتين فى التاريخ والأدب مثل الآنسة (ونشيلسيا)! كلاهما كانت تنظر إليها باحترام جم، وكان الأجدر بهما أن تزدرياها.. وهى دائمًا تنتظر أوقاتًا سارة لكى تستغلها فى "إثارتهما وتعكير صفوهما"! فقط من أجل تحقيق أقصى إثارة جمالية وقتية.

بعد أن حصلتا على مقعدين رحبتا بها بشدة أمام باب العربة. وعلى الفور بمجرد مقابلتهما لاحظت أن (فانى) لديها حزام جلدى بسيط المظهر إلى حد ما.. وأن (هيلين) قد ابتاعت سترة صوفية بجيبين جانبيين أدخلت فيهما يديها. غير أنهما كانتا مسرورتين من نفسيهما ومن السرعة التى تحاول بها صديقتهما إبداء أية ملاحظة بخصوص تلك الأشياء بمجرد رؤيتها. وبمجرد أن خبت البهجة الأولى للقاء أصبحت إثارة (فانى) أكثر ضجيجًا وفظاظة وما لبثت أن أخذت تكرر بإصرار نفس كلامها "تخيلا اننا ذاهبات إلى روما يا عزيزتىّ!.. نعم، روما!" - بدأت النسوة الثلاث فى توجيه اهتمامهن على رفقائهن من المسافرين.

اهتمت (هيلين) للغاية بتوفير مقصورة لأنفسهن، ولكى تبعد الدخلاء إلى خارج المقصورة وزرعت نفسها هناك بثبات عند الباب. وحدقت الآنسة (ونشيلسيا) من فوق كتفها، وأبدت بعض ملاحظات خبيثة عن تزاحم الناس على رصيف المحطة.. وضحكت (فانى) بجذل عند سماعها لتلك الملاحظات الساخرة!

كن مسافرات مع أحد الأشخاص التابعين للسيد (تواس جن).. أربعة عشر يومًا فى روما مقابل أربعة عشر جنيها.. لم يكن ينتمين بالطبع إلى هذا الشخص الذى يتصرف بمفرده كيفما يشاء، وقد انتبهت الآنسة (ونشيلسيا) إلى ذلك.. ولكنهن سافرن معه بسبب ملاءمة ذلك الترتيب لهن.

شكّل الموجودون مزيجًا غريبًا من البشر، ومثيرًا أيضًا إلى حد كبير.. فهناك محصّل خاص متورد الوجه متعدد اللغات يرتدى حُلة

مرقطة باللونين الأبيض والأسود ذات كمين ورجلين طويلتين جدًا وعملية جدًا.. وهو يصيح معلنًا بلاغات وتصريحات.. وعندما أراد أن يتحدث إلى الناس فرد إحدى ذراعيه وحجزهم حتى حقق هدفه من ذلك. وإحدى يديه ممتلئة بالأوراق والتذاكر وكعوب التذاكر التى ابتاعها السائحون.

الناس من بين المجموعة التى حصلت على تذاكر شخصية كانوا منقسمين على ما يبدو إلى نوعين.. الناس الذين كان يريدهم المحصل ولم يستطع أن يجدهم. والناس الذين لم يرغب فى وجودهم والذين اتبعوه فى صف متزايد الطول ذهابًا وجيئة على رصيف المحطة. والحقيقة أنه يبدو أن هؤلاء الناس يعتقدون أن فرصتهم الوحيدة فى الوصول إلى روما هى فى البقاء قريبًا جدًا منه.. وتابعه بإلحاح واضح ثلاث نسوة قصيرات ونشطات للغاية.. مما أغضبه فى النهاية إلى درجة دفعهم بقوة داخل إحدى العربات والتنبيه عليهن بعدم الخروج منها مرة أخرى. وطوال ما تبقى من وقت كانت رأس واحدة أو اثنتين أو ثلاث تبرز من النافذة مطلقة استفسارات حول "صندوق صغير لأدوات الشغل من الخوص المصنفر" كلما دنا منهن.. وكان هناك رجل بدين جدًا وزوجته بدينة أيضًا وترتدى ملابس سوداء لامعة.. وهناك أيضًا رجل قصير يشبه سائس الخيل.

سألت الآنسة (ونشيلسيا): "ترى ما الذى يريده أولئك الناس من روما؟.. وماذا تعنى بالنسبة إليهم؟".. وكان هناك راعى أبرشية طويل يضع على رأسه قبعة صغيرة من القش، وراعى أبرشية آخر

قصير يمسك بصعوبة حاملاً طويلاً لكاميرا. وأسعد هذا التباين (فانى) كثيرًا. وبمجرد أن سمعن شخصًا ما ينادى على (سنوكس)، قالت الآنسة (ونشيلسيا): "لطالما اعتقدت أن هذا الاسم من صنع مؤلفى الروايات فقط.. تخيلن (سنوكس).. إننى أعجب من هو السيد (سنوكس)" وأخيرًا وجدن رجلاً بدينًا قصيرًا تبدو عليه علامات الجد يرتدى حلة واسعة ذات مربعات.. وقالت الآنسة (ونشيلسيا): "إذا لم يكن هذا الرجل هو (سنوكس)، فإنه يجب أن يكون كذلك!".

الآن اكتشف المحصل محاولة (هيلين) فى ركن العربة.. ولم يلبث أن صاح "المقصورة لخمسة ركاب" وأشار بأصابعه كما لو كان يترجم ما قاله!.. وكانت هناك مجموعة من أربعة أشخاص ـ أم وأب وابنتيهما ـ يتحدثون فى بلاهة وانفعال. إحدى الابنتين قالت: "لا بأس يا (ما).. اسمحى لى أن..." وضربت قلنسوة أمها بحقيبة يدها وهى تجاهد لوضعها على الرف. والآنسة (ونشيلسيا) تمقت عادة الناس الذين يحدثون جلبة وينادون على أمهاتهم بـ (ما). ثم تبعها شاب مسافر بمفرده. لم يكن بسيطًا قط فى مظهره كما لاحظت الآنسة (ونشيلسيا).. فحقيبته كانت من جلد جميل وعليها بطاقة بيانات تذكرها بـ "لوكسمبرج" و"أوستند".. وحذاؤه ذو الرقبة الطويلة بنىّ اللون لم يكن رخيصًا، وكان يحمل على ذراعه معطفًا.. قبل ذلك كان هؤلاء الناس جالسين فى مقاعدهم، قبل أن يبدأ التفتيش على التذاكر وعندئذ بدأت الأبواب تقرقع.. ثم انظر!.. هاهم يهبطون فى محطة (تشارينج كروس) فى طريقهم إلى روما.

صاحت (فانى): "تخيلى!.. إننا ذاهبون إلى روما يا عزيزتى!.. نعم روما!.. الحقيقة أننى حتى الآن لا أستطيع تصديق ذلك".

أحبطت الآنسة (ونشيلسيا) مشاعر (فانى) بابتسامة صغيرة. وشرحت السيدة التى نوديت (ما) لماذا وصلوا إلى المحطة بالكاد قبل مغادرة القطار. نادتها البنتان (ما) بطريقة غير لبقة ونبرة غير مؤثرة وقادتاها أخيرًا إلى جرد سلة حاجيات السفر الأساسية بهمهمة. بحثت ثم قالت: "يا إلهى! لم أحضرها!".

وأجابت البنتان: "آه، (ما)".

ولكن ما الذى لم تحضره لم يظهر. جذبت (فانى) كتاب "نزهات هير فى روما"، وهو نوع من الكتب الميسرة المشهورة بين زوار روما. وبدأ الأب يفحص كتاب تذاكره بدقة محاولاً أن يجد كلمة بالإنجليزية. كان يفحصها رافعًا إياها لوقت طويل ثم قلبها وجذب قلم حبر وترخها بعناية شديدة. أما الشاب فمبجرد أن أنهى مسحه غير المتفاخر على باقى الركاب استغرق فى قراءة كتاب. وبينما كانت (هيلين) و(فانى) تنظران من نافذة القطار على "تشسلى هيرست"، تحينت الآنسة (ونشيلسيا) هذه الفرصة لترى الكتاب الذى كان يحمله الشاب. لم يكن كتاب دليل ولكنه كان مجلدًا صغيرًا من الشعر. لمحت وجهه فبدا لتلك النظرة السريعة وجهًا جميلاً مهذبًا ويلبس نظارة أنيقة مذهبة.

كان المكان الذى نظرت إليه (هيلين) و(فانى) قد استهوى (فانى) حيث إن إمبراطورة فرنسا كانت تعيش هناك. سألت (فانى) الآنسة (ونشيلسيا) مما جعلها تنهى فحصها للشاب: "هل مازالت تعيش هنا؟".

لم تتكلم الآنسة (ونشيلسيا) باقى الرحلة سوى القليل. كل ما قالته كان جميلاً ومهذبًا على قدر ما استطاعت. كان صوتها منخفضًا وصافيًا وجميلاً، وقد حرصت على أن تكون هكذا فى مثل هذه المناسبة. أما الشاب فقد وضع كتابه الشعرى جانبًا بمجرد أن دخلوا تحت المنحدرات الصخرية البيضاء، توقف القطار بجوار القارب وعندها عرض الشاب بذوق أن يحمل أمتعة الآنسة (ونشيلسيا) وصديقتيها.

ولكنها كانت مسرورة أن الشاب أدرك أنهن سيدات وأنه ساعدهن بدون فظاظة. كم كان لطيفًا أن يبدى أن لطافته هذه لن تكون عذرًا لمزيد من التطفل. لم تخرج أى منهن خارج حدود إنجلترا من قبل فكن مثارات وقلقات فى ممر القناة. وقفن فى مكان جيد قرب منتصف القارب. وبدأ الشاب يؤثر فى الآنسة (ونشيلسيا) فأخبرها أنه مكان جيد. وشاهدوا شاطئ "ألبيون" يختفى واقتبس من (شكسبير)، وأخذ يسخر من المسافرين معه بطريقة إنجليزية.

كن دهشات وخاصة بسبب التدابير الوقائية التى اتخذها الناس الأكبر حجمًا ضد الأمواج.

استلقت إحدى السيدات على كرسى المركب حاجبة وجهها بمنديل. بينما أخذ رجل مرتديًا بدلة سياحية بنية يتمشى طول الطريق على ظهر المركب من إنجلترا إلى فرنسا. كانت قدماه مبتعدتين عن بعضها باتساع كاتساع العناية الإلهية! كانت كلها تدابير ممتازة ولم يكن أحد مريضًا. لاحق المجموعة قاطع التذاكر

على سطح المركب بأسئلة بطريقة بدت لـ (هيلين) سوقية كما يعبث الدجاج بقشرة من لحم الخنزير حتى نزل فى النهاية إلى مخبئه. بينما ظل الشاب فى مؤخرة السفينة ومجلد الشّعر فى يده ينظر لعينى الآنسة (ونشيلسيا) وحيدا وحزينًا ملاحظًا اختفاء إنجلترا.

ثم أتى ميناء (كاليه) الفرنسى، ولم يستطع الشاب أن ينسى تأثير الآنسة (ونشيلسيا) والأشياء البسيطة الأخرى. بالرغم من أن البنات الثلاث اجتزن امتحانات حكومية فى اللغة الفرنسية لحد ما فقد صدموا بلهجتهم البكماء، فى حين كان الشاب مفيدًا جدًا. لم يقحم نفسه عليهن بل أوصلهن إلى عربة حنطور ورفع قبعته مودعًا وذهب.

وشكرته الآنسة (ونشيلسيا) بأفضل طريقة لها - طريقة مهذبة ودودة - قالت (فانى): "إنه كان لطيفًا". وكان هذا فى متناول سمعه.. تساءلت (هيلين) عما إذا كان هذا الشاب ذاهبًا إلى إيطاليا، فلقد لاحظت تذاكر خضراء فى دفتره.

وكادت أن تخبرهن عن الشعر ثم قررت ألا تفعل. وأغلقت نوافذ العربة وقد نسيت الشاب. كان السفر فى مدينة كل إعلاناتها بالفرنسية كشىء تعليمى بالنسبة لهن. وعقدت الآنسة (ونشيلسيا) مقارنة غير وطنية بين البلدين، حيث كانت هناك لوحات الإعلانات مزينة بالأعشاب بدلاً من لوحات الإعلانات الخشبية العريضة التى تعيب منظر الطبيعة فى إنجلترا. ولكن شمال فرنسا لم يستهوهن. عادت (فانى) إلى "نزهات (هير) فى روما"

وبدأت (هيلين) تتناول غدائها. استيقظت الآنسة (ونشيلسيا) من حلم يقظتها السعيد. قالت إنها كانت تحاول أن تدرك أنها كانت ذاهبة بالفعل لروما ولكنها فهمت اقتراحات (هيلين) بأنها كانت جائعة. وانطلقن يأكلن من سلاتهن فرحات. كن متعبات فى المساء وظللن صامتات حتى أعدت (هيلين) الشاى. ربما نعست الآنسة (ونشيلسيا). كل ما تعرفه أن (فانى) نامت وفوها مفتوح. وبمجرد أن رأت الركاب الآخرين. كانت سيدتان لهما وجه جاد لم تحدد عمرهما وكانتا تعرفان من الفرنسية بالقدر الكافى للمحادثة. فقد أخذت على عاتقها مسئولية إيقاظ (فانى) وأصبح إيقاع القطار شديداً، ومنظر البخار بالخارج كان مؤلمًا للعين. كن متعبات جداً من السفر قبل أن يحين توقفهن الليلى.

أصبح توقفهن مشرقًا بظهور الشاب مرة أخرى. كانت أخلاقه مثيرة للإعجاب ولغته الفرنسية كانت مفيدة. كانت القسيمة الخاصة به صالحة لنفس الفندق مثل قسيماتهن. وبالمصادفة جلس بجانب الآنسة (ونشيلسيا) على نفس المائدة. وبالرغم من حماسها للذهاب لروما فكرت فى بعض مثل هذه الاحتمالات بشكل شامل. وعندما حاول أن يعلق على متاعب السفر لم توافق على فرضه هذا ببساطة ولكنها استجابت لآخر. كانا يقارنان رحلاتهما ولم تشترك (هيلين) و(فانى) فى محادثتهما ووجدا من خلال المقارنة أنهما يتكلمان عن نفس الرحلة وعن نفس المعارض فى فلورنسا وعندها قال الشاب: "إن هذا واضح تمامًا مما سمعت".

وكانت الراحة فى روما. تحدث عن روما بطريقة حسنة للغاية. كان الشاب مفهومًا تمامًا واقتبس من شعر (هوراس)[1] عن (سقراط)[2] كانت الآنسة (ونشيلسيا) قد درست كتاب (هوراس) هذا عندما كان تستعد لامتحان قبول الجامعة وكانت مسرورة لأن تكمل اقتباساته. لقد أعطى هذا طابعًا للأشياء، لمسة من الرقة للمحادثة. عبرت (فانى) عن بعض المشاعر وتدخلت (هيلين) ببعض التعليقات الرقيقة. ولكن معظم المحادثة عن الفتيات كان من نصيب الآنسة (ونشيلسيا).

وقبل أن يصلوا إلى روما، كان ذلك الشاب ضمن مجموعتهم. لم يعرفوا اسمه أو حتى من هو، ولكن بدا لهن أنه كان يدرس، وكان لدى الآنسة (ونشيلسيا) فكرة ملحة أنه كان محاضرًا بالجامعة. على أية حال فإنه كان شيئًا من هذا القبيل.. شيئًا نبيلاً ومهذبًا بدون مبالغة. حاولت مرة أو اثنتين أن تجزم أن كان قد أتى من جامعة "أكسفورد" أو "كامبريدج".

لقد رأوا فلورنسا ـ التى كتب عنها السيد (راسكين)[3] ـ على قدر ما يسمح لهن وقتهن الضئيل وقابلهن الشاب فى معرض "بيتى" وتجول معهن متحدثًا بذكاء. وكان جليًا أنه ممتن لأنهن تعرفن إليه. كان يعرف الكثير عن الفن واستمتعن جدًا بهذا الصباح. كان رائعًا أن يتجولن ليتعرفن على الأماكن المفضلة لهن، وأن يجدن أماكن

---

(١) شاعر رومانى (٦٥ ـ ٨ قبل الميلاد) تدور قصائده عن الحب والصداقة والفلسفة (المترجم).

(٢) فيلسوف يونانى (٤٧٠ ـ ٣٩٩ قبل الميلاد) (المترجم).

(٣) جون راسكين (١٨١٩ ـ ١٩٠٠) كاتب وناقد فنى إنجليزى (المترجم).

جميلة جديدة، خاصة كان مرحه مميزًا، كانت له جدية شديدة. وكان يفهم سريعًا الدروس الأخلاقية من الصور. تجولت (فانى) بين هذه التحف الرائعة واعترفت بأنها تعرف عنها القليل فكان كل شىء بالنسبة لها جميلاً، فى حين اعتقدت الآنسة (ونشيلسيا) أن هذا الجمال يبدو مملاً. كانت مسرورة بعض الشىء حين اختفت آخر قمة لجبال "الألب" المشمسة بسبب إعجاب (فانى) المتسم بالتقطع وعدم الترابط لم تقل (هيلين) سوى القليل.. اعتقدت الآنسة (ونشيلسيا) أنها غير كفء لتقدير الجانب الجمالى لتلك الأيام الجميلة ولكنها لم تدهش لهذا. كانت تضحك على نكات الشاب الرقيقة المترددة وأحيانًا لا تفعل. وأحيانًا تفقد الإحساس بذلك الفن حين تتأمل فى ملابس الزوار الآخرين.

وفى (روما) كان الشاب معهم على نحو متقطع. أخذ صديقًا له من السائحين قصيًا لبعض الوقت. واشتكى بسخرية إلى الآنسة (ونشيلسيا): "لدىّ أسبوعان فقط فى روما وصديقى (ليونارد) يريد أن يقضى يومًا فى (تيفولى) ليشاهد الشلالات المائية".

سألته الآنسة (ونشيلسيا) فجأة: "من هو صديقك (ليونارد) هذا. عاشق للمشى على الأقدام؟".

أجابها الشاب بضحك: "إنه أكثر متحمس قابلته".

واعتقدت الآنسة (ونشيلسيا) أنه لم يكن راضيًا تمامًا.

لقد أمضين أوقاتًا رائعة وفكرت (فانى) ماذا كن سيفعلن بدونه. لم يكن اهتمام الآنسة (ونشيلسيا) وقدرة (فانى) الفائقة على الإعجاب مشبعًا. لم يحدث أن تجولن من قبل بين معارض الصور

والمنحوتات، والكنائس المزدحمة، والآثار والمتاحف وأشجار "الأراجون"[٤] و"التين الشوكى" وعربات نقل النبيذ والقصور. ولقد أعجبن بكل شىء دون إحجام. لم يرين من قبل نبات "الأوكاليتوس"[٥] ولكنهن أعجبن بها. قالت (فانى) "ربما سار يوليوس قيصر فى هذا الطريق". وقابلن مصادفة مقبرة (بابيلوس) فقال الشاب: "(بابيلوس)[٦] العجوز".. وقالت الآنسة (ونشيلسيا): "أقدم أثر فى روما الجمهورية".

قالت (فانى): "إننى غبية ولكن من هو (بابيلوس) هذا؟".

ثم كانت لحظة صمت قصيرة ثم قالت (هيلين):

"ألم يكن هو الذى بنى المسرح القديم؟".

نظر إليها الشاب سريعًا وضحك قائلاً:

"إنه (بالبس)"[٧].

احمرت وجنتا (هيلين) بينما لم يستخفوا بجهل (فانى) بـ (بابيلوس).

كانت (هيلين) قليلة الكلام. كانت عادة تهتم بتذاكر الترام أو أشياء من هذا القبيل. أو تبقى نظرها عليهم إذا أخذهما الشاب

---

(٤) شجر له أزهار وردية اللون تتفتح قبل ظهور الأوراق (المترجم).

(٥) شجر ذو أوراق عطرية يستخرج منها زيت يستخدم لأغراض طبية (المترجم).

(٦) ماركوس بابيلوس (توفى عام ٤٨ قبل الميلاد) سياسى فى الجمهورية الرومانية (المترجم).

(٧) لوسيوس بالبس، أحد قواد الجيش الرومانى أمر ببناء مسرح شهير فى عام ١٢ قبل الميلاد (المترجم):

وتخبره أين كانتا عندما بحث عنهما. لقد أمضى هؤلاء الشباب وقتًا رائعًا فى تلك المدينة النظيفة ذات اللون البنى الشاحب. مدينة الذكريات التى كانت ذات يوم العالم كله. كانوا آسفين فقط على ضيق الوقت. كان الترام الكهربائى والسبعون مبنى والإعلانات التى تلمع أمام السوق. قد أثارت مشاعرهم الرقيقة دون كلام. كان كل هذا مجرد جزء من المتعة. وبالفعل كانت روما مكانًا رائعًا لدرجة أنه أنسى الآنسة (ونشيلسيا) بعض اهتماماتها المعدة بعناية وجعل (هيلين) تعترف فجأة لا شعوريًا بجمال الأشياء غير المتوقعة. لقد أعجبت (فانى) و(هيلين) بنافذة متجر أو شىء كهذا فى الحى الإنجليزى إذ لم يجعل عداء الآنسة (ونشيلسيا) المتصلب تجاه الزائرين الإنجليز الآخرين هذه المنطقة مستحيلة.

لقد اتجهت المرافقة الجميلة والفكرية للآنسة (ونشيلسيا) والشاب الباحث لا شعوريًا إلى إحساس أعمق. وبذلت (فانى) المليئة بالحيوية قصارى جهدها لتساير إعجابهما العميق عن طريق قولها "هيا بنا" عند ذكر مكان جديد يستهويها. ولكن تطور داخل (هيلين) شعور بالعطف حتى النهاية. وحدث فى يوم ما فى حين كن يتأففن من الترام الكهربائى أن قالت (وتشيلسيا) بطريقة فظة "إن الناس لابد وأن يصبحوا قادرين على المشى وهذا أفضل من أن يعذبوا الخيول فى صعود هذه التلال البغيضة الصغيرة". كانت تدعو تلال روما السبعة بالتلال البغيضة الصغيرة.

وفى اليوم الذى زرن فيه التلة الأكثر أهمية بين التلال السبع فى روما القديمة، على الرغم من أن الآنسة (ونشيلسيا) لم تعرف ذلك،

علقت على (فانى) فجأة: "لا تسرعى هكذا يا عزيزتى. فهم لا يريدوننا أن نتجاوزهم.. ونحن لا نقول الصواب عندما نقترب منهم".

أجابت (فانى) وهى تخفف من خطواتها المتزايدة: "لم أكن أحاول أن أتجاوزهم.. حقًا لم أفعل!".

وظلت محبوسة الأنفاس لدقيقة.

ولكن الآنسة (ونشيلسيا) فوجئت بسعادة تغمرها. لقد أدركت كم هى سعيدة فقط، عندما تذكرت المأساة فى حياتها. كان من الممكن أن تنقل هذه المأساة إلى الشاب عندما مرا بين ظلال بقايا أشجار "الصنوبر" وتبادلت معه أعلى مستوى من المعلومات التى يمكن أن يحوزها العقل الإنسانى. تسلل شعور عاقل إلى علاقتهما مظهرًا نفسه بحرية وبطريقة محببة أخيرًا، عندما كانت (هيلين) غير قريبة. وتحول اهتمامهما من الرابطة الرائعة تجاههما إلى مشاعرهما الشخصية والحميمة كانت المعلومات تتدفق بينهما. وألمحت الآنسة (ونشيلسيا) عن مدرستها وعن نجاحها فى الامتحانات وعن سعادتها بأن أيام الدراسة قد انتهت. وقد أوضح الشاب أنه مدرس. وتحدثا عن عظمة مهنتهما وحتمية الشعور بالولاء لمواجهة تفاصيلها المضجرة. وعن الوحدة التى يحسانها أحيانًا.

كل هذا كان فى الكولوسيوم "مدرج روما القديمة"[٨] وهذا كان ما وصلوا إليه لأن (هيلين) عادت مع (فانى) من المعارض العلوية.

---

(٨) مبنى مستدير الشكل مكون من أربعة طوابق ويضم ساحة لإقامة المباريات خاصة المصارعة، يعد أضخم ما بقى من الآثار الرومانية تم تشييده حوالى عام ٨٠ م (المترجم).

وبالرغم من أن أحلام الآنسة (ونشيلسيا) الخاصة أصبحت مفعمة بالحياة وتقوّت بشكل كاف أصبحت أكثر واقعية. لقد تصورت هذا الشاب الرائع يحاضر بطريقة مثقفة لتلاميذه. وجدت نفسها تظهر بشكل متواضع كرفيقته الفكرية ومساعدته. لقد تخيلت منزلاً جميلاً بخزانتين لهما أرفف بيضاء مليئة بكتب رائعة فى كل المجالات الثقافية، وصور طبق الأصل للفنانين (روزيتى) و(برن جونز) ورق حائط (موريس) وزهور فى أوان نحاسية. لقد تخيلت أشياء كثيرة بالفعل لقد أمضيا وقتًا ثمينًا معًا فى "بنشيو" عندما ذهبت (هيلين) و(فانى) لتريا "ميوروتورتو" قال لها ببساطة إنه يأمل أن يكون هذا مجرد البداية لصداقتهما فقد رأى أن مرافقتها له أثيرة جدًا بالنسبة له بل كانت أكثر من هذا.

لقد أصبح متوترًا وأمسك نظارته بأصابع مرتعدة، وكأنه تخيل أن مشاعره جعلتهما غير قادرين على ضبط عواطفهما. قال لها: "لابد أن أخبرك بأشياء عن نفسى. أعلم أن حديثى معك غير معتاد. لقد كان لقاؤنا مصادفة أو بترتيب إلهى.. لقد أتيت إلى روما متوقعًا أن أكون وحيدًا فى رحلتى.. وكنت سعيدًا جدًا لقد وجدت نفسى مؤخرًا فى مكان أستطيع فيه أن أفكر بحرية و....".

ثم نظر خلف كتفه وتوقف عن الحديث قائلاً: "اللعنة" ولكنها لم تدنه على تلك الزلة الذكورية واللغة البذيئة. نظرت فرأت صديقه (ليونارد) يتقدم ودنا منهما ورفع قبعته للآنسة (ونشيلسيا) وكادت ابتسامته تكون عبوسًا، وقال: "لقد كنت أبحث عنك فى كل مكان يا (سنوكس) لقد وعدتنى أن تكون فى ساحة البيتزا من نصف ساعة".

(سنوكس)! لقد صدم الاسم الآنسة (ونشيلسيا) مثل عاصفة فى وجهها. لم تسمع رده. وفكرت فيما بعد أن (ليونارد) اعتبرها مغيبة العقل. فحتى هذا اليوم لم تكن متأكدة إن كانت قد تعرفت إلى (ليونارد) أو لا، وماذا قالت له. كانت قد أصيبت بشىء مثل شلل عقلى. من كل الألقاب الكريهة (سنوكس)"!

عادت (هيلين) و(فانى) وكان ثمة جو من اللطف والكياسة يخيم على المكان، فى حين كان الشاب ينسحب. لقد سيطرت على نفسها بعناء شديد لتواجه التساؤلات فى عيون صديقتيها. كانت تعيش طيلة المساء كبطلة تحت التأثير غير الموصوف لهذا الاسم.

تتحدث وتلاحظ بينما اسم (سنوكس) ينخر قلبها. كانت أحلام السعادة التى تخيلتها تحطمت منذ أن رن هذا الاسم فى أذنيها لأول مرة. كل الجمال الذى تخيلته تخرب وتشوه بالسوقية غير المحتملة لهذا الاسم.

ماذا يعنى المنزل الجميل لها ، ورق حائط (موريس) وكتب؟ ظهر أمامها نقش لا يصدق مكتوب بحروف من نار "السيدة (سنوكس) قد يبدو هذا شيئًا بسيطًا بالنسبة للقارىء ولكن ضع فى الاعتبار عقل الآنسة (ونشيلسيا) الرقيق. كن مهذبًا قدر استطاعتك، وفكر فى كتابة اسمك "س ن و ك س" لقد أدركت نفسها تخاطب بـ السيدة (سنوكس) من كل الناس الذين تحبهم قليلاً. أدركت لمسة اللقب عليها بمثابة إهانة غامضة تصورت دعوة رمادية وفضية اللون تحمل اسم (ونشيلسيا) متأثرة بسهم، سهم

"كيوبيد" لصالح (سنوكس) وبغض النظر عن الاعتراف بالضعف النسائى! تخيلت السرور الشديد لصديقات معينات.

همست: "مستحيل! (سنوكس)..!".

كانت آسفة عليه ولكن ليس كما كانت على نفسها. كان لها لمسة من الكرامة بالنسبة له كانت لطيفة ومهذبة فى حين كان هو طول الوقت (سنوكس)، وأن يختبئ تحت سلوك مهذب مصطنع جعل شارة الفساد التى للقبه تبدو نوعًا من الخيانة. وبلغة علم العواطف قد أحست أنه "خدعها".

كانت هناك بالطبع لحظات من التردد الشديد.. جاءت فترة حينما دعاها شىء ما مثل الغضب، لأن ترمى تهذبها مع الرياح. كان ثمة شىء ما بداخلها كمية ضئيلة من السوقية غير مهذبة. حاولت محاولة شاقة لأن تثبت لنفسها أن (سنوكس) ليس اسمًا سيئًا للغاية فهو مجرد اسم. كان هناك تردد يرفرف على (فانى) عندما أتت بأنباء الكارثة لتخبرها بأنها عرفت الخبر المروع! تحول صوت (فانى) إلى همس عندما قالت: "(سنوكس)".

لم تعطه الآنسة (ونشيلسيا) أى رد ولكنها أخيرًا فى حدائق (بورجيزى) وعدته بملاحظة.

لقد أعطت له الملاحظة داخل كتاب الشعر الصغير الذى أعاره إليها، هذا الكتاب جذب بعضهما لبعض. كان رفضها له غامضًا وليس صريحًا.. كان إخباره لِمَ رفضته كأنها تخبره عن زلته. كان عليه أيضًا أن يشعر بشىء ما عن الميزة غير الموصوفة التى لاسمه. لقد تجنب العديد من الفرص لإخبارها ولكنها فهمت الآن. ولذلك

تكلمت عن "العقبات التى لا تستطيع إزالتها" و"استحالة الأسباب التى ذكرها" لقد وجهت الملاحظة بارتجاف" (إ. ك.سنوكس)".

كان الحال أسوأ مما خشيت أن يكون، فلقد سألها عن تفسير. ولكن كيف تستطيع أن تفسر؟ فلقد كان اليومان الآخران فى روما مروعين. لقد انتابها منه جو من الارتباك. فهى تعرف أنها شاركته آمالاً دافئة. لم تكن تملك الشجاعة الكافية لشرح ما يجول بخاطرها. لقد علمت أنه قد اعتقدها متقلبة المزاج. وحيث إنها أصبحت الآن فى وضع الانسحاب فلم تتمكن من فهم تلميحاته لعلاقة أخرى ممكنة. ولكنه اتخذ (فانى) كوسيط مما جعلها تعتقد أنه كان ذكيًا ورومانسيًا. لم تستطع (فانى) الاحتفاظ بالسر فأخبرت الآنسة (ونشيلسيا) بهذا السر بحجة أنها تنصحها.

قالت لها (فانى): "تخيلى، إن السيد (سنوكس) يريد أن يكتب لى. ليس لدىّ أى فكرة ولكن هل أدعه يفعل؟".

لقد تحدثن حول هذا الموضوع طويلاً ولكن دون أن تكشف الآنسة (ونشيلسيا) عما فى قلبها. لقد غفرت له كل تلميحاته. لماذا لم تسمع له حتى وإن كان اسمه مؤلمًا بالنسبة لها.

لقد اتخذت قرارًا بأن تمنع هذا الشعور ثم قبّلتها (فانى) متمنية لها ليلة سعيدة بطريقة غير معتادة. ظلت الآنسة (ونشيلسيا) قابعة بشبّاك غرفتها الصغيرة، حيث كان هناك رجل ما بالشارع يغنى "سانتا لوتشيا" مما أذاب قلبها من رقة اللحن. كانت تجلس ساكنة دون حراك.

لفظت اسم (سنوكس) خلال شفتيها. ثم قامت من مكانها متنهدة بعمق وأوت إلى فراشها. وفى الصباح التالى أخبرها أنه سيسمع منها من خلال صديقتها.

لقد ودعهن السيد (سنوكس) فى روما بهذه الحيرة المرتسمة على وجهه ولولا (هيلين) لاحتفظ بحقيبة الآنسة (ونشيلسيا) كنوع من التذكار الشامل. لقد جعلت الآنسة (ونشيلسيا) (فانى) تعدها - عدة مرات - فى طريق عودتهن إلى إنجلترا أن تكتب لها خطابات طويلة. فقد بدا أن (فانى) ستكون بالقرب من السيد (سنوكس) حيث إن مدرستها الجديدة كانت على بعد خمسة أميال من (ستيلى بانك). ومدرسة أو اثنتين من مدارس الطبقة الراقية حيث كان السيد (سنوكس) يقوم بالتدريس. وربما يستطيع رؤية (فانى). تحدثت الآنسة (ونشيلسيا) و(فانى) عنه دون ذكر اسم (سنوكس) لأن (هيلين) كانت تسخر من الاسم. كانت (هيلين) ذات طبيعة خشنة وأدركت الآنسة (ونشيلسيا) هذا منذ أيام الجامعة. لقد أصبحت خشنة الطبع وساخرة. لقد اعتقدت مثل كل الناس الذين لهم نفس الطابع أن له وجهًا ضعيفًا يسىء فهم الرقة التى ترتسم بسبب نقط ضعفه. وعندما سمعت أن اسمه (سنوكس) قالت إنها توقعت شيئًا ما من هذا القبيل. لقد كانت الآنسة (ونشيلسيا) حريصة على أن توفر مشاعرها فى حين كانت (فانى) أقل حذرًا.

عادت الآنسة (ونشيلسيا) إلى (لندن) باهتمام جديد فى حياتها. كان اهتمامًا تجاه مدرسة البنات السنوات الثلاث الأخيرة الثانوية، حيث كانت مساعدة مقيمة خلال السنوات الثلاث الأخيرة. لقد كتبت لـ (فانى) خطابًا تفصيليًا بعد أسبوعين من عودتها. وأجابت

(فانى) برد مخيب للآمال. فلم يكن لـ (فانى) موهبة أدبية وكان جديدًا للآنسة (ونشيلسيا) أن تجد نفسها حزينة لفقدان صديقتها تلك الموهبة لدرجة أن هذا الخطاب كان موضع نقد من الآنسة (ونشيلسيا) حيث كانت تنقده بصوت عال فى وحدتها. كان نقدها الممزوج بالمرارة عبارة عن "ثرثرة". كان مليئًا بالأشياء التى كان خطاب الآنسة (ونشيلسيا) مليئًا بها.. أشياء خاصة عن المدرسة. ولم تذكر عن السيد (سنوكس) سوى تلك العبارة: "لقد تسلمت خطابًا من السيد (سنوكس) وأراد رؤيتى. لقد تحدث عن روما وعنك".

كتبت لها الآنسة (ونشيلسيا) وأبدت رغبتها فى طلب معلومات واضحة أكثر وكتبت أجمل وأطول خطاب ثانية: "أخبرينى عن نفسك يا عزيزتى، فقد أنعشت هذه الرحلة صداقتنا القديمة. وأنا أريد حقًا أن أكون على اتصال معك".

أما بخصوص السيد (سنوكس) فكتبت فى الصفحة الخامسة أنها مسرورة أن (فانى) قد رأته وأنه سأل عنها. كانت تذكره بشوق "كانت هذه الجملة تحتها خط". وردت (فانى) بطريقة متبلدة على جملة "الصداقة الجميلة" مذكرة الآنسة (ونشيلسيا) بأشياء شخصية عديدة عن أيام الدراسة فى تدريب الجامعة ولم تذكر كلمة عن السيد (سنوكس).

كانت الآنسة (ونشيلسيا) غاضبة لفشل (فانى) أن تكون وسيطة لمدة أسبوع تقريبًا. وكتبت لها خطابًا محاولة إخفاء مشاعرها شيئًا ما. وطلبت فى خطابها نقطة إيضاح: "هل رأيت السيد (سنوكس)؟".

وكان خطاب (فانى) مرضيًا على غير المتوقع. "لقد رأيت السيد (سنوكس)".

ولم تتحدث سوى عنه. وقالت (فانى) بين أشياء أخرى كثيرة أنه كان يلقى محاضرة عامة. على الرغم من أن الآنسة (ونشيلسيا) كانت تبدى امتنانها أولاً إلا أنها لم تجد الخطاب مرضيًا. فإن (فانى) لم تخبر أنه ذكر شيئًا عن الآنسة (ونشيلسيا) كما كان معتادًا أن يفعل. وقبل أن تبعث لها بالرد، جاءها خطاب آخر من (فانى) بخصوص نفس الموضوع. كان خطابًا متفجرًا، فى حوالى ست صفحات.

لاحظت الآنسة (ونشيلسيا) شيئًا غريبًا فى خطاب (فانى) بعد أن قرأته ثلاث مرات. فلقد سادت طبيعة (فانى) الأنثوية حتى على التقاليد الواضحة للجامعة. فكانت واحدة من اللاتى ولدن ليكتبن حروف "m" و "n" و "u" و "e" متشابهة ويكتبن "o" و "a" مفتوحتين ويتركن الـ "i" دون نقطة.

وبعد دراسة الكلمات ومقارنة كلمة بكلمة أصبحت الآنسة (ونشيلسيا) متأكدة أن السيد (سنوكس) لم يكن بالحقيقة السيد (سنوكس). كان فى الخطاب الأول لـ (فانى) السيد (سنوكس) ولكن تغير الهجاء فى الخطاب الثانى إلى السيد (سنكس). ارتعدت يد الآنسة (ونشيلسيا) بمجرد أن طوت الصفحة. فكان هذا يعنى لها الكثير. فبدا لها أنها دفعت ثمنًا كبيرًا لتجنب اسم "السيدة (سنوكس)" وفجأة ظهرت احتمالية أن يكون الاسم (سنكس). لقد طوت الصفحات الست وفى كل مرة كان الحرف الثانى له شكل "e".

لقد أمضت يومها تفكر فى هذا التغيير. تفكر فى خطاب تستعلم منه وفى نفس الوقت يكون عقلانيًا ومؤثرًا. وتفكر أيضًا فيما ستفعل بعد أن أتى لها الرد. لقد قررت أن تكتب إلى السيد (سنوكس) إذا كان هذا الهجاء البديل لم يكن سوى مجرد خيال لـ (فانى). لقد وصلت لمرحلة اختفت فيها رقة التصرف. لم يكن لها عذر محدد تكتبه ولكن موضوع الخطاب كان راسخًا فى عقلها. كانت تريد أن تكتب "إن الظروف قد تغيرت منذ أن تكلمنا معًا". ولكنها لم تفعل. ثم جاءها خطاب ثالث من مراسلتها الوفية (فانى) ونادتها فى أول جملة: "أسعد فتاة على قيد الحياة".

طوت الآنسة (ونشيلسيا) الخطاب فى يدها - لم تقرأ بقيته - وجلست متجهمة الوجه لقد تسلمته قبل موعد المدرسة صباحًا. وفتحته عندما كان دارسو الرياضيات على وصول. ابتدأت تقرؤه بهدوء. ولكنها انتقلت من الصفحة الأولى إلى الثالثة دون أن تكتشف الخطأ. كانت الصفحة الثالثة تستهل بعبارة:

"أخبرته صراحة أن اسمه لا يروق لى وأخبرنى أنه هو نفسه لا يعجبه اسمه - آه لو تعرفى كم كان صريحًا - لذلك قلت له ألا تستطيع تغييره؟ فلم يفهمنى أولاً. ولكنه أخبرنى عن اسمه الحقيقى (سيفين أوكس). وقد اختصر إلى (سنوكس). إن (سنوكس) و(نوكس) أسماء غير متحضرة ولكنها اختصار لـ (سيفين أوكس)؟ لم يستطع رفض الفكرة وغير بالفعل هجاء اسمه إلى (سينوكس) فى الإعلان عن محاضرته الجديدة. وفيما بعد عندما نتزوج من الممكن أن نجعله (سى نوكس) ألم تكن رقة منه أن يهتم بطلبى فى

حين يعتبره الرجال الآخرون إهانة؟ إنه رقيق وماهر. إنه يعرف تمامًا مثلى أنى أريده بالرغم من اسمه".

لقد ابتدأ الدرس بصوت ورقة مقطعة على أجزاء فى يد الآنسة (ونشيلسيا).. كان وجهها أبيض.. لقد حدق بها التلاميذ لبعض الوقت مندهشين ثم عادت إلى وضعها المألوف. قالت بنبرة صوت هادئة:

"هل هناك أحد انتهى من رقم ثلاثة؟".

بدت هادئة بعد ذلك ولكنها كانت دهشة ذلك اليوم. وأمضت مساءين تحاول كتابة خطاب عن مواضيع عديدة لـ (فانى) قبل أن تجد عبارة تهنئة مهذبة. حاولت أن تتغلب على إحساسها بأن (فانى) قد خانتها ولكن دون جدوى.

ربما يستطيع المرء أن يكون مهذبًا بالرغم من أن له قلبًا مفطورًا وبالطبع كان قلب الآنسة (ونشيلسيا) كذلك. لقد عانت من العداء ضد الجنس الآخر الذى عممته إلى الرجال جميعًا وأخذت تقول لنفسها:

"لقد نسى نفسه معى ولكن (فانى) وردية البشرة وجميلة ورقيقة وغبية - وهذا ما يناسب الرجل".

لقد بعثت لـ (فانى) بمجلد من شعر (جورج ميرديث)[٩] كهدية الزواج وأخبرتها (فانى) فى خطاب ينم عن سعادتها أنه كان "جميلاً". لقد أملت الآنسة (ونشيلسيا) أن يأخذ السيد (سينوكس)

---

(٩) روائى وشاعر إنجليزى (١٨٢٨ - ١٩٠٩).

يومًا ما هذا المجلد ويسأل عن مانحه. لقد أرسلت (فانى) العديد من الخطابات قبل زواجها تتابع أسطورة "صداقتهما القديمة" المحببة لها وتصف لها سعادتها بالتفصيل. ولأول مرة منذ عودتها من رحلة روما، كتبت الآنسة (ونشيلسيا) خطابًا لـ (هيلين) معبرة فيه عن مشاعرها العميقة ولم تذكر شيئًا عن زواج (فانى).

لقد ذهبا إلى روما فى أجازة عيد الربيع. وقد تزوجت (فانى) فى شهر أغسطس. لقد سطرت خطابًا إلى الآنسة (ونشيلسيا) تصف لها بيتها القادم والترتيبات المذهلة لبيتها الصغير. بدأ السيد (سنكس) يجد عذوبة فى تذكر الآنسة (ونشيلسيا). وحاولت هى عبثًا أن تتخيل عظمة ثقافته فى هذا المنزل الصغير. وقالت (فانى) فى خطابها: "إننى مشغولة بزخرفة ركن للتدفئة بالمنزل، لذلك اعذرينى".

وأجابتها الآنسة (ونشيلسيا) بأسلوبها الرائع مانحة جوًا من المرح. كانت تأمل أن السيد (سنكس) يرى الخطاب. لقد كتبت الخطاب لأجل هذه الأمنية فحسب. لم تجب الآنسة (ونشيلسيا) فقط عن هذا الخطاب ولكنها أجابت على اثنين آخرين فى شهر نوفمبر وفى عيد الميلاد.

احتوى الاتصالان الآخران على دعوة ملحة للآنسة (ونشيلسيا) أن تأتى لزيارتهما فى إجازة عيد الميلاد. لقد اعتقدت أن السيد (سنكس) هو الذى جعلها تطلب هذا. ولكنها كانت من كرم طبيعة (فانى). لقد صدقت أنه متعب بسبب خطئه الفادح. وكانت تأمل بقوة أن يكتب لها خطابًا مبتدئًا إياه بـ "صديقتى العزيزة". كانت

تعتقد أن هناك شيئًا ما فى ابتعادهما يدعمها. ربما كان سوء فهم لابد وأن كونها ناكثة لعهدها لم يحتمله. ولكنه لم يكتب أبدًا ذلك الخطاب.

لم تستطع الآنسة (ونشيلسيا) الذهاب إلى (ستيلى بانك) لمدة عامين. على الرغم من دعوات السيد (سيفين أوكس) المتكررة – أصبح اسمه (سيفين أوكس) كاملاً فى العام الثانى.

ولكنها يومًا ما بالقرب من إجازة عيد الربيع أحست أنها وحيدة ولا يوجد من يفهمها ففكرت فيما يسمى "الصداقة الأفلاطونية". لقد كانت (فانى) سعيدة ومشغولة بهذا الجو الجديد من الحياة المنزلية والأسرية، ولكن دون شك كان لزوجها ساعات من الوحدة. هل فكر فى تلك الأيام فى روما؟ لم يستطع أحد فهمها مثله. كان نوعًا من المتعة الحزينة أن تتحدث إليه ثانية، وما الضرر فى ذلك؟ لماذا يجب أن تنكر نفسها؟ لقد سطرت قصيدة فى تلك الليلة. وبعثت لـ (فانى) بملحوظة تخبرها بأنها ستزورها وهكذا ستراه ثانية.

بدا جليًا فى المقابلة الأولى لهما أنه قد تغير. فقد بدا أكثر جرأة وأقل توترًا وقد فقد تحفظه الكثير من الرقة. وقد ظهر تبريرًا لاكتشاف (هيلين) نقطة ضعفه. كان منشغلاً بشئونه. وكان لديه انطباع أن الآنسة (ونشيلسيا) أتت من أجل (فانى) وتناول عشاءه مع (فانى) بطريقة ذكية، وتحدثوا معًا محادثة طويلة، لكنها لم تؤد لشىء. لم يذكر (روما) على الإطلاق وأمضى بعض الوقت يسب شخصًا سرق منه فكرة ووضعها فى كتابه. واكتشفت أخيرًا

أنه قد نسى تقريبًا أسماء الفنانين الذين أعجبا بأعمالهم فى (فلورنسا).

كان أسبوعًا محزنًا ومخيبًا للآمال حتى أن الآنسة (ونشيلسيا) فرحت لانتهائه وتجنبت زيارتهما ثانية لأسباب متنوعة. وبعد فترة كانت حجرة الزائرين مشغولة بولديهما الصغيرين، ولم تعد (فانى) تدعوها لزيارتهما. واختفت خطاباتهما.

حلم بمعركة (أرمجدون)[1]

دخل الرجل الشاحب تعس الوجه القرية فى (روجبى).. تحرك ببطء بالرغم من إسراع حامل أمتعته.. وحتى عندما كان لا يزال على رصيف السكة الحديدية لاحظت شدة مرضه.. وتهالك فوق مقعده فى الركن المواجه لى من عربة القطار وهو يتنهد وبذل محاولة ـ لم تكتمل ـ لتحسين أحوال الشال الذى يرتديه فى السفر.. ثم جلس بلا حراك، وعيناه تحدقان فى لا شىء.. عندئذ بدأ يشعر بملاحظتى له.. نظر إلىّ، ومد يده فى وهن ناحية جريدته.. ثم نظر مرة أخرى فى اتجاهى..

تظاهرت بالقراءة.. وخشيت أن أكون قد أربكته دون أن أقصد.. وفى لحظة دهشت عندما وجدته يتكلم. قلت "عفوًا.. هل قلت شيئًا".. فقال مكررًا وهو يشير بإصبع ضامر هذا الكتاب عن الأحلام.. قلت "نعم هذا واضح"، إذ كان عنوان غلافه "حالات الأحلام" فصمت الرجل برهة كما لو كان يفكر فيما سيقوله

(١) المعركة الفاصلة بين قوى الخير والشر، والتى تنشب عند نهاية العالم كما جاء فى الكتاب المقدس للمسيحيين (المترجم).

"نعم.. لكنهم لا يقولون لك شيئًا".. ولم أفهم ما يقصده على الفور..

أضاف "إنهم لا يعرفون".. فنظرت إلى وجهه باهتمام أكثر.. وقال "هناك بالفعل أحلام".. والحقيقة أنه لم يكن لدىّ اعتراض على تلك القضية عمومًا.. واستطرد بعد تردد "أعتقد أن.. لكن هل تحلم أحيانًا؟ أقصد أحلامًا واضحة".. أجبت "إننى نادرًا ما أحلم.. ولا أظن أننى أحلم ثلاثة أحلام فى العام بأكمله".. فقال وهو على ما يبدو يجمع أفكاره "آه!!".. ثم سأل فجأة "لكن هل تختلط أحلامك بذكرياتك؟.. أنت ليس لديك شك فى ذلك.. المهم هل هذا يحدث أم لا؟".

"بالكاد على ما أظن.. باستثناء بعض التردد الوقتى من حين إلى آخر.. أعتقد أن بعض الناس يفعلون ذلك" وأشار إلى الكتاب قائلاً "وهل يقول".. ثم أردف "يقول إنه يحدث فى أوقات.. ويورد التفسير المعتاد عن شدة التصور أو الانطباع وما شابه ذلك لكى يبرر عدم حدوثه كقاعدة عامة.. أظن أنك تعرف شيئًا عن تلك النظريات.. أليس كذلك؟".

"قليلاً جدًا.. وأعتقد أنها خاطئة"..

عبثت يده الهزيلة بإطار النافذة لبعض الوقت.. وشرعت فى مواصلة القراءة.. ويبدو أن ذلك عجّل بملاحظته التالية.. إذ مال إلى الأمام حتى كاد أن يلامسنى وقال: "أليس هناك شىء يسمى الحلم المتصل.. بمعنى أنك تراه ليلة بعد أخرى؟".. فقلت: "أظن ذلك.. فهناك حالات مذكورة فى معظم الكتب الخاصة

بالاضطرابات العقلية" فقال "اضطرابات عقلية!.. نعم.. أستطيع القول أنك على صواب.. هذا هو التصنيف الصحيح لها.. لكن الذى أعنيه..". ثم نظر إلى عظام مفاصل أصابعه البارزة وأردف: ".. هل يتراءى نفس الحلم دائمًا؟.. هل هذا حلم أصلاً، أم أنه شىء آخر؟.. لعله على الأرجح ليس شيئًا آخر".

كان علىّ أن أبتر حديثه الذى يصر عليه، لولا ما رأيته على وجهه من قلق وتوتر.. أتذكر الآن عينيه الواهيتين وجفنيه الأحمرين. واستطرد قائلاً: "إننى لا أجادل فى أمر تختلف فيه الآراء. إن هذا الموضوع يكاد يقتلنى بالفعل". تساءلت "تقصد الأحلام؟" أجابنى بسرعة "إذا كنت تسميها أحلامًا إننى أرى ذلك الحلم اللعين واضحًا تمامًا كل ليلة.. "وأشار إلى المناظر الطبيعية التى مرقت بسرعة من النافذة وأردف "كل هذا يبدو خياليًا بالمقارنة به!..إننى بالكاد أتذكر من أنا وما هو عملى".. وتريث برهة ثم قال "حتى الآن..".

قاطعته "الحلم لا زال هو نفسه.. هل هذا ما تقصده"، قال "لقد انتهى".. قلت "أتعنى...؟.." فقال "إننى مت".. قلت "مت؟ ياللعجب!.." فقال "تحطمت وقُتلت، والآن وفقًا لهذا الحلم فأنا ميت إلى الأبد! حلمت أننى رجل آخر يعيش فى مكان مختلف من العالم ومن زمن مغاير!.. حلمت بذلك ليلة وراء ليلة.. كل ليلة كنتً أستيقظ وأنا فى تلك الحياة الأخرى.. لكن كانت المشاهد، والأحداث تتجدد.. حتى وصلت إلى آخرها.. قلت "أى عندما مت؟" فقال "نعم عندما مت".. فقلت "ومنذ ذلك الوقت".. قال "لا، بفضل الله كان ذلك نهاية الحلم".

كان واضحًا أننى سأهتم بهذا الحلم.. وعمومًا كان أمامى ساعة إلى أن يصل القطار إلى المحطة، وبدأ ضوء النهار يخفت.. قلت: "تعيش فى زمن مختلف.. هل تعنى فى عصر آخر؟" قال "نعم" قلت "فى الماضى؟".. قال "لا.. فى المستقبل".. قلت "مثلاً فى العام ٣٠٠٠؟" قال "لا أعرف العام بالضبط.. بيد أننى كنت أعرفه جيدًا أثناء نومى عندما أحلم، لكن ليس الآن.. فعندما أستيقظ أنسى الكثير من تفاصيل الحلم الذى أعرفه جيدًا وأنا نائم.. إنهم كانوا يسمون العام بشكل يختلف تمامًا عما نسمى العام عندنا.. ترى ماذا يسمونه؟" ووضع يده على جبهته وقال "لا.. لقد نسيت تمامًا".

جلس الرجل يبتسم بضعف.. وللحظة خشيت ألا يكون راغبًا فى إخبارى بحلمه.. وكقاعدة عامة فأنا أكره الناس الذين يروون أحلامهم للغير.. لكن هذا الحلم بالذات كان له وقع مختلف علىّ.. بل إننى عرضت المساعدة عليه، وسألته: "كيف بدأ هذا الحلم؟".

قال "كان هذا الحلم واضحًا من البداية.. ويبدو أننى كنت أستيقظ منه فجأة.. والغريب فى تلك الأحلام التى أتحدث عنها، أننى لا أتذكر قط الحياة التى أعيشها الآن.. كما لو أن حياتى فى الحلم تكفينى تمامًا طوال مدة استمراره. ولسوف أخبرك كيف أجد نفسى عندما أبذل قصارى جهدى لتذكر كل الحلم.. أنا لا أتذكر أى شىء بوضوح حتى أجد نفسى جالسًا فى نوع ما من الإيوان[٢] المسقوف وناظرًا إلى البحر أمامى.. لقد كنت أغفو قليلاً ثم

---

(٢) شرفة مكشوفة فى مقدمة أو جانب مبنى (المترجم).

أستيقظ!.. وأنا نشط ومنتعش.. فى غير شكل الحالم.. لأن الفتاة توقفت عن التهوية لى"..

قلت "الفتاة؟".. قال "نعم، الفتاة.. لكن الأفضل ألا تقاطعنى كثيرًا وإلا فإنك سوف تربكنى إلى حد كبير".. ثم توقف فجأة وقال "هل تظن يا رجل أننى معتوه؟".. فأجبت "لا.. لقد كنت ترى حلمًا.. والآن خبرنى عن حلمك هذا".

"قلت لك إننى استيقظت لأن الفتاة توقفت عن التهوية لى بالمروحة.. لم أندهش عندما وجدت نفسى هناك أو شىء من هذا القبيل.. وأظن أنك تفهمنى.. ولم أشعر أننى وقعت فى هذا بغتة.. وفى ذلك الوقت تقبلت الأمر ببساطة.. وكل ما حدث فى تلك الحياة، فى القرن التاسع عشر(٢) تبخر بمجرد استيقاظى واختفى كالحلم.. كنت أعرف كل شىء عن نفسى، وأن اسمى لم يعد (كوبر) وإنما (هيدون) وكل شىء خاص بوضعى فى الحياة.. ولقد نسيت الكثير منذ استيقظت.. فهناك قصور فى الاتصال.. لكن كل شىء كان واضحًا وحقيقيًا".

تردد مرة أخرى.. ثم قبض على إطار النافذة.. واقترب وجهه منى، وحدّق فىّ كمن يلجأ إلىّ فى أمر هام، وقال "هل يبدو هذا هراء بالنسبة لك؟". فصحت قائلاً "لا، لا!".. ثم استمر ووصف لى شكل ذلك الإيوان ".. فقال "إنه لم يكن إيوانًا حقيقيًا، ولا أعرف كيف أسميه، كان يواجه الجنوب.. وكان صغيرًا.. وكله ظل ما عدا النصف دائرة التى فوق الشرفة التى تطل على السماء والبحر

---

(٢) نشرت هذه القصة لأول مرة عام ١٩٠٢ (المترجم).

والركن الذى تقف فيه الفتاة.. وكنت جالسًا على أريكة معدنية عليها وسائد خفيفة مخططة.. والفتاة منحنية فوق سياج الشرفة وظهرها تجاهى.. وسقط ضوء الشمس وهى تشرق على أذنها وخدها.. وغطى عنقها الأبيض الجميل، وخصلات شعرها القصيرة الجاثمة فوقه، وكتفها الأبيض.. أما كل جسدها الفاتن، فكان فى الظل الأزرق البارد.. ولا أستطيع أن أصف ملابسها. كانت بسيطة وفضفاضة.. كانت واقفة هناك، وبدت لى فاتنة ومثيرة حقًا، كما لو كنت لم أرها من قبل.. وأخيرًا عنما تنهدت ورفعت جسمى على ذراعى.. أدارت وجهها ناحيتى.." ثم توقف.. ولم يلبث أن استطرد.. "لقد عشت فى هذا العالم ثلاثة وخمسين عامًا.. وكان لى أم وأخوات وأصدقاء وزوجة وبنات.. أعرف تمامًا شكل وجوههم.. غير أن وجه هذه الفتاة حقيقى بالنسبة إلىّ بشكل أكثر بكثير، ويمكننى استرجاعه إلى ذاكرتى، بحيث أستطيع رؤيته مرة أخرى.. كما يمكننى أن أرسمه على الورق أو بالزيت فوق لوحة.. وبعد ذلك".. وتوقف الرجل، غير أننى لم أقل شيئًا.. وبعد برهة استأنف الرجل حديثه.. "إنه وجه فى الحلم.. نعم كانت جميلة جدًا.. لكنه ليس جمالاً رهيبًا جافًا ومبجلاً، مثل جمال القديسة.. ولا جمالاً مثيرًا يحرك العواطف الحسية و إنما هو نوع من الإشعاع.. شفتان عذبتان تبتسمان ابتسامة رقيقة، وعينان رماديتان داكنتان.. كما كانت تتحرك برشاقة.. بدت كما لو أنها تجمع بين كل الأشياء الجميلة والسارة واللذيذة".

عند ذلك توقف، وظهر الاكتئاب والضيق على وجهه.. ثم رفع بصره إلىّ وواصل حديثه، وتخلى تمامًا عن أى محاولة لإخفاء حزنه

العميق بمعايشة حقيقة قصته "كما ترى لقد تخليت عن مخططاتى وطموحاتى.. تخليت عن كل ما عملت لتحقيقه أو رغبت فيه من أجلها.. وكنت قبل ذلك سيداً فى بلاد بعيدة هناك فى الشمال، وكان لى نفوذ وممتلكات وسمعة مدوية.. لكن لم أر شيئًا منها ذا قيمة بجانبها.. وذهبت إلى هذا المكان، مدينة المتع والمسرات المرحة، بصحبتها وتركت كل الأشياء لكى تتحطم وتتخرب، حتى يكون هناك أثر باق على الأقل لحياتى.

"وبينما كنت غارقًا فى الحب معها.. قبل أن أعرف أن لديها أى اهتمام بى، قبل أن أتصور أننا قد نجرؤ معًا على البوح بهذا الحب، بدت حياتى كلها فارغة ولا قيمة لها.. مجرد هباء منثور.. وليلة بعد أخرى وطوال أيام طويلة تمنيتها فيها واشتهيتها.. أخذت نفسى تتوق إلى الشىء المحرم! لكن من المستحيل أن يخبر شخص ما غيره بمثل تلك الأمور.. إنها عاطفة.. إنها لون جميل.. إنها ضوء يظهر ويختفى.. فقط عندما تكون حبيبتى هناك، يتغير كل شىء.. أى شىء يصبح شيئًا آخر.. المشكلة هى أننى خرجت وغادرتهم فى أزمتهم ليفعلوا ما بوسعهم". تساءلت متحيرًا "تركت من؟" فأجاب "تركت الناس هناك فى الشمال.. فكما ترى فى هذا الحلم، كنت رجلاً ذا شأن.. رجلاً من النمط الذى يثق فيه الناس، ويتجمعون حوله.. ملايين الناس الذين لم يرونى ـ قط ـ كانوا مستعدين لعمل أى شىء والقيام بأى مخاطرة من أجلى وذلك لثقتهم فىّ.. وظللت ألعب هذا الدور لسنوات طويلة.. تلك اللعبة الكبيرة الشاقة.. تلك اللعبة السياسية الغامضة الرهيبة.. وسط الدسائس والمؤامرات والخيانات.. وسط الأقاويل والشائعات والإثارة.. كان عالمًا

مضطربًا هائجًا، وأخيرًا أصبح لى نوع من الزعامة على الجماعة[٤].. وحاولت التعايش مع المؤامرات الخسيسة، والطموحات الدنيئة، والسخافات العاطفية العامة الواسعة والشعارات الخادعة.. الجماعة التى نشرت الفوضى وأخفت الحقائق عن العالم عامًا بعد آخر.. وكانت الأمور وقتئذ تتحرك وتتحرك تجاه كارثة محققة.. ولا يمكننى أن أتوقع منك أن تفهم خلفيات وتعقيدات هذا العالم.. عام ما أو آخر بعده.. نعم، نعم، كل تلك التفاصيل الدقيقة كانت تظهر فى حلمى.. وأعتقد أننى كنت أحلم بها قبل أن أستيقظ ومازالت بعض التفاصيل التافهة، لبعض الأحداث الجديدة العجيبة، التى تصورتها عالقة فى ذاكرتى وأنا أحكّ عينىّ.. كانت تلك أحداثًا مروّعة.. جعلتنى أشكر الله على ضوء الشمس، الذى كان يوقظنى من النوم! "جلست على الأريكة وأخذت أنظر إلى المرآة وأبتهج.. أبتهج لتركى كل الاضطرابات والحماقات والعنف قبل فوات الأوان.. وعلى أية حال، لقد اعتقدت أن هذه هى الحياة.. أى الحب والجمال والرغبة والسرور.. ألا تستحق تلك الأشياء، كل تلك الصراعات الرهيبة، من أجل غايات هائلة غامضة!.. ولمت نفسى لأننى فكرت فى يوم ما، أن أصبح زعيمًا أو قائدًا فى الوقت الذى كان ينبغى فيه أن أخصص أيامى للحب.. لكننى فكرت أنه لو لم أقض أيامى الأولى فى جد وصرامة، لكنت أضعت نفسى عبثًا على النساء الرخيصات.. وعندئذ أدركت أن كل حياتى الآن اتجهت إلى الحب والرقة والحنان.. إلى حبيبتى

---

(٤) مجموعة من الأشخاص تجتمع معًا لغرض اجتماعى (المترجم).

الغالية.. سيدتى الرائعة الجميلة.. التى جاءت أخيرًا وأجبرتنى ـ من خلال سحرها الذى لم أستطع مقاومته ـ أن أترك كل تلك الحياة جانبًا..

قلت لها بدون أى رغبة فى أن تسمعنيِ، "أنت تستحقين ذلك.. أنت تستحقين ذلك يا حبيبتى الغالية. نعم تستحقين الثناء والشكر على كل الأشياء.. على الحب! عندما تكونين لى، فإنك تستحقين ذلك كله، وعندما سمعتنى أهمس لها بذلك الكلام، استدارت ناحيتى.. وقالت تعال وسترى ـ وأستطيع أن أسمعها الآن جيدًا ـ تعال لترى شروق الشمس على جبل (مونت سولارو).

"أتذكر كيف وثبت واقفًا على قدمى وانضممت إليها بالشرفة.. ووضعت يدها البيضاء على كتفى، وأشارت إلى كتل الأحجار الجيرية الضخمة المتلألئة التى تكاد أن تنبض بالحياة.. ونظرت، ولكنى لاحظت أولاً ضوء الشمس على وجهها وهو يداعب قسمات وجنتيها وعنقها.. كيف أستطيع أن أصف لك المشهد الرائع الذى كان ممتدًا أمامنا؟.. والواقع أننا كنا فى (كابرى)".

قلت "لقد ذهبت إلى هناك.. ثم تسلقت جبل (مونت سولارو) وشربت (فيروكابرى) ـ وهو شراب داكن يشبه عصير التفاح ـ على قمته".. واستطرد الرجل ووجهه شاحب:

"آه!.. إذن ربما يمكنك أن تخبرنى.. سوف تعرف إذا كانت هذه (كابرى) بالفعل أم لا.. إذ طوال حياتى لم أذهب قط إلى هناك.. سوف أصفها لك.. كنا فى حجرة صغيرة، واحدة من عدد كبير جدًا من الحجرات الصغيرة.. الباردة جدًا والتى ينفذ إليها ضوء

الشمس.. كانت محفورة فى الحجر الجيرى باللسان البحرى.. وعالية جدًا عن البحر.. ولاحظت أن الجزيرة كلها كانت تشبه فندقًا هائلاً بشكل يفوق الوصف.. وعلى الجانب الآخر كان هناك كيلو مترات من الفنادق العامة.. ومنصات عائمة ضخمة تحط عليها الآلات الطائرة.. كانوا يسمونها مدينة السرور والمتعة وبالطبع لا يوجد شىء مثل هذا فى عصرك.. بل وأستطيع أن أقول إنه لا يوجد شىء مثلها فى وقتنا هذا.. أقصد الآن!.. نعم لا يوجد".

"حسنًا.. إن حجرتنا هذه كانت فى آخر اللسان البحرى، بحيث يمكن للمرء أن يرى يمينًا ويسارًا.. فى الشرق كانت هناك صخور منحدرة ضخمة على الشاطئ، ربما يصل ارتفاعها إلى نحو ثلاثمائة متر، لونها رمادى كئيب باستثناء حافة ذهبية لامعة.. وخلفها جزيرة (سيرتر) الصغيرة.. وشاطئ هابط لا يلبث أن يتلاشى فى ضياء الشمس الساخن.. وعندما يستدير المرء إلى الغرب، فإنه يرى بوضوح وعن قرب خليجًا صغيرًا وشاطئًا على هيئة سيف منحن فى منطقة الظل. ويرتفع من وسط هذا الظل الجبل (سولارو) الرأسى العالى.. ذو القمة الذهبية الساطعة.. مثل ملكة جمال ترتدى تاجها.. والقمر الأبيض يسبح خلفها فى السماء وأمامنا من الشرق إلى الغرب يمتد البحر بدرجاته اللونية المختلفة فى عظمة ومهابة، والمزدان بنقط كثيرة متناثرة من القوارب الشراعية..

"إلى الشرق - بالطبع - كانت تلك القوارب الصغيرة رمادية وواضحة وصغيرة جدًا.. بينما إلى الغرب كانت القوارب ذهبية وصغيرة.. وكأنها ذهب يتلألأ أو لنقل مثل ألسنة صغيرة من

النيران.. أما أسفلنا فلم يكن هناك سوى الصخور التى نحتت فيها قنطرة متآكلة.. وتحوّل لون مياه البحر الزرقاء، إلى لون أخضر ورغاوى فى كل مكان حول الصخور.. وانسابت سفينة شراعية كبيرة إلى خارج القنطرة".

قلت "أعرف تلك الصخرة.. لقد كدت أغرق عندها.. كانوا يطلقون عليها (فراجليونى)" استطرد الرجل بوجهه الشاحب "(فراجليونى)؟ نعم.. لقد أسمتها هكذا.. كانت هناك قصة ما.. ولكن ذلك.." ثم وضع يده على جبينه مرة أخرى وقال "لا.. لقد نسيت تلك القصة".. ثم واصل:

"حسنًا.. هذا أول شىء أتذكره أو حلم تراءى لى.. تلك الحجرة المظلمة، والهواء العليل والسماء الرائعة وهاهى حسنائى بذراعيها البضين، وثوبها الأنيق.. وكيف جلسنا وتحادثنا بكلام أقرب إلى الهمس.. وكنا نتكلم همسًا، ليس لأن هناك من يسمع كلامنا، ولكن لأنه كان ثمة صفاء، فى ذهنينا بحيث كانت أفكارنا يكتنفها بعض الخوف ومن ثم لا تتمكن من أن تعبّر عن نفسها بكلمات!.. ولذلك تكلمنا بهدوء شديد..".

"عندئذ شعرنا بالجوع، وذهبنا إلى شقتنا، من خلال ممر غريب بأرضية متحركة.. حتى وصلنا إلى قاعة الإفطار الكبيرة التى بها نافورة، وعزف للموسيقى.. كان مكانًا جميلاً وممتعًا للغاية، بضوء شمسه، ورذاذ مائه المرشوش.. ونقر أوتار الآلات الموسيقية.. وجلسنا وأكلنا وابتسم بعضنا لبعض.. ولم أعرِ أى انتباه لرجل كان يراقبنا من إحدى الموائد القريبة منا..

"بعد ذلك ذهبنا إلى قاعة الرقص.. لكننى لا أستطيع وصف تلك القاعة.. كان المكان رحبًا جدًا لنقل أكبر من أى مبنى رأيته من قبل.. وفى إحدى الأماكن توجد لوحة لبوابة (كابرى) القديمة معلقة على جدار القاعة ولكن على ارتفاع كبير.. وبرزت العارضات والركائز واللوالب الذهبية من الأعمدة كالنافورات المنسابة أو كأضواء الشفق عبر السقف، متداخلاً بعضها فى بعض وفى كل مكان حول دائرة الراقصين والراقصات الكبيرة كانت هناك أشكال جميلة.. مقتنيات غريبة، أعمدة إضاءة عديدة ورائعة منقوش عليها لوحات بفن "الجروتسك"(٥).. كان المكان غارقًا فى أنوار صناعية تحاكى ضوء النهار الوليد..

"وبينما نحن نشق طريقنا وسط الحشد الغفير، استدار الناس ونظروا إلينا.. إنه فى كل مكان من العالم كان اسمى ووجهى معروفين.. ولكننى فجأة تخليت عن كبريائى وزهوى وكفاحى، وحضرت إلى هذا المكان.. ونظروا كذلك إلى السيدة التى بجانبى.. رغم أن نصف قصة تعرّفها بى أخيرًا كان مجهولاً أو محرفًا.. وكنت أعرف بعض الرجال الموجودين.. لكنهم حكموا علىّ بأننى رجل سعيد على الرغم من كل الخزى أو العار الذى لحق باسمى.

"كان الهواء مشبعًا بالموسيقى، ومعطرًا بروائح جميلة متآلفة ومفعمًا بإيقاع الحركات الجميلة.. وتحرك آلاف من أجمل الناس فى جماعات فى أرجاء القاعة، وازدحمت بهم الشرفات والدهاليز..

---

(٥) فن زخرفى أو نحتى حيث يتم مزج أشكال طبيعية، مع مجسمات لكائنات متوحشة بطريقة خيالية (المترجم).

وكانوا يرتدون ملابس رائعة الألوان، ومزينة بالورود والأزهار.. الآلاف رقصوا حول الساحة الدائرية الضخمة تحت التماثيل البيضاء للآلهة القدماء.. وأقبلت وانصرفت مواكب رائعة من الشبان والشابات.. ورقصنا نحن الاثنان.. لكننى لا أقصد الرقصات الروتينية الكئيبة فى أيامكم.. أقصد فى هذا الزمان.. وإنما كانت رقصات جميلة غير مُسْكرة.. وحتى الآن فإننى أرى حبيبتى وهى ترقص بمرح وجذل.. ولكنها كانت ترقص بوجه رزين، وبوقار وسمو.. ومع ذلك كانت تبتسم لى وتداعبنى.. نعم تبتسم وتداعبنى وتلاطفنى بعينيها..

ثم غمغم قائلاً "إلا أن الموسيقى كانت مختلفة.. كانت تنساب، والحقيقة أننى لا أستطيع وصفها، غير أنها كانت أكثر عمقًا وتنوعًا من أى موسيقى سمعتها وأنا يقظ.

وعندما انتهينا من الرقص، أقبل رجل ليتحدث إلىّ كان نحيل الجسم، قوى العزيمة، ومرتديًا ملابس وقورة بالنسبة إلى هذا المكان.. وكنت قد لمحت وجهه بالفعل وهو يراقبنى فى قاعة الإفطار، ثم بعد ذلك سرت معه فى الممر وأنا أتجنب النظر فى عينيه.. لكنى عندما كنا نجلس فى مكان مظلل بالحديقة.. وجدت نفسى أبتسم مرحبًا بكل الناس الذين يجيئون أو يذهبون عبر الأرضية المتألقة.. ولم يلبث هذا الرجل أن أقبل علىّ ولمس كتفى وتحدث إلىّ بحيث اضطررت الاستماع إليه.

وبادرنى بأن طلب منى أن نتحدث معًا على انفراد.. فقلت له لا.. إننى لا أخفى أى سر عن تلك السيدة. فما الذى تريد أن

تخبرنى به؟.. قال لى إنه أمر بسيط جدًا، وجاف للغاية بحيث لا يهم أى سيدة أن تستمتع إليه.. فقلت له "لعله لا يهمنى أنا أيضًا الاستماع إليه!".

"نظر إلى السيدة نظرة خاطفة، كما لو كان يريد أن يستعطفها.. ثم سألنى فجأة عما إذا كنت سمعت تصريحًا انتقاميًا أعلنه (إيفشام).. وللعلم كان (إيفشام) الرجل الثانى بعدى فى قيادة الحزب الكبير بالشمال وهو رجل قوى الشكيمة، صعب المراس ويفتقر إلى اللباقة والكياسة، ولا يقدر سواى على السيطرة عليه وكبح جماحه وأعتقد أن رأيه هو وليس رأيى أنا، أن الآخرين ربما يكونون قد تملكهم الجزع لانسحابى المفاجئ، لذلك فإن السؤال عما قد فعله أيقظ مرة أخرى اهتمامى بالحياة التى نحيتها جانبًا لفترة قصيرة من الزمن.

قلت له "لقد تفرغت للاهتمام بحياتى الخاصة لبضعة أيام.. هلا تكرمت بإخبارى بما قاله (إيفشام)؟".

"هكذا بدأ الرجل حديثه.. لا شىء بغيض.. ويجب أن أعترف أننى صدمت من حماقة (إيفشام) وتهوره الجامح وكلمات التهديد التى فاه بها.. ولم يكتف هذا الرسول الذى أرسله إلىّ بإخبارى بمقولة (إيفشام) بل مضى لكى يعبر عن رأيه أو يشير إلى مدى حاجتهم إلىّ.. وبينما استرسل فى الحديث، جلست الفتاة مائلة للأمام قليلاً وأخذت تتفرس فى وجهه ووجهى.

"بيد أن عاداتى القديمة، فى تدبير المكائد وإدارة الأمور، فرضت نفسها على الموقف.. وكان بمقدورى أن أرى نفسى أعود فجأة إلى

الشمال، وما يترتب على ذلك من تداعيات ومواجهات عاصفة. كل ما قاله هذا الرجل شهد بالفوضى التى حاقت فعلاً بالحزب وليس بدماره كلية.. ولكن يجب أن أعود أقوى مما كنت عليه عندما رحلت، ثم فكرت فى حبيبتى.. كيف يمكننى أن أخبرك؟ فهناك بعض الأمور الدقيقة التى تميز علاقتنا ـ ولكنه فى موقفنا هذا لا أجد داعيًا لإخبارك بها ـ مما يجعل وجودها معى مستحيلاً..

كان يجب علىّ أن أتركها، فى الحقيقة كان يجب أن أتخلى عنها بوضوح وصراحة، إذا كان لابد أن أفعل شيئًا فى الشمال.. وكان الرجل يعرف ذلك.. حتى عندما تحدث إليها وإلىّ كان يعرف ذلك مثلها تمامًا.. يعرف أن خطواتى نحو أداء واجبى هى أولاً الانفصال عنها ثم هجرها.. وبمجرد أن تبادرت هذه الفكرة إلى ذهنى، تبدد تمامًا حلمى فى العودة واستدرت فجأة تجاه الرجل، فى الوقت الذى تصور فيه أن فصاحته أثرت فىّ وأقنعتنى.

قلت "وما علاقتى بكل هذه الأمور الآن؟.. لقد انتهيت من كل ذلك.. هل تعتقد أننى أعبث بشعبك بمجيئى إلى هنا؟" قال "لا، ولكن...." فقلت "لماذا لا تتركنى وشأنى.. لقد فرغت من كل تلك الأمور.. لقد توقفت عن كل شىء والآن أريد أن أكون رجلاً له حياته الخاصة".

قال "نعم، أفهم ذلك.. لكن ألم تفكر بعد فى الأمر؟ هذا الكلام عن الحرب وتلك التهديدات الفجة وكل ذلك الهجوم المكشوف"، قلت بعد أن انتصبت واقفًا لكى أضع حدًا لتلك المناقشة "لا.. لن أسمعك بعد ذلك.. لقد وضعت فى اعتبارى كل تلك الأمور

وقدّرت أهمية كل منها.. وها أنا الآن قد رحلت ولم أعد آبه لشىء".

بدا الرجل كمن يفكر فى إمكان مواصلة إلحاحه باستماتة.. وحوّل نظره إلى السيدة الجالسة التى تنظر إلينا وقال كمن يتحدث إلى نفسه "الحرب.. إنها الحرب" ثم استدار ببطء وابتعد عنا إلى حال سبيله.

وجدت نفسى واقفًا تحيط بى دوامة من الأفكار المختلطة التى أطلقتها من عنانها مناشدة هذا الرجل لى.. ثم انتبهت على صوت حبيبتى.. قالت: "حبيبى.. وماذا يحدث إذا كانوا بحاجة ماسة إليك.." غير أنها لم تكمل جملتها، وإنما تركتها معلقة هكذا واستدرت إلى وجهها العذب وشعرت بأن اتزانى يتأرجح ورأسى يدور وقلت لها "إنهم يريدوننى فقط لكى أفعل لهم ما عجزوا عن عمله.. إذا كانوا لا يثقون بـ (إيفشام) فعليهم تسوية هذا الأمر بأنفسهم".

نظرت إلىّ فى شك وقالت: "ولكن هذه الحرب.." .. ورأيت فى عينيها شكًا كنت قد رأيته من قبل.. شكًا فى نفسها وفىّ أيضًا.. كان أول اكتشاف من نوعه.. ولو تفهمته بقوة كافية لأدى بالتأكيد إلى التفرقة بيننا إلى الأبد.. وكان عقلى أكبر منها بكثير، ويسهل علىّ إقناعها بهذا الشىء أو ذاك.

قلت لها "حبيبة قلبى.. هونّى الأمر على نفسك ولا تتكدرى من كل تلك الأمور فلن تكون هناك حرب.. صدقينى لن تكون هناك أى حرب.. لقد انتهى وولى عصر الحروب.. وأرجوك ثقى فى عدالة

موقفى من تلك القضية.. وهؤلاء الناس ليس لهم أى حق علىّ.. وليس لأى شخص آخر حق علىّ من أى نوع.. لقد أتيحت لى الفرصة لاختيار حياتى.. ولقد اخترت حياتنا هذه.. أنا وأنت يا حبيبتى".

قالت "لكن هذه الحرب.."... فجلست بجوارها ووضعت ذراعى فوق ظهرها وأمسكت يدها فى يدى.. وعزمت على أن أطرد الشك الذى انتابها.. قررت أن أملأ ذهنها بأشياء جميلة من جديد.. وكذبت عليها، والحقيقة أننى كنت أكذب على نفسى أيضًا.. وكانت على أتم استعداد لتصدقنى، كما كانت مهيأة لأن تنسى.

بعد قليل كان شبح الشك قد انزاح من أمامنا مرة أخرى.. ولم نلبث أن انطلقنا إلى مسبحنا فى (جروتاديل بوف مارينو) حيث كان من عادتنا أن نسبح هناك كل يوم.. وسبحنا ورششنا الماء على بعضنا.. وفى هذا الماء الرائع بدا أننى مخلوق آخر أخف وأقوى من الإنسان!.. وأخيرًا خرجنا من المسبح والمياه تتقاطر من جسمينا.. وأخذنا نمرح ونتسابق بين الصخور.. ثم ارتديت ملابس استحمام جافة وجلست أستمتع بأشعة الشمس.. عندئذ أرحت رأسى على ركبتها.. ووضعت يدها على شعرى وملّست عليه برقة بينما غلبنى النعاس.. وفجأة كما لو أن وترًا من أوتار الكمان قرقع مطقطقا.. وجدت نفسى أستيقظ وأنا فى سريرى فى (ليفربول) حيث أعيش حياتى العادية اليوم.

"ولفترة من الوقت لم أستطع أن أُومِنَ بأن تلك اللحظات الرائعة الحيّة، لم تكن أكثر من مجرد حلم.. وفى الحقيقة لم أصدق أن كل

تلك الأحداث الجدية الهامة التى حدثت لى والتى تبدو لى كحقائق فعلية، مجرد حلم راودنى.. وأخذت حمامًا وارتديت ملابسى كما هى عادتى.. وبينما كنت أحلق ذقنى تساءلت لماذا كتب علىّ أنا من دون جميع الرجال أن أترك المرأة التى أحببتها، لكى أعود إلى ممارسة الأساليب والمناورات السياسية الحمقاء فى المنطقة الشمالية القاسية.. وحتى لو أجبر (إيفشام) العالم على العودة إلى الحروب مرة أخرى، فما أهمية ذلك بالنسبة إلىّ؟ مجرد رجل له قلب وأحاسيس ومشاعر ولا أرى أى داع لتحمل مسئولية زعيم فيما يتعلق بما يجب على العالم أن يفعله!!

"إن هذه ليست بالضبط الطريقة التى أفكر بها فى جميع الأمور أو فى شئونى الخاصة.. إننى محام ومن الطبيعى أن يكون لى وجهة نظر فى مختلف الأمور.. لكنى أريدك أن تفهم أن ما رأيته فى الحلم كان حقيقيًا تمامًا ومختلفًا بالمرة عن أى حلم آخر.. لدرجة أننى استمررت فى تذكر تفاصيل تافهة وغير مترابطة.. لدرجة أن الزخارف المرسومة على غلاف كتاب موضوع على ماكينة الخياطة التى تشغلها زوجتى فى حجرة الإفطار، ذكرتنى فى وضوح تام بالخط الذهبى الذى يحيط بالمقعد الموجود بالمكان المظلل بالحديقة، حيث تكلمت مع الرسول القادم من حزبى الذى هجرته. ترى هل سمعت قط بحلم له هذه المواصفات؟" ثم لم يقل شيئًا.

قلت "مواصفات مثل ماذا؟" فقال "ثم تذكرت بعد ذلك تفاصيل كنت قد نسيتها".. وفكرت قليلاً.. لم ألتفت قط من قبل إلى مثل هذا الأمر.. على أية حال فإن الرجل على حق.. وقلت "لا.. لم يحدث لى ذلك قط.. ولهذا يبدو أنك تحتاج إلى الأحلام".

أجابنى قائلاً "لا.. ولكن هذا هو ما فعلته بالضبط.. إننى محام فى (ليفربول).. ويجب عليك أن تفهم كذلك أننى مضطر لأن أسأل نفسى عما عسى يظن عملائى ورجال الأعمال والتجار الذين أتحدث إليهم عادة فى مكتبى، إذا قلت لهم إننى فجأة أحببت فتاة سوف تولد بعد مئتى سنة أو نحو ذلك من الآن.. وأننى قلق بشأن ألاعيب ومناورات أحفاد أحفاد أحفادى!..".

"وكنت مشغولاً جدًا فى ذلك اليوم بالتفاوض مع بعضهم بخصوص عقد إيجار المبنى لمدة تسع وتسعين عامًا.. كان الرجل مقاول مبان خاص وكان فى عجلة من أمره.. وأردنا أن نرتبط معه بكل طريقة ممكنة.. وأجريت لقاء معه، وقد أظهر افتقارًا إلى المرونة، حتى أننى دخلت مخدعى وأنا مازلت منفعلاً ومتضايقًا.. ولم أحلم قط فى تلك الليلة.. ولا التى بعدها.. أو على الأقل لم أحلم شيئًا أتذكره..

"ثم اختفى لدىّ الإحساس بحقيقة هذا الحلم، بمعنى أننى شعرت بالتأكيد من أنه كان حلمًا.. ثم عاد من جديد.. عندما عاد بعد أربعة أيام تقريبًا كان مختلفًا جدًا.. وأعتقد أن أربعة أيام انقضت أيضًا فى الحلم.. أشياء كثيرة حدثت فى الشمال.. وعاد طيفها من جديد بيننا، وفى تلك المرة لم يكن من السهل تبديده أو التخلص منه.. وبدأت أعرف ذلك بعد أن استغرقت فى تأملاتى المكتئبة.

"لكن لماذا بحق السماء! وبالرغم من كل شىء يجب علىّ أن أعود إلى التعب والمعاناة والإهانات والاستياء المستمر، طوال الجزء

المتبقى من حياتى.. لمجرد إنقاذ مئات الملايين من الناس العاديين، الذين لم أحبهم قط، بل كنت فى أغلب الأحوال أكرههم وأحتقرهم، من المعاناة والكرب بسبب الحرب والفوضى التى لا نهاية لها؟.. وبعد كل شىء فإننى قد أفشل.. لقد اهتموا جميعهم بشئونهم وأهدافهم الخاصة المحدودة.. فلماذا لا أهتم بشئونى وحياتى الخاصة، وأعيش مثل أى إنسان؟ وأخرجنى صوتها من كل تأملاتى هذه، ولم ألبث أن رفعت عينى تجاهها.

"وجدت نفسى متيقظًا وأتكلم.. وكنا قد خرجنا من مدينة المتع والترفيه.. وصعدنا إلى مكان بالقرب من قمة جبل (سولارو) أخذنا ننظر باتجاه الخليج.. وكان الوقت عصرًا والجو مشرقًا.. وبعيدًا إلى اليسار جزيرة (إيسيا) عالقة وسط ضباب ذهبى بين البحر والسماء.. وبدت (نابولى) خافتة والتلال من ورائها.. وأمامنا جبل بركان (فيزوف) الذى تتصاعد منه ألسنة طويلة رفيعة من النيران التى تنتشر فى اتجاه الجنوب.. وكذلك تتلألأ بالقرب منا آثار وأطلال ميناء (تور أنون تسياتا) وميناء (كاستيلا مار).

قاطعته فجأة قائلاً "لا شك أنكما كنتما فى (كابرى).. أليس كذلك؟".

قال "نعم، ولكن فقط فى هذا الحلم.. وعبر الخليج الممتد بعد (سورنتو) كانت هناك القصور العائمة بمدينة الترفيه وكانت مثبتة فى مكانها بالمرساة ومربوطة بالسلاسل.. وفى اتجاه الشمال، ترى المنصات العائمة العريضة التى تستقبل الطائرات عند هبوطها.. وأنت ترى الطائرات تهبط هناك من السماء عصر كل يوم، وكل

منها تقل آلافًا من الباحثين عن المتعة والترفيه والقادمين من كل أنحاء الأرض إلى (كابرى) ومسراتها.. وكما قلت كانت كل تلك الأشياء تمتد من أسفل.

"غير أننا لاحظنا بالصدفة مشهدًا غير عادى ظهر للجميع فى ذلك المساء.. حيث قامت خمس طائرات - وقفت لفترة طويلة من الزمن بلا عمل فى ترسانات (رينماوث) البعيدة - بعمل مناورات فى السماء باتجاه الشرق.. وقد أذهل (إيفشام) العالم بإنتاج تلك الطائرات وغيرها وإرسالها، لكى تحلق فى دوائر هنا وهناك.. لقد كانت تلك الطائرات هى موضوع التهديد الذى يلوّح به فى لعبة الخداع والمكر التى يلعبها والتى أخذتنى أنا نفسى على غِرّة..

"إنه أحد أولئك الناس الحمقى المفعمين بالنشاط والحيوية والذين يبدو أن السماء أرسلتهم لخلق المتاعب والمشاكل.. وهذه الطاقة الهائلة تبدو لأول وهلة مقدرة للرجال!.. لكنه كان بلا خيال أو إبداع أو ابتكار كان يمتلك فقط، قوة إرادة هائلة حمقاء، وإيمانًا أعمى بحظه الغبى التعس بما يدفعه للمضى قدمًا.. وأتذكر كيف وقفنا على لسان الأرض الممتد داخل البحر، نراقب سرب الطائرات الدوّار البعيد.. وكيف أننى وعيت المعنى الكامل لهذا المشهد وأدركت بوضوح كيف يجب أن تسير الأمور.

"حتى ذلك الوقت لم يكن قد فات الأوان.. كان يمكننى العودة وإنقاذ العالم.. وأنا أعرف جيدًا أن مواطنى الشمال سوف يتبعوننى شريطة أن أحترم قيمهم الدينية والأخلاقية.. وسوف يثق أهل الشرق والجنوب بى أكثر من أى رجل شمالى آخر.. وكنت أعرف أن

كل مـا علىّ هـو تـرك الخيـار لحبيبتى، وهـى سـوف تـتركنى أرحل.. ليس لأنها لا تحبنى!.

"كل ما فى الأمـر أننـى لم أود الذهـاب.. كانت إرادتى عكس ذلك تمـامًا.. لقـد تـخلـصت منـذ وقت قـريب جـدًا من عبء المسئـوليـة الجـاثم عـلى صـدرى.. وكـنت قـد نـكصت لـتوى عن أداء الـواجب، لدرجـة أن الوضـوح التـام لما كان يـجب علىّ أن أفـعله، لم يؤثـر قط على إرادتى.. كانت إرادتى هـى أن أعيش وأتـمتع بـالحب والسـعادة وأن أجـعل حـبيبـة قـلبى تـنعم بـالسـعادة. وعـلى الـرغم من أن هـذا الشعور بـالتخلى عن واجباتى الجسيمة لم يكن ليؤثر علىّ، إلا أنه جعلنى صـامتًا ومهمومًا ومشغول الفـكر.. وحرمنـى من نصف متع وجمـال أيامى، واضـطرنى إلـى الانسياق مع التـأمـلات الكئيبة وسط سكون وظلمة الليل.

"وعنـدما وقفت أرقب طـائرات (إيفشـام) وهـى تروح وتعدو كطيور تـنـذر بـالشـر الـذى لا نهـاية له، كـانت تقف بـجـوارى تـراقبـنى.. وهـى تشعـر بـالمشكلة الـتى أعـانى منهـا، لكن لا تـدرك أبعـادهـا بـوضـوح.. عينـاهـا تـستجوبـان وجهى وتعبيرات وجههـا يشوبهـا التـوتر والقلق.. وبدا وجهها رماديًا شـاحبًا، بسبب خفوت أشعة الشمس فى السماء. لم يكن خطؤهـا أنهـا تتمسك بى.. لقد طلبت منى أولاً أن أتـركها.. ثم مرة أخرى فـى المساء طلبت منى وعينـاهـا مغـرورقتان بـالدموع أن أتركها وأرحل.

"وأخيـرًا أخـرجنـى الإحسـاس بـهـا من استـغـراقى فـى تـأمـلاتى هـذه.. وتوجهت إليهـا فـجـأة، وتحديتهـا أن تسـابقنـى فـى العـدو على

منحدرات الجبال.. لكنها قالت "لا" كما لو أننى زعزعت وقارها.. لكننى كنت مصمما على إنهاء حالة الوقار هذه.. وتشجيعها على أن تركض معى.. إذ لا يمكن لأحد أن يكون مكتئبًا وحزينًا للغاية وفى نفس الوقت لاهثًا ومنقطع الأنفاس وعندما تعثرت مددت تحت ذراعها.

"أثناء عدونا مررنا برجلين، لم يلبثا أن استدارا محدقين بدهشة فى سلوكى هذا.. لابد أنهما تعرفا على شخصيتى وفى منتصف المسافة على المنحدر سمعت جلبة عالية فى الهواء.. كلانج كلانك.. كلانج كلانك.. وتوقفنا لنحدق فى هاتين الطائرتين اللتين تحلقان آنذاك فوق قمة التل.. نعم آلتا القتال كانتا تنطلقان واحدة إثر الأخرى.." وبدا الرجل مترددًا نوعًا ما وكان على وشك وصفهما سألته "ماذا كان شكلهما؟".. فقال "لم تحاربا قط من قبل.. كانتا تشبهان مدرعاتنا الحالية.. لكنهما لم تحاربا قط.. ولا يعرف أحد ما الذى يمكن أن تفعلاه مع وجود رجال متحمسين داخلها.. بل إن القليلين فقط هم الذين يمكنهم التفكير فى هذا الأمر.. كانتا آليتين ضخمتين تشبهان رأسى رمحين بدون قصبتين(٦).. ولكل منهما مروحة بدلاً من القصبة قلت هل كانتا مصنوعتين من الفولاذ؟" قال "لا ليس من الفولاذ".. فقلت "من الألومنيوم؟" فقال "لا.. لا شىء من هذا النوع.. وإنما سبيكة شائعة جدًا مثل النحاس مثلاً.. وكان اسمها.. دعنى أرى" وعصر جبهته بأصابع يده قال "نعم.. مدافع صغيرة تطلق، دانات ذات قدرة تفجيرية شديدة.. وكانوا يطلقون

---

(٦) العمود الممتد من رأس الرمح إلى نهايته (المترجم).

المدافع إلى الخلف.. ثم يدركون أعداءهم من مواقع متحركة.. هذه هى النظرية.. لكنهم لم يحاربوا قط.. لا أحد يمكنه أن يحدد بالضبط ما الذى سيحدث.

وأثناء ذلك أعتقد أنه شئ رائع أن تنطلق وتدور فى الهواء مثلما تطير العصافير الجميلة بسرعة ويسر.. وأظن أن القادة العسكريين لم يحاولوا أن يفكروا بوضوح ماذا يمكن أن تكون عليه المعارك الحقيقية.

إن آلات الحرب الطائرة هذه ليست سوى نوع واحد من معدات وماكينات الحرب التى لا تنتهى والتى تم اختراعها، ولكن طواها النسيان خلال فترة السلام الطويلة.. كانت هناك أنواع كثيرة ومتباينة من تلك الأسلحة التى أخذ الناس ينتجونها، ويجددونها.. منها الشيطانية اللعينة والتافهة التى لا قيمة لها أو التى لم يستخدمها أحد.. محركات ضخمة.. متفجرات رهيبة.. مدافع هائلة.. وسأخبرك بالأسلوب الأحمق الذى يتبعه هؤلاء العباقرة الذين يصنعون تلك الأشياء.. إنهم يصنعون تلك الأشياء مثلما تبنى حيوانات (القندس)(٧) السدود، ولكن بدون دراية بالأنهار التى سيحولونها والأراضى التى سوف يغمرونها بالمياه!.

"وبينما نحن نسير فى طريق ملتو، متجهين إلى فندقنا من جديد فى ضوء الشفق، تنبأت بكل شئ ورأيت كيف تسير الأمور الحتمية فى طريق الحرب التى سيشغل (إيفشام) فتيلها بيده الرهيبة

---

(٧) القندس (كلب الماء) حيوان ذو فراء كثيف له قدم ذات أغشية بين الأصابع وذيل كثيف (المترجم).

الحمقاء.. وتساءلت عما سوف تسفر عنه الحرب فى تلك الظروف.. وحتى فى ذلك الوقت بالرغم من أننى أعرف أن ذلك قد يدفعنى إلى العودة إلى الشمال، فإنه ليست لدىّ أى رغبة فى العودة".. ثم تنهد وأردف.. "هذه كانت آخر فرصة لى".

ولم نذهب إلى المدينة حتى امتلأت السماء بالنجوم.. وعندها خرجنا إلى الشرفة العالية وأخذنا نروح ونغدو جيئة وذهابًا.. نصحتنى بأن أعود، قالت لى وأنا أتطلع إلى وجهها الفاتن "يا حبيبى الغالى.. هنا الموت.. هذه الحياة التى تحياها هنا هى الموت بالنسبة إليك.. ارجع إليهم.. وقم بواجبك..".

"وبدأت تبكى وتقول ما بين شهقاتها وهى تمسك بذراعى بقوة "ارجع إليهم.. ارجع إليهم".. ثم فجأة صمتت صمتًا طويلاً.. وعندما نظرت إلى وجهها قرأت فى لحظة واحدة الشىء الذى قررت أن تفعله.. كانت تلك واحدة من اللحظات التى يرى فيها المرء الحقيقة.. صحت قائلاً "لا!".. فردت فى دهشة "لا؟".. وبدت خائفة من ردى على فكرتها.. قلت "أود أن تعرفى أنه لا يوجد شىء يدفعنى للعودة إلى هناك.. لا شىء بالمرة!.. وهذا هو اختيارى.. لقد اخترت الحب، ولا أبالى إذا ذهب العالم كله إلى الجحيم!.. ومهما حدث فسوف أعيش حياتى هذه.. سوف أعيشها من أجلك أنت!.. ولن يحوّلنى عن قرارى هذا شىء يا حبيبة قلبى.. وحتى لو مت.. حتى لو مت..".

غمغمت فى صوت رقيق "عندئذ سوف أموت أيضًا".

"وقبل أن تتمكن من الكلام من جديد، بدأت أتحدث بفصاحة، بأفضل ما يمكننى من كلام فى هذه الحياة، فى تمجيد الحب.

لكى أجعل الحياة التى نعيشها تبدو نبيلة ورائعة.. ولكى أوضح أن ما أتركه هو شىء وضيع وكريه وأن تركه أمر حميد.. وركزت كل تفكيرى لكى أضفى على هذا الأمر سمة السمو والبهاء.. ليس فقط لإقناعها هى وإنما أيضًا لإقناع نفسى به.

"تحدثنا وتعلقت هى بى وكيانها ممزق بين ما تعتقد أنه كريم ونبيل وما تراه جميلاً وعذبًا.. وأخيرًا صورت لها الأمر فى إطار بطولى.. الكارثة المروّعة التى تهدد العالم فى شكل خلفية رائعة تناسب حبنا العظيم الفريد حتى أصبحنا أخيرًا نتباهى ـ كروحين بائستين وحمقاوين ـ بذلك.. ونحن غارقين فى ذلك الوهم الجميل وسكارى بنشوة هذا الحلم الرائع الذى نعيشه.. بينما ترنو إلينا النجوم فى هدوء وسكون.. وهكذا مرت أوقاتى..

"كانت هذه آخر فرصة لى.. وحتى عندما كنا نذهب هنا وهناك، كان قادة الجنوب والشرق يجتمعون على رأى واحد.. وتبلور الرد العنيف الذى حطم خداع (إيفشام) إلى الأبد، بانتظار التنفيذ.. وخفق الهواء وأسلاك التلغراف فى كافة أرجاء آسيا والمحيط والجنوب بإنذاراتهم إلى قواتهم لكى تصبح على أهبة الاستعداد..

"وكما تعلم لا يوجد إنسان على قيد الحياة يعرف ما هى الحرب.. لا أحد يستطيع أن يتصورها.. إذ مع كل تلك الاختراعات والأسلحة المدمرة لا بد أن الحرب ستنتج الأهوال وتنشر الدمار الرهيب.. وأعتقد أن أكثر الناس مازالوا يظنون أن الأمر ليس أكثر من ارتداء زى عسكرى زاه وتنفيذ بعض المهام الحربية البسيطة، ثم تحقيق الانتصارات ورفع الرايات، وعزف للفرق الموسيقية العسكرية

فى عصر يحصل فيه نصف العالم على إمداداته التموينية من مناطق تبعد عنه بعشرات الآلاف من الكيلو مترات".

توقف الرجل ذو الوجه الشاحب.. وحدقت فيه بإمعان ووجدت وجهه مركزًا على أرضية عربة القطار.. ومرقت من نافذة العربة محطة سكة حديد صغيرة ورتل من الشاحنات المحملة وأعمدة إشارات التحذير وظهر بيت صغير ثم مر جسم عليه ضجيج هائل يردد صدى جلبة قطار مار ثم قال "وبعد ذلك عاودنى الحلم كثيرًا. وظل يراودنى فى كل ليلة تقريبًا طوال ثلاثة أسابيع.. بحيث أصبح الحلم كل حياتى.. وأسوأ ما فيه أننى لم أكن أراه فى بعض الليالى، حيث كنت أتقلب كثيرًا فى سريرى فى هذه الحياة اللعينة.

"وهناك فى مكان ما، لا أتذكره، وقعت الكثير من الأحداث الرهيبة الهامة.. وكنت أعيش ليلاً فقط، أما فى الصباح بعد الاستيقاظ من النوم فقد أصبحت تلك الحياة التى أعيشها، باهتة جوفاء وبعيدة عن الحلم.. مجرد أحداث مملة كئيبة.. أو لنقل مجرد غلاف لكتاب حياتى.

فكر الرجل برهة ثم واصل "أستطيع أن أخبرك بكل شىء حدث فى الحلم.. كل التفاصيل الصغيرة.. لكن بخصوص ما كنت أفعله صباحًا.. فى حياتى العادية.. فلا أستطيع أن أخبرك به.. إذ لا أكاد أتذكر شيئًا منه.. إن ذاكرتى تدهورت أو تلاشت.. إن روح الحياة تنسل من بين يدى".

انحنى الرجل إلى الأمام، وضغط بيديه على عينيه.. وقبع لفترة طويلة فى مكانه لا يقول شيئًا.. فقلت "وماذا بعد؟" فقال "اندلعت

الحرب مثل الإعصار" وحدق أمامه فى أشياء خفية لا أراها، فقلت مرة أخرى لأحثه على الاستطراد "وماذا بعد؟" فقال بصوت خفيض كمن يكلم نفسه "لمسة واحدة من الخيال.. ثم أصبحت كلها كوابيس.. فى الحقيقة لم تكن كوابيس.. نعم لم تكن كوابيس.. لا!".

صمت الرجل لفترة طويلة لدرجة أنه خطر لى أن بقية القصة قد تضيع منى لكنه عاود الكلام من جديد، بنفس الأسلوب السابق وهو مناجاة الذات: "ترى ماذا كان يمكن أن أفعل سوى الهرب؟.. لم أتصور أن الحرب سوف تمس (كابرى).. نعم كنت أظن أن (كابرى) خارج تلك الدائرة تمامًا.. ولكن بعد ليلتين كان كل المكان يصرخ ويطلق صيحات عالية وهادرة، وارتدت كل النساء والرجال الشعار ـ شعار (إيفشام) ـ ولم يعد أحد يسمع الموسيقى، وإنما أغانى الحرب الصاخبة مرارًا وتكرارًا.. وفى كل مكان رجال يتطوعون فى الخدمة العسكرية.. وحتى فى قاعات الرقص تجرى التدريبات العسكرية.

"كانت الجزيرة بأكملها تعج بالشائعات والاقاويل.. وقيل أكثر من مرة إن الحرب قد بدأت بالفعل.. لكننى لم أتوقع ذلك.. لقد رأيت القليل جدًا من المتع والمسرات، لدرجة أننى فشِلت فى التعاطف مع هذا العنف الذى يبديه الهواة.. وفيما يتعلق بى.. كنت خارج نطاق ذلك كله.. مثل رجل يحول دون حدوث حريق فى مخزن للذخيرة!. إلا أن الوقت كان قد فات.. لم أكن مثل أحد، لأن أقل متطوع فى الجيش كان أكثر أهمية منى..

"انطلقت الحشود هنا وهناك وهى تصيح صياحًا يصم الآذان. وتنشد أغنية لعينة مزعجة.. وصرخت امرأة فى وجه حبيبتى لأنها

لا تحمل شعارًا.. وعدنا نحن الاثنين إلى منزلنا مرة أخرى.. متكدرين وشاعرين بالإهانة.. وظلت حبيبتى صامتة وشاحبة، بينما كنت أحتدم غضبًا.. والحقيقة أننى كنت هائجًا وخائفًا، لدرجة أننى كنت سوف أتشاجر معها لو لاحظت أى أثر من الاتهام فى عينيها..

"كل مهابتى تبددت تقريبًا.. وسرت جيئة وذهابًا فى حجرتنا.. وكان بالخارج بحر مظلم مخيف، وضوء يتجه جنوبًا، يتوهج ثم يخبو ثم يأتى من جديد.. وهكذا. وقلت لها أكثر من مرة "يجب أن نغادر هذا المكان.. لقد اتخذت قرارى ولن أشارك فى تلك القلاقل.. لن أتدخل قط فى تلك الحرب.. لقد نجونا بحياتنا بعيدًا عن كل تلك الأحداث المجنونة.. وهذا المكان لا يصلح كمأوى لنا.. لنخرج الآن"..

"فى اليوم التالى بدأنا هروبنا بالفعل، بعيدًا عن الحرب التى انتشرت كالنار فى الهشيم فى كل أرجاء العالم.. وكل ما حدث بعد ذلك كان مواصلة الهرب.. لا شىء سوى الهرب". واستغرق الرجل فى تفكير عميق.. وسألته "كم استغرق ذلك؟" لكنه لم يجب.. فعدت أسأله "كم يومًا استغرق ذلك؟".. فشحب وجهه وتجهم وزم قبضتى يديه.. ولم يبد أى اهتمام لإرواء فضولى.. وحاولت إعادته إلى قصته مرة أخرى بأسئلتى فقلت "وأين ذهبتما؟".. قال "متى؟".. قلت "بعد أن غادرتما (كابرى)".. فقال "فى الاتجاه الجنوبى الغربى".. وحدّق فىّ للحظة وأردف "ذهبنا فى قارب".

قلت له "لقد اعتقدت أنكما استقللتما طائرة؟".. فقال "لقد تم الاستيلاء عليها". عندئذ توقفت عن سؤاله.. آنذاك ظننت أنه سيبدأ من جديد.. ثم اندفع فى الحديث بلهجة رتيبة مثيرة

للجدل: "لكن لماذا يحدث ذلك؟ فإذا كانت هذه المعارك أو المذابح وكل تلك المعاناة والضغوط هى الحياة، فلماذا نحب المتع والمسرات والجمال؟.. وإذا لم يكن ثمة مهرب وليست هناك أى فرصة للسلام.. وإذا كانت كل أحلامنا عن الحياة الوداعة المطمئنة مجرد حماقة وأوهام.. فلماذا نحلم إذن؟!".

"إنها بالتأكيد ليست رغبات وضيعة ولا نوايا دنيئة.. التى أوصلتنا إلى هذه الحالة، وإنما الحب هو الذى فارقنا. لقد أقبل إلىّ الحب من عينيها وهبط علىّ من جمالها بشكل أقوى من أى شىء آخر فى الحياة أو أشكالها أو ألوانها.. نعم استولى الحب علىّ وأخذنى إلى بعيد.. لقد أسكت كل الأصوات وأجاب عن كل الأسئلة..لقد وجدت حبيبتى أخيرًا.. ثم فجأة لم أشاهد حولى سوى الحب والموت والدمار!".

خطرت لى فكرة فقلت له "لكن قبل كل شىء، ألا يحتمل أن يكون كل ذلك حلمًا؟! فصرخ وهو يتميز من الغضب: "حلم! ياللعجب!.. حلم فى الوقت الذى... حتى الآن..".

لأول مرة أصبح الرجل مُفعمًا بالحيوية والنشاط.. وتورد خده بالحمرة.. ورفع يده المفتوحة ثم أطبق أصابعه وهوى بيده على ركبته.. وتحدث وهو ينظر بعيدًا عنى.. وظل ينظر بعيدًا عنى طوال الوقت بعد ذلك.. وقال "إننا لسنا سوى أشباح.. وأشباح الأشباح.. ورغبات مثل ظلال سحب ورغبات وهمية كالقش الذى يذروه الرياح.. والأيام تمر.. والاعتياد والاحتياج يسيراننا خلالها مثلما يحمل القطار ظلال أنواره.. نعم هذه هى الحياة! لكن هناك شىء

واحد حقيقى ومؤكد.. شىء واحد ليس حلمًا وإنما دائم ومستمر.. إنه مركز حياتى، وكل الأشياء الأخرى متعلقة به وتابعة له أو عقيمة لا قيمة لها.. إننى أحببتها.. أحببت امرأة الحلم.. وقد قتلنا معًا!".

"حلم!.. ياللعجب!.. وكيف يكون حلمًا وقد صبغ حياة نابضة بحزن لا يمكن محوه أو تخفيفه.. وقد جعل كل الحياة التى عشتها واهتممت بها عقيمة ولا قيمة لها؟.. وحتى تلك اللحظة التى قتلت فيها كنت أعتقد أن لدينا فرصة مواتية لكى نهرب ونعيش حياتنا.. وأخذنا نتحدث عن الهرب طوال الليل والنهار ونحن نبحر من (كابرى) إلى (ساليرنو).. وكان يحدونا أمل كبير بأن نعيش حياتنا حتى النهاية معًا بعيدًا عن كل تلك المنغصات والقتال والصراع والعواطف الجامحة الفارغة.. والتعبيرات الجوفاء مثل "يجب عليك أن تفعل كذا" و"يجب عليك ألا تفعل كذا" التى يتفوه بها الناس فى كل مكان..

"كنا نُحس بالشموخ كما لو أننا نبحث عن شىء مقدس.. كما لو أن حب كل منا للآخر إرسالية دينية!.. وحتى عندما رأينا من قاربنا الوجه الجميل لصخرة (كابرى) الضخمة - التى أصبحت متآكلة ومتقوضة بتأثير إقامة المدافع عليها واتخاذ مخابئ بها مما جعلها مَعْقلاً شهيرًا - فإننا لم نلمس أى أثر يدل على المذابح الوشيكة على الرغم من أن شدة الاستعدادات من حولنا.. كان ينتج عنها دخان وسحب من الأتربة من أكثر من مئة نقطة وسط جو رمادىّ لكننى تذكرت ذلك بالفعل وتحدثت عنها.

وكانت هناك الصخرة التى ما زالت رائعة بالرغم من الندبات والحفر التى وقعت لها.. ومزدانة بنوافذها والتى لا تُحصى وأقواسها وممراتها طبقة فوق طبقة.. حتى ارتفاع ألف قدم[٨] ونقوش هائلة من اللون الرمادى تتخللها مصاطب مكسومة بالكروم وبساتين الليمون والبرتقال.. ومجموعات كثيفة من أشجار الصبار والتين الشوكى وكثير من أزهار اللوز المتفتحة.

"وفى الخارج تحت القنطرة المشيدة فوق حوض (بيكولا) البحرى كانت قوارب أخرى قادمة.. وعندما اقتربنا من اللسان الأرضى الداخل فى البحر، بحيث أمكننا رؤية البر الرئيسى.. شاهدنا صفًا من القوارب الآتية من بعيد والتى تتقدم حثيثًا أمام الرياح باتجاه جنوب ـ غرب، وسرعان ما أقبل خلفها حشد كبير من القوارب.. أبعدها كان مجرد نقط لازوردية بعيدة فى البحر، فى ظل جروف الشاطئ الصخرية الممتدة شرقًا.

قلت: "إنه الحب والتعقل.. كل هؤلاء يفرون من جنون وخراب الحربِ".

قال: "على الرغم من أننا رأينا حينئذ سربًا من الطائرات، تنطلق عبر السماء الجنوبية، فإننا لم نعرها اهتمامًا.. كانت عبارة عن صف من النقط فى السماء، ثم ازداد العدد وتكاثفت النقط فى الأفق الجنوبى الشرقى.. وأخذ عددها يتزايد حتى امتلأ ذلك المربع من السماء بتلك النقط الزرقاء، عندئذ تجمعت الطائرات فى شكل مجموعات زرقاء صغيرة رفيعة..

---

(٨) القدم يساوى نحو ثلاثين سنتيمترًا (المترجم).

وأخذ عدد تلك المجموعات يتزايد حتى كادت تغطى على الشمس، وكانت تطلق ومضات ضوئية قصيرة.. أقبلت نحونا وهى تهبط ويكبر حجمها مثل سرب من طيور النورس الضخمة أو الغداديف[٩] أو نحو ذلك من الطيور الضخمة التى تتحرك فى أسراب منظمة للغاية.. وكلما اقتربت الطائرات أكثر منا كلما انتشرت عبر قطاع أكبر من السماء.

"الجناح الجنوبى انطلق فى شكل سحابة ذات مقدمة كالسهم، من أحد جانبى الشمس إلى الجانب الآخر.. وفجأة دارت باتجاه الشرق وواصلت طيرانها بشكل انسيابى إلى الشرق.. ولم يلبث حجمها أن أخذ يتناقص ويتناقص ومسافتها عنا تتزايد وتتزايد حتى اختفت تمامًا من السماء. بعد ذلك تحول انتباهنا إلى اتجاه الشمال حيث رأينا آلات (إيفشام) الطائرة تحلق عاليًا فوق (نابولى) مثل سرب ليلى هائل من البعوض.

"بدا كل ذلك كأنه لا يعنينا أكثر من أى سرب منطلق من الطيور البرية.. بل إن هدير المدافع بعيدًا عنا فى الجنوب الشرقى بدا كما لو كان لا يهمنا بالمرة.. وفى كل يوم بعد ذلك كنت أرى فى الحلم أننا فى أمان، وأننا ما زلنا نبحث عن ملاذ لنا حيث يمكننا أن نعيش ونذوق حلاوة الحب.. غير أن الإجهاد حل بنا ونال منا الألم وكثير من المشقات الأخرى.. ورغم أننا كنا متربين ومتسخين من جراء تجولنا المضنى على أقدامنا.. كما كنا نتضور جوعًا ونعانى من الذعر من رؤية الناس الموتى وفرار الفلاحين

(٩) طيور تشبه الغربان (المترجم).

من كل مكان للنجاة بأرواحهم.. ذلك أن القتال لم يلبث أن اندلع مكتسحًا شبه الجزيرة كلها.. وبالرغم من كل تلك الأشياء التى تلازم عقولنا فى مثل تلك الظروف.. فإن النتيجة النهائية كانت زيادة تصميمنا على الفرار والنجاة من كل تلك المهالك المحدقة بنا.

"يا إلهى!.. كم كانت تلك المرأة شجاعة وصبورًا!.. هى التى لم تواجه طوال حياتها متاعب أو تتعرض لأهوال كهذه، كانت تحافظ على نفسها وعلىّ.. وأخذنا نذهب هنا وهناك بحثًا عن مخرج.. فى أرجاء دولة محكومة عسكريًا وخاضعة لسيطرة الحشود العسكرية المحاربة.. وكنا نتحرك طوال الوقت على أقدامنا.. وفى البداية كان هناك هاربون آخرون مثلنا، لكننا لم ننضم إليهم قط.. البعض هرب إلى الشمال.. والبعض انحشر وسط شلال الفلاحين المنطلق هادرًا بامتداد الطرق الرئيسية.. وبعضهم استسلم للقوات العسكرية وتم إرسالهم إلى الشمال.

"أكثر الناس تأثروا بتلك الأحداث، لكننا حرصنا على الابتعاد عنها.. ولم يكن بحوزتنا أى مال لكى نرشو بعضهم لإيجاد مخرج لنا إلى الشمال.. وخشيت على حبيبتى من أن تقع فى أيدى أولئك الجبناء المجندين.. لقد هبطنا فى (ساليرنو).. وعدنا من (كافا) بعد أن وصلنا إليها.. وحاولنا العبور باتجاه (تارانتو) من معبر فوق جبال (البيرنو).. إلا أننا اضطررنا إلى الرجوع لاحتياجنا إلى الطعام.. وهكذا وجدنا نفسينا ننطلق بين مستنقعات (بيستم). حيث توجد تلك المعابد العظيمة..

"كانت لدىّ فكرة غامضة فى أنه عن طريق (بيستم) لعله يمكن العثور على قارب أو أى شىء يمكننا من السفر بحرًا مرة أخرى. وهناك أدركتنا المعركة، وعلى الفور سيطر علىّ نوع من تبلد الإحساس.. وباختصار وجدنا نفسينا محاصرين.. وأن الشبكة الأخطبوطية لآلة الحرب العملاقة أوقعتنا فى حبائلها.. وفى مرات كثيرة رأينا المجندين الذين أقبلوا من الشمال ينطلقون هنا وهناك.. ثم لم يلبثوا أن لمحونا فى المسافة بين الجبال حيث كانوا يخزنون ما يحتاجونه من ذخيرة ويقومون بالتجهيزات اللازمة لتركيب المدافع.. وتخيلنا أنهم سوف يطلقون النيران علينا ظنًا منهم أننا جاسوسين.. على أية حال فقد دمدمت إحدى الطلقات وهى تهدر فوق رأسينا.. واضطررنا للاختباء بين الأشجار الكثيفة أكثر من مرة هربًا من الطائرات اللعينة التى تحلق فوقنا..

"لكن كل تلك الأشياء لا قيمة لها آنذاك وبعد كل تلك الليالى من الهرب والألم والمعاناة.. ووجدنا نفسينا فى مكان مكشوف بالقرب من معابد (بيستم) العظيمة أخيرًا.. فوق منطقة صخرية جرداء مرقطة بشجيرات شائكة.. خالية ومقفرة تمامًا. ومسطحة للغاية لدرجة أن بستانا من (الأوكالتوس)[١٠] بعيدًا جدًا ظهر واضحًا لنا حتى أسفل سيقان أشجاره.. وجلست حبيبتى تحت إحدى الشجيرات لكى تستريح قليلاً، فقد كانت ضعيفة جدًا ومتعبة للغاية.. بينما وقفت أنا مراقبًا الموقف، ومحاولاً تحديد المسافة التى أطلقت منها الطلقة التى مرقت من فوقنا.

---

(١٠) شجر ذو أوراق عطرية يستخرج منه زيت يستخدم لأغراض طبية وتستخدم أخشابه فى الصناعة (المترجم).

"كان أولئك الناس يتقاتلون متباعدين.. بتلك الأسلحة الجديدة الرهيبة التى لم يستخدمها أحد من قبل.. المدافع التى تطلق داناتها إلى أهداف أبعد مما يمكن رؤيته بالعين المجردة، والطائرات التى يمكنها أن.. الحقيقة لا يعلم إلا الله ما يمكن أن تسببه من دمار وخراب.

"أدركت وقتئذ أننا موجودين بين الجيشين، وأنهما يقتربان.. وعرفت أننا فى خطر داهم.. وأننا لا نستطيع أن نتوقف أو نرتاح هنا!.. ورغم أن كل تلك الأشياء التى كانت فى ذهنى، فقد كانت فى خلفية الأحداث.. وبدت كأنها خارج دائرة الاهتمام.. وأساسًا كان تفكيرى متركزًا على حبيبة قلبى.. وملأ قلبى إحساس بالغم أو الكرب الشديد.. ولأول مرة أراها منهارة ومحبطة.. ثم استسلمت للبكاء.

"كنت أسمعها تشهق من البكاء من وراء ظهرى، لكننى لم ألتفت قط إليها لأننى أدركت أنها بحاجة للبكاء.. وأنها أمسكت نفسها طوال ما مضى من وقت من أجلى فقط.. وأحسست أنه لا بأس من أن تبكى ثم ترتاح لبعض الوقت لكى يمكننا مواصلة الجهد والمعاناة من جديد.. إذ لم يكن لدىّ أدنى فكرة عن الأشياء التى أوشكت أن تُحدق بنا.. وحتى الآن لا يمكننى رؤيتها.. وهى جالسة هناك وشعرها الجميل مستقر على كتفها.. وأستطيع أن أحدد مرة أخرى التجويف العميق فى خدها.

قالت: "لو كنا افترقنا.. لو كنت تركتك تذهب".. فقلت أنا: "لا.. إننى لست نادمًا على الإطلاق.. ولن أندم أبدًا.. لقد اتخذت قرارى

وسوف أتمسك به إلى النهاية".. وبعد ذلك.. ومض عاليًا فى السماء شىء ما وانفجر.. ثم انهمر الرصاص من حولنا بضوضاء رهيبة كتلك التى تصاحب رمى حفنة من الفول فجأة.. وشققت الأحجار من حولنا.. وانطلقت الشظايا السريعة من الطوب ومرقت منها..".

وضع الرجل يده على فمه وبلل شفتيه وواصل: "عندما سطع ذلك الوميض التفت ورائى أما هى فقد وقفت وتحركت خطوة تجاهى. كما لو أنها أرادت أن تصل إلىّ.. وفى تلك اللحظة أصابتها طلقة فى قلبها".

توقف الرجل وحدق فىّ مليًا، وشعرت بقلة الحيلة والضعف الأحمق اللذين يحس بهما الرجل الإنجليزى فى مثل تلك الظروف".. وقابلت عيناى عينيه للحظة، ثم نظرت إلى خارج نافذة القطار.. وساد الصمت بيننا لفترة طويلة وعندما نظرت إليه أخيرًا كان مستندًا إلى ظهر مقعده بالركن، وذراعاه مطويتان، وأسنانه تقرض فى أظافره.. وفجأة عض ظفره ونظر إلىّ وقال:

"لقد حملتها بين ذراعىّ وسرت باتجاه المعابد...، ولا أعرف لماذا.. ربما لأن المعابد أماكن مقدسة وهى موجودة منذ زمن موغل فى القدم على ما أعتقد.. لابد أنها ماتت فى الحال.. إلا أننى ظللت أتحدث إليها.. طوال الطرق".. ثم صمت من جديد..

قلت فجأة: "لقد شاهدت تلك المعابد".. والحقيقة أنه أعاد إلى ذاكرتى بوضوح صورة تلك المبانى الحجرية المقنطرة[١١] المتآكلة المضاءة بنور الشمس كما لو كنت أراها الآن.

(١١) أى التى لها سطوح على شكل أقواس (المترجم).

"اتجهت إلى ذلك المعبد البنى.. المعبد البنى الكبير.وجلست على عمود ساقط ممسكًا إياها بين ذراعى.. صامتًا بعد الهذيان الذى تفوهت به.. وبعد فترة قصيرة خرجت السحالى من مكامنها وأخذت تتجول حولنا.. كما لو أن كل الأمور عادية.كما لو أن شيئًا ما لم يتغير.. كان السكون قاتلاً هناك والشمس عالية فى كبد السماء وظلال كل شىء ساكنة.. حتى ظلال النباتات والأعشاب فوق السطح المرفوع على الأعمدة كانت ساكنة، بالرغم من كل الأصوات المكتومة والدوىّ المنتشرين فى أرجاء السماء..

" أتذكر أن الطائرات انطلقت من الجنوب، وأن المعركة اتجهت إلى الغرب.. وانفجرت إحدى الطائرات وانقلبت وسقطت.. أتذكر ذلك جيدًا.. رغم أن ذلك لم يكن يعنى شيئًا لى بالمرة..لم يكن له أى قيمة أو معنى..كانت أشبه بطائر نورس جريح يخفق بجناحيه فى الماء لبعض الوقت.. كنت أراها من الممر الممتد فى المعبد.. مجرد شىء أسود فى المياه الزرقاء اللامعة.

انهمرت الدانات ثلاث أو أربع مرات، وهى تنفجر على الشاطئ.. ثم توقف القصف.. وفى كل مرة حدث فيها ذلك جرت السحالى واختبأت فى جحورها لبعض الوقت.. وكان ذلك هو كل ما حدث من شر، فيما عدا أن طلقة شاردة اصطدمت مرة واحدة بحجر وشقته وأحدثت سطحًا لامعًا جديدًا!.. وعندما ازداد طول الظلال بدا أن السكون اشتدت وطأته.

ثم أبدى ملاحظة بأسلوب الرجل الذى يتكلم فى موضوع تافه: "الشىء العجيب أننى لم أفكر.. لم أفكر قط.. وإنما جلست وهى

بين ذراعىّ وسط الأحجار والقفار.. كما لو كنت فى حالة من البلادة أو النعاس.. كما أننى لا أتذكر أننى استيقظت.. ولا أتذكر أننى ارتديت ملابسى فى ذلك اليوم.. أعرف أننى وجدت نفسى فى مكتبى وخطاباتى مفتوحة كلها أمامى.. وكيف صدمت من سخافة وجودى هناك.. بعد أن رأيت فى الحقيقة أننى كنت جالسًا مصعوقًا فى معبد (بيستم) وبين ذراعىّ امرأة ميتة.. وقرأت خطاباتى سريعًا كالآلة.. ووجدت أننى نسيت كل ما كانت تتحدث عنه" .

توقف الرجل وسادت بيننا فترة طويلة من الصمت.. وفجأة أدركت أن قطارنا ينطلق على المنحدر من مزرعة (تشوك فارم) إلى (إيستون).. وحاولت أن أستفيد من هذا الوقت.. فالتفت إليه وبادرته بسؤال فظ بلهجة "الآن أو لا شىء إلى الأبد".. قلت "هل رأيت هذا الحلم مرة أخرى؟".. فقال: "نعم".. وبدا كمن يحاول إنهاء الحديث، إذ كان صوته خفيضًا للغاية.. ثم أردف: "مرة أخرى، ولكن لمدة لحظات قليلة.. بدا أننى استيقظت فجأة من وهم كبير.. ثم ارتفع جسمى إلى وضع الجلوس.. وقبع الجسم هناك بجوارى على الأحجار.. جسم شاحب نحيل.. لكنه ليس جسمها نعم أنا متأكد أنه ليس جسمها..

"ربما أكون قد سمعت أصواتًا.. لا أعرف بالضبط.. فقط عرفت بوضوح أن الناس يأتون إلى ذلك المكان للخلوة وأن ما حدث كان آخر انتهاك لقدسية المكان.. وقفت وسرت خلال المعبد.. ثم أبصرت أولاً رجلاً أصفر الوجه يرتدى ملابس عمل بيضاء قذرة بحواش زرقاء.. ثم رجالاً كثيرين.. يتسلقون إلى قمة الجدار القديم

للقرية التى اختفت من الوجود، ويربضون هناك.. كانوا مجموعة من الأشخاص اللامعين قصار القامة تحت أشعة الشمس القوية.. وظلوا قابعين هناك وأسلحتهم فى أيديهم ويحدقون بحذر أمامهم.

"ومن على بُعد رأيت آخرين ثم غيرهم عند نقطة أخرى فى الجدار.. كان صفًا طويلاً متقطعًا من الجنود، وسرعان ما وجدت الرجل الذى رأيته أولاً يقف ويصيح مصدرًا أمرًا، وعلى الفور قفز رجاله من على الجدار فى الأعشاب العالية المواجهة للمعبد.. ثم هبط هو الآخر معهم وتولى قيادتهم.. وأقبل مواجهًا لى.. وعندما رآنى توقف..

"فى البداية لاحظت أولئك الرجال لمجرد الفضول.. لكن عندما أيقنت أنهم يريدون الدخول فى المعبد، تحركت لكى أمنعهم.. وصحت فى الضابط قائلاً "يجب ألا تجيئوا إلى هذا المكان.. إننى موجود هنا.. موجود مع شخص ميت".. وحدّق فىّ الرجال وألقى علىّ سؤالاً بلغة غريبة لا أفهمها وبلهجة أقرب إلى الصراخ.. وكررت ما قلته له.. فصرخ من جديد وطويت ذراعىّ ووقفت لا أحرك ساكنًا. وأخيرًا تحدث إلى رجاله، ثم تقدم إلىّ وفى يده سيف مسلول..

"أشرت إليه بأن يبقى بعيدًا عنى، لكنه استمر فى التقدم ناحيتى.. فقلت له مرة أخرى بصبر ووضوح: "يجب ألا تأتوا إلى هنا.. هذه معابد قديمة وأنا هنا الآن مع هذا الشخص الميت". عندئذ اقترب الرجل كثيرًا جدًا منى.. ورأيت وجهه بوضوح.. كان وجهه نحيلاً وعيناه رماديتين كئيبتين.. وذا شارب أسود.. وثمة ندبة

على شفته العليا.. كما كان قذرًا وغير حليق الذقن.. وظل يصرخ فى وجهى بأسئلة لا أفهم كلمة واحدة منها..

"أنا أعرف الآن أنه كان خائفًا منى، لكن فى ذلك الوقت لم تخطر تلك الفكرة على بالى.. وعندما حاولت أن أشرح له، قاطعنى بلهجة متعجرفة.. وأظن أنه كان يأمرنى بالتنحى جانبًا.. وتحرك الرجل ومر بجانبى وعندها أمسكت بتلابيبه.. ورأيت ملامح وجهه تتغير من جراء مسكى له.. فقلت له: "أيها الأحمق.. ألا تعرف؟.. ألا تفهم أنها ميتة؟" جفل الرجل ورجع إلى الوراء.. ونظر إلىّ بعينين ماكرتين.. وأدركت نوعًا من الابتهاج يثب منهما ثم فجأة قطب ما بين حاجبيه، وسحب سيفه إلى الخلف.. ثم اندفع إلى الأمام.

"توقف الرجل فجأة.. وفى تلك اللحظة أحسست بالتغير فى إيقاع حركة القطار.. إذ ارتفعت أصوات المكابح، وأخذت العربة ترتج وتهتز.. هذا العالم الحالى الوادع أصبح صخابًا.. ورأيت من خلال النافذة المشبعة بالبخار أنوارًا كهربائية ضخمة متألقة إلى أسفل من ساريات طويلة فوق الضباب.. ورأيت صفوفًا من عربات فارغة ساكنة ثم أعمدة إشارات تحذير ترفع مجموعة من الأنوار الخضراء إلى شفق (لندن) الضبابى المندفع خلفها.. ونظرت مرة أخرى إلى ملامح الرجل التى تنم عن الفزع..

"اخترق ذلك السيف قلبى! لكن المدهش حقًا أننى لم أشعر بخوف أو ألم.. فقط شعرت بالدهشة.. إذ عندما نفذ النصل خلال جسمى، شعرت أنه دخل فى مكانه الطبيعى!.. نعم لم أشعر بأى ألم.. من أى نوع".. وفى تلك اللحظة أبصرت أضواء رصيف السكة

الحديد الصفراء وهى تمر أولاً بسرعة، ثم ببطء، وأخيرًا تتوقف مع هزة قوية.. وأخذت أشكال غامضة من الناس تتحرك جيئة وذهابًا..

"صاح صوت بالخارج بصخب (إيستون)!.. (إيستون)!..وانفتح باب العربة ودخل طوفان من الناس ومن الأصوات.. ووقف حمّال أمامنا يحدق فينا.. وسمعنا أصوات الأبواب وهى تقفل وجلجلة حوافر الجياد التى تقود عربات الأجرة.. كما تناهى إلى سمعى خلف كل ذلك الدوى البعيد الرتيب لحصى الشوارع.. وعلى طول الرصيف ومضت مجموعة من مصابيح الإضاءة بنور مبهر..وانتشر الظلام.. طوفان من الظلام يعم وينتشر ويغطى كل الأشياء بعباءته.. قال الحمّال "هل لديك أى حقائب أو أغراض يا سيدى؟".. فقلت: "وهل هذه هى النهاية إذن؟".. فبدأ الرجل مترددًا.. ثم بادرنى بالإجابة بصوت غير مسموع "لا"..

"قلت: هل تقصد؟".. فقال: "لم أستطع الوصول إلى جثة حبيبتى..كانت هناك فى الناحية الأخرى من المعبد.. وبعد ذلك...".

فقلت بإلحاح: "نعم.. وماذا بعد ذلك؟".. فقال وهو يصرخ: "كوابيس.. كوابيس حقيقية!.. يا إله السماوات! طيور ضخمة تتقاتل وتمزق بعضها إربًا".

المؤلف فى سطور :

هـ. ج ويلز (١٨٦٦ ـ ١٩٤٩)

- ولد (ويلز) فى (بروملى) بمقاطعة (كنت) بإنجلترا.
- عمل بالتدريس والصحافة.
- يعد من الرواد الحقيقيين لأدب الخيال العلمى، كما أنه كاتب ذو مواهب متعددة، تكاد تتنافس بعضها مع بعض، فهو مؤلف لقصص الخيال العلمى، وروائى اجتماعى، وإنسان مجادل قوى الحجة، وشخص يجيد التنبؤ بالمستقبل والتحذير من العوائق المحتملة، كما أنه مؤرخ للبشرية.
- من أشهر رواياته (آلة الزمن) عام ١٨٩٥، و(جزيرة د. مورو) عام ١٨٩٦ و(الرجل الخفى) عام ١٨٩٧ و(حرب العوالم) عام ١٨٩٨ و(أول بشر على القمر) عام ١٩٠١. وكان تأثير الكاتب فوريا، إذ سرعان ما حصل على التهنئة والثناء بوصفه مفكرًا عبقريًا وتعكس معظم هذه الروايات آراء (ويلز) فى الثورة العلمية والتصدى للنفاق الاجتماعى والبحث عن العدالة الاجتماعية.

- تحولت أفكار (ويلز) إلى الجوانب الاجتماعية والسياسية فى الحياة، واتضح ذلك فى سلسلة كتبه الطويلة، التى بدأت بكتاب (توقعات) عام ١٩٠١ و(اكتشاف المستقبل) عام ١٩٣٢ و(مدينة فاضلة حديثة)، ونجده فى هذه الكتب - إلى جانب تصويره المبدع للمستقبل - يضمنها بعض النبوءات الاجتماعية ووجهة نظره الشاملة المريدة للمجتمع الإنجليزى فى ذلك الوقت.
- وبعد عام ١٩٠١، كانت وسيلة (ويلز) الرئيسية هى رواية الأفكار، وهى خلاصة من رواية شبه سيرة ذاتية والظروف المتغيرة للعلاقات بين الرجل والمرأة وتعد (مكيافللى الجديد) أول رواية له والأفضل فى هذا المجال، تليها فى الشهرة (السيد بريتلنج ثاقب البصر) التى نشرت فى ذروة الحرب العالمية الأولى، وابتكر (ويلز) شعار «الحرب التى سوف تنهى الحرب». وأصبح مهتمًا للغاية بصنع السلام، وإنشاء سلطة عالمية لتجنب الصراعات المستقبلية بين الدول. وعندئذ عاد ببساطة إلى دور المعلم والمربى، وكتب سلسلة من الكتب التعليمية الموسوعية، حيث بدأها بكتاب (ملخص تاريخ العالم) الذى يعد من أشهر كتبه. وبصدور هذا الكتاب وصل (ويلز) إلى قمة شهرته ومجده.

المترجم فى سطور :

رؤوف وصفى صبحى

- ولد فى القاهرة.
- عمل بالتدريس بجامعات مصر والعراق والكويت.
- نال جائزة تبسيط العلوم ـ أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا. وجائزة الثقافة العلمية ـ أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا.
- عضو اتحاد الكتاب.
- عضو لجنة الثقافة العلمية ـ المجلس الأعلى للثقافة.
- ترجم العديد من الكتب العلمية، وفى مجال الخيال العلمى منها: «الروبوت» و«الحاسب الآلى» و«كوكب الأرض» و«مذنب هالى» (مؤسسة الكويت للتقدم العلمى) ومسرحيات من الخيال العلمى (وزارة الإعلام ـ الكويت). وقام بترجمة «ثلاث رؤى للمستقبل»، و«حرب العوالم» و«الرجل الخفى» للمركز القومى للترجمة، كذلك ترجمة مقالات علمية بمجلة الثقافة العالمية.

- شارك فى العديد من الندوات منها «ندوة الخيال العلمى» وقام بإعداد البرنامج التليفزيونى «سؤال وجواب» وتقديمه بتليفزيون الكويت و«الخيال العلمى» (إذاعة الكويت).
- نشرت مقالات وقصصه فى عدد كبير من الصحف والمجلات العربية، منها جريدة الأهرام وجريدة الأخبار ومجلة العلم (مصر)، ومجلة العربى الكويتية ومجلة «التقدم العلمى» مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ومجلة «دبى الثقافية» الإمارات،
- أحد رواد أدب الخيال العلمى والثقافة العلمية بالوطن العربى،
- المنسق العام لرابطة كتاب الخيال العلمى العرب.
- حاصل على شهادة تقدير من نقابة العلميين.

التصحيح اللغوى : **أحمد حمودة**

الإشراف الفنى : **حسن كامل**

إن الرؤى والمفاجآت التى تكشف عنها قصص (ويلز) القصيرة، تترك للقارئ مدى واسعا فى تفسيرها؛ إذ يستطيع أن يفسرها بشكل أسطورى أو نفسى أو اجتماعى أو غير ذلك، ولكننا نلاحظ أن (ويلز)، فى أواخر مسيرته الأدبية، يترك لنا لهذا التفسير مساحة أقل، والحقيقة أن ويلز رغم كل ذلك، يستخدم - بوضوح - رموزا وإشارات تختلف تماماً عن تلك التى شاعت فى الأدب الغربى طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث يخلق معانى غير عقلانية بالمرة للعالم الآلى الذى تفرضه النظريات العلمية، وبينما يبدو لنا فى البداية أن (ويلز) يعرض تضاربا بين الواقع والرمز، فإن الخيالات والتصورات الغربية، التى يفاجئنا بها ليس المقصود أن تكون بديلاً للواقع، وإنما امتداد خيالى له، ولعله يُفهم ضمنياً من ذلك، أنه فى آخر الأمر سوف يتمكن العلم من استيعاب الأشياء الخيالية الحالية، داخل نسيج عالمه المبنى من الحقائق.

وقصص (ويلز) قوية فى كشفها عن العجائب والغرائب، ولا تطرح علينا سوى إحساس رمزى وغامض بالأمور الغيبية أو التى فوق طاقة البشر.

التصميم الأساسى للغلاف: عبد الحكيم صالح
تصميم الغلاف: إيناس الهندى